الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا



صور من حياة الصحابة

٩ - ١٤

المجلد الثاني

مكتبة الرمحي أحمد

صور جديدة

تنشر للمرة الأولى

اعتنى به
يمان بن عبد الرحمن الباشا

الكتاب ٥٠

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

صور من حياة الصحابة



فهرس ألفبائي للمجلد الثاني

(أ)

أَبُو بَصِيرٍ عُتْبَةُ بْنُ أَسِيدٍ ٢١٥

أَبُو دُجَانَةَ = سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ

أَبُو عُبَيْدِ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ١٥٥

أَبُو عَقِيلٍ الْأَنِيقِيُّ ٧١

أَبُو لُبَابَةَ ١٣

أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ ٣٩

أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ النَّجَّارِيُّ ٢٨٧

(ت)

تَمِيمٌ الدَّارِيُّ ٣٣٣

(ج)

جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ ٣١

جُلَيْبِيبٌ ٩١

(ح)

حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ٥٩

(خ)

خَالِدٌ اللَّيْثِيُّ = يَوْمُ الرَّجِيعِ

خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ١٨٧
خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ = يَوْمُ الرَّجِيعِ

(ر)

رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِيُّ ٢٩٧
رِفَاعَةُ بنُ المُنْذِرِ = أَبُو لُبَابَةَ

(ز)

الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ١٦٥
زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَّةِ = يَوْمُ الرَّجِيعِ
زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ ٢٢٥

(س)

سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ٩٩
سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ٨٣
سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ ٢٠٧
سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ ١٧٧

(ش)

شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ الأَنْصَارِيُّ ١٠٩

(ط)

طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ ٢٤٧

(ع)

عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ٢٥٩

الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ٢٧٧
عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْأَنْصَارِيُّ = أَبُو عَقِيلٍ الْأَنِيفِيُّ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ٢١
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ١١٧
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ = يَوْمُ الرَّجِيعِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ ٣٩٩
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ٢٣٥
عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ ٣٠٩
الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ ٣٤١، ٣٥١، ٣٦١
عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ ٤٢١

(ق)

الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو ١٢٩، ١٤١، ١٤٧

(ك)

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ٣٢١

(م)

الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ ١٩٩
مَرْثَدٌ الْغَنَوِيُّ = يَوْمُ الرَّجِيعِ
مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ٣٨٩
مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ ٣٧٩
مُعَوِّذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ = مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ

الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ٣٦٩
الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدُ = الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو
الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو ٤٠٩
مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيُّ ٥١

(ي)

يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ٢٦٩
يَوْمُ الرَّجِيعِ وَاسْتِشْهَادِ السِّتَّةِ الأَبْرَارِ ٤٢٩

تصدير

تاريخنا الإسلامي ـ كما يشهد المؤرخون ـ من أحفل تواريخ الأمم بالبطولات ، وأغناها بالأبطال ..

وهي بطولات ؛ علىٰ تميزها وروعتها ، تمثل حقائق واقعة موثقة بالأسانيد ؛ تزخر بفيض كبير من أفذاذ الرجال في ميادين الحكم والعلم ، والحرب والسلم ، والجرأة والحزم ، والبذل والإيثار ، والزهادة والعبادة .

وهٰذا الكتاب يعرض صورًا مشرقةً لنماذج فريدة من رجالٍ هم من تراب البشر ؛ لكنهم جُبلوا بماء الإسلام وصبوا في قوالب الإيمان ؛ فزانوا مفرق الدنيا وكانوا خير أمّة أخرجت للناس .

وها نحن الآن في رحاب المجلد الثاني من كتاب صور من حياة الصحابة الذي ضم بين دفتيه مجموعة جديدة لم يسبق نشرها ورقيًا من قبل ...

ولكي يسهل علىٰ القارئ الرجوع إلىٰ ما احتواه المجلدان ؛ وضعت فهرسين عامين أحدهما ألف بائي والآخر حسب وروده ، وألحقت بعد هذا التصدير بعضًا مما قيل في « صور من حياة الصحابة » ؛ كما أنني وضعت في آخر الكتاب نموذج عن مسودة أولية بخط المؤلف رحمه الله .

وقد كان أصل هٰذا الكتاب بمجلديه ؛ قبل أولىٰ طبعاته عام ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ؛ برنامجًا إذاعيًا بُثت أولىٰ حلقاته عبر إذاعة المملكة العربية السعودية في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م تحت اسم

« صور من حياة الصحابة » وكانت بتقديم المؤلف رحمه اللّٰه .

والمقصود من الصور هنا ؛ هو مواقفٌ من حياة أولئك الرجال ... فالمؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ في حديثه عن الصحابي لا يتتبع تفاصيل حياته ، وإنما يلتقط لمحات منها ؛ تُنبيك عما عداها .

ومن خلال جمعه لتلك اللمحات المليئة بالفوائد والحكم والعظات ؛ يقدم صورًا لا تدل علىٰ فذاذة تلك الشخصية فحسب ... وإنما تدل علىٰ مجتمع يُعد بالآلاف خرجته المدرسة المحمدية وصنعته علىٰ عينها ؛ ليكونوا مشاعل نور وهداية لنا ولأبنائنا ..

وإذا كان لا بد لنا من القدوة ؛ فهل هناك أعظم وأكرم من التأسي بصحابة رسول اللّٰه ﷺ والذين اتبعوهم واقتدوا بهم قولًا وفعلًا وعدلًا وإحسانًا .

يمان بن عبد الرحمن الباشا

قالوا في الكتاب

لم يسلك الدكتور الباشا في إعداد صور من حياة الصحابة والتابعين مَسْلَكَ المترجمين الذين يكتبون بأن فلانًا عاش ومات وفعل كذا ، بل إن الصور المشرقة لسلف هلذه الأمة امتلكت عليه حَواسَّه ، فراح يُعبِّر عن مُدَاخَلتها له وتأثيرها في نفسه ، فجاء إعداده يحمل نَفَسًا أدبيًا ، ونسقًا بيانيًا ، وبوحًا عن أثر أولئك العظام في نفسه .

د . عائض الردادي

* * *

لعل سلسلة « صور من حياة الصحابة » ... و« حياة التابعين » ، فضلًا عن مؤلفاته الأخرىٰ تكفي للتدليل علىٰ التطبيق التربوي الهادف الذي أراد الباشا أن ينفذ من خلاله إلىٰ نفوس ناشئة الجيل وكل جيل ؛ ليبين لهم في أسلوب مشرق وعرض فني رائع ، وأداء متميز ، عظمة هؤلاء الشوامخ ، وليبين لهم كذلك عظمة المدرسة النبوية الأولىٰ التي كونت هؤلاء العظماء وقدمتهم كنماذج حية وفاعلة تشير إلىٰ جلال الإسلام وجماله وعظمته وامتداد أثره .

د . محمد جاد البنا

* * *

كنت كلما أقرأ الكتاب أجد لَذَّةً جديدة ، وكان يسحرني جمال أدبه العالي المشرق الوهاج الحي النابض الدافق في جانبٍ ، والحب للصحابة الذي يلمع إخلاصه بين الحروف والكلمات والسطور في جانبٍ آخر .

نور عالم خليل الأميني

* * *

كان نتاجه وقلمه صورة عما يدعو إليه ، ولذا صار يعرف بصاحب سلسلة « صور من حياة الصحابة » و« صور من حياة التابعين » هاتين السلسلتين اللتين كتبتا بأسلوب أدبي مشرق يعطي نموذجًا للأدب الإسلامي الحديث ، هلذا الأدب الذي

يتميز بالأصالة، والإشراق والسمو.. فكانت كتبه هذه واسعة الانتشار، كثيرة الطبعات، ودخلت كمقررات مدرسية في عدد من الدول.

محمد حسن بريغش

* * *

أَبَا الْيَمَانِ... عُيُونُ الشِّعْرِ نَاظِرَةٌ إِلَيْكَ... نَظْرَةَ إِكْبَارٍ وَإِجْلَالِ
مَلَكْتَ عِزَّةَ نَفْسٍ، لَا يُخَالِطُهَا ذُلٌّ، وَلَا تَنْزَوِي فِي قَلْبِ مُخْتَالِ
مَدَدْتَ جِسْرًا لِجِيلِ الْيَوْمِ مُتَّصِلًا بِخِيرَةِ النَّاسِ مِنْ صَحْبٍ وَمِنْ آلِ
رَسَمْتَ مِنْ أَدَبِ الإِسْلَامِ خَارِطَةً فِيهَا مَعَالِمُ إِمْتَاعٍ وَإِفْضَالِ

د. عبد الرحمن صالح العشماوي

* * *

سيذكركَ الصغار والشباب بكتب «صور من حياة الصحابة» و«صور من حياة التابعين» تلك التي سكبتها روعةً وجمالًا علىٰ كل لسان وفي كل قلب!!...

تلك التي نَمَّقْتَها بجمال عباراتك، وصَوَّرتها بروعة أساليبك.

نايف رشدان العتيق

* * *

يَعْشَقُ الحَرفَ، ثُمَّ يُلْقِيه عَذْبًا يَأْسِرُ اللُّبَّ رِقَّةً وَانْسِيَابَا
يَا يَرَاعًا حَمَلْتَ صِدْقًا ووَرْدًا بَل عبيرًا، فضوَّعتْ أَطْيَابَا!!
«صُوَرٌ من حيَاتِهِم» يا حكيمًا مَدَّتَ الجُرْحَ بالشِّفَاء فَطَابَا
وَوَهَبْتَ العُمْرَ النَّضِيرَ لِعِلْمٍ يَرْفَعُ الرَّأْسَ مَا أَضَعْتَ الشَّبَابَا
«أَدَبُ الطِّفْلِ» كُنْتَ تَدْعُو إِلَيْهِ هَا هُوَ النَّشْءُ بَعدما تَاهَ ثَابَا
«أَدَبُ الدِّينِ» فِكْرَةٌ أَيقَظَتْهَا نَفْسُ حُرٍّ تَحَدَّتِ الأَلْقَابَا
فَجَزَاكَ الإِلٰهُ جَنَّاتِ عَدْنٍ يَا حَبِيبًا عَنِ الْمُحِبِّينَ غَابَا

د. سليمان بن عبد العزيز المنصور

* * *

عُرف الدكتور الباشا أديبًا وكاتبًا وقَصَّاصًا وباحثًا وأستاذًا جامعيًا قديرًا ترك أثره في كثير من طلابه وعارفيه ... وعرفته قاعات الدرس فارسًا لا يُبارىٰ ، إذا نطق اشرأَبَّتِ الأعناق إليه ، وشَخَصَت الأبصار نحوه ، يملك من البلاغة ناصيتها ، ومن صدق اللهجة زِمَامها ، ومن الأفكار والمعاني عميقها ، مع قدرة علىٰ تقريب بعيدها ، وبيان عَويصها .

وكان له أيضًا اهتمام بتوجيه أدب الشباب واليافعين توجيهًا إسلاميًا ، وقد كلل هٰذا الاهتمام بكتابه الذائع الصيت « صور من حياة الصحابة » في سبعة أجزاء . و« صور من حياة التابعين » في ستة أجزاء .

د . عبد الله الحامد

* * *

الدكتور عبد الرحمن الباشا من الأدباء المؤثرين ، أعرفه كما يعرفه غيري من الشعراء والمستمعين للإذاعة السعودية من خلال برنامجه الإذاعي الناجح « صور من حياة الصحابة » و« صور من حياة التابعين » ، وهو برنامج تَحوَّل إلىٰ سلسلة من الكتب المفيدة ، التي أحسنت رئاسة البنات ووزارة المعارف فقررتها علىٰ الطلاب والطالبات في المراحل المتوسطة والثانوية .

فاطمة محمد السلوم

* * *

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبْتُ صَحَابَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْدَقَ الحُبِّ وَأَعْمَقَهُ ؛ فَهَبْنِي يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ لأَيٍّ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَحْبَبْتُهُمْ إِلَّا فِيكَ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

تَتصدَّر هٰذه الكلمة الجميلة كل طبعة من السلسلة الرائعة « صور من حياة الصحابة » لأستاذنا المرحوم الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ، والذي قَدَّم بهٰذه السلسلة قدوة مُثْلىٰ لناشئة هٰذه الأمة ، مُصوِّرةً من حياة الرعيل الأول ، بأسلوب أدبي مُتَوهِّج ، وعاطفةٍ حارَّة صادقة ... وكان أسلوبه عربيًا فصيحًا يمتاز بالروعة التي تجعل الآذان تصغي ، والعيون تلمح ، والوجدان يستقبل ، والعقل يستمع .

عبد الله الجعثين

* * *

تجد في سرده لحياة الصحابي أنه يسردها بأسلوب رائع سهل وترتيب دقيق للحوادث .

وهو لا يسرد الوقائع مجردة بل تجده يستشف الدروس والعبر التي لا بد من الاستفادة منها والاعتبار بها ، مُذكِّرًا الشبان بهٰذه النماذج الحية التي دافعت عن الإسلام وبذلت في سبيله المُهَجَ والأرواح ، مستحثًا الهمم علىٰ ضرورة الاقتداء بها وتتبُّع آثارها ...

والحقيقة التي لا غبار عليها أن أديبنا ـ رحمه اللّٰه ـ قد خدم فتيان وفتيات المسلمين بتقديم صور من حياة صحابة رسول اللّٰه للاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ، وهو لم يَتَّبِعِ الأسلوب التقليدي في النقل ، إنما ابتكر أسلوبًا سهلًا مُيَسَّرًا ، وحاول إعطاء الصورة الحقيقية عن كل صحابي وما كُتِب عنه في مجلدات التاريخ وكتب الحديث .

حمد العليان

* * *

الدكتور الباشا من الرجال الذين كانوا يعملون بإخلاص وصمت ، ولا أظن أحدًا يَطَّلِعُ علىٰ « صور من حياة الصحابة » و« صور من حياة التابعين » ، وهما سلسلتان أصدرهما الباشا وأضفىٰ عليهما من روعة أسلوبه ما جعل سيرة السلف الصالح في متناول الشباب المسلم ، أقول : لا أظن أحدًا يطلع علىٰ هاتين السلسلتين إلا ويشعر بالحب الكبير للباشا وبالتقدير لهذا العمل الذي قام به .

أحمد عبد الرحمن النمال

* * *

إِنَّ الَّذِي عَزَّىٰ الفُؤَادَ شَهَادَةٌ ... بِكَ مِنْ ذَوِي الأَخْلَاقِ وَالإِيمَانِ
فَاقَتْ بِصِدْقِ مَقَالِهَا وَجَمَالِهَا ... دُرَرَ العُقُودِ عَلَىٰ صُدُورِ حِسَانِ
فَهُمُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا بِقَصَائِدٍ ... غُرَرٍ كَعِطْرِ الوَرْدِ وَالرَّيْحَانِ
يَرْثُونَ هَذَا النَّجْمَ يَهْوِي مُسْرِعًا ... وَيَغِيبُ بَيْنَ دَقَائِقٍ وَثَوَانِ
إِنِّي لَأَضْرَعُ لِلْمُهَيْمِنِ دَاعِيًا ... لَهُمُ بِحُسْنِ الأَجْرِ وَالغُفْرَانِ

جَاهَدْتَ فِي الإِسْلَامِ حَقَّ جِهَادِهِ ... فَانْعَمْ بِأَجْرِ الوَاحِدِ الدَّيَّانِ
قَدَّمْتَ لِلإِسْلَامِ خَيْرَ هَدِيَّةٍ ... كُتُبًا تُرَوِّي غُلَّةَ الظَّمْآنِ
صَوَّرْتَ بِالقَلَمِ البَدِيعِ صَحَابَةً ... صُوَرًا بَدَتْ فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ
وَكَذَا حَيَاةَ التَّابِعِينَ كَأَنَّهَا ... نُورٌ تَلَأْلَأَ مِنْ سَنَا القُرْآنِ
فَمَعَ الصَّحَابَةِ وَالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... وَالتَّابِعِينَ مُخَلَّدًا بِجِنَانِ

محمد عبد الرحمن الباشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبْتُ صَحَابَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ أَصْدَقَ الحُبِّ وأَعْمَقَهُ، فَهَبْنِي يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ لِأَيٍّ منهم، فإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي ما أَحْبَبْتُهُمْ إِلَّا فيك، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين

عبد الصبور



أَبُو لُبَابَة

«أَمَا إِنَّهُ لَوْ أَتَانِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ ...»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ ؛ خَرَجَتْ قَوَافِلُ الْحُجَّاجِ مِنْ مُشْرِكِي يَثْرِبَ ؛ مُيَمِّمَةً وَجْهَهَا شَطْرَ مَكَّةَ تُرِيدُ الْحَجَّ ...

وَكَانَ فِي صُفُوفِ هَٰذِهِ الْقَوَافِلِ الْمُشْرِكَةِ سَبْعُونَ رَجُلًا وَامْرَأَتَانِ قَدِ اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ ، وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ مَكَّةَ ، وَهُمْ يُمَنُّونَ نُفُوسَهُمْ بِلِقَاءِ نَبِيِّهِمُ الْكَرِيمِ ﷺ ، وَصَاحِبِ دِينِهِمُ الْقَوِيمِ ...

فَقَدْ آمَنَ بِهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ أَعْيُنُهُمْ بِمَرْآهُ .

وَمَا إِنْ وَافَوْا(١) مَكَّةَ ؛ حَتَّىٰ وَاعَدُوا الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى اللِّقَاءِ سِرًّا فِي ثَانِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ(٢) .

وَكَانَ مَوْضِعُ اللِّقَاءِ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَىٰ مِنْ مِنًى ...

أَمَّا وَقْتُهُ ؛ فَفِي الْهَزِيعِ(٣) الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَعْلَمَ قُرَيْشٌ .

فَاللَّيْلُ سَتَّارٌ ، وَالدُّنْيَا نَائِمَةٌ إِلَّا قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

وَهُنَاكَ سَعِدَ الْمُؤْمِنُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ بِلِقَاءِ نَبِيِّهِمْ ﷺ فِي نَجْوَةٍ(٤) مِنْ قُرَيْشٍ .

---

(١) وَافَوا مَكَّة : أتوا مكة .
(٢) أيَّام التَّشْرِيق : هي الأيام الثلاثة التي تَلي يوم النحر أي يوم عيد الأضحى .
(٣) الهَزِيع الأخِير : الثلث الأخير .
(٤) في نَجْوَة مِن قُرَيْش : بعيدًا عن نظرها وفي ستر منها .

وَهُنَاكَ أَيْضًا بَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ وَقَالُوا :

بَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ السِّلَاحِ ، وَرِثْنَاهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ...

ثُمَّ بَايَعُوهُ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ ، وَأَنْ يَرْحَلَ إِلَيْهِمْ هُوَ وَأَصْحَابُهُ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْمُبَايِعِينَ ؛ أَبُو لُبَابَةَ رِفَاعَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ .

وَقَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ(١) هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُبَايِعُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ اخْتَارَ مِنْ زُعَمَائِهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ؛ جَعَلَهُمْ نُقَبَاءَ عَلَيْهِمْ ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ النُّقَبَاءِ أَبُو لُبَابَةَ .

* * *

عَادَ أَبُو لُبَابَةَ إِلَىٰ يَثْرِبَ مَعَ الطَّلِيعَةِ الْمُؤْمِنَةِ ؛ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ؛ مُغْتَبِطِينَ(٢) بِالِاجْتِمَاعِ إِلَىٰ نَبِيِّهِمْ ﷺ ...

عَاقِدِينَ الْعَزْمَ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِشُرُوطِ الْبَيْعَةِ .

فَأَخَذُوا يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِتَلَقِّي أَفْوَاجِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَيَتَّخِذُونَ الْأُهْبَةَ لِاسْتِقْبَالِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ .

ثُمَّ أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ ... فَيَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ صَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ .

فَمَا إِنْ وَافَىٰ الرَّسُولُ ﷺ مَشَارِفَ يَثْرِبَ ؛ حَتَّىٰ زَحَفَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا لِاسْتِقْبَالِ نَزِيلِهَا الْعَظِيمِ ، وَالتَّرْحِيبِ بِنَبِيِّهَا الْكَرِيمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ،

---

(١) يَنْفَضّ : يتفرق .
(٢) مُغْتَبِطِين : سعداء مسرورون .

وَكَانَ أَبو لُبَابَةَ فِي طَلِيعَةِ الْمُسْتَقْبِلِينَ الْمُرَحِّبِينَ .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ... وَأُرْسِيَتْ قَوَاعِدُ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ .

وَأَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْجِهَادِ ، وَعَزَمَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَىٰ لِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ .

فَلَمَّا فَصَلَ(١) جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَدِينَةِ ؛ مُتَوَجِّهًا لِلِقَاءِ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّ اللَّهِ ؛ كَانَ فِي الْجَيْشِ أَبُو لُبَابَةَ وَهُوَ يَتَشَوَّقُ إِلَىٰ الْجِهَادِ وَيُمَنِّي النَّفْسَ بِالِاسْتِشْهَادِ .

وَلٰكِنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَدَّهُ مِنْ بَعْضِ الطَّرِيقِ ، وَاسْتَخْلَفَهُ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ .

فَأَذْعَنَ أَبُو لُبَابَةَ لِلْأَمْرِ ...

وَعَادَ أَدْرَاجَهُ وَفِي النَّفْسِ غُصَّةٌ ، وَفِي الْفُؤَادِ حَسْرَةٌ ...

وَلٰكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ ، وَأَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ لَا يُرَدُّ .

* * *

شَعَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِمَا يَعْتَمِلُ(٢) فِي نَفْسِ أَبِي لُبَابَةَ مِنْ عَوَاطِفَ مُتَضَارِبَةٍ ...

فَفِي خِلَافَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ شَرَفٌ مَا يُدَانِيهِ شَرَفٌ ...

وَفِي الْحِرْمَانِ مِنْ ثَوَابِ الْجِهَادِ ؛ خَسَارَةٌ مَا تَعْدِلُهَا خَسَارَةٌ ...

فَطَيَّبَ الرَّسُولُ ﷺ خَاطِرَهُ ، وَضَرَبَ لَهُ بِسَهْمٍ ، وَوَعَدَهُ الْأَجْرَ ؛ فَكَانَ كَمَنْ شَهِدَ بَدْرًا .

* * *

---

(١) فَصَلَ الجَيْش : خرج .
(٢) يَعْتَمِل في نَفْسه : يضطرب في نفسه ، والمراد : يفكر .

ظَلَّ أَبُو لُبَابَةَ مُخْلِصًا لِرَبِّهِ، وَفِيًّا بِالْبَيْعَةِ الَّتِي بَايَعَهَا لِنَبِيِّهِ ﷺ؛ حَتَّىٰ كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ ...

حَيْثُ كَبَا(١) جَوَادُهُ كَبْوَةً مَا كَانَتْ تَخْطُرُ لَهُ عَلَىٰ بَالٍ ...

وَزَلَّ زَلَّةً مَا كَانَ يَتَخَيَّلُ أَنَّهَا تَصْدُرُ عَنْهُ.

ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَجَّهَ بَعْدَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ لِيُؤَدِّبَهُمْ جَزَاءَ نَكْثِهِمْ(٢) بِعَهْدِهِمْ ...

وَخِيَانَتِهِمْ لَهُ، وَغَدْرِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ ...

فَأَطْبَقَ عَلَىٰ حُصُونِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَأَحَاطَ بِهِمْ إِحَاطَةَ الْقَيْدِ بِالْعُنُقِ.

فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْحِصَارُ؛ بَعَثُوا إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُفَاوِضُونَهُ عَلَىٰ الِاسْتِسْلَامِ، وَيَشْتَرِطُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بَعْضَ الشُّرُوطِ ...

فَأَبَىٰ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ أَيَّ شَرْطٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَىٰ حُكْمِهِ مَهْمَا كَانَ ...

وَكَانَ قَدْ حَكَمَ عَلَىٰ مُقَاتِلِيهِمْ مِنَ الرِّجَالِ بِالْقَتْلِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

فَبَعَثُوا إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُونَ:

اِبْعَثْ لَنَا أَبَا لُبَابَةَ نَسْتَشِيرُهُ.

وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِ أَبِي لُبَابَةَ مُحَالَفَةٌ(٣) فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَبُو لُبَابَةَ؛ الْتَفَّ حَوْلَهُ النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ يَبْكُونَ وَيَنْتَحِبُونَ،

---

(١) كَبَا: سقط علىٰ وجهه.
(٢) نَكْثِهِم بِعَهْدِهِم: نقضهم له، ورجوعهم عنه.
(٣) المُحَالَفَة: التعاهد والتصاحب.

وَقَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ يَسْأَلُونَهُ :

أَتَرَىٰ أَنْ نَنْزِلَ عَلَىٰ حُكْمِ مُحَمَّدٍ يَا أَبَا لُبَابَةَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ... وَلٰكِنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ حَلْقِهِ لِيُعْلِمَهُمْ بِذَٰلِكَ ؛ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالذَّبْحِ .

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ :

فَوَاللَّهِ ! مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا ... حَتَّىٰ عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ وَأُسْقِطَ[1] فِي يَدِي ؛ فَمَا أَدْرِي كَيْفَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ .

* * *

لَمْ يَأْتِ أَبُو لُبَابَةَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ وَإِنَّمَا انْطَلَقَ عَلَىٰ وَجْهِهِ إِلَىٰ ... ﷺ

فَاسْتَحْضَرَ سِلْسِلَةً مِنْ حَدِيدٍ ، وَطَلَبَ أَنْ يُشَدَّ بِهَا إِلَىٰ سَارِيَةٍ[2] مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، وَهْوَ وَاقِفٌ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ ... ثُمَّ قَالَ :

وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ نَفْسِي ، وَلَا أُصِيبُ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا ؛ حَتَّىٰ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ ... أَوْ أَمُوتَ .

فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ حَالِهِ هَٰذِهِ ، وَعَرَفَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ؛ قَالَ :

(أَمَا إِنَّهُ لَوْ أَتَانِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ ، وَلٰكِنَّهُ قَدْ فَعَلَ ...

فَلَسْتُ أُطْلِقُهُ حَتَّىٰ يُطْلِقَهُ اللَّهُ) .

* * *

ظَلَّ أَبُو لُبَابَةَ عَلَىٰ حَالِهِ هَٰذِهِ أَيَّامًا حَتَّىٰ ضَعُفَ جِسْمُهُ ، وَوَهَنَ عَظْمُهُ ،

(١) أُسْقِطَ فِي يَدِ فلان : تحير وندم .

(٢) سَارِيَة : الأسطوانة ، وسارية المسجد عمود ينصب فيه .

وَخَارَتْ قُوَاهُ ...

ثُمَّ تَلَتْهَا أَيَّامٌ أُخْرَىٰ أُصِيبَ فِيهَا سَمْعُهُ ؛ فَمَا عَادَ يَسْمَعُ ؛ إِلَّا قَلِيلًا ...

وَزَاغَ فِيهَا بَصَرُهُ ؛ فَمَا عَادَ يُبْصِرُ ؛ إِلَّا يَسِيرًا .

وَكَانَتْ لَهُ بُنَيَّةٌ تَأْتِيهِ بَاكِيَةً مُنْتَحِبَةً(١)؛ فَتَحُلُّ وِثَاقَهُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ، ثُمَّ تُعِيدُهُ إِلَىٰ سِلْسِلَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

قَضَىٰ أَبُو لُبَابَةَ سِتَّةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا مَشْدُودًا إِلَىٰ سَارِيَةِ الْمَسْجِدِ ؛ حَتَّىٰ جَاءَهُ الْفَرَجُ مِنَ السَّمَاءِ عِنْدَ سَحَرِ اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ ...

وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ(٢) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ السَّحَرِ وَهْوَ يَضْحَكُ ؛ فَقُلْتُ :

مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ ؟

قَالَ ﷺ : (تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ أَبِي لُبَابَةَ) .

قُلْتُ : أَفَلَا أُبَشِّرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ ﷺ : (بَلَىٰ ؛ إِنْ شِئْتِ) .

فَقَامَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِهَا ـ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَىٰ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ـ وَقَالَتْ :

---

(١) النحيب : شدة البكاء.
(٢) أُمّ سَلَمَة : انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

يَا أَبَا لُبَابَةَ : أَبْشِرْ ... فَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَثَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ .

فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ! حَتَّىٰ يُطْلِقَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ...

فَلَمَّا خَرَجَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ ؛ أَطْلَقَهُ بِنَفْسِهِ .

* * *

لَيْسَ فِي وُسْعِ أَحَدٍ أَنْ يُقَدِّرَ فَرْحَةَ أَبِي لُبَابَةَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، أَوْ أَن يَتَصَوَّرَ مَدَىٰ بَهْجَتِهِ بِرِضَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ عَنْهُ ...

فَقَدْ ظَلَّ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ يَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ :

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ؛ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وَكَانَ كُلَّمَا قَرَأَ ذَلِكَ ...

فَاضَتْ عَيْنَاهُ فَرَحًا بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ (*) .

---

(١) سورة التوبة ١٠٢.

(*) للاستزادة من أخبار أبي لُبَابَة انظر :
- سيرة ابن هشام : ٤/١٩٦ وانظر الفهارس.
- البداية والنهاية : ٣/ ٢٦٠، ٤/ ١١٩ وبعدها.
- الطبقات الكبرىٰ : ٢/ ٧٤، ٣/ ٤٥٧.
- الإصابة : ٤/ ١٦٨ أو «الترجمة» ٩٨١.
- الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤/ ١٦٨.
- أسد الغابة : ٦/ ٢٦٥.

يلاحظ أن في اسم أبي لبابة خلافًا ، فمنهم من يدعونه رفاعة ومنهم من يدعونه بشيرًا ، وهو بكنيته أشهر .

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ

« يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ رَوَاحَةَ ؛
إِنَّهُ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَتَبَاهَىٰ بِهَا الْمَلَائِكَةُ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ
لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ ؟!
هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ[1]

وَضَعَ هَٰذَا النَّشِيدُ الْمُلْتَهِبُ بِشَتَّىٰ الْمَشَاعِرِ نِهَايَةً لِحَيَاةِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ...

وَخَتَمَ آخِرَ فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ سِيرَتِهِ ؛ الْحَافِلَةِ بِالْبُطُولَاتِ ...

الْغَنِيَّةِ بِالْمَآثِرِ وَالْمَفَاخِرِ ...

الْمُشْرِقَةِ بِنُورِ التُّقَىٰ وَأَلَقِ الْعِبَادَةِ ...

* * *

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَوْمَ أَهَلَّ نُورُ النُّبُوَّةِ عَلَىٰ مَكَّةَ ؛ شَاعِرًا فَحْلًا[2] مِنْ شُعَرَاءِ يَثْرِبَ ...

وَسَيِّدًا مَرْمُوقًا مِنْ سَادَاتِ الْخَزْرَجِ .

فَمَا إِنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ؛ حَتَّىٰ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ .

---

(١) شَنَّة : قربة بالية من الجلد ، والمراد : الرَّحِم .
(٢) شَاعِرًا فَحْلًا : مجيدًا بارعًا .

فَوَضَعَ سِنَانَهُ[١] وَلِسَانَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ .

وَلَقَدْ نَافَحَ[٢] عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِشِعْرِهِ أَعْظَمَ الْمُنَافَحَةِ ، وَأَقْوَاهَا ...

وذَادَ[٣] عَنْ دَعْوَتِهِ بِبَيَانِهِ أَصْدَقَ الذَّوْدِ وَأَنْجَعَهُ[٤]

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي صَاحِبَيْهِ : حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ[٥]، وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ[٦] الِاسْتِثْنَاءَ الْخَاصَّ بِمُؤْمِنِي الشُّعَرَاءِ وَأَخْيَارِهِمْ .

فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ :

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ...

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ...

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ...﴾[٧].

ثُمَّ اسْتَثْنَى اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ كُلًّا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَصَاحِبَيْهِ .

فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ...

---

(١) السِّنَان : نصل الرمح .
(٢) نَافح : دافع .
(٣) ذَاد : دافع عن .
(٤) أنجعه : أشده تأثيراً .
(٥) حَسَّانَ بْنِ ثَابِت : انظر طرفًا من أخباره في كتاب « شعر الدعوة في العصر النبوي » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٦) كَعْب بْنِ مَالِك : انظره ص ٣٢١.
(٧) سورة الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ...﴾[1].

فَهَلْ هُنَاكَ أَكْرَمُ كَرَامَةً، وَأَعَزُّ عِزًّا مِنْ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ فِي شَأْنِ امْرِئٍ قُرْآنًا ...؟!.

وَأَنْ يُتْلَىٰ نَعْتُهُ[2] الَّذِي نَعَتَهُ اللَّهُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ؟!.

وَأَنْ تَسْتَمِرَّ تِلَاوَتُهُ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ؟!.

* * *

شَهِدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ؛ أَكْرِمْ بِهَا مِنْ بَيْعَةٍ.

وَجَعَلَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحَدَ النُّقَبَاءِ الَّذِينَ أَمَّرَهُمْ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ ...

فَنِعْمَ الْمُؤَمَّرُ، وَنِعْمَ الْأَمِيرُ.

وَمُنْذُ أَسْلَمَ فَتَىٰ الْخَزْرَجِ؛ عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

فَقَضَىٰ جَمِيعَ عُمُرِهِ عَابِدًا مُجَاهِدًا ...

قَوَّامًا بِاللَّيْلِ؛ صَوَّامًا بِالنَّهَارِ ...

* * *

أَخْبَرَ عَنْهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ:

لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ الشَّدِيدِ الْحَرِّ ...

حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَضَعُ يَدَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِي الْقَوْمِ صَائِمٌ

(١) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.
(٢) نَعْتُه: وَصْفُه.
(٣) أَبُو الدَّرْدَاء انظره في الكتاب الثالث «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ ...

* * *

وَقَدْ شَهِدَ ابْنُ رَوَاحَةَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بَدْرًا ... وَأُحُدًا ... وَالْخَنْدَقَ ... وَالْحُدَيْبِيَةَ ... وَخَيْبَرَ ...

فَأَكْرِمْ بِهَا مِنْ أَيَّامٍ ... وَأَعْظِمْ بِهَا مِنْ مَوَاقِفَ .

* * *

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ ؛ بَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ لِلِقَاءِ الرُّومِ ، وَاخْتِيَارِ أَمْرِهِمْ .

وَقَدْ أَمَّرَ عَلَىٰ الْجَيْشِ مَوْلَاهُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ[١]، وَقَالَ :

(إِنْ قُتِلَ أَوْ أُصِيبَ زَيْدٌ ؛ فَقَائِدُ الْجَيْشِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ[٢]...

فَإِنْ قُتِلَ أَوْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ ؛ فَقَائِدُ الْجَيْشِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ...

فَإِنْ قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ أَوْ أُصِيبَ ؛ فَلْيَخْتَرِ الْمُسْلِمُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَهُ أَمِيرًا عَلَيْهِمْ) .

* * *

وَلَمَّا هَمَّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِمُغَادَرَةِ الْمَدِينَةِ ؛ جَعَلَ النَّاسُ يُوَدِّعُونَ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ، وَيَخُصُّونَ الْأُمَرَاءَ الَّذِينَ أَمَّرَهُمُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَىٰ الْجَيْشِ .

فَلَمَّا وَدَّعُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ ؛ جَعَلَ يَبْكِي .

(١) زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ انظره : في الكتاب الثالث «صور من حياة الصحابة» للمؤلف .
(٢) جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِب انظره : في الكتاب الرابع «صور من حياة الصحابة» للمؤلف .

فَقَالُوا : مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ ؟!

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا يُبْكِينِي حُبُّ الدُّنْيَا ...

وَلَكِنِّي سَمِعْتُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يَذْكُرُ فِيهَا النَّارَ ؛ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[1].

فَأَيْقَنْتُ بِالْوُرُودِ[2]، وَلَكِنِّي لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ لِي بَعْدَهُ بِالصَّدَرِ[3]؟! .

* * *

وَلَمَّا تَحَرَّكَ الْجَيْشُ ؛ قَالَ الْمُسْلِمُونَ :

صَحِبَكُمُ اللَّهُ ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ ، وَرَدَّكُمْ إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ .

فَمَا إِنْ سَمِعَ دُعَاءَهُمْ بِأَنْ يُرَدُّوا إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ ؛ حَتَّىٰ أَنْشَأَ يَقُولُ :

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَـٰنَ مَغْفِرَةً
وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ[4] تَقْذِفُ الزَّبَدَا[5]

أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ[6] مُجْهِزَةً[7]
بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا

حَتَّىٰ يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَىٰ جَدَثِي[8]:
أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَازٍ، وَقَدْ رَشَدَا

* * *

(١) سورة مريم ٧١.
(٢) الورود : المرور بالنار .
(٣) الصَّدَر : الرجوع .
(٤) ضربة ذات فرغ : ضربة شديدة .
(٥) تقذف الزبدا : تقذف الدم قذفًا من شدتها .
(٦) حرّان : متعطش للدماء .
(٧) مجهزة : قاضية مُميتة .
(٨) جَدَثي : قبري .

وَلَمَّا فَصَلَ الْجَيْشُ عَنِ الْمَدِينَةِ كَانَ ابْنُ رَوَاحَةَ يُرْدِفُ(١) وَرَاءَهُ فَتًى يَتِيمًا يَعِيشُ فِي حِجْرِهِ ؛ هُوَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ...

فَسَمِعَهُ الْفَتَىٰ يُخَاطِبُ نَاقَتَهُ قَائِلًا :

إِذَا أَدَّيْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي
مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ
فَشَأْنُكِ ؛ فَانْعَمِي ، وَخَلَاكِ ذَمٌّ(٢)
وَلَا أَرْجِعْ إِلَىٰ أَهْلِي وَرَائِي

فَطَفِقَ الْفَتَىٰ يَبْكِي لِقَوْلِهِ ...

فَخَفَقَهُ(٣) ابْنُ رَوَاحَةَ بِالدُّرَّةِ ، وَقَالَ :

مَا عَلَيْكَ - يَا لُكَعُ(٤) - أَنْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ الشَّهَادَةَ ...

وَتَرْجِعَ أَنْتَ عَلَىٰ رَحْلِي هَٰذَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؟! .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْمُسْلِمُونَ أَرْضَ « مَعَانَ » فِي الْأُرْدُنِّ ؛ عَرَفُوا أَنَّ مَلِكَ الرُّومِ قَدْ نَزَلَ فِي مِنْطَقَةِ « الْبَلْقَاءِ » غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْهُمْ .

وَمَعَهُ مِائَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الرُّومِ ...

وَمَعَهُمْ مِثْلُهُمْ مِنْ نَصَارَىٰ الْعَرَبِ مِنْ قَبَائِلِ لَخْمٍ ، وَجُذَامٍ ، وَقُضَاعَةَ ، وَغَيْرِهَا ...

* * *

(١) يردف وراءه : يركب خلفه .
(٢) خَلَاكِ ذَمٌّ : أي لا لوم عليك .
(٣) خَفَقَهُ بِالدُّرَّة : ضربه بها ضرباً خفيفاً ، والدرة : أداة يضرب بها .
(٤) يا لكع : يا أحمق .

أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فِي « مَعَانَ » لَيْلَتَيْنِ .

وَطَفِقُوا يُوَازِنُونَ بَيْنَ عَدَدِهِمُ الْقَلِيلِ ، وَعَدَدِ عَدُوِّهِمُ الْكَثِيرِ ، وَقَالُوا : نَكْتُبُ إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَنُوقِفُهُ[1] عَلَىٰ الْأَمْرِ ، ثُمَّ نَمْضِي إِلَىٰ مَا يَأْمُرُنَا بِهِ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ :

يَا قَوْمُ ؛ إِنَّ الَّتِي تَطْلُبُونَ[2] قَدْ أَدْرَكْتُمُوهَا ...

وَنَحْنُ مَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ ، وَلَا قُوَّةٍ ...

وَإِنَّمَا نُقَاتِلُهُمْ بِهَٰذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ ...

فَانْطَلِقُوا ؛ فَهِيَ إِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ ...

إِمَّا النَّصْرُ ...

وَإِمَّا الشَّهَادَةُ ...

فَاسْتَجَابَ الْجَيْشُ إِلَىٰ مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَشَرَعَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ؛ نَهَدَ[3] الْآلَافُ الثَّلَاثَةُ لِلِقَاءِ مِائَتَيْ أَلْفٍ ...

وَالْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ عِنْدَ قَرْيَةِ « مُؤْتَةَ » .

* * *

كَانَ يَتَقَدَّمُ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَهُوَ حَامِلٌ لِوَاءَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ قُتِلَ ؛ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ .

---

(١) نُوقِفُهُ عَلَىٰ الْأَمْرِ : نُعْلِمه به .

(٢) يعني الشَّهادة .

(٣) نَهَدَ : خرج وأسرع .

وَرِمَاحُ الرُّومِ تَنْهَلُ[1] مِنْ صَدْرِهِ ...

فَتَنَاوَلَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؛ أَخُو عَلِيٍّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ، وَصِنْوُهُ[2] فِي الشَّجَاعَةِ وَالْبَأْسِ .

وَخَاضَ الْمَعْرَكَةَ كَمَا لَمْ يَخُضْهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ ...

فَلَمَّا حَمِيَ الْوَطِيسُ[3]، وَاشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الرُّومِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ...

وَثَبَ عَنْ فَرَسِهِ ...

وَعَقَرَ[4] قَوَائِمَهَا بِسَيْفِهِ ...

وَأَوْغَلَ فِي صُفُوفِ الرُّومِ ، وَهْوَ يُنْشِدُ :

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا
طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا
كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إِذْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

ثُمَّ انْدَفَعَ يَجُولُ بِسَيْفِهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ؛ حَتَّىٰ قُطِعَتْ يَمِينُهُ ...

فَتَنَاوَلَ الرَّايَةَ بِشِمَالِهِ ، وَمَضَىٰ يُقَاتِلُ ؛ حَتَّىٰ قُطِعَتْ شِمَالُهُ ...

فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِصَدْرِهِ وَعَضُدَيْهِ[5]، ثُمَّ مَا زَالَ يُجَالِدُ حَتَّىٰ قُتِلَ ...

* * *

(١) تنهل : تشرب .
(٢) صِنْوه : مثيله .
(٣) حمي الوطيس : اشتدت الحرب .
(٤) عَقَرَ قَوَائِمَهَا : ضرب أرجلها بسيفه .
(٥) العَضُد : ما بين المِرفق والكتف .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ تَقَدَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَتَنَاوَلَ الرَّايَةَ بَعْدَ أَنْ رَأَىٰ مَصْرَعَ صَاحِبَيْهِ عَنْ كَثَبٍ .

فَجَعَلَ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ قَائِلًا :

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي
هَٰذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيتِ(١)
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ
إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ سَلَفَيْهِ الشَّهِيدَيْنِ وَهُمَا مُضَرَّجَانِ بِدِمَائِهِمَا ...

فَهَابَتْ نَفْسُهُ الْمَوْقِفَ بَعْضَ الْهَيْبَةِ ...

وَتَرَدَّدَتْ بَعْضَ التَّرَدُّدِ ...

فَأَهَابَ(٢) بِهَا قَائِلًا :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ
لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ
هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ

ثُمَّ حَمَلَ الرَّايَةَ ، وَنَزَلَ إِلَىٰ سَاحِ الْوَغَىٰ(٣)

وَهُنَا جَاءَهُ ابْنُ عَمٍّ لَهُ بِعَظْمٍ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ اللَّحْمِ ، وَقَالَ لَهُ :

---

(١) صَلِيتِ : تعرضت .
(٢) أَهَابَ بِهَا : صاح بها وحمّسها .
(٣) سَاحِ الْوَغَىٰ : ساحة الحرب .

شُدَّ بِهَٰذَا صُلْبَكَ ؛ فَأَنْتَ لَمْ تَطْعَمْ شَيْئًا مُنْذُ ثَلَاثٍ ...

فَأَخَذَ الْعَظْمَ مِنْ يَدِهِ ، وَنَهَسَ(١) مِنْهُ نَهْسَةً بِأَطْرَافِ أَسْنَانِهِ .

غَيْرَ أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ رَأَىٰ مَصَارِعَ الْمُسْلِمِينَ أَمَامَهُ ؛ فَقَالَ :

بِئْسَ الرَّجُلُ أَنْتَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ .

يَقَعُ هَٰذَا كُلُّهُ ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ الطَّعَامَ .

ثُمَّ أَلْقَىٰ الْعَظْمَ مِنْ يَدِهِ ...

وَجَرَّدَ سَيْفَهُ ...

وَأَوْغَلَ(٢) فِي صُفُوفِ الرُّومِ لَا يَلْوِي(٣) عَلَىٰ شَيْءٍ ...

ثُمَّ إِنَّهُ مَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ هَوَىٰ شَهِيدًا .

* * *

رَحِمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ ، وَصَدَقَ رَسُولُهُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ...

فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَتَبَاهَىٰ بِهَا الْمَلَائِكَةُ ... (*) .

---

(١) النَّهس: تناول اللحم أو غيره من غير تمكن.
(٢) أوغل في صفوف الروم: دخل بعيدًا في صفوفهم.
(٣) لَا يلوي عَلَىٰ شَيْءٍ: لا يقف عند شيء ولا ينتظر.

(*) للاستزادة من أخبار عَبْد اللّهِ بْن رَوَاحَة انظر:
١ - حلية الأولياء: ١/١١٨.
٢ - أسد الغابة: ٣/٢٣٤.
٣ - السيرة لابن هشام «انظر الفهارس».
٤ - الإصابة: ٢/٣٠٦ أو «الترجمة» ٤٦٧٦.
٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٢/٢٩٣.

جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ

«نِعْمَ السَّيِّدُ كُنْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَنِعْمَ السَّيِّدُ أَنْتَ فِي الْإِسْلَامِ»

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

هَا نَحْنُ أُولَاءِ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ قُبَيْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِقَلِيلٍ، وَالنَّاسُ قَدْ أَخَذُوا أَمَاكِنَهُمْ فِي رِحَابِهِ الطَّاهِرَةِ...

تَأَهُّبًا لِسَمَاعِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ.

وَهَا هُوَ ذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ يَصْعَدُ الْمِنْبَرَ...

فَيَتَحَوَّلُ كُلُّ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ إِلَىٰ آذَانٍ صَاغِيَةٍ وَقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ، وَعُيُونٍ مَشْدُودَةٍ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ؛ لَا تَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَلَا تَرِيمُ(1)...

وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْذِرُ وَيُبَشِّرُ، وَيَعِظُ وَيُذَكِّرُ، وَيُعَالِجُ شُؤُونَ الْمُسْلِمِينَ مَا يُعَالِجُ.

* * *

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ...

أَقْبَلَ عَلَىٰ الْمَسْجِدِ وَفْدٌ كَبِيرٌ مِنْ قَبِيلَةِ بَجِيلَةَ قَادِمًا مِنَ الْيَمَنِ لِيُعْلِنَ إِسْلَامَهُ بَيْنَ يَدَيِ الرَّسُولِ ﷺ، وَيُبَايِعَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ...

فَأَخَذَ رِجَالُ الْوَفْدِ أَمَاكِنَهُمْ بَيْنَ جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ؛ سَيِّدُ بَجِيلَةَ وَزَعِيمُهَا الْمُطَاعُ.

فَإِذَا بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَصْرِفُهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْءٌ؛ يَتَحَوَّلُونَ

---

(1) تريم: لا تقصد غيره.

بِعُيُونِهِمْ إِلَىٰ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ...

وَجَعَلُوا يُطِيلُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ، وَيُحِدُّونَ[1] فِيهِ الْبَصَرَ.

حَتَّىٰ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ مَوْعِدٍ، أَوْ كَأَنَّ نَاعِتًا نَعَتَهُ لَهُمْ ...

فَأَرَادُوا أَنْ يَتَثَبَّتُوا مِنْ شَخْصِهِ وَيَتَحَقَّقُوا مِنْ نَعْتِهِ.

فَمَا إِنِ انْتَهَتِ الصَّلَاةُ؛ حَتَّىٰ مَالَ جَرِيرٌ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ يَجْلِسُ بِجَانِبِهِ، وَقَالَ:

مَا بَالُ النَّاسِ يَصْرِفُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَيَّ وَيُحَدِّقُونَ فِيَّ؛ حَتَّىٰ لَكَأَنَّ لَهُمْ عِنْدِي حَاجَةً ؟! ...

أَهِيَ مُجَرَّدُ صُدْفَةٍ أَمْ أَنَّ فِي الْأَمْرِ شَيْئًا ؟!.

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَنْصرِفُوا إِلَيْكَ بِأَبْصَارِهِمْ؛ إِلَّا لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَنَا قَبْلَ قَلِيلٍ بِقُدُومِكَ عَلَىٰ رَأْسِ وَفْدٍ مِنْ قَوْمِكَ، وَذَكَرَ لَنَا نَعْتَكَ وَقَالَ:

(يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْيَمَنِ ...

عَلَىٰ وَجْهِهِ مَسْحَةُ[2] مَلِكٍ).

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ[3] جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ لِمَا سَمِعَ، وَأَشْرَقَ وَجْهُهُ بِالْفَرْحَةِ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ بِمَا خَلَعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ نَعْتٍ عَلَيْهِ.

* * *

وَمَا إِنْ فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَدُعَائِهِ؛ حَتَّىٰ مَثَلَ جَرِيرٌ بَيْنَ

(١) يُحِدُّونَ فِيهِ الْبَصَرَ: يدققون النظر إليه.
(٢) مسحة ملك: أثر ظاهر منه.
(٣) انبسطت أسارير جرير: ظهر البشر والسرور علىٰ وجهه.

يَدَيْهِ ... فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(مَا جَاءَ بِكَ يَا جَرِيرُ؟!).

فَقَالَ: جِئْتُ لِأُسْلِمَ عَلَىٰ يَدَيْكَ أَنَا وَقَوْمِي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِنُبَايِعَكَ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

(إِنَّمَا أُبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ...

وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ ...

وَتَنْصَحَ الْمُسْلِمَ، وَتُطِيعَ الْوَالِيَ؛ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا).

قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَبَسَطَ يَمِينَهُ إِلَيْهِ وَبَايَعَهُ.

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ تَوَثَّقَتْ[1] عُرَىٰ الْمَوَدَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، وَنَالَ مِنْ إِكْرَامِ الرَّسُولِ ﷺ وَإِعْزَازِهِ مَا لَمْ يَحْظَ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ مِنْ أَصْحَابِهِ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ...

فَمَا حَجَبَهُ الرَّسُولُ ﷺ يَوْمًا عَنْهُ حَتَّىٰ مَاتَ، وَمَا لَقِيَهُ مَرَّةً إِلَّا هَشَّ لَهُ وَبَشَّ، وَتَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ.

وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي بَيْتِهِ؛ فَرَحَّبَ بِهِ، وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُجْلِسُهُ عَلَيْهِ ...

تَنَاوَلَ رِدَاءَهُ وَطَوَاهُ وَطَرَحَهُ لَهُ؛ لِيَجْلِسَ عَلَيْهِ ...

فَأَخَذَ جَرِيرٌ الرِّدَاءَ وَضَمَّهُ إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَطَفِقَ[2] يُقَبِّلُهُ وَهُوَ يَقُولُ:

أَكْرَمَكَ اللَّهُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - كَمَا أَكْرَمْتَنِي وَأَعَزَّكَ اللَّهُ كَمَا أَعْزَزْتَنِي.

---

(١) توثقت العرىٰ: قويت واشتدت.　　(٢) طفق: جعل.

فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ مَنْ مَعَهُ، وَقَالَ:

(إِنْ أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ؛ فَأَكْرِمُوهُ).

* * *

وَمَا إِنْ أَسْلَمَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ وَانْضَمَّ إِلَىٰ كَتَائِبِ الْإِيمَانِ؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَ مَوْضِعَ ثِقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَثِقَةِ خُلَفَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَأَنَاطُوا[1] بِهِ جَلِيلَ الْأُمُورِ، وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي عَظِيمِ الْمُهِمَّاتِ.

فَقُبَيْلَ وَفَاةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ دَعَا إِلَيْهِ جَرِيرًا، وَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ مُرِيِّحِي مِنْ «ذِي الْخَلَصَةِ» يَا جَرِيرُ؟

قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَذُو الْخَلَصَةِ هَٰذَا الَّذِي أَرَادَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَ الْحَيَاةَ: مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَصْنَامِ فِي مَدِينَةِ تَبَالَةَ عَلَىٰ مَسِيرَةِ سَبْعِ لَيَالٍ مِنْ مَكَّةَ فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ الْيَمَنِ؛ طُلِيَتْ بِالْبَيَاضِ، وَنُقِشَتْ عَلَيْهَا نُقُوشٌ كَهَيْئَةِ التِّيجَانِ.

وَكَانَ يَقُومُ عَلَىٰ سَدَانَةِ[2] ذِي الْخَلَصَةِ بَنُو أُمَامَةَ ...

وَكَانَتْ تُعَظِّمُهَا قَبَائِلُ خَثْعَمٍ، وَبَجِيلَةَ، وَالْأُزْدِ، وَتَحُجُّ إِلَيْهَا وَتَطُوفُ بِهَا، وَتَذْبَحُ عِنْدَهَا ...

حَتَّىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَهَا «الْكَعْبَةَ الْيَمَانِيَّةَ».

* * *

وَقَدِ اخْتَارَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهِ جَرِيرًا لِهَٰذِهِ الْمُهِمَّةِ؛ لِسِيَادَتِهِ فِي

(١) أناطوا به: أسندوا إليه.

(٢) سدانة: خدمة.

بَجِيلَةَ ، وَمَكَانَتِهِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْيَمَنِيَّةِ .

فَصَدَعَ[١] جَرِيرٌ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاخْتَارَ لِهَـٰذِهِ الْغَزْوَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ فَارِسًا مِنَ الشُّجْعَانِ الْكُمَاةِ[٢] .

وَلَمَّا هَمَّ بِالرَّحِيلِ ؛ أَقْبَلَ يُوَدِّعُ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَشَكَا لَهُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ عَلَىٰ ظُهُورِ الْخَيْلِ لِطُولِ قَامَتِهِ وَعِظَمِ هَامَتِهِ ...

فَضَرَبَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَىٰ صَدْرِهِ وَقَالَ :

(اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ ، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا) .

فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَثْبَتِ الْفُرْسَانِ عَلَىٰ مُتُونِ[٣] الْجِيَادِ الصَّافِنَاتِ .

* * *

مَضَىٰ جَرِيرٌ بِرِجَالِهِ إِلَىٰ ذِي الْخَلَصَةِ ...

فَقَتَلَ سَدَنَتَهُ وَحَطَّمَ هَيَاكِلَهُ ، وَأَوْقَدَ النِّيرَانَ فِي أَصْنَامِهِ ...

ثُمَّ بَعَثَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَشِيرًا يُبَشِّرُهُ بِالْقَضَاءِ عَلَىٰ ذَلِكَ الطَّاغُوتِ[٤] الَّذِي غَمَّهُ وَأَهَمَّهُ ، وَالَّذِي أَصْبَحَ مَكَانُهُ فِيمَا بَعْدُ ؛ عَتَبَةً لِمَسْجِدِ تَبَالَةَ الْكَبِيرِ .

* * *

لَمْ يَعُدْ جَرِيرٌ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ بَعْدَ هَدْمِ ذِي الْخَلَصَةِ ؛ وَإِنَّمَا وَاصَلَ سَيْرَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ ... لِيَدْعُوَ مُلُوكَهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ بِأَمْرٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَوَفَدَ عَلَىٰ ذِي الْكُلَاعِ الْأَصْفَرِ أَعْظَمِ مُلُوكِ الْيَمَنِ إِذْ ذَاكَ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ مَحَاسِنَ الْإِسْلَامِ ، وَقَرَأَ أَمَامَهُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَبَشَّرَهُ وَأَنْذَرَهُ ...

---

(١) صدع بالأمر : جهر بالأمر وأنفذه .
(٢) الكماة : الأبطال .
(٣) متون الجياد : ظهور الخيل .
(٤) الطاغوت : رأس الضلال أو المعبود منه دون الله .

فَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ الْمَلِكِ لِلْإِيمَانِ ، وَمَا لَبِثَ أَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

وَلَقَدِ ابْتَهَجَ ذُو الْكُلَاعِ بِمَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بَعْدَ الشِّرْكِ ابْتِهَاجًا عَظِيمًا ؛ فَأَعْتَقَ يَوْم أَسْلَمَ أَرْبَعَةَ آلَافِ عَبْدٍ ...

ثُمَّ هَاجَرَ بِقَوْمِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ فَوَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ فَارَقَ الْحَيَاةَ .

فَمَضَىٰ مَعَ قَوْمِهِ إِلَىٰ حِمْصَ وَاتَّخَذُوهَا مُقَامًا لَهُمْ وَوَطَنًا .

* * *

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ وَضَعَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ وَقَوْمَهُ فِي طَاعَتِهِ .

فَجَرَّدَهُ أَبُو بَكْرٍ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ فِتْنَةِ الرِّدَّةِ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ .

فَقَامَ جَرِيرٌ بِالْأَمْرِ خَيْرَ قِيَامٍ ، وَطَفِقَ يُقَاتِلُ الْمُرْتَدِّينَ ؛ حَتَّىٰ خَضَدَ(١) شَوْكَتَهُمْ ، وَأَعَادَهُمْ إِلَىٰ حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ .

* * *

وَلَمَّا صَارَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ ؛ كَان لَهُ جَرِيرٌ نِعْمَ الْجَلِيسُ وَالْمُشِيرُ وَالْقَائِدُ .

وَكَانَ عُمَرُ يَأْنَسُ بِهِ أَشَدَّ الْأُنْسِ ، وَيَعْجَبُ لِذَكَائِهِ الْحَادِّ ، وَبَدِيهَتِهِ الْمُطَاوِعَةِ فِي الْمَوَاقِفِ الْحَرِجَةِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ عُمَرَ كَانَ فِي مَجْلِسٍ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَنَفَرٍ مِن

(١) خضد شوكتهم : كَسَرَ قوتهم وأضعفهم .

الْمُسْلِمِينَ ؛ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ ...

فَخَرَجَتْ مِنْ أَحَدِ الْقَوْمِ رِيحٌ ؛ فَسَكَتَ النَّاسُ وَسَكَنُوا ...

كُلٌّ يَخْشَىٰ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهَا مِنْهُ .

وَخَافَ عُمَرُ أَنْ يَحْمِلَ الْخَجَلُ صَاحِبَ الرِّيحِ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ مِنْ غَيْرِ وُضُوءٍ ؛ فَقَالَ

عَزَمْتُ(1) عَلَىٰ صَاحِبِ الرِّيحِ أَنْ يَقُومَ فَيَتَوَضَّأَ .

فَجَعَلَ النَّاسُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ؛ فَبَادَرَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَقَالَ :

مُرْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ نَتَوَضَّأَ جَمِيعًا

فَسُرِّيَ(2) عَنْ عُمَرَ وَقَالَ : نَعَمْ تَوَضَّؤُا جَمِيعًا

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ جَرِيرٍ وَقَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ ؛ نِعْمَ السَّيِّدُ كُنْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ...

وَنِعْمَ السَّيِّدُ أَنْتَ فِي الْإِسْلَامِ .

ثُمَّ تَوَضَّأَ الْقَوْمُ جَمِيعًا (*) .

---

(1) عَزَمْتُ : أقسمت .

(2) سُرِّيَ عَنْه : زال عنه الهم وانشرح صدره .

(*) للاستزادة من أخبار جَرِير بن عَبْد اللَّه الْبَجَلِيّ انظر :

- الإصابة : ١/٢٣٢ أو « الترجمة » ١١٣٦.
- الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/٢٣٢.
- أسد الغابة : ١/٣٣٣.
- صفة الصفوة : ١/٧٤٠.
- تاريخ ابن خياط : ١١١ وما بعدها .
- تهذيب التهذيب : ٢/٧٣.
- المعارف : ١٢٧.
- حياة الصحابة : ١/١٧٨، ٣٥٣، ٣٥٥، ٦٠١، ٢/٥١٧، ٧٣٢، ٧٥٨، ٣/١٧٧.
- البداية والنهاية : ٤/٣٧٥، ٥/٧٧، ٨/٥٥.
- كنز العمال : ٧/١٩.
- فتح الباري : ٨/٧٠.

أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الأَنْصَارِيُّ

كَاتِبُ وَحْيِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَحَدُ عَبَاقِرَةِ الْمُسْلِمِينَ

« كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ يَرْوِي عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، وَيَسْأَلُهُ عَنِ النَّوَازِلِ ، وَيَتَحَاكَمُ إِلَيْهِ فِي الْمُعْضِلَاتِ »

[ابْنُ حَجَرٍ]

مَنْ هَٰذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي الْمَلَإِ[1] الْأَعْلَىٰ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ ؟! .

مَنْ هَٰذَا الَّذِي أُمِرَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ بِأَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ؟!

فَقَرَأَهُ عَلَيْهِ .

مَنْ هَٰذَا الَّذِي كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَدْعُوهُ بِسَيِّدِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَا يُنَازِعُهُ فِي هَٰذَا الشَّرَفِ أَحَدٌ ؟!

إِنَّهُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ النَّجَّارِيُّ ؛ كَاتِبُ وَحْيِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَأَحَدُ عَبَاقِرَةِ الْمُسْلِمِينَ ... وَعَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِهِمُ الْمُبَرِّزِينَ ...

* * *

أَسْلَمَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ حِينَ وَفَدَ[2] عَلَىٰ يَثْرِبَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ[3] أَوَّلُ مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ ؛ لَكِنَّ أُبَيًّا لَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ دَاعٍ يَدْعُوهُ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ ...

---

(1) الملأ الأعلىٰ : عالم الأرواح المجردة .

(2) وفد علىٰ يثرب : قدم وورد .

(3) مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْر : انظره ص ٣٨٩.

أَوْ مُبَشِّرٍ يُبَشِّرُهُ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ النَّادِرِينَ الَّذِينَ حَذَقُوا(١) الْكِتَابَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَشْبَعُوا الْكُتُبَ(٢) الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بَحْثًا وَدَرْسًا؛ فَعَرَفَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ أَنْ يُنَبَّأَ ...

عَرَفَهُ بِاسْمِهِ الْمُحَدَّدِ ...

وَصِفَاتِهِ الْمُمَيِّزَةِ الدَّقِيقَةِ ...

وَعَلَامَاتِهِ الْفَارِقَةِ الْوَاضِحَةِ ...

فَكَانَ أَشَدَّ مَعْرِفَةً لَهُ مِنْ أَحَدِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ ...

* * *

وَلَمَّا خَرَجَ النَّفَرُ(٣) السَّبْعُونَ السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ يَثْرِبَ إِلَىٰ مَكَّةَ لِيُبَايِعُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ؛ كَانَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فِي طَلِيعَةِ الْمُبَايِعِينَ.

* * *

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ حِينَ قَدِمَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ؛ اتَّخَذَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ كَاتِبًا لَهُ.

فَصَدَرَتْ عُهُودُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَعُقُودُهُ(٤)، وَأُعْطِيَاتُهُ(٥) وَكُتُبُهُ؛ مُذَيَّلَةً بِاسْمِ هَٰذَا الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ.

---

(١) حذقوا: مهروا.
(٢) الكتب المقدسة: الكتب الّتي نزلت من السّماء علَىٰ الرّسل فيها الزّبور والإنجيل والتوراة.
(٣) النفر السّبعون: الجماعة الّذين بايعوا الرّسُول عليه السلام في البيعة الثّانية «بيعة العقبة».
(٤) عقوده: مفرده عقد، وهو إحكام البيع أو اليمين أو العهد.
(٥) أعطياته: ما يعطىٰ من مال أو نحوه.

حَيْثُ كَانَ يَكْتُبُ فِي ذَيْلِ كُلِّ كِتَابٍ :

« شَهِدَ عَلَيْهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَكَتَبَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ » .

ثُمَّ دَرَجَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يُوَقِّعُوا مَا يَكْتُبُونَهُ بِقَوْلِهِمْ :

« وَكَتَبَهُ فُلَانٌ » ...

وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَأَسِّيًا[1] بِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ قَلَّدَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ شَرَفًا يَتَضَاءَلُ[2] عِنْدَهُ كُلُّ شَرَفٍ ، وَأَوْلَاهُ ثِقَةً تَتَصَاغَرُ أَمَامَهَا كُلُّ ثِقَةٍ ...

وَذَلِكَ حِينَ ائْتَمَنَهُ عَلَىٰ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ حَيْثُ جَعَلَهُ أَحَدَ كُتَّابِ الْوَحْيِ ...

فَأُتِيحَ لَهُ أَنْ يَتَلَقَّىٰ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ غَضًّا طَرِيًّا مِنْ فَمِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ تَذَوَّقَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ مِنْ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ مَا لَمْ يَتَذَوَّقْهُ إِلَّا النَّفَرُ الْقَلِيلُ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ .

فَقَدْ رَأَىٰ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ مِنْ رَوْعَةِ الْبَيَانِ ، وَقُوَّةِ الْإِعْجَازِ ، وَسُمُوِّ التَّوْجِيهِ ، وَغَزَارَةِ الْمَعَانِي مَا لَمْ يَقَعْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي دَأَبَ[3] عَلَىٰ قِرَاءَتِهَا مِنْ قَبْلُ .

---

(1) تأسيًا : اقتداءً .

(2) يتضاءل : يصغر ويضعف .

(3) دأب : جد وتعب .

لِذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ بِقَلْبِهِ وَلُبِّهِ[١]...

وَانْقَطَعَ لَهُ بِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ ...

حَتَّىٰ أَصْبَحَ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ ... وَعَمَلَهُ الْمُتَوَاصِلَ ... وَرَاحَةَ نَفْسِهِ ... وَمُتْعَةَ فُؤَادِهِ.

فَكَانَ يَكْتُبُهُ وَحْيًا ؛ حِينَ يَنْزِلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ[٢] عَلَىٰ فُؤَادِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ ...

وَكَانَ يَتْلُوهُ خَالِيًا[٣]؛ فَلَا يَقْطَعُهُ عَنْهُ إِلَّا شُغْلٌ شَاغِلٌ لَا مَنْدُوحَةَ[٤] عَنْهُ، أَوْ نَوْمٌ غَيْرُ مُتَوَاصِلٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ...

وَكَانَ يَتَدَبَّرُهُ مُتَعَلِّمًا وَمُتَفَقِّهًا

وَيَنْفُذُ إِلَىٰ أَعْمَاقِهِ مُعَلِّمًا، وَمُفَقِّهًا ...

حَتَّىٰ غَدَا مِنْ أَوْثَقِ[٥] حَمَلَةِ الْقُرْآنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ :

أَرْحَمُ الْمُسْلِمِينَ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ...

وَأَقْوَاهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ...

وَأَقْضَاهُمْ بَيْنَ الْمُتَقَاضِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ...

وَأَعْرَفُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ[٦]...

---

(١) اللّب : العقل الصافي .
(٢) الروح الأمين : هو جبريل عليه السلام .
(٣) خاليًا : ليس معه أحد .
(٤) لَا مَنْدُوحَةَ : لا بُدَّ ولا مَفَرَّ .
(٥) أوثق : خير من اتُّمن عليه .
(٦) مُعَاذُ بْنُ جَبَل : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

وَأَعْلَمُهُمْ بِالْفَرَائِضِ(١) زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ(٢)

وَأَصْدَقُهُمْ لَهْجَةً(٣) أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ(٤)...

وَآمَنُهُمْ(٥) عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ(٦)...

وَأَقْرَأُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ...

* * *

وَقَدْ خَطَبَ الْفَارُوقُ ذَاتَ يَوْمٍ بِالْجَابِيَةِ(٧) فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ...

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ ؛ فَلْيَأْتِ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفَرَائِضِ ؛ فَلْيَأْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفِقْهِ ؛ فَلْيَأْتِ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْمَالِ ؛ فَلْيَأْتِنِي ...

فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي عَلَيْهِ وَالِيًا ...

وَلَهُ قَاسِمًا ...

* * *

وَقَدْ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَىٰ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ بِمَكْرُمَةٍ ؛ هَزَّتْ فُؤَادَهُ شُكْرًا لِلَّهِ وَحَمْدًا لَهُ ...

---

(١) الفرائض : السنن والواجبات أو الأحكام الَّتي أوجبها عَلَىٰ عباده .
(٢) زَيْدُ بْنُ ثَابِت : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٣) اللهجة : اللسان أي لغة الإنسان الَّتي جبل عليها واعتادها .
(٤) أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيّ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٥) آمنهم : أصدقهم وأوثقهم .
(٦) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاح : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٧) الجابية : قرية غربي دمشق اجتمع فيها عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مع الصحابة للتداول في شئون الفتح ، وخطب فيها خطبته المشهورة ؛ فسمي ذلك اليوم يوم الجابية .

وَأَسَالَتْ عَبَرَاتِهِ فَرْحَةً بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ ، وَابْتِهَاجًا بِمَا أَغْدَقه عَلَيْهِ وَخَصَّهُ بِهِ مِنْ دُونِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ ؛ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَىٰ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَقَالَ :

(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا أُبَيُّ) .

فَاسْتَشْرَفَ[1] لَهُ أُبَيٌّ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ ... وَقَالَ :

آاللَّهُ سَمَّانِي لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟!

أَوَ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟!! .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ :

(نَعَمْ ... إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمَّاكَ لِي ؛ يَا أُبَيُّ) ...

فَاسْتَطَارَ[2] أُبَيٌّ فَرَحًا ...

وَجَعَلَتْ عَيْنَاهُ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمْعِ ...

وَطَفِقَ لِسَانُهُ يَتَلَجْلَجُ[3] بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَخْتَبِرَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ؛ فَسَأَلَهُ قَائِلًا :

(أَيُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ أَعْظَمُ يَا أُبَيُّ ؟) .

فَقَالَ : أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[4]

---

(١) استشرف : رفع بصره ينظر إليه باسطا كفه كالمستظل من الشمس .

(٢) استطار : خفّ وأسرع .

(٣) يَتَلَجْلَجُ : يتردد في الكلام .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٤.

فَسُرَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِإِجَابَتِهِ ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ عَلَىٰ صَدْرِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

(لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ...

لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ) ...

* * *

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَكَانَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فِي الدِّينِ أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ السِّتَّةِ الَّذِينَ يُفْتُونَ ، وَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ حَيٌّ قَائِمٌ بَيْنَ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ .

فَلَقَدْ كَانَ يُفْتِي عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ هُمْ :

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ...

وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ(١) ...

وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ...

وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ هُمْ :

أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ...

وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ...

وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ...

* * *

وَكَمَا كَانَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ نَجْمًا مُتَأَلِّقًا فِي أُفُقِ الْعِلْمِ ؛ فَقَدْ كَانَ عَلَمًا سَبَّاقًا فِي حَلْبَةِ(٢) التُّقَىٰ وَالصَّلَاحِ ، وَنِبْرَاسًا فَذًّا فِي مَجَالَاتِ الزَّهَادَةِ وَالْعِبَادَةِ .

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّان : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) حلبة : هي مجال للسباق .

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَرَأَيْتَ هَٰذِهِ الْأَمْرَاضَ الَّتِي تُصِيبُنَا ؛ هَلْ لَنَا بِهَا شَيْءٌ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّهَا كَفَّارَاتُ ذُنُوبِكُمْ) .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ أُبَيُّ بْن كَعْب ، وَقَالَ :

وَإِنْ قَلَّتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(وَإِنْ كَانَتْ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا) ...

فَدَعَا أُبَيٌّ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَلَّا تُفَارِقَهُ الْحُمَّىٰ حَتَّىٰ يَمُوتَ ...

وَأَلَّا يَشْغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ حَجٍّ وَلَا عُمْرَةٍ ...

وَلَا جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَلَا صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي جَمَاعَةٍ .

فَمَا مَسَّهُ إِنْسَانٌ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا وَجَدَ فِيهِ حَرَّ الْحُمَّىٰ حَتَّىٰ مَاتَ .

* * *

وَقَدْ نَذَرَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ نَفْسَهُ بَعْدَ الْتِحَاقِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ[1] لِإِقْرَاءِ النَّاسِ كِتَابَ اللَّهِ ، وَتَفْقِيهِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ ، وَتَعْلِيمِهِمْ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ ... وَإِرْشَادِهِمْ إِلَىٰ طَرِيقِ الْجَنَّةِ ...

فَكَثُرَ إِقْبَالُ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَازْدِحَامُهُمْ حَوْلَهُ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ ؛ فَقَالَ :

---

(١) الرفيق الأعلىٰ : الله سبحانه وتعالىٰ .

أَوْصِنِي يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ.

فَقَالَ: اِتَّخِذْ كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا ...

وَارْضَ بِمَا جَاءَ فِيهِ قَاضِيًا وَحَكَمًا [1]؛ فَإِنَّهُ الْخَلَفُ [2] الَّذِي اسْتَخْلَفَهُ فِيكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ ...

وَاعْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ شَفِيعٌ لَكُمْ مُطَاعٌ [3] ...

وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ لَا يُتَّهَمُ [4] ...

وَأَنَّ فِيهِ ذِكْرَكُمْ، وَذِكْرَ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَحُكْمَ مَا بَيْنَكُمْ ...

وَفِيهِ خَبَرُكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ.

* * *

وَجَاءَهُ رَجُلٌ آخَرُ؛ فَقَالَ لَهُ: عِظْنِي يَا أَبَا الْمُنْذِرِ.

فَقَالَ:

لَا تَدْخُلَنَّ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ ...

وَلَا تَغْبِطَنَّ [5] حَيًّا بِشَيْءٍ إِلَّا مَا تَغْبِطُهُ بِهِ مَيِّتًا ...

وَلَا تَطْلُبْ حَاجَةً مِمَّنْ لَا يُبَالِي [6] أَلَّا يَقْضِيَهَا لَكَ...

* * *

وَقَدْ أَمَّ الْمَسْجِدَ رَجُلٌ مَحْزُونُ الْقَلْبِ عَلَىٰ رِزْقٍ أُخِذَ مِنْهُ؛ فَحَيَّاهُ أُبَيُّ بْنُ

حَكَمًا: قاضيًا وفاصلًا.

خلف: من يستخلفه الرجل ليحل محله ويقوم مقامه من بعده.

مُطاع: ينقاد له الناس ويسمعون له.

لا يُتَّهَم: لا يُشك فيه.

تغبطنّ: يعظم بعينك وتتمنىٰ مثل حاله دون أن تريد زوالها عنه.

لا يبالي: لا يهتم بالأمر.

كَعْبٍ وَطَيَّبَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ لَهُ :

مَا مِنْ عَبْدٍ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ إِلَّا عَوَّضَهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ...

وَمَا مِنْ عَبْدٍ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحِلُّ لَهُ ؛ إِلَّا سَلَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ...

* * *

وَقَدْ ظَلَّ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَوْئِلًا[1] لِطُلَّابِ الْعِلْمِ حَتَّىٰ عُمِّرَ وَشَاخَ ، وَظَلَّ النَّاسُ يَقْصِدُونَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ حَتَّىٰ وَافَاهُ[2] الْأَجَلُ .

حَدَّثَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ قَالَ :

أَتَيْتُ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺ أَبْتَغِي الْعِلْمَ ؛ فَدَخَلْتُ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَإِذَا النَّاسُ فِيهِ حِلَقٌ حِلَقٌ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ أَهْلِ الْعِلْمِ ...

فَجَعَلْتُ أَمْضِي مِنْ حَلْقَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ ؛ حَتَّىٰ أَتَيْتُ حَلْقَةً فِيهَا رَجُلٌ شَاحِبُ[3] اللَّوْنِ مَهْزُولُ الْجِسْمِ ؛ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ كَأَنَّمَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ...

فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ ... فَتَحَدَّثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ قَامَ يُرِيدُ الِانْصِرَافَ إِلَىٰ بَيْتِهِ ؛ فَقُلْتُ لِرَجُلٍ قَرِيبٍ مِنِّي : مَنْ هَٰذَا ؟

فَقَالَ : وَيْحَكَ !! أَلَا تَعْرِفُهُ ؟!

هَٰذَا سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ ...

هَٰذَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ .

قَالَ جُنْدُبٌ :

---

(١) موئلًا : ملجأ .

(٢) وافاه الأجل : توفي .

(٣) شاحب : متغير لونه مصفر .

فَتَبِعْتُهُ حَتَّىٰ أَتَىٰ مَنْزِلَهُ ؛ فَإِذَا هُوَ كَمَنَازِلِ الْفُقَرَاءِ ...

وَإِذَا هُوَ يَعِيشُ فِيهِ عِيشَةَ رَجُلٍ زَاهِدٍ مُنْقَطِعٍ(١) .

فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ؛ فَرَدَّ السَّلَامَ بِأَحْسَنَ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟

فَقُلْتُ : مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، ثُمَّ هَمَمْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ ...

فَقَالَ : لَقَدْ أَكْثَرْتُمْ عَلَيَّ الْيَوْمَ .

فَأَغْضَبَنِي قَوْلُهُ وَجَثَوْتُ(٢) عَلَىٰ رُكْبَتَيَّ ، وَاسْتَقْبَلْتُ الْقِبْلَةَ ، وَرَفَعْتُ يَدَيَّ ، وَقُلْتُ :

اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُوهُمْ إِلَيْكَ ...

فَنَحْنُ نُنْفِقُ نَفَقَاتِنَا ، وَنُنْصِبُ(٣) أَبْدَانَنَا ، وَنُضْنِي مَطَايَانَا ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ ؛ فَإِذَا لَقِينَاهُمْ تَجَهَّمُوا(٤) لَنَا ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ كَلَامِي ؛ حَتَّىٰ انْدَفَعَ يَبْكِي ...

ثُمَّ طَفِقَ يَتَرَضَّانِي وَيَقُولُ :

وَيْحَكَ ! ... إِنِّي لَمْ أُرِدْ ذَلِكَ ، وَلَمْ أَذْهَبْ(٥) إِلَىٰ مَا بَدَا لَكَ ...

ثُمَّ قَالَ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أُعَاهِدُكَ عَلَىٰ إِنْ أَبْقَيْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ؛ لَأَتَكَلَّمَنَّ بِمَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَخْشَىٰ فِيهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

منقطع : منصرف للعبادة .
جثوت : جلست عَلَىٰ ركبتي .
نصب أبداننا : أي نتعبها .
تجهموا لنا : استقبلونا بوجه عبوس .
أذهب إلىٰ ما بدا لك : لم أقصد ما فهمته .

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ انْصَرَفْتُ ، وَجَعَلْتُ أَنْتَظِرُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ...

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْخَمِيسِ ؛ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي ... فَإِذَا السِّكَكُ[1] غَاصَّةٌ[2] بِالنَّاسِ ؛ فَلَا أَجِدُ سِكَّةً إِلَّا أَلْقَىٰ فِيهَا جُمُوعًا مُتَرَاصَّةً ...

فَاسْتَوْقَفْتُ بَعْضَهُمْ وَقُلْتُ : مَا شَأْنُ النَّاسِ ؟! .

فَقَالُوا : إِنَّا نَحْسَبُكَ غَرِيبًا ...

فَقُلْتُ : نَعَمْ إِنِّي غَرِيبٌ .

فَقَالُوا : مَاتَ سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ ... مَاتَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ ...

* * *

نَضَّرَ اللَّهُ ضَرِيحَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ حَامِلِ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَكَاتِبِ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ (*) .

---

(١) السكك : واحدتها سكة وهي الزقاق .

(٢) غَاصَّة بِالنَّاس : أي ممتلئة بهم .

(*) للاستزادة من أخبار أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ الأَنْصَارِيّ انظر :

١ - حلية الأولياء : ١/ ٥٠.

٢ - أسد الغابة : ١/ ٦١.

٣ - تهذيب التهذيب : ١/ ١٨٧.

٤ - الإصابة : ١/١٩ أو « الترجمة » ٣٢.

٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/ ٤٧.

٦ - سير أعلام النبلاء : ١/ ٣٨٩.

٧ - الطبقات الكبرىٰ : ٣/ ٤٩٨.

مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيّ

**« أَوَّلُ قَائِدٍ مُسْلِمٍ يَقُودُ جَيْشًا مِنْ سِتَّةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ ،
وَيَدْخُلُ بِهِمْ أَرْضَ الرُّومِ »**

هَا نَحْنُ أُولَاءِ فِي مَكَّةَ ؛ عَلَىٰ رَأْسِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ مِنْ بَعْثَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَهَا هُوَ ذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ فَاصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

فَيَعْلَمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً مِنْ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ قَدْ بَدَأَتْ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ طَوْرِ الْإِسْرَارِ إِلَىٰ طَوْرِ الْإِعْلَانِ .

فَبَادَرَ الرَّسُولُ ﷺ لِإِنْفَاذِ مَا أُمِرَ بِهِ ، وَطَفِقَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ اللَّهِ جَهْرًا ؛ بَعْدَ أَنْ قَضَىٰ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ سِرًّا .

فَلَمْ يَتْرُكْ مُجْتَمَعًا مِنْ مُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِ إِلَّا قَصَدَهُ ، وَلَا قَبِيلَةً مِنْ قَبَائِلِهِمْ إِلَّا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَسَأَلَهَا أَنْ تُؤْوِيَهُ وَتَحْمِيَهُ ؛ حَتَّىٰ يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ .

* * *

وَكَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ تَجْتَمِعُ كُلَّ عَامٍ نَحْوًا مِنْ شَهْرَيْنِ فِي أَسْوَاقِ عُكَاظٍ ، وَمَجَنَّةَ ، وَذِي الْمَجَازِ ...

فَيَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ ...

وَيَتَنَاشَدُونَ الْأَشْعَارَ فِي الْمَحَافِلِ ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِالْمَآثِرِ عَلَىٰ الْمَنَابِرِ ...

---

(١) فاصْدَعْ : أي اجهر بدعوة الحق.

(٢) سورة الحجر آية ٩٤.

وَتَعْزِفُ لَهُمُ الْقِيَانُ[1] بِالْمَعَازِفِ ...

وَيَشْهَدُونَ الرَّقْصَ، وَيَشْرَبُونَ الْخُمُورَ.

حَتَّىٰ إِذَا مَا انْتَهَوْا مِنْ مَوْسِمِهِمْ هَٰذَا؛ مَضَوْا إِلَىٰ الْأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ؛ لِأَدَاءِ مَنَاسِكِ حَجِّهِمْ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْتَنِمُ فُرْصَةَ ذَلِكَ الْمَوْسِمِ الْكَبِيرِ؛ الَّذِي يَجْمَعُ شَمْلَ الْعَرَبِ كُلِّ الْعَرَبِ ...

فَيَسْأَلُ عَنِ الْقَبَائِلِ قَبِيلَةً قَبِيلَةً ...

وَيَتَتَبَّعُ مَنَازِلَهُمْ مَنْزِلًا فَمَنْزِلًا

وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ دَعْوَتَهُ وَيَذْكُرُ لَهُمْ خِذْلَانَ[2] قَوْمِهِ لَهُ، وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يُؤْوُوهُ وَيَنْصُرُوهُ؛ حَتَّىٰ يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ.

وَيَعِدُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَنَّةَ.

فَكَانَ بَعْضُهُمْ يُؤْذِيهِ بِلِسَانِهِ؛ فَيَسْخَرُ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُ بِهِ ...

وَبَعْضُهُمْ يُؤْذِيهِ بِيَدِهِ؛ فَيَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ، أَوْ يَنْخَسُ[3] نَاقَتَهُ بِعُودٍ أَوْ نَحْوِهِ؛ فَتَجْفَلُ وَتَعْثُرُ ...

وَبَعْضُهُمْ يَرُدُّهُ رَدًّا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الرِّفْقِ، وَهُمْ قَلِيلٌ.

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ الصَّدِّ الَّذِي يَلْقَاهُ؛ كَانَ لَا يَمَلُّ، وَلَا يَكَلُّ، وَلَا يَفْتُرُ.

* * *

(١) القينة: المغنية.
(٢) خِذْلَانَ قَوْمِهِ لَه: ترك نُصرته.
(٣) يَنْخَس نَاقَتَه: يَغْرِسُ جَنْبَهَا أَوْ مُؤَخِّرَتَهَا بِعُودٍ أو نَحْوِه؛ فَيُهَيِّجُهَا وَيُزْعِجُهَا.

وَفِي مَوْسِمٍ مِنْ هَٰذِهِ الْمَوَاسِمِ ؛ كَانَتْ قَبِيلَةُ عَبْسٍ قَدْ بَاعَتْ وَاشْتَرَتْ ، ثُمَّ خَفَّتْ إِلَىٰ مِنًى[1] لِقَضَاءِ حَجِّهَا ، وَنَزَلَتْ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَىٰ بِالْقُرْبِ مِنْ مَسْجِدِ الْخَيْفِ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ ، وَقَدْ أَرْدَفَ خَلْفَهُ حِبَّهُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ[2]

وَكَانَ بَنُو عَبْسٍ قَدْ سَمِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَٰكِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ بَعْدُ .

فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ... وَأَخَذَ يُبَشِّرُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَحَاسِنَ الْإِسْلَامِ ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا يَتَيَسَّرُ لَهُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ خِذْلَانَ قُرَيْشٍ لَهُ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ إِيوَائِهِ وَنُصْرَتِهِ ؛ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَ رِسَالَةَ رَبِّهِ ، وَيَعِدُهُمُ الْجَنَّةَ .

* * *

وَكَانَ فِي الْقَوْمِ مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيُّ .

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَقَالَ :

تَعَالَوْا يَا قَوْمُ نُؤْوِ هَٰذَا الرَّجُلَ وَنَنْصُرْهُ ...

فَوَاللَّهِ ! مَا سَمِعْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ كَلَامًا أَنْوَرَ مِنْ كَلَامِهِ أَوْ أَعْدَلَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ :

دَعْ عَنْكَ هَٰذَا يَا مَيْسَرَةُ ...

وَاللَّهِ إِنَّ قَوْمَ الرَّجُلِ أَدْرَىٰ بِهِ مِنْكَ .

---

(1) مِنَىٰ وادي يحيط به الجبال من الجهتين الشمالية والجنوبية ويقع بين مكة المكرمة والمزدلفة .
(2) زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

وَلَوْ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ لَمَا نَبَذُوهُ[1] وَتَرَكُوهُ يَبْذُلُ[2] نَفْسَهُ لِلْقَبَائِلِ ، ثُمَّ لَا يَجِدُ فِيهَا مَنْ يَرْضَاهُ .

وَقَاطَعَهُ آخَرُ ؛ فَقَالَ : نَعَمْ ...

إِلَيْكَ عَنْهُ يَا مَيْسَرَةُ ...

فَوَاللَّهِ مَا يَرْجِعُ بِهِ رَجُلٌ إِلَىٰ قَوْمِهِ ؛ إِلَّا عَادَ إِلَيْهِمْ بِشَرٍّ مَا يَرْجِعُ بِهِ أَهْلُ هَٰذَا الْمَوْسِمِ .

فَقَالَ مَيْسَرَةُ :

أَحْلِفُ لَكُمْ بِاللَّهِ ؛ لَيَظْهَرَنَّ أَمْرُ هَٰذَا الرَّجُلِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ كُلَّ مَبْلَغٍ ...

فَاسْتَمِعُوا إِلَىٰ نُصْحِي ، وَآوُوهُ وَانْصُرُوهُ .

فَطَمِعَ الرَّسُولُ ﷺ بِمَيْسَرَةَ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَتَشَبَّثَ بِهِ .

فَقَالَ لَهُ مَيْسَرَةُ :

وَاللَّهِ ! مَا سَمِعْتُ قَبْلَ هَٰذَا الْيَوْمِ كَلَامًا أَحْسَنَ مِنْ كَلَامِكَ ...

وَلَا دُعِيتُ إِلَىٰ أَمْرٍ أَعْدَلَ مِنْ أَمْرِكَ ...

وَلَكِنَّ قَوْمِي يُخَالِفُونَنِي كَمَا رَأَيْتَ ...

وَإِنَّمَا الرَّجُلُ بِقَوْمِهِ .

* * *

انْقَضَىٰ عَلَىٰ لِقَاءِ ذَلِكَ الرَّهْطِ[3] مِنْ بَنِي عَبْسٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوٌ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا ؛ نَصَرَ اللَّهُ خِلَالَهَا عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ...

---

(١) نَبَذُوه : تركوه .

(٢) يَبْذُلُ نَفْسَه : يعرضها في امتهان .

(٣) الرَّهْط : القوم والجماعة .

وَأَظْهَرَ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَمْرَهُ ، وَرَفَعَ لَهُ فِي الْخَافِقَيْنِ[1] ذِكْرَهُ ...

وَفُتِحَتْ لَهُ مَكَّةُ ، وَدَانَتْ قُرَيْشٌ لِحُكْمِهِ .

وَطَفِقَتْ أَفْوَاجُ الْعَرَبِ ـ الَّتِي لَمْ تُسْلِمْ بَعْدُ ـ تَفِدُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ ؛ لِتُسْلِمَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتُبَايِعَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

وَكَانَ فِيمَنْ وَفَدَ عَلَيْهِ قُبَيْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِقَلِيلٍ ؛ مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيُّ .

فَلَمَّا مَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ ؛ قَالَ :

أَعَرَفْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ : (نَعَمْ ؛ صَاحِبُ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْخَيْفِ فِي مِنًى) .

فَقَالَ مَيْسَرَةُ : وَاللَّهِ ! يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا زِلْتُ ـ مُنْذُ أَنَخْتَ[2] رَاحِلَتَكَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ـ حَرِيصًا عَلَىٰ اتِّبَاعِكَ ...

وَأَبَىٰ اللَّهُ إِلَّا مَا تَرَىٰ مِنْ تَأْخِيرِ إِسْلَامِي ، وَقَدْ هَلَكَ[3] عَامَّةُ النَّفَرِ الَّذِينَ كَانُوا مَعِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ فَأَيْنَ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(كُلُّ مَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ ؛ فَهُوَ فِي النَّارِ) .

فَبَكَىٰ مَيْسَرَةُ وَقَالَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَنِي بِكَ مِنَ النَّارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

---

[1] ...خافِقَيْن : الشرق والغرب .
[2] ...نخْتَ رَاحِلَتَك : أبْرَكْتَها .
[3] هلك : مات .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَنِي بِكَ مِنَ النَّارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

* * *

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَن لَحِقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ ...

وَآلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...

وَشَبَّتْ نَارُ فِتْنَةِ الرِّدَّةِ ...

وَجَعَلَتْ أَكْثَرُ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ تَقُولُ : نُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَلَكِنَّنَا لَا نُعْطِي الزَّكَاةَ .

وَعَظُمَ الْخَطْبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْكَرْبُ ، وَخَافُوا عَلَىٰ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُهَاجِمَهَا الْمُرْتَدُّونَ ؛ مُسْتَغِلِّينَ خُلُوَّهَا مِنَ الْجُنْدِ بِسَبَبِ بَعْثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ(١) .

فَكَلَّمَ بَعْضُهُمُ الصِّدِّيقَ وَقَالُوا : اِقْبَلْ مِنْهُمُ الصَّلَاةَ وَلَا تُلْزِمْهُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَاتْرُكْهُمْ حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ الْإِيمَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فَيُزَكُّوا .

فَانْتَفَضَ الصِّدِّيقُ لِقَوْلَتِهِمْ هَٰذِهِ انْتِفَاضَةَ الْأَسَدِ الْجَرِيحِ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ ! لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ...

وَالَّذِي بَعَثَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْحَقِّ ؛ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا(٢) كَانُوا يُؤَدُّونَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْمُدَمِّرَةِ الْعَمْيَاءِ ؛ خَرَجَ مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيُّ مِنْ دِيَارِ قَوْمِهِ فِي نَجْدٍ عَلَىٰ مَرْأًى مِنَ الْمُرْتَدِّينَ وَمَسْمَعٍ ، وَمَعَهُ نَفَرٌ كَبِيرٌ مِنْ قَوْمِهِ .

---

(١) أُسَامَةَ بْنِ زَيْد : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) العِقَال : ما تعقل به الفرس ، وهو حبل يربط في رجل الفرس فيمنعها عن العدو .

وَقَدْ سَاقُوا أَمَامَهُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ مِنْ سِمَانِ الشِّيَاهِ وَكَرَائِمِ الْإِبِلِ، وَحَمَّلُوهَا بِأَصْنَافِ الْغَلَّاتِ؛ مِمَّا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ...

وَمَضَوْا بِهَا نَحْوَ أَرْضِ الْحِجَازِ؛ تَرْفَعُهُمُ النِّجَادُ[1] وَتَحُطُّهُمُ الْوِهَادُ[2]... فَإِذَا عَلَوْا مُرْتَفَعًا كَبَّرُوا، وَإِذَا هَبَطُوا مُنْخَفَضًا سَبَّحُوا.

فَلَمَّا بَلَغَ مَيْسَرَةُ الْمَدِينَةَ؛ دَخَلَهَا وَهُوَ يَسُوقُ أَمَامَهُ ذَلِكَ الْقَطِيعَ الْكَبِيرَ الَّذِي ازْدَحَمَتْ بِهِ الْأَزِقَّةُ... حَتَّىٰ أَنَاخَهُ أَمَامَ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.

فَفَرِحَ بِهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَعْظَمَ الْفَرَحِ، وَتَلَقَّاهُ الصِّدِّيقُ بِالْغِبْطَةِ وَقَالَ لَهُ:

بَارَكَ اللَّهُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَثَابَكُمُ الْجَنَّةَ.

ثُمَّ أَوْصَىٰ بِهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ[3]

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ تَوَثَّقَتْ عُرَىٰ الْمَوَدَّةِ بَيْنَ مَيْسَرَةَ بْنِ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيِّ وَبَيْنَ سَيْفِ اللَّهِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؛ فَانْضَوَىٰ مَيْسَرَةُ تَحْتَ لِوَائِهِ وَمَضَىٰ مَعَهُ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ شَيْخًا قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ.

* * *

وَفِي مَعْرَكَةِ «فَحْلٍ» بِالْأُرْدُنِّ؛ اشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَكَادَ يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ الرُّومُ...

فَبَرَزَ مِنْ مُعَسْكَرِ الْأَعْدَاءِ فَارِسٌ مَوْفُورُ الشَّبَابِ وَثِيقُ الْخِلْقَةِ؛ شَدِيدُ الْبَأْسِ، وَجَعَلَ يَطْلُبُ مُبَارِزًا يُبَارِزُهُ؛ فَهَابَهُ النَّاسُ.

فَإِذَا بِالشَّيْخِ الْمُسِنِّ مَيْسَرَةَ بْنِ مَسْرُوقٍ؛ يَهِبُّ لِمُبَارَزَتِهِ...

---

(١) النجاد: جمع نجد وهو المكان المرتفع.

(٢) الوهاد: جمع وهد وهو المكان المنخفض.

(٣) خالد بن الوليد: انظره ص ١٨٧.

فَرَدَّهُ خَالِدٌ وَقَالَ :

لَيْسَ لَكَ بِهِ طَاقَةٌ ؛ فَهُوَ شَابٌّ شَدِيدُ الْفَتَاءِ وَأَنْتَ شَيْخٌ مُعَمَّرٌ .

فَلَمْ يَسْتَمِعْ مَيْسَرَةُ لِقَوْلِهِ ، وَهَمَّ بِالْمُضِيِّ نَحْوَ الْفَارِسِ .

فَدَفَعَهُ خَالِدٌ إِلَىٰ الصَّفِّ وَهُوَ يَقُولُ :

أَمَا بَايَعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الطَّاعَةِ ؛ فَأَطِعْ وَارْجِعْ إِلَىٰ صَفِّكَ .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ بَرَزَ لِلْفَارِسِ الرُّومِيِّ شَابٌّ مِنْ شُبَّانِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا زَالَ يُقَاتِلُهُ حَتَّىٰ قَتَلَهُ .

* * *

وَكَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُهُ ؛ قَدِ ادَّخَرَ مَيْسَرَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ لِيَكُونَ أَوَّلَ قَائِدٍ مُسْلِمٍ يَقُودُ جَيْشًا مِنْ سِتَّةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ ، وَيَدْخُلُ بِهِمْ أَرْضَ الرُّومِ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

ثُمَّ يَعُودُ مِنْ غَزْوَتِهِ مُؤَيَّدًا بِنَصْرِ اللَّهِ ، حَامِلًا مَعَهُ مِنَ الْأَسْلَابِ وَالْغَنَائِمِ مَا فَاقَ كُلَّ تَقْدِيرٍ ...

مُعَبِّدًا الطَّرِيقَ أَمَامَ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ؛ مُنْذُ عَهْدِهِ إِلَىٰ زَمَنِ مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ الَّذِي فَتَحَ الْقِسْطَنْطِينِيَّةَ فِيمَا بَعْدُ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار مَيْسَرَةَ بْنِ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيِّ انظر :

١ - البداية : ٣/ ١٤٥، ٧/ ١٤٣.

٢ - الكامل : ٢/ ٢٤٠.

٣ - أسد الغابة : ٥/ ٢٨٥.

٤ - حياة الصحابة : ١/ ١٢٨.

٥ - الإصابة : ٣/٤٦٩ أو «الترجمة» ٨٣٨١.

حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

«أَسَدُ اللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَسَيِّدُ شُهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ»

هَٰذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ كَانَ تِرْبًا(١) لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ كَانَا صَبِيَّيْنِ يَدْرُجَانِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ .

وَكَانَ أَخًا لَهُ مِنَ الرَّضَاعِ ؛ حَيْثُ تَغَذَّيَا مِنْ ثَدْيٍ وَاحِدٍ ...

وَكَانَ يَتَّصِلُ بِهِ بِأَوْثَقِ وَشَائِجِ الْقُرْبَىٰ ...

ذَلِكُمْ هُوَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ عَمُّ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ ، وَسَيِّدُ شُهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

كَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَوْمَ نُبِّئَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ قَدْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ قَلِيلًا ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ الْمَعْدُودِينَ ...

وَصِنْدِيدًا(٢) مِنْ صَنَادِيدِهِمُ الْمَرْمُوقِينَ .

تَحْسِبُ لَهُ مَكَّةُ أَلْفَ حِسَابٍ ، وَيُكِنُّ لَهُ أَهْلُهَا الْحُبَّ الْمَشْفُوعَ(٣) بِالتَّجِلَّةِ وَالْإِعْظَامِ ...

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الصِّلَاتِ الْوَاشِجَةِ(٤) بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ

---

(١) ترب الرجل : صديقه ومن كان في سنه .
(٢) الصِّنْدِيد : السيد الشجاع والرئيس العظيم .
(٣) الْمَشْفُوع : المقرون .
(٤) الصلات الواشجة : الصلات الوثيقة المتينة .

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

فَإِنَّهُ لَمْ يُعِرْ دَعْوَتَهُ كَبِيرَ اهْتِمَامٍ ...

وَلَمْ يُسْلِمْ حِينَ أَنْذَرَ الرَّسُولُ ﷺ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ الْفَارِسُ الْهَاشِمِيُّ صَاحِبَ صَيْدٍ ؛ يَجِدُ فِيهِ مِتْعَتَهُ الْكُبْرَىٰ ، وَيَسْتَنْفِدُ فِي كَرِّهِ وَفَرِّهِ طَاقَاتِهِ الزَّاخِرَةِ الْمَشْبُوبَةِ ...

وَفِيمَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ رَاجِعًا مِنْ صَيْدِهِ ؛ مُتَنَكِّبًا[١] قَوْسَهُ عَارِضًا رُمْحَهُ ؛ يَمْشِي مِشْيَةَ الزَّهْوِ وَالْخُيَلَاءِ ...

إِذِ اعْتَرَضَتْهُ مَوْلَاةٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ[٢] وَقَالَتْ لَهُ :

لَوْ أَنَّكَ - يَا أَبَا عُمَارَةَ - سَمِعْتَ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ سِبَابِ أَبِي الْحَكَمِ[٣] لِابْنِ أَخِيكَ مُحَمَّدٍ ...

وَرَأَيْتَ مَا رَأَيْتُهُ مِنْ هَجْمَتِهِ عَلَيْهِ ؛ لَكَانَ لَكَ الْيَوْمَ شَأْنٌ آخَرُ ...

فَمَا كَادَتْ كَلِمَاتُهَا تُلَامِسُ سَمْعَهُ ؛ حَتَّىٰ اسْتَشَاطَ غَيْظًا وَتَمَيَّزَ صَدْرُهُ حَمِيَّةً ، وَسَأَلَ الْفَتَاةَ عَمَّا إِنْ كَانَ قَدْ رَآهُ أَحَدٌ وَهُوَ يَسُبُّهُ .

فَقَالَتْ : لَقَدْ رَآهُ نَاسٌ كَثِيرٌ ...

فَعَادَ الْفَارِسُ الْهَاشِمِيُّ أَدْرَاجَهُ ...

---

(١) متنكبًا قوسه : ملقيها عَلَىٰ منكبه ، والمنكب : الكتف .
(٢) عبد اللّه بن جدعان : أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية وأدرك النبي ﷺ قبل النبوة .
(٣) أبو الحكم : هُوَ أَبُو جَهْل... انظر مصرعه في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

وَيَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَ الصَّفَا[1]؛ حَيْثُ كَانَ أَبُو جَهْلٍ يَتَوَسَّطُ حَلْقَةَ الْقَوْمِ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَضَرَبَهُ بِقَوْسِهِ ضَرْبَةً؛ شَجَّتْ رَأْسَهُ ... وَأَسَالَتْ دَمَهُ ...

ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَجَهَرَ بِكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَقَالَ مُتَحَدِّيًا: هَا أَنَا ذَا قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِذَا كَانَ فِي وُسْعِ قُرَيْشٍ أَنْ تَرُدَّنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؛ فَلْتَفْعَلْ.

وَلَمَّا رَأَىٰ بَنُو مَخْزُومٍ دِمَاءَ سَيِّدِهِمْ أَبِي جَهْلٍ تَنْزِفُ مِنْ رَأْسِهِ وَتُغَطِّي وَجْهَهُ؛ نَهَضُوا إِلَىٰ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنْهُ ...

فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي جَهْلٍ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُمْ:

دَعُوا أَبَا عَمَارَةَ ... فَقَدْ أَهَنْتُهُ فِي ابْنِ أَخِيهِ؛ حِينَ سَبَبْتُهُ وَشَتَمْتُهُ عَلَىٰ مَلَإٍ[2] مِنَ النَّاسِ.

* * *

وَفِي لَمْحِ الْبَرْقِ؛ ذَاعَ نَبَأُ إِسْلَامِ حَمْزَةَ فِي مَكَّةَ ... فَوَقَعَ ذَلِكَ الْخَبَرُ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ.

أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

فَحَدِّثْ بِمَا شِئْتَ عَنْ فَرْحَتِهِ بِإِسْلَامِ عَمِّهِ وَلَا حَرَجَ ...

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ؛ فَقُلْ مَا طَابَ لَكَ الْقَوْلُ عَنْ بَهْجَتِهِمْ بِانْضِمَامِ صِنْدِيدِ قُرَيْشٍ إِلَيْهِمْ ... فَهُمْ عَرَفُوا فِي مَكَّةَ يَوْمَيْنِ أَبْهَجَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَعَزَّ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ هُمَ [illegible] يَوْمُ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ...

---

[1] [illegible] موضعٌ بمكة.

[2] ملإٍ من النَّاس: جموعٍ من النَّاس.

وَيَوْمُ إِسْلَامِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَمَا إِنْ أَسْلَمَا حَتَّىٰ عَزَمَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِأَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ وَيَطُوفَ بِهَا ...

وَيُؤَدِّيَ صَلَاتَهُ عِنْدَهَا عَلَىٰ مَسْمَعٍ وَمَرْأًى مِنْ قُرَيْشٍ ...

وَاسْتَجَابَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَخَرَجَ فِي حِرَاسَتِهِمَا :

أَحَدُهُمَا أَمَامَهُ ، وَالْآخَرُ وَرَاءَهُ ... حَتَّىٰ بَلَغَ الْكَعْبَةَ الْمُعَظَّمَةَ .

فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ...

وَصَلَّىٰ الظُّهْرَ عِنْدَهُ آمِنًا مُطْمَئِنًّا ...

ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَىٰ دَارِ الْأَرْقَمِ(١) وَعُيُونُ قُرَيْشٍ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَقُلُوبُهُمْ تَمَيَّزُ غَيْظًا مِنْهُ ، وَضَغِينَةً عَلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ... كَانَ أَوَّلُ لِوَاءٍ عَقَدَهُ لِعَمِّهِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَهُوَ أَوَّلُ لِوَاءٍ عُقِدَ فِي الْإِسْلَامِ(٢).

وَفِي يَوْمِ بَدْرٍ أَبْلَىٰ حَمْزَةُ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ أَشَدَّ الْبَلَاءِ وَأَعْظَمَهُ ؛ فَكَانَ ثَقِيلَ الْوَطْأَةِ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ ...

شَدِيدَ النِّكَايَةِ(٣) بِهِمْ .

---

(١) دَارِ الْأَرْقَمِ : دار بمكة تسمىٰ [دار الإسلام] كانت للأرقم بن عبد مناف المخزومي ، وفيها كان الرسول ﷺ يدعو الناس إلىٰ الإسلام .

(٢) روي أن أوّل لواء عقد في الإسلام كان لعبد اللّه بن جحش رضي اللّه عنه وقيل غير ذلك .

(٣) شديد النكاية : شديد البطش .

فَمَا إِنِ الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَغَرِّ؛ حَتَّىٰ بَرَزَ حَمْزَةُ كَالْجَمَلِ الْأَوْرَقِ(١).

وَقَدْ وَضَعَ عَلَىٰ صَدْرِهِ عَلَامَةً تُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْصِدَهُ.

وَكَانَتْ عَلَامَتُهُ رِيشَةُ نَعَامَةٍ حَمْرَاءُ أَثْبَتَهَا عَلَىٰ صَدْرِهِ...

وَهُنَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيُّ - وَكَانَ رَجُلًا شَرِسًا سَيِّئَ الْخُلُقِ - فَقَالَ:

أُعَاهِدُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ(٢) لَأَشْرَبَنَّ مِنْ حَوْضِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ لَأَهْدِمَنَّهُ، أَوْ لَأَمُوتَنَّ دُونَهُ...

فَبَرَزَ لَهُ حَمْزَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَطَارَتْ سَاقَهُ...

فَوَقَعَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ وَالدِّمَاءُ تَشْخُبُ(٣) مِنْهُ.

ثُمَّ جَعَلَ يَحْبُو نَحْوَ الْحَوْضِ لِيَبَرَّ بِيَمِينِهِ؛ فَأَجْهَزَ عَلَيْهِ حَمْزَةُ قَبْلَ أَنْ يَنَالَ مُبْتَغَاهُ.

* * *

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَعْدِهِ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَمَعَهُ أَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنُهُ الْوَلِيدُ؛ فَلَمَّا فَصَلُوا(٤) عَنِ الصَّفِّ دَعَوْا إِلَىٰ الْمُبَارَزَةِ...

حمل الأورق: الجمل الذي لونه كلون الرماد، وهو من أقوىٰ الجمال.

عن هدم الأصنام في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.

تشخب منه: تنزف منه.

فصلوا عن الصف: خرجوا عنه.

فَنَهَدَ[1] إِلَيْهِمْ فِي لَمْحَةِ الطَّرْفِ ؛ ثَلَاثَةُ فِتْيَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَعْوَادِ الرِّمَاحِ .

فَقَالَ لَهُمْ عُتْبَةُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟

فَقَالُوا : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ : ارْجِعُوا مَا لَنَا بِكُمْ حَاجَةٌ .

ثُمَّ نَادَوْا : يَا مُحَمَّدُ ... أَخْرِجْ لَنَا الْأَكْفَاءَ[2] مِنْ بَنِي قَوْمِنَا ...

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الْحَارِثِ ...

وَقُمْ يَا حَمْزَةُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ...

وَقُمْ يَا عَلِيُّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ) .

فَقَالَ عُتْبَةُ : الْآنَ نَعَمْ ... أَكْفَاءٌ كِرَامٌ .

فَقَامَ عَلِيٌّ إِلَىٰ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ ، وَكَانَا شَابَّيْنِ مُتَشَابِهَيْنِ ؛ فَقَتَلَهُ .

ثُمَّ قَامَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَىٰ شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَكَانَا مُتَقَارِبَيْنِ سِنًّا ؛ فَقَتَلَهُ .

وَقَامَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ[3] إِلَىٰ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَكَانَا شَيْخَيْنِ ؛ فَقَتَلَهُ ...

ثُمَّ اسْتُشْهِدَ عُبَيْدَةُ مُتَأَثِّرًا بِجِرَاحِهِ .

وَمَا إِنْ قُتِلَ أَبْطَالُ قُرَيْشٍ الثَّلَاثَةُ فِي لَحَظَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ حَتَّىٰ حَمِيَ وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ ، وَأَبْلَىٰ حَمْزَةُ بَلَاءً مَلَأَ قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ حِقْدًا عَلَيْهِ وَكَيْدًا مِنْهُ .

* * *

(١) نهد إليهم : أسرع إليهم .

(٢) الكفء : المثيل والنظير .

(٣) عبيدة بن الحارث : صحابي جليل أسلم قديمًا ، وكان من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام وقد عقد له الرسول ﷺ بعض الألوية .

وَلَمَّا بَلَغَتْ هِنْدٌ حَمْزَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ شَقَّتْ صَدْرَهُ ، وَاجْتَثَّتْ كَبِدَهُ وَمَضَغَتْهُ ؛ فَلَمْ تُسِغْهُ(١) فَلَفَظَتْهُ ... وَمِنْ هُنَا دُعِيَتْ « بِآكِلَةِ الْمِرَارِ » .

* * *

وَلَمَّا انْجَلَىٰ غُبَارُ الْمَعْرَكَةِ ، وَشَاعَ خَبَرُ التَّمْثِيلِ بِالْمُسْلِمِينَ ...

خَيَّمَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ حُزْنٌ عَمِيقٌ ، وَأَقْبَلَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ(٢) عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِتَرَىٰ مَا حَلَّ بِأَخِيهَا ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِابْنِهَا الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ(٣):

(الْقَهَا فَأَرْجِعْهَا حَتَّىٰ لَا تَرَىٰ مَا بِأَخِيهَا) .

فَبَادَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ : يَا أُمَّهْ ؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكِ بِالرُّجُوعِ .

قَالَتْ : وَلِمَ ؟! لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ مُثِّلَ بِأَخِي ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ ...

وَاللَّهِ لَأَصْبِرَنَّ وَأَحْتَسِبَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَأَخْبَرَ الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَتْ .

فَقَالَ : (خَلِّ سَبِيلَهَا) .

فَأَتَتْ أَخَاهَا ...

فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ وَصَلَّتْ عَلَيْهِ ، وَاسْتَرْجَعَتْ(٤) وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ ؛ ثُمَّ قَالَتْ :

هَٰذَانِ ثَوْبَانِ جِئْتُ بِهِمَا لِيُكَفَّنَ بِهِمَا .

* * *

(١) لم تسغه : لم تستطع ابتلاعه .

(٢) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِب : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٣) الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّام: انظره ص ١٦٥.

(٤) استرجعت : قالت إنّا للّه وإنا إليه راجعون .

قَالَ الزُّبَيْرُ :

فَلَمَّا هَمَمْنَا أَنْ نُكَفِّنَ حَمْزَةَ بِهِمَا ؛ فَإِذَا إِلَىٰ جَنْبِهِ رَجُلٌ شَهِيدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مُثِّلَ بِهِ كَمَا مُثِّلَ بِحَمْزَةَ ؛ فَوَجَدْنَا غَضَاضَةً[1] وَحَيَاءً أَنْ نُكَفِّنَ حَمْزَةَ فِي ثَوْبَيْنِ وَالْأَنْصَارِيُّ لَا كَفَنَ لَهُ ؛ فَقُلْنَا :

لِحَمْزَةَ ثَوْبٌ ، وَلِلْأَنْصَارِيِّ ثَوْبٌ ...

ثُمَّ نَظَرْنَا ؛ فَإِذَا أَحَدُ الثَّوْبَيْنِ أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ ... فَأَقْرَعْنَا[2] بَيْنَهُمَا ؛ فَكَفَّنَّا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالثَّوْبِ الَّذِي صَارَ لَهُ ...

وَكَانَ حَمْزَةُ رَجُلًا طُوَالًا ؛ فَإِذَا سَتَرَ الثَّوْبُ رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِذَا سَتَرَ رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(غَطُّوا رَأْسَهُ بِالثَّوْبِ ، وَاجْعَلُوا عَلَىٰ رِجْلَيْهِ بَعْضًا مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ) .

* * *

وَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُزْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ عَمِّهِ ... فَقَدْ نَظَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ مَشْهَدٍ لَمْ يَرَ أَوْجَعَ مِنْهُ ؛ فَقَالَ :

(رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ...

لَقَدْ كُنْتَ وَصُولًا لِلرَّحِمِ ؛ فَعُولًا لِلْخَيْرَاتِ ...

أَمَا وَاللَّهِ لَأُمَثِّلَنَّ[3] بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ إِنْ ظَفِرْتُ بِهِمْ) ...

فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ مَكَانَهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ :

---

(1) الغَضَاضَة : فتور في الطرف ، والمقصود : النقص والعيب والكراهة .

(2) أَقْرَعْنَا بَيْنَهُمَا : أجرينا بينهما قُرْعَة ؛ من أجل تحديد أيِّ الثوبين لأيِّ الرجلين .

(3) لأمثلن : لأفعل بسبعين منهم كما فعلوا بحمزة .

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾(١).

فَكَفَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَمْسَكَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِالشُّهَدَاءِ؛ فَدُفِنُوا جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ، وَقَالَ:

(انْظُرُوا أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ؛ فَاجْعَلُوهُ أَمَامَ أَصْحَابِهِ).

ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، وَقَالَ:

(أَنَا شَهِيدٌ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ أَنَّهُ مَا مِنْ جَرِيحٍ يُجْرَحُ فِي اللَّهِ؛ إِلَّا وَاللَّهُ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَىٰ جُرْحُهُ... اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ).

* * *

وَلَمَّا وَارَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ تُرَابَهُمْ عَادَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ أَسْوَانَ حَزِينًا؛ فَمَرَّ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ وَنَشِيجَهُنَّ(٢) عَلَىٰ قَتْلَاهُمْ؛ فَأَهَاجَ حُزْنُهُنَّ حُزْنَهُ، وَأَثَارَتْ لَوْعَتُهُنَّ لَوْعَتَهُ...

فَطَفَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ وَقَالَ:

(وَلَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ).

فَسَمِعَ رِجَالُ الْأَنْصَارِ كَلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَزَّتْ فِي نُفُوسِهِمْ، وَأَمَرُوا نِسَاءَهُمْ أَنْ يَذْهَبْنَ إِلَىٰ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِيَبْكِينَ عَمَّهُ.

فَلَمَّا سَمِعَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بُكَاءَهُنَّ عَلَىٰ حَمْزَةَ؛ قَالَ:

(١) سورة النحل: الآية ١٢٦.
(٢) نشيجهن: صوت بكائهن.

(رَحِمَ اللَّهُ الْأَنْصَارَ...

ارْجِعْنَ يَرْحَمُكُنَّ اللَّهُ؛ فَقَدْ آسَيْتُنَّ(١) وَعَزَّيْتُنَّ) (*).

---

(١) آسَيْتُنَّ: عزيتن وصبَّرتن.

(*) للاستزادة من أخبار حَمْزَة بْن عَبْد المُطَّلِب انظر:
- السيرة النبوية لابن هشام: ٢٩٢/١ وانظر الفهارس.
- حياة الصحابة: ٢٧٢/١ وانظر الفهرس في الجزء الرابع.
- الاستيعاب (بهامش الإصابة): ١/ ٢٧١.
- الطبقات الكبرىٰ: ٨/٣ وانظر الفهارس.
- صفة الصفوة: ١/ ٣٧٠.
- الإصابة: ٣٥٣/١ أو (الترجمة) ١٨٢٦.
- أسد الغابة: ٢/ ٥١.
- سير أعلام النبلاء: ١/ ١٧١.
- البداية والنهاية: ٣/ ٣٠، ٢٣٤، ١١/٤ وما بعدها.
- حلية الأولياء: ١/ ٤٠.
- المغازي: ٣٧.
- السيرة الحلبية: ١/ ٤٧٥.

أَبُو عَقِيلٍ الأُنَيْفِيُّ

« مَا زَالَ أَبُو عَقِيلٍ يَسْأَلُ اللَّهَ الشَّهَادَةَ ، وَيَطْلُبُهَا مِنْهُ حَتَّىٰ نَالَهَا .
وَلَقَدْ كَانَ - مَا عَلِمْتُ - مِنْ أَخْيَارِ أَصْحَابِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ]

اسْتَفْحَلَ(١) أَمْرُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ واشْتَدَّ ...

فَقَدِ اجْتَمَعَ لَهُ أَرْبَعُونَ أَلْفًا مِنْ قَوْمِهِ بَنِي حَنِيفَةَ ...

وَظَاهَرَهُمْ(٢) نَحْوٌ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الأَحْلَافِ .

فَكَانَ جَيْشُهُ أَعْظَمَ جَيْشٍ عَرَفَتْهُ الْعَرَبُ حَتَّىٰ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَكَانَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ؛ يَزِيدُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً عَلَىٰ جَيْشِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَلَمْ يَكُنِ الْخَطَرُ الدَّاهِمُ(٣) الَّذِي حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ مَقْصُورًا عَلَىٰ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَجَيْشِهِ اللَّجِبِ(٤) الْمُوَحَّدِ الْمُتَمَاسِكِ ...

وَإِنَّمَا كَانَ يَبْرُزُ هَٰذَا الْخَطَرُ أَيْضًا فِي الْمُرْتَدِّينَ الآخَرِينَ ؛ الَّذِينَ كَانُوا فِي جُمْلَتِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...

وَيَشْهَدُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...

وَلَا يُمَارُونَ(٥) فِي إِقَامِ الصَّلَاةِ ...

استفحل : تفاقم وعظم .
ظاهرهم : عاونهم .
الخطر الداهم : المصيبة النازلة .
اللجب : ذو الجلبة والكثرة .
يمارون : يجادلون أو ينازعون أو يلجون .

غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُطَالِبُونَ بِأَنْ يَكُفَّ الْخَلِيفَةُ عَنْ مُطَالَبَتِهِمْ بِإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ...

أَمَّا مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ وَمَنْ مَعَهُ ؛ فَكَانُوا يُنْكِرُونَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ ...

وَيَكْفُرُونَ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ...

وَيُؤْمِنُونَ بِنَبِيٍّ يَفْتَرِي[1] عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ .

فَإِذَا قُدِّرَ لِهَٰذِهِ الْقُوَّةِ الْهَائِلَةِ أَنْ تَنْتَصِرَ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ سَيُفْضِي[2] إِلَىٰ الْقَضَاءِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ...

وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بَعْدَ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ...

* * *

رَمَىٰ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ بِجَيْشٍ يَقُودُهُ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ[3]...

وَعِكْرِمَةُ ـ إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ ـ فَارِسُ هَيْجَاءَ[4]...

وَبَطَلُ مَعَامِعَ[5]...

وَابْنُ حُرُوبٍ ...

ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ تَحْتَ لِوَائِهِ أَبْطَالًا صَنَادِيدَ[6] أَنْجَادًا[7] مُعَوَّدَةً سُيُوفُهُمْ عَلَىٰ النَّصْرِ ...

---

(١) يفتري الكذب : يختلق الكذب .

(٢) يفضي : يوصل .

(٣) عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) فارس هيجاء : حاذق في ركوب الخيل في الحرب .

(٥) بطل معامع : شجاع يقتحم الحروب الشديدة .

(٦) صناديد : مفرد صنديد ؛ السيد الشجاع .

(٧) أنجادًا : مفرد نَجْد : شجاع ماض فيما يعجز عنه غيره .

لَكِنَّ مُسَيْلِمَةَ نَكَبَهُمْ نَكْبَةً أَطَارَتْ[١] صَوَابَ الْمُسْلِمِينَ ...

وَأَثَارَتْ غَضَبَ خَلِيفَتِهِمْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ .

فَطَيَّرَ[٢] رَسُولًا مِنْ عِنْدِهِ لِيَمْنَعَ الْجَيْشَ الْمُنْهَزِمَ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ حَتَّىٰ لَا يَفُتَّ[٣] فِي عَضُدِ الْمُسْلِمِينَ ...

وَأَمَرَهُ بِالْبَقَاءِ حَيْثُ هُوَ ...

ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَلُومُهُ فِيهِ عَلَىٰ تَعَجُّلِهِ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ عَدَدِهِ وَعُدَّتِهِ وَيَقُولُ لَهُ :

لَا أَرَيَنَّكَ ، وَلَا تَرَنِي ...

وَلَا تَرْجِعَنَّ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ...

فَتُوهِنَ[٤] عَزَائِمَ الْمُسْلِمِينَ ...

وَتَفُتَّ فِي عَضُدِهِمْ .

* * *

هَزَّتْ هَزِيمَةُ عِكْرِمَةَ ضَمَائِرَ الْمُسْلِمِينَ هَزًّا

وَفَتَحَتْ عُيُونَهُمْ ـ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ ـ عَلَىٰ الْخَطْبِ الدَّاهِمِ ...

وَهَبَّ الْخَلِيفَةُ لِاسْتِنْقَاذِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ هَٰذَا الْخَطَرِ الْمُحِيقِ[٥] ...

فَأَخْلَىٰ بَعْضَ السَّاحَاتِ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ...

[illegible] صواب المُسْلِمِين : أطارت عقلهم و رشدهم .

[illegible] حفّ وأسرع بعث .

[illegible] في عضد المُسْلِمِين : يوهن قوتهم ويضعفها .

(٤) توهن : تضعف .

(٥) المُحيق : الشديد الذي يمحو كل شيء .

وَتَغَاضَىٰ[1] - إِلَىٰ حِينٍ - عَنِ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ أَبَوْا دَفْعَ الزَّكَاةِ ؛ وَذَلِكَ لِيَحْشِدَ لِمُسَيْلِمَةَ أَكْبَرَ جَيْشٍ يَسْتَطِيعُ حَشْدَهُ .

وَلِيُوَفِّرَ لِهَٰذَا الْجَيْشِ أَضْخَمَ طَاقَةٍ تَكْفُلُ لَهُ النَّصْرَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

كَوَّنَ الصِّدِّيقُ جَيْشَهُ مِنْ فَيَالِقَ[2] ثَلَاثَةٍ :

أَوَّلُهَا : فَيْلَقُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ كَابَدُوا[3] فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ مَا كَابَدُوا ، وَعَانَوا مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ مَا عَانَوْا ...

وَبَنَوْا بِأَيْدِيهِمْ صَرْحَ[4] الْإِسْلَامِ لَبِنَةً لَبِنَةً ...

وَمَزَجُوا تُرَابَهَا بِالْعَرَقِ وَالدُّمُوعِ .

وَثَانِيهَا : فَيْلَقُ الْأَنْصَارِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَآزَرُوهُ وَمَنَعُوهُ ، وَحَارَبُوا مَعَهُ أَعْدَاءَ اللَّهِ ... فَشَهِدَتْ لَهُمُ الْحُرُوبُ .

وَثَالِثُهَا : فَيْلَقُ أَبْنَاءِ الْبَوَادِي أَصْحَابِ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ .

ثُمَّ جَعَلَ فِي الْجَيْشِ جَمْهَرَةً مِنَ الْقُرَّاءِ ؛ حَمَلَةِ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَرِيصًا ، وَبِهِمْ ضَنِينًا[5].

ثُمَّ ضَمَّ إِلَيْهِمُ الْبَدْرِيِّينَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَنْهُمْ :

لَا أَسْتَعْمِلُ هَٰذِهِ النُّخْبَةَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَرْبٍ ...

---

(١) تَغَاضَىٰ : انصرف عنهم .
(٢) الْفيلق : الجيش الْعظيم جمعه فيالق .
(٣) كابدوا : قاسوا وتحملوا مشاقه .
(٤) الصَّرْحُ : جمع صروح ؛ الْقصر وكل بناء عالٍ .
(٥) ضنينًا : بخيلا لحرصه عليهم .

وَإِنَّمَا أَسْتَبْقِيهِمْ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ...

فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ يَدْفَعُ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ[١] أَكْثَرَ مِمَّا يَأْتِي عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ مِنَ النَّصْرِ.

ثُمَّ عَقَدَ لِوَاءَ الْجَيْشِ لِسَيْفِ اللَّهِ الْمَسْلُولِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ[٢]...

* * *

الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ عَلَىٰ أَرْضِ الْيَمَامَةِ؛ فَصَفَّ مُسَيْلِمَةُ جُنُودَهُ بِعَقْرِبَاءَ.

وَجَعَلَ وَرَاءَ الْجَيْشِ النِّسَاءَ، وَالْأَطْفَالَ، وَالْأَمْوَالَ.

وَصَفَّ خَالِدٌ جُنُودَهُ فِي قُبَالَةِ جَيْشِ عَدُوِّهِ.

وَوَقَفَ الْجَيْشَانِ يَتَرَبَّصَانِ[٣] الْأَمْرَ بِالْهُجُومِ الْكَاسِحِ.

وَكَانَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَرَىٰ عَيْنَ الْيَقِينِ أَنَّ هَٰذِهِ الْمَعْرَكَةَ؛ إِنَّمَا هِيَ مَعْرَكَةُ فَنَاءٍ أَوْ بَقَاءٍ.

* * *

وَقَفَ شُرَحْبِيلُ بْنُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ يَهُزُّ مَشَاعِرَ النَّخْوَةِ[٤] وَالْعَصَبِيَّةِ[٥] عِنْدَ بَنِي قَوْمِهِ؛ فَقَالَ:

يَا بَنِي حَنِيفَةَ إِنَّ هَٰذَا الْيَوْمَ يَوْمُ الْغَيْرَةِ وَالْحَمِيَّةِ[٦]...

فَإِنْ هُزِمْتُمْ؛ فَسَتَرَوْنَ النِّسَاءَ اللَّوَاتِي احْتَمَيْنَ بِكُمْ سَبِيَّاتٍ[٧]...

فَامْنَعُوا[٨] نِسَاءَكُمْ وَأَطْفَالَكُمْ ...

---

(١) البلاء: المصيبة.

(٢) خالد بن الوليد: انظره ص ١٨٧.

(٣) يتربصان: ينتظرا ويتحينا الفرصة.

(٤) النخوة: المروءة.

(٥) العصبية: شدة ارتباط المرء بعصبته وجماعته.

(٦) الحمية: الأنفة والإباء.

(٧) سبيّات: نساء أسيرات من العدو.

(٨) امنعوا نساءكم: احموا نساءكم.

وَقَاتِلُوا عَنْ أَحْسَابِكُمْ وَأَنْسَابِكُمْ ...

وَشُدُّوا عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ ...

فَمَا كَادَ يُنْهِي كَلَامَهُ ؛ حَتَّىٰ انْصَبَّ بَنُو قَوْمِهِ عَلَىٰ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ انْصِبَابَ الصُّخُورِ ...

وَتَدَفَّقُوا عَلَيْهِمْ تَدَفُّقَ السَّيْلِ .

فَانْثَنَىٰ صَفُّ الْمُسْلِمِينَ هَزِيمًا ...

وَأُزِيلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ فُسْطَاطِهِ(١) ...

وَوَقَعَتْ زَوْجَتُهُ أُمُّ تَمِيمٍ فِي قَبْضَتِهِمْ ؛ فَهَمُّوا بِقَتْلِهَا ... لَوْلَا أَنْ أَجَارَهَا رَجلٌ مِنْهُمْ ؛ فَسَلِمَتْ .

* * *

تَلَقَّىٰ خَالِدٌ الصَّدْمَةَ رَابِطَ الْجَأْشِ ثَابِتَ الْجَنَانِ(٢) ...

ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يُخَامِرْهُ(٣) شَكٌّ فِي نَصْرِ اللَّهِ ...

وَلَا مَسَّهُ قُنُوطٌ(٤) بِتَأْيِيدِهِ ...

فَفَكَّرَ وَاسْتَشَارَ ؛ فَهَدَاهُ التَّفْكِيرُ وَالْمَشُورَةُ إِلَىٰ أَنَّ سَبَبَ الْهَزِيمَةِ ؛ إِنَّمَا هُوَ تَوَاكُلُ فَيَالِقِ الْمُسْلِمِينَ الثَّلَاثَةِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ ...

فَصَاحَ فِي الْجَيْشِ : امْتَازُوا(٥) أَيُّهَا الْجُنْدُ ...

---

(١) الفُسْطَاط : الخيمة الكبيرة ، والمراد به مكان قيادة الجيش .

(٢) ثابت الجنان : ثابت القلب .

(٣) يخامره شك : يداخله الشك .

(٤) القنوط : اليأس .

(٥) امتازوا : انفصلوا وانفرزوا .

امْتَازُوا ؛ لِيُعْلَمَ بَلَاءُ[1] كُلِّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ ، وَلِيَعْرِفَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَيْنَ أُتُوا[2].

* * *

فَجَّرَتْ صَيْحَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حَمِيَّةَ الْمُسْلِمِينَ لِدِينِ اللَّهِ ، وَأَجَّجَتْ أَشْوَاقَهُمْ إِلَىٰ الاِسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَرَفَعَتْ عَنْ أَعْيُنِهِمُ الْحُجُبَ ...

فَرَأَوْا قُصُورَ الْجَنَّةِ مُفَتَّحَةَ الأَبْوَابِ لِاسْتِقْبَالِ الشُّهَدَاءِ .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ بَرَزَتْ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ بُطُولَاتٌ لَمْ تَخْطُطْ يَدُ التَّارِيخِ أَجَلَّ مِنْهَا وَأَعْظَمَ ...

وَظَهَرَتْ فِي جُنْدِ اللَّهِ رُجُولَاتٌ لَمْ تُكْنِنْ[3] أَسْفَارُهُ أَعَزَّ مِنْهَا وَلَا أَكْرَمَ ...

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ الأَبْطَالِ بَطَلُ قِصَّتِنَا هَٰذِهِ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ ثَعْلَبَةَ الأَنْصَارِيُّ ...

الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي عَقِيلٍ الأَنِيفِيِّ ...

فَلْنَسْتَمِعْ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ[4]؛ فَهُوَ الَّذِي سَيَرْوِي لَنَا قِصَّتَهُ الرَّائِعَةَ .

* * *

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ :

لَمَّا اصْطَفَّ الْمُسْلِمُونَ لِلنِّزَالِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ ؛ كَانَ أَبُو عَقِيلٍ الأَنِيفِيُّ يَغْلِي كَالْمِرْجَلِ[5]

---

(1) بلاء كل فريق : بأس كل فريق واختباره .
(2) أتوا : جاءتهم الهزيمة .
(3) لم تُكْنِنْ : لم تضم .
(4) عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب : انظره ص ٢٣٥.
(5) المرجل : القدر .

وَيَتَوَثَّبُ(١) كَاللَّيْثِ(٢)...

فَمَا إِنْ نَشِبَ الْقِتَالُ حَتَّىٰ جَعَلَ نَحْرَهُ دُونَ(٣) نُحُورِ الْمُسْلِمِينَ...

وَأَقَامَ صَدْرَهُ دُونَ صُدُورِهِمْ...

فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أُصِيبَ بِسَهْمٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ...

* * *

لَقَدْ دَخَلَ السَّهْمُ فِي صَدْرِ أَبِي عَقِيلٍ الأَنِيفِيِّ، وَاسْتَقَرَّ بَيْنَ كَتِفَيْهِ.

دُونَ أَنْ يَمَسَّ فُؤَادَهُ.

وَلَوْ مَسَّهُ لَمَاتَ لِسَاعَتِهِ...

فَمَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ السَّهْمِ وَانْتَزَعَهُ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ.

وَثَبَتَ يُقَاتِلُ... حَتَّىٰ أَوْهَنَ الْجُرْحُ شِقَّهُ الأَيْسَرَ.

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ خَارَتْ قُوَاهُ.

وَسَقَطَ فِي مَكَانِهِ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ...

فَاحْتَمَلْنَاهُ إِلَىٰ رَحْلِهِ وَجَعَلْنَاهُ فِيهِ، وَكَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنَّا...

فَلَمَّا حَمِيَ(٤) وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ وَتَضَعْضَعَ(٥) الْمُسْلِمُونَ؛ سَمِعَ أَبُو عَقِيلٍ الْبَرَاءَ بْنَ مَالِكٍ الأَنْصَارِيَّ(٦) يُنَادِي:

---

(١) يتوثب: يتحفز.
(٢) الليث: الأسد.
(٣) نحره دون نحور المُسْلِمين: صدره درعًا لصدور المُسْلِمين.
(٤) حمي الوطيس: اشتدت الحرب.
(٥) تضعضع: ضعف وتهدم.
(٦) الْبَرَاءَ بْنَ مَالِكٍ الأَنْصَارِيّ: انظره في الكتاب الأول من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

أَيْنَ أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟! .

أَيْنَ أَنْتُمْ ؟! .

أَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ ...

هَلُمُّوا إِلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ...

* * *

ثُمَّ رَأَىٰ مَعْنَ بنَ عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيَّ[1] يَكْسِرُ غِمْدَ سَيْفِهِ ، وَيَثِبُ إِلَىٰ الْمُقَدِّمَةِ ، وَيَعْلُو نَشَزًا[2] مِنَ الْأَرْضِ وَيَصِيحُ :

اللَّهَ اللَّهَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ...

الْكَرَّةَ الْكَرَّةَ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ يَا مَنْ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ...

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ :

فَنَظَرْتُ إِلَىٰ أَبِي عَقِيلٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ يَنْهَضُ وَاقِفًا .

فَدَنَوْتُ[3] مِنْهُ وَقُلْتُ :

مَا تُرِيدُ يَا عَمِّ ؟! .

فَقَالَ : أَمَا سَمِعْتَ الْبَرَاءَ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيَّ وَمَعْنَ بْنَ عَدِيٍّ يُنَادِيَانِي ؟!

فَقُلْتَ : إِنَّهُمَا لَمْ يُنَادِيَاكَ ، وَلَمْ يُسَمِّيَا أَحَدًا بِعَيْنِهِ[4]، ثُمَّ إِنَّهُمَا لَا يَعْنِيَانِ الْجَرْحَىٰ .

فَقَالَ : إِنَّمَا يُنَادِيَانِ الْأَنْصَارَ ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ .

معن بن عدي الأنصاري : صحابي له ذكر في يوم السقيفة ، شهد أحدًا ، وقد وجهه خالد بن الوليد في حروب الردة طليعةً إلىٰ اليمامة في مائتي فارس .

نشزًا من الأرض : المكان المرتفع من الأرض .

دنوت منه : اقتربت منه .

بعينه : بذاته .

وَ إِنَّ عَلَيَّ أَنْ أُجِيبَهما وَلَوْ حَبْوًا[1].

ثُمَّ تَحَزَّمَ، وَأَخَذَ السَّيْفَ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، وَجَعَلَ يُنَادِي:

يَا لَلْأَنْصَارِ كَرَّةً كَكَرَّةِ حُنَيْنٍ...

يَا لَلْأَنْصَارِ كَرَّةً كَكَرَّةِ حُنَيْنٍ...

فَاجْتَمَعَ الْأَنْصَارُ، وَتَرَاصُّوا...

وَتَقَدَّمُوا الْمُسْلِمِينَ، وَتَفَانَوْا...

حَتَّىٰ أَقْحَمُوا[2] مُسَيْلِمَةَ وَمَنْ مَعَهُ حَدِيقَةَ الْمَوْتِ.

فَاخْتَلَطْنَا بِهِمْ نَحْنُ - مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ - وَآزَرَتْ[3] سُيُوفُنَا سُيُوفَهُمْ...

ثُمَّ لَاحَتْ[4] مِنِّي الْتِفَاتَةٌ؛ فَإِذَا أَبُو عَقِيلٍ عِنْدَ بَابِ حَدِيقَةِ الْمَوْتِ.

وَقَدْ قُطِعَتْ يَدُهُ مِنَ الْمَنْكِبِ[5]، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ...

وَبِهِ مِنَ الْجِرَاحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جُرْحًا كُلُّهَا مُمِيتٌ.

فَوَقَفْتُ عَلَيْهِ وَهْوَ صَرِيعٌ بِآخِرِ رَمَقٍ[6] وَقُلْتُ:

أَبَا عَقِيلٍ...

فَقَالَ بِلِسَانٍ مُلْتَاثٍ[7]: لَبَّيْكَ!... لِمَنِ الْهَزِيمَةُ؟

قُلْ لِي لِمَنِ الْهَزِيمَةُ؟

فَقُلْتُ: أَبْشِرْ... فَقَدْ قُتِلَ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّ رَسُولِهِ ﷺ...

---

(١) حَبْوًا: زحفًا.
(٢) أقحموا: أدخلوه كرهًا.
(٣) آزرت: تشابكت وتلاحمت.
(٤) لاحت: بدت وحانت.
(٥) الْمَنْكِب: الكتف.
(٦) الرَّمَق: بقية الحياة.
(٧) ملتاث: مبطئ مسترخٍ.

فَرَفَعَ إِصْبَعَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَيُثْنِي عَلَيْهِ ...

ثُمَّ لَفَظَ آخِرَ أَنْفَاسِهِ ...

* * *

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ :

فَلَمَّا عُدْتُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ أَخْبَرْتُ الْفَارُوقَ بِخَبَرِ أَبِي عَقِيلٍ كُلِّهِ ...

فَدَمِعَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ :

رَحِمَ اللَّهُ أَبَا عَقِيلٍ رَحْمَةً وَاسِعَةً .

فَإِنَّهُ مَا زَالَ يَسْأَلُ اللَّهَ الشَّهَادَةَ ، وَيُلِحُّ فِي طَلَبِهَا ...

حَتَّىٰ نَالَهَا .

وَلَقَدْ كَانَ ـ مَا عَلِمْتُ ـ مِنْ أَخْيَارِ أَصْحَابِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ...

وَصَفْوَةِ أَتْبَاعِهِ ... (*) .

(*) للاستزادة من أخبار أَبي عَقِيل الأَنْيفي انظر :
طبقات الكبرىٰ : ٣/ ٤٧٣.
صفة الصفوة : ١/ ٤٦٦.
البداية والنهاية : ٦/ ٣٤٠.
الإصابة : ٢/ ٤٠٧ أو « الترجمة » ٥١٥٠.
الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/ ٤١١.

عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ...

فَوَرِثَ الْمَجْدَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ...

وَنَهِلَ الشَّمَائِلَ[١] الْكَرِيمَةَ وَالْخَلَائِقَ الْعَظِيمَةَ مِنْ أَعْذَبِ يَنَابِيعِهَا وَأَصْفَاهَا

وَأَخَذَ الْإِسْلَامَ مِنْ أَغْزَرِ مَنَاهِلِهِ وَأَقْوَاهَا ...

وَقَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ خَدِينِ[٢] كِتَابِ اللَّهِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ...

وَتَلَقَّاهُ غَضًّا طَرِيًّا مِنْ فَمِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَكَانَ أَشْبَهَ النَّاسِ لَهْجَةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الِاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا الَّذِينَ كَتَبُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَهْدِ عُثْمَانَ وَعَلَّمُوهُ النَّاسَ .

* * *

بَدَتْ عَلَىٰ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ عَلَامَاتُ السِّيَادَةِ مُنْذُ كَانَ فَتًى يَافِعًا[٣].

فَقَدْ رُوِيَ : أَنَّ امْرَأَةً نَذَرَتْ أَنْ تُعْطِيَ بُرْدًا[٤] ثَمِينًا كَانَ عِنْدَهَا لِأَكْرَمِ الْعَرَبِ ؛ فَقِيلَ لَهَا : أَعْطِهِ لِهَٰذَا الْغُلَامِ [يُرِيدُونَ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ] .

فَسُمِّيَتْ الثِّيَابُ الْفَاخِرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالسَّعِيدِيَّةِ نِسْبَةً إِلَيْهِ .

وَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ حَقٍّ حِينَ تَنَبَّأُوا لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِمَا تَنَبَّأُوا لَهُ مِنَ السِّيَادَةِ وَالْجُودِ ...

فَقَدْ وَلِيَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ لِلْمُسْلِمِينَ الْوِلَايَاتِ ، وَقَادَ لَهُمُ الْجُيُوشَ ، وَفَتَحَ لَهُمُ الْفُتُوحَ ؛ حَيْثُ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ طَبَرِسْتَانَ وَجُرْجَانَ[٥]...

---

(١) الشمائل : الصفات الطيبة .

(٢) الخَدِين : الصديق المولع بصديقه .

(٣) فتًى يافعًا : فتى في بواكير الصبا .

(٤) البُرْد : الثوب .

(٥) طبرستان وجرجان : منطقتان من مناطق بلاد فارس .

وَظَلَّ وَالِيًا مِنْ قِبَلِ عُثْمَانَ عَلَىٰ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدَ الْخَلِيفَةُ الْمَظْلُومُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

* * *

لَكِنَّ الصِّفَةَ الَّتِي غَلَبَتْ عَلَىٰ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ هِيَ الْأَرْيَحِيَّةُ[(١)] وَالْجُودُ ؛ حَتَّىٰ إِنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ لَقَّبَهُ بِكَرِيمِ قُرَيْشٍ .

فَقَدْ أَغْدَقَ اللَّهُ عَلَىٰ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ الْمَالَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ...

فَجَادَ بِهِ سَعِيدٌ عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَيْضًا .

وَقَدْ رُوِيَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ رَائِعَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَحُكِيَتْ عَنْهُ قِصَصٌ فَذَّةٌ مُثِيرَةٌ ؛ مَلَأَتْ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ ثَنَاءً وَضِيَاءً .

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ كَانَ يَصُرُّ صُرَرَ الْمَالِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ ، وَيَضَعُهَا بَيْنَ أَيْدِي الْمُصَلِّينَ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ ؛ حَتَّىٰ إِذَا فَرَغُوا مِنْ صَلَاتِهِمْ أَخَذُوهَا فَرِحِينَ بِهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ[(٢)] .

* * *

وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْقُرَّاءِ يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ ، وَيَأْخُذُ عَنْهُ كِتَابَ اللَّهِ ؛ فَافْتَقَرَ وَأَصَابَتْهُ فَاقَةٌ[(٣)] شَدِيدَةٌ ؛ فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ :

إِنَّ أَمِيرَنَا سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ يُوصَفُ بِالْجُودِ ؛ فَلَوْ ذَكَرْتَ لَهُ حَالَكَ ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْمَحُ لَكَ بِشَيْءٍ .

فَقَالَ : وَيْحَكِ ! أَتُرِيدِينَ أَنْ تَسْلَخِي[(٤)] وَجْهِي ، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ .

---

(١) الأَرْيَحِيَّة : سُمُوّ الخلق ووفرة المعروف .
(٢) مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَة : أي دون الحاجة للسؤال .
(٣) فَاقَة : الفقر
(٤) تَسْلَخِي وَجْهِي : أي تنزعيه ؛ وهو كناية عن الذُّل والمهانة .

فَمَا زَالَتْ تَشْتَدُّ عَلَيْهِ الْحَاجَةُ وَتُلِحُّ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ فِي الطَّلَبِ ؛ حَتَّىٰ أَتَىٰ مَجْلِسَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ كَمَا كَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ مَرَّةٍ ...

فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّاسُ ؛ ظَلَّ الرَّجُلُ جَالِسًا فِي مَكَانِهِ ...

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سَعِيدٌ ، وَقَالَ :

أَظُنُّ جُلُوسَكَ لِحَاجَةٍ ؟!! .

فَسَكَتَ الرَّجُلُ .

فَقَالَ سَعِيدٌ لِغِلْمَانِهِ : انْصَرِفُوا ...

فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ لَهُ :

لَمْ يَبْقَ غَيْرِي وَغَيْرُكَ ؛ فَاذْكُرْ حَاجَتَكَ ...

فَسَكَتَ الرَّجُلُ ...

فَأَطْفَأَ الْمِصْبَاحَ وَقَالَ لَهُ :

رَحِمَكَ اللَّهُ ؛ لَسْتَ تَرَىٰ وَجْهِي ؛ فَاذْكُرْ حَاجَتَكَ .

فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

أَصَابَتْنَا فَاقَةٌ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَذْكُرَهَا لَكَ ؛ فَاسْتَحْيَيْتُ .

فَقَالَ لَهُ سَعِيدٌ : هَوِّنْ عَلَيْكَ ! وَإِذَا أَصْبَحْتَ ؛ فَالْقَ وَكِيلِي فُلَانًا .

وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ ؛ لَقِيَ الرَّجُلُ وَكِيلَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ فَقَالَ لَهُ :

إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ أَمَرَ لَكَ بِشَيْءٍ ؛ فَأْتِ بِمَنْ يَحْمِلُهُ مَعَكَ .

فَقَالَ : مَا عِنْدِي مَنْ يَحْمِلُهُ .

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ ؛ فَلَامَهَا وَقَالَ :

حَمَلَتْنِي عَلَىٰ بَذْلِ مَاءِ وَجْهِي لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ فَأَمَرَ لِي بِشَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ ، وَمَا أَرَاهُ أَمَرَ لِي ؛ إِلَّا بِدَقِيقٍ أَوْ طَعَامٍ ...

وَلَوْ كَانَ مَالًا ؛ لَمَا احْتَاجَ إِلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ ، وَلَأَعْطَانِيهِ بِيَدِي .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : مَهْمَا أَعْطَاكَ ؛ فَإِنَّنَا بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ فَخُذْهُ .

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَىٰ الْوَكِيلِ ؛ فَقَالَ الْوَكِيلُ :

إِنِّي أَخْبَرْتُ الْأَمِيرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْكَ أَحَدٌ يَحْمِلُ عَطِيَّتَهُ لَكَ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْكَ بِهَؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ الثَّلَاثَةِ لِيَحْمِلُوهَا مَعَكَ ...

فَمَضَىٰ الرَّجُلُ أَمَامَهُمْ ؛ فَلَمَّا بَلَغُوا الْبَيْتَ ...

إِذَا عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ ؛ فَقَالَ لِلْغِلْمَانِ :

ضَعُوا مَا مَعَكُمْ وَانْصَرِفُوا .

فَقَالُوا : إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ وَهَبَنَا لَكَ ...

فَإِنَّهُ مَا بَعَثَ مَعَ غُلَامٍ هَدِيَّةً إِلَىٰ أَحَدٍ ؛ إِلَّا كَانَ الْغُلَامُ فِي جُمْلَةِ الْهَدِيَّةِ .

* * *

وَسَأَلَ أَعْرَابِيٌّ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِمِائَةٍ ؛ فَقَالَ لَهُ وَكِيلُهُ :

خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ أَمْ دِينَارٍ ؟!! .

فَقَالَ : إِنَّمَا أَمَرْتُكَ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ ...

أَمَا وَإِنَّهُ جَاشَ[1] فِي خَاطِرِكَ أَنَّهَا دَنَانِيرُ ؛ فَادْفَعْ إِلَيْهِ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ .

فَلَمَا قَبَضَهَا الْأَعْرَابِيُّ جَلَسَ يَبْكِي ؛ فَقَالَ لَهُ سَعِيدٌ :

---

(١) جَاش فِي خَاطِرِك : ظَنَنْتَ .

مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَقْبِضْ عَطَاءَكَ ؟!

قَالَ : بَلَىٰ وَاللَّهِ ، وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَىٰ الْأَرْضِ كَيْفَ تُوَارِي[1] مِثْلَكَ .

* * *

وَكَانَ سَعِيدٌ ؛ يَقُولُ لِابْنِهِ عَمْرٍو :

يَا بُنَيَّ ؛ أَبْذُلِ الْمَعْرُوفَ ابْتِدَاءً[2] مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ ...

أَمَّا إِذَا أَتَاكَ الرَّجُلُ تَكَادُ تَرَىٰ دَمَهُ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْحَيَاءِ ، أَوْ جَاءَكَ مُخَاطِرًا لَا يَدْرِي أَتُعْطِيهِ أَمْ تُمْسِكُ عَنْهُ ...

فَوَاللَّهِ لَوْ خَرَجْتَ[3] لَهُ مِنْ جَمِيعِ مَالِكَ مَا كَافَأْتَهُ .

* * *

وَلَمَّا حَضَرَتْ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ الْوَفَاةُ ؛ جَمَعَ بَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ :

يَا بَنِيَّ ؛ لَا يَفْقِدَنَّ أَصْحَابِي بِمَوْتِي غَيْرَ وَجْهِي ...

فَصِلُوهُمْ بِمَا كُنْتُ أَصِلُهُمْ بِهِ ، وَأَجْرُوا عَلَيْهِمْ مَا كُنْتُ أُجْرِيهِ عَلَيْهِمْ ...

وَاكْفُوهُمْ مَؤُونَةَ[4] الطَّلَبِ ...

فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا طَلَبَ الْحَاجَةَ ؛ اضْطَرَبَتْ أَرْكَانُهُ ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُرَدَّ ...

فَوَاللَّهِ ! لَرَجُلٌ يَتَمَلْمَلُ عَلَىٰ فِرَاشِهِ وَهْوَ يَرَاكُمْ أَهْلًا لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ ؛ أَعْظَمُ مِنَّةً عَلَيْكُمْ مِمَّا تُعْطُونَهُ .

* * *

(١) تُوَارِي : تبتلع وتُخفِي ، أي يُدْفَنُ فيها .
(٢) ابْتِدَاءً : في بادئ الأمر وأوله .
(٣) خَرَجْتَ لَهُ : تنازلت له ، وأعطيته .
(٤) مَؤُونَة الطَّلَب : أي كُلْفَة السؤال ومشقة الانشغال به .

فَلَمَّا مَاتَ ؛ قَدِمَ ابْنُهُ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ الْمَعْرُوفُ بِالْأَشْدَقِ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فِي دِمَشْقَ يُخْبِرُهُ بِوَفَاةِ أَبِيهِ ؛ فَبَكَىٰ مُعَاوِيَةُ وَاسْتَرْجَعَ(١)، وَقَالَ :

هَلْ تَرَكَ أَبُوكَ مِنْ دَيْنٍ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : وَكَمْ هُوَ ؟

قَالَ : ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : هِيَ عَلَيَّ .

فَقَالَ : إِنَّهُ أَوْصَانِي أَلَّا أَقْضِيَ دَيْنَهُ ؛ إِلَّا مِنْ ثَمَنِ أَرَاضِيهِ ...

فَاشْتَرَىٰ مِنْهُ مُعَاوِيَةُ أَرْضًا بِمَبْلَغِ الدَّيْنِ .

* * *

عَادَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَ مُنَادِيًا يُنَادِي بِالنَّاسِ :

أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَىٰ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ فَلْيَأْتِ ابْنَهُ عَمْرًا لِيَقْبِضَهُ ...

فَجَاءَهُ شَابٌّ مَعَهُ رُقْعَةٌ مِنْ أَدِمٍ(٢)؛ كُتِبَ لَهُ فِيهَا عِشْرُونَ أَلْفًا .

فَقَالَ عَمْرٌو :

كَيْفَ اسْتَحَقَّ هَٰذَا الْمَالَ عَلَىٰ أَبِي ؟

فَقَالَ الشَّابُّ : كَانَ أَبُوكَ خَارِجًا مِنْ دَارِ الْإِمَارَةِ مَعْزُولًا مِنْ عَمَلِهِ ؛ فَتَبِعْتُهُ مْشِي مَعَهُ ؛ فَلَمَّا رَآنِي قَالَ :

أَلَكَ حَاجَةٌ ؟ فَأَجَبْتُ : لَا ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي هَٰذِهِ سـعَةِ ؛ فَقَالَ :

(١) سْتَرْجَع : قال إنّا لله وإنّا إليه راجعون.　　(٢) رُقْعَة مِن أَدَم : خطاب أو رسالة من الجلد.

كَانَ مَعَكَ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا بْنَ أَخِي اطْلُبْ لِي دَوَاةً وَجِلْدًا ؛ فَأَحْضَرْتُهُمَا لَهُ ...

فَكَتَبَ لِي بِعِشْرِينَ أَلْفًا ، وَقَالَ :

يَا بْنَ أَخِي ؛ إِذَا جَاءَتْ غَلَّتُنَا دَفَعْنَا ذَلِكَ لَكَ .

فَدَفَعَ لَهُ عَمْرٌو الْمَالَ ، وَزَادَهُ شَيْئًا كَثِيرًا .

فَقَالَ النَّاسُ : مَنْ تَرَكَ مِثْلَ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ لَمْ يَمُتْ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ السَّخِيِّ الْجَوَّادِ ...

حَافِظِ كِتَابِ اللَّهِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ...

وَنَوَّرَ لَهُ فِي قَبْرِهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار سَعيد بْن الْعَاص انظر :

١ - الإصابة : ٤٧/٢ أو «الترجمة» ٣٢٦٨.

٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/ ٨.

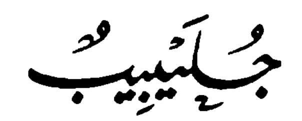
٣ - أسد الغابة : ٢/ ٣٩١.

٤ - تهذيب التهذيب : ٤/ ٤٨.

٥ - تهذيب ابن عساكر : ٦/ ١٣١.

٦ - الطبقات الكبرىٰ : ٥/ ١٩.

٧ - البداية والنهاية : ٧/ ١٥٤، ١٦٦، ٢١٧، ٨/ ٨٣.



جُلَيْبِيبٌ

« جُلَيْبِيبٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

كَانَ جُلَيْبِيبٌ يَوْمَ هَاجَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ فَتًى يَافِعًا[1] لَمْ يُجَاوِزِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا قَلِيلًا

فَمَا إِنِ اكْتَحَلَتْ عَيْنَاهُ الصَّغِيرَتَانِ بِمَرْأَىٰ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ حَتَّىٰ حَلَّ فِي السُّوَيْدَاءِ مِنْ قَلْبِهِ ...

وَشُغِفَ فُؤَادُهُ بِحُبِّهِ ...

وَشُغِلَ بِهِ عَنْ صَحْبِهِ وَلِدَاتِهِ[2] مِنَ الصِّبْيَةِ الصِّغَارِ ؛ الَّذِينَ كَانَ يَأْنَسُ بِهِمْ وَيَأْنَسُونَ بِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ لِجُلَيْبِيبٍ إِذْ ذَاكَ أَهْلٌ وَلَا مَالٌ .

فَاتَّخَذَ مِنْ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِنَفْسِهِ مَقَامًا ، وَمِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ[3] أَهْلًا وَخِلَّانًا ...

فَكَانَ يَتَبَلَّغُ[4] مَعَهُمْ بِمَا يُهْدَىٰ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ طَعَامٍ ...

وَبِمَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِمْ ذَوُو الْإِحْسَانِ .

وَقَدْ كَانَ جُلَيْبِيبٌ خَفِيفَ الظِّلِّ ؛ حُلْوَ الدُّعَابَةِ ...

---

(١) فتى يافعًا : فتًى في بواكير الصبا .

(٢) لداته : المماثلون له في السن .

(٣) الصفة : مكان في مسجد رسول الله ﷺ كان يأوي إليه الفقراء الذين لا بيوت لهم ، وكانوا يدعون أهل الصفة .

(٤) يَتَبَلَّغ : يتناول القليل الذي يحفظ حياته .

آلِفًا مَأْلُوفًا .

فَكَانَ يَغْدُو عَلَىٰ بُيُوتِ الْأَنْصَارِ فِي يَثْرِبَ ؛ فَيَنْثُرُ فِيهَا مَا يُمْتِعُهُمْ مِنْ طُرَفِهِ ...

وَيُعَطِّرُ أَجْوَاءَهَا بِمَا يَرْوِيهِ لَهُمْ مِنْ مُلَحِهِ .

وَقَدْ كَانَ لَا يُغْلَقُ دُونَهُ بَابٌ ، وَلَا تَحْتَشِمُ مِنْهُ امْرَأَةٌ ...

لِأَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا ؛ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ(١) بَعْدُ .

* * *

ثُمَّ شَبَّ جُلَيْبِيبٌ وَبَلَغَ مَبَالِغَ الرِّجَالِ ؛ فَطَفِقَ الْأَزْوَاجُ يُنَبِّهُونَ زَوْجَاتِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ إِلَىٰ أَنَّ جُلَيْبِيبًا لَمْ يَبْقَ صَغِيرًا كَمَا عَهِدْنَهُ مِنْ قَبْلُ ...

وَأَنَّ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَسْتَتِرْنَ مِنْهُ ...

وَأَلَّا يَأْذَنَّ لَهُ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ ؛ كَمَا كُنَّ يَفْعَلْنَ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَالَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِجُلَيْبِيبٍ :

(أَلَا تَتَزَوَّجُ يَا جُلَيْبِيبُ ؟) .

فَقَالَ : وَمَنْ يُزَوِّجُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! ...

فَأَنَا شَابٌّ فَقِيرٌ لَا نَفَقَةَ عِنْدِي وَلَا صَدَاقَ(٢) .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَنَا أَبْتَغِي(٣) لَكَ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ ...

---

(١) لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُم : لم يبلغ مبلغ الرجال .
(٢) الصَّدَاق : ما يُعطىٰ للمرأة من المال مهرًا لها .
(٣) أَبْتَغِي لَكَ : أطلب لك .

وَاللَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي يُغْنِيكُمَا مِنْ فَضْلِهِ) .

* * *

وَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ بِنْتٌ يُرِيدُونَ تَزْوِيجَهَا أَوْ أَيِّمٌ[1] تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا ؛ أَلَّا يُزَوِّجُوهَا مِنْ أَحَدٍ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَعْرِضُوهَا عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

حَتَّىٰ يَعْلَمُوا إِنْ كَانَتْ لَهُ بِهَا حَاجَةٌ أَمْ لَا

* * *

مَضَتْ مُدَّةٌ لَمْ تُعْرَضْ فِيهَا امْرَأَةٌ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ تَصْلُحُ لِجُلَيْبِيبٍ ؛ فَلَمَّا أَبْطَأَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ؛ بَادَرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَقَالَ :

(يَا فُلَانُ زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ فُلَانَةَ) .

فَاسْتَطَارَ الرَّجُلُ فَرَحًا بِمَا سَمِعَ وَقَالَ

نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ... نَعَمْ ، وَنِعْمَةَ عَيْنٍ ...

أَكْرِمْ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ صِهْرٍ ، وَأَعْزِزْ .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي) .

فَخَمَدَ[2] الرَّجُلُ وَقَالَ :

لِمَنْ تُرِيدُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

---

(1) أَيِّم : المرأة التي فقدت زوجها .
(2) خَمَدَ الرجل : سكن .

(لِجُلَيْبِيبٍ ...).

فَغَاضَ[1] الْبِشْرُ الَّذِي كَانَ يَطْفَحُ عَلَىٰ وَجْهِ الرَّجُلِ، وَقَالَ:

أَنْظِرْنِي - يَا رَسُولَ اللَّهِ - حَتَّىٰ أَسْتَشِيرَ أُمَّهَا؛ فَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ فِي أَمْرٍ كَهَٰذَا مِنْ دُونِهَا ...

* * *

مَضَىٰ الرَّجُلُ إِلَىٰ بَيْتِهِ كَاسِفَ الْبَالِ حَزِينَ النَّفْسِ ...

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ؛ بِأَنَّ زَوْجَتَهُ لَا تَرْضَىٰ بِفَتًى مِثْلِ جُلَيْبِيبٍ بَعْلًا[2] لِبِنْتِهَا.

وَكَانَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ لَا تَطِيبُ[3] نَفْسُهُ أَبَدًا؛ بِأَنْ يَرُدَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَائِبًا ... مَهْمَا كَانَ مَطْلَبُهُ عَزِيزًا.

فَلَمَّا بَلَغَ الْبَيْتَ؛ نَادَىٰ زَوْجَتَهُ وَقَالَ:

يَا أُمَّ فُلَانَةٍ؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ وَهْيَ تَقُولُ: لَبَّيْكَ.

فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكِ.

فَقَالَتْ: اِبْنَتِي ...

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتِي ...

يَا لَسَعْدِهَا ...

مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ مَرْحَبًا بِهِ ...

نَعَمْ نُزَوِّجُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

---

(١) فغاض البشر: ذهب واختفىٰ.

(٢) بعلًا: زوجًا.

(٣) لَا تَطِيبُ نَفْسُه: لا تسر ولا ترتاح.

وَهَلْ فَوْقَ ذَلِكَ الشَّرَفِ مِنْ شَرَفٍ ؟!

فَقَاطَعَهَا الرَّجُلُ وَقَالَ :

وَلَكِنَّهُ لَا يُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ .

فَسَكَنَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ فِي خَيْبَةٍ :

فَلِمَنْ يُرِيدُهَا إِذَنْ ؟

قَالَ : لِجُلَيْبِيبٍ .

فَقَالَتْ : لِجُلَيْبِيبٍ ؟!! لَا

لَعَمْرُ اللَّهِ ! لَا أُزَوِّجُهَا مِنْ جُلَيْبِيبٍ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : مَاذَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟!

فَقَالَتْ : قُلْ لَهُ مَا تَشَاءُ ...

تَقَدَّمْ لَهُ بِمَا يَحْضُرُكَ مِنْ عُذْرٍ .

فَمَا أَنَا بِالَّتِي تَرْضَىٰ جُلَيْبِيبًا زَوْجًا لِبِنْتِهَا وَلَا صِهْرًا لَهَا .

وَحَمِيَ الْحِوَارُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَارْتَفَعَ صَوْتَاهُمَا ...

فَالزَّوْجُ يَسْتَرْضِي امْرَأَتَهُ وَيَسْتَلِينُهَا ...

وَالزَّوْجَةُ تَشْتَدُّ عَلَىٰ زَوْجِهَا وَتُصِرُّ ...

فَلَمَّا يَئِسَ مِنْ إِقْنَاعِهَا وَهَمَّ بِالْمُضِيِّ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِإِبْلَاغِهِ الْقَرَارَ ...

بَادَرَتْ إِلَيْهِمَا ابْنَتُهُمَا ؛ وَكَانَتْ قَدْ سَمِعَتْ أَطْرَافًا مِنَ الْحِوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُمَا ، وَقَالَتْ : مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ ؟

فَقَالَتِ الْأُمُّ : خَطَبَكِ النَّبِيُّ ﷺ لِجُلَيْبِيبٍ !! ...

وَقَدْ رَفَضْتُ أَنْ أُزَوِّجَكِ مِنْهُ ...

فَبِنْتٌ فِي مِثْلِ شَبَابِكِ وَجَمَالِكِ وَحَسَبِكِ[١]؛ جَدِيرَةٌ بِأَكْرَمِ الْأَزْوَاجِ .

فَقَالَتِ الْفَتَاةُ :

وَيْحَكُمْ !! أَتَرُدُّونَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ ؟!! ...

وَاللَّهِ ! مَا أَنَا بِالَّتِي تَرْفُضُ طَلَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

أَجِيبُوا طَلَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَالنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

أَعْطُونِي لِجُلَيْبِيبٍ ، وَثِقُوا بِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يُضَيِّعَنِي أَبَدًا .

فَسَكَتَتِ الْأُمُّ عَلَىٰ مَضَضٍ[٢]...

وَمَضَىٰ الْأَبُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ :

أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

زَوِّجِ ابْنَتَنَا مِنْ جُلَيْبِيبٍ .

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَا لِلْبِنْتِ ؛ فَقَالَ :

(اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا ، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا[٣]) ...

وَزَوَّجَهَا مِنْ جُلَيْبِيبٍ .

* * *

---

(١) الحَسَب : الشرف .

(٢) المضض : التألم والتوجع .

(٣) كدًّا : تعبًا .

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ فَرْحَةِ جُلَيْبِيبٍ بِعَرُوسِهِ غَيْرُ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ حَتَّىٰ دَعَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ النَّاسَ لِغَزْوَةٍ يَغْزُونَهَا مَعَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَبَادَرَ جُلَيْبِيبٌ إِلَىٰ تَلْبِيَةِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَجَهَّزَ نَفْسَهُ ، وَوَدَّعَ عَرُوسَهُ ، وَمَضَىٰ فِي صُحْبَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

* * *

وَلَمَّا أَنْجَزَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ غَزْوَتَهُ ، وَأَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالنَّصْرِ ؛ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ) .

قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(وَلَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا ؛ فَاطْلُبُوهُ[1]) .

فَطَفِقَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَبْحَثُونَ عَنْ جُلَيْبِيبٍ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ ...

فَإِذَا هُوَ قَدْ أَرْدَىٰ[2] سَبْعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِسَيْفِهِ .

ثُمَّ خَرَّ صَرِيعًا إِلَىٰ جَنْبِهِمْ ... وَهُوَ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ .

فَرَجَعُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا :

هَا هُوَ ذَا جُلَيْبِيبٌ إِلَىٰ جَانِبِ سَبْعَةٍ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قُتِلَ .

---

(١) فَاطْلُبُوه : فابحثوا عنه .
(٢) أَرْدَىٰ : قتل .

فَقَامَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَقَفَ فَوْقَهُ ، وَقَالَ :

(قَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ .

هَٰذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ...

هَٰذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ) .

ثُمَّ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ يَحْفُرُوا لَهُ قَبْرًا ...

فَلَمَّا أَتَمُّوا حَفْرَ الْقَبْرِ ...

قَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ الْأَعْظَمُ ﷺ وَحَمَلَهُ عَلَىٰ سَاعِدَيْهِ ...

وَوَضَعَهُ بِيَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ فِي مَثْوَاهُ ...

وَأَهَالَ عَلَيْهِ التُّرَابَ .

* * *

وَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ[1] زَوْجَةِ جُلَيْبِيبٍ ؛ أَقْبَلَ عَلَيْهَا النَّاسُ يَخْطُبُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ إِقْبَالًا عَظِيمًا ...

حَتَّىٰ إِنَّهُ مَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَكْثَرَ مِنْهَا خُطَّابًا وَلَا رُغَّابًا .

فَالنَّاسُ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؛ قَدْ دَعَا لَهَا اللَّهَ :

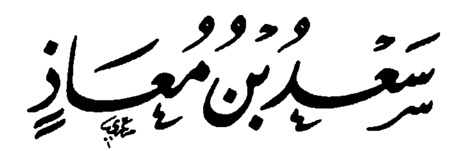
بِأَنْ يَصُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا ...

وَأَلَّا يَجْعَلَ عَيْشَهَا كَدًّا (*) .

---

(١) العدّة : المدّة المشروعة التي تقضيها المرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه .

(*) للاستزادة من أخبار جُلَيْبيب انظر :
١ - أسد الغابة : ١/٣٤٨.
٢ - الإصابة : ١/٢٤٢ أو « الترجمة » ١١٧٩.
٣ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/٢٥٦.
٤ - ابن حبان : ٩/٣٤٢.



« صَاحِبُ رَايَةِ الأَنْصَارِ فِي بَدْرٍ »

كَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ يَوْمَ أَهَلَّ نُورُ النُّبُوَّةِ ...

فَارِسًا مِنْ أَعَزِّ فُرْسَانِ يَثْرِبَ نَفَرًا ...

وَأَعْلَاهُمْ سُلْطَانًا ، وَأَعْرَضِهِمْ جَاهًا .

وَكَانَ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ...

وَكَانَ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ فِي الذُّرْوَةِ مِنَ الْأَوْسِ[١].

وَكَانَ فَتَىٰ الْأَوْسِ وَسَيِّدَهَا ؛ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ أَخْبَارِ الدَّاعِيَةِ الْمَكِّيِّ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ[٢]؛ فَلَا يُعِيرُهَا كَثِيرًا مِنِ اهْتِمَامِهِ ...

وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَلَّ فِي ضِيَافَةِ ابْنِ خَالَتِهِ سَعْدِ بْنِ زُرَارَةَ ، وَأَنَّهُمَا يَتَعَاوَنَانِ عَلَىٰ بَثِّ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الدِّينِ الْجَدِيدِ فِي رُبُوعِ يَثْرِبَ ؛ فَلَا يَعْتَرِضُ سَبِيلَهُمَا ؛ رِعَايَةً لِحَقِّ ابْنِ خَالَتِهِ عَلَيْهِ .

* * *

وَبَيْنَمَا كَانَ سَيِّدُ الْأَوْسِ يَتَجَوَّلُ فِي ضَوَاحِي دِيَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَمَعَهُ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ[٣]؛ إِذْ رَأَىٰ الدَّاعِيَةَ الْمَكِّيَّ وَمُضِيفَهُ فِي بُسْتَانٍ قَرِيبٍ مِنْ مَنَازِلِ قَوْمِهِ ؛ يَسْتَرِيحَانِ فِي ظِلِّ نَخِيلِهِ ، وَيَسْتَقِيَانِ مِنْ مَاءِ بِئْرِهِ ...

وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالدِّينِ الْجَدِيدِ ، وَطَفِقُوا يَسْأَلُونَ

---

(١) الأوس : قبيلة يمانية ارتحلت هي وأختها الخزرج إلىٰ المدينة بعد خراب سد مأرب واستقرت فيها .
(٢) مصعب بن عمير : انظره ص ٣٨٩.
(٣) أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْر : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

مُصْعَبًا أَنْ يُفَقِّهَهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَأَنْ يُقْرِئَهُمْ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...

فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَىٰ سَيِّدِ الأَوْسِ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ تَبْلُغَ الْجُرْأَةُ بِابْنِ خَالَتِهِ وَضَيْفِهِ حَدًّا ؛ جَعَلَهُمَا يَجْهَرَانِ بِدِينِ مُحَمَّدٍ فِي عُقْرِ[1] دَارِهِ .

فَقَالَ لِأُسَيْدِ بْنِ الْحُضَيْرِ :

لَا أَبَا لَكَ[2] يَا أُسَيْدُ ؛ انْطَلِقْ إِلَيْهِمَا وَانْظُرْ إِلَىٰ هَـٰذَا الرَّجُلِ الْمَكِّيِّ الَّذِي أَتَىٰ لِيَعِيبَ دِينَنَا ، وَيَنْتَقِصَ مِنْ آلِهَتِنَا وَيَفْتِنَ ضُعَفَاءَنَا ...

فَازْجُرْهُ عَنْ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ دِيَارِنَا بَعْدَ الْيَوْمِ ...

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ :

وَلَوْلَا أَنَّ ابْنَ زُرَارَةَ هُوَ ابْنُ خَالَتِي ، وَهُوَ مِنِّي حَيْثُ تَعْلَمُ ؛ لَكَفَيْتُكَ ذَلِكَ ، وَلَكَانَ لِي مَعَهُمَا شَأْنٌ آخَرُ .

* * *

أَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ حَرْبَتَهُ ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ سَعْدِ بْنِ زُرَارَةَ وَصَاحِبِهِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَيْهِمَا ...

فَابْتَدَرَهُ[3] مُصْعَبٌ بِوَجْهِهِ الطَّلْقِ ، وَكَلِمَتِهِ اللَّيِّنَةِ ، وَأَخَذَ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ، وَطَفِقَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَا يَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ، وَيَسْتَمِيلُ النُّفُوسَ النَّافِرَةَ ؛ حَتَّىٰ أَشْرَقَ وَجْهُهُ ، وَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُهُ ، وَقَالَ لِمُصْعَبٍ :

مَا أَعْذَبَ هَـٰذَا الْكَلَامَ وَمَا أَحْسَنَهُ !!! ...

كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَـٰذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ ؟

(١) فِي عقر داره : في وسط بيته .
(٢) لَا أبَا لَك : كلمة تستعمل للذم والمدح ، وهنا للذم .
(٣) فَابتدره : أسرع إليه .

قَالَ : تَغْتَسِلُ ، وَتُطَهِّرُ ثَوْبَكَ ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَتَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ لِلَّهِ ... وَهَـٰذَا الْمَاءُ مِنْكَ قَرِيبٌ .

فَقَامَ أُسَيْدٌ إِلَىٰ الْمَاءِ مِنْ تَوِّهِ ؛ فَاغْتَسَلَ ، وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ لِلَّهِ ، ثُمَّ قَالَ لِمُصْعَبٍ :

إِنَّ وَرَائِي رَجُلًا إِنِ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَسَأُرْسِلُهُ لَكُمَا الْآنَ ؛ فَأَحْسِنَا التَّأَتِّيَ[1] لَهُ ...

* * *

عَادَ أُسَيْدٌ إِلَىٰ نَادِي[2] الْقَوْمِ ؛ فَلَمَّا رَآهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا ؛ نَظَرَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ :

أَحْلِفُ بِاللَّهِ إِنَّ أُسَيْدًا جَاءَكُمْ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا فَعَلْتَ يَا أُسَيْدُ ؟!

قَالَ : كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ - فَوَاللَّهِ - مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا ...

فَنَهَضَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُغْضَبًا ، وَأَخَذَ الْحَرْبَةَ مِنْ يَدِ أُسَيْدٍ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ[3] شَيْئًا ، وَلَئِنْ دَامَ الْأَمْرُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْحَالِ ؛ لَأَجِدَنَّهُمَا غَدًا فِي دَارِي يَدْعُوَانِ زَوْجِي وَأَوْلَادِي ؛ إِلَىٰ تَرْكِ دِينِي وَدِينِ آبَائِي وَأَجْدَادِي .

* * *

تَوَجَّهَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ إِلَىٰ حَيْثُ يَجْلِسُ مُصْعَبٌ وَصَاحِبُهُ ...

فَلَمَّا رَآهُ ابْنُ خَالَتِهِ سَعْدُ بْنُ زُرَارَةَ مُقْبِلًا ؛ قَالَ لِمُصْعَبٍ :

---

(١) أحسنا التَّأتي لَهُ : أحسنا عرض الأمر عليه .

(٢) النَّادِي : مجلس القوم ومُتَحَدَّثهم .

(٣) مَا أَغْنَيْتَ شَيْئًا : ما كفيت شيئًا .

أَيْ مُصْعَبُ ؛ لَقَدْ جَاءَكَ ـ وَاللَّهِ ـ سَيِّدُ قَوْمِهِ ، وَ إِنَّهُ إِنْ يَتْبَعْكَ لَا يَتَخَلَّفْ عَنْكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ؛ فَانْظُرْ مَاذَا أَنْتَ فَاعِلٌ ؟

فَمَا إِنْ بَلَغَهُمَا سَعْدٌ وَوَقَفَ عَلَيْهِمَا ؛ حَتَّىٰ اتَّجَهَ إِلَىٰ ابْنِ خَالَتِهِ ، وَبَادَرَهُ قَائِلًا :

يَا أَبَا أُمَامَةَ ... أَمَا وَاللَّهِ ـ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ ـ مَا طَمِعْتَ[1] هَٰذَا مِنِّي ... أَتَغْشَانَا[2] فِي دِيَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ ؟!! .

فَبَادَرَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ بِوَجْهِهِ الطَّلْقِ وَكَلِمَتِهِ الْحُلْوَةِ ، وَقَالَ :

أَلَا تَقْعُدُ فَتَسْمَعَ ؛ فَإِنْ رَضِيتَ مَا نَقُولُهُ وَرَغِبْتَ فِيهِ ؛ قَبِلْتَ دَعْوَتَنَا ...

وَإِنْ كَرِهْتَهُ تَحَوَّلْنَا عَنْكَ السَّاعَةَ ...

فَاسْتَلَانَ هَٰذَا الْكَلَامُ قَلْبَ سَعْدٍ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ أَنْصَفْتَ ... هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فَانْطَلَقَ مُصْعَبٌ ؛ فَعَرَضَ الْإِسْلَامَ عَلَىٰ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ الْعَرْضُ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ مَا خَشَعَ لَهُ قَلْبُهُ ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ جَوَارِحُهُ[3] ، وَسَبَحَتْ مَعَهُ رُوحُهُ .

فَمَا لَبِثَ أَنْ قَالَ لِمُصْعَبٍ :

كَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي هَٰذَا الْخَيْرِ ؟

وَاللَّهِ ! مَا سَمِعْتُ كَلَامًا أَبَرَّ وَلَا أَكْرَمَ مِنْ هَٰذَا الْكَلَامِ .

---

(١) مَا طَمِعْتَ : ما رَجَوْتَ وما حَرَصْتَ عليَّ .
(٢) أَتَغْشَانَا في ديارنا : أتحضر في ديارنا .
(٣) الجَوَارِح : الأعضاء .

وَلَمْ يَبْرَحْ سَيِّدُ الْأَوْسِ مَكَانَهُ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَانْضَمَّ إِلَىٰ رَكْبِ الْإِيمَانِ .

* * *

أَخَذَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ حَرْبَتَهُ ، وَعَادَ أَدْرَاجَهُ إِلَىٰ نَادِي قَوْمِهِ ...

فَلَمَّا رَأَوْهُ مُقْبِلًا ؛ قَالُوا :

نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ ...

فَلَمَّا بَلَغَ النَّادِيَ قَالَ :

يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ؛ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ ؟

قَالُوا : سَيِّدُنَا حَقًّا ، وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا ، وَأَكْمَلُنَا عَقْلًا .

قَالَ : فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ ؛ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ...

فَمَا أَمْسَىٰ فِي دِيَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ ؛ إِلَّا مُسْلِمًا أَوْ مُسْلِمَةً ...

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ انْتَقَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ أَوَّلُ مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ إِلَىٰ مَنْزِلِ سَيِّدِ الْأَوْسِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَاتَّخَذَ بَيْتَهُ مَوْئِلًا[1] لِلدَّعْوَةِ ...

حَتَّىٰ لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ ؛ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ مُسْلِمُونَ وَنِسَاءٌ مُسْلِمَاتٌ ...

وَبِذَلِكَ فُتِحَتْ أَبْوَابُ يَثْرِبَ فِي وُجُوهِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ ...

(١) مَوْئِلًا : ملاذًا ومرجعًا .

فَطَفِقُوا يَتَوَافَدُونَ عَلَيْهَا جَمَاعَاتٍ وَفُرَادَىٰ ...

وَيَجِدُونَ فِي رِحَابِهَا الْحِمَايَةَ وَالْأَمْنَ .

* * *

لَقَدْ كَانَ إِسْلَامُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرًا لِلْإِسْلَامِ وَبَرَكَةً عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ...

وَكَانَ لَهُ مِنْ جَلِيلِ الْمَوَاقِفِ فِي نُصْرَةِ الدَّعْوَةِ مَا مَلَأَ نَفْسَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ حُبًّا لَهُ وَإِعْجَابًا بِهِ .

فَفِي يَوْمِ بَدْرٍ حِينَ خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ لِاعْتِرَاضِ عِيرِ قُرَيْشٍ ؛ مَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَوْقِفٍ حَرِجٍ ...

ذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا خَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا لِلاسْتِيلَاءِ عَلَىٰ قَافِلَةٍ لَا يَزِيدُ عَدَدُ حُمَاتِهَا عَلَىٰ أَرْبَعِينَ رَجُلًا ...

ثُمَّ تَحَوَّلَ الْأَمْرُ فَجْأَةً إِلَىٰ مُجَابَهَةٍ مَعَ جَيْشٍ لَجِبٍ ؛ يَقُودُهُ الْعِنَادُ وَتُثِيرُهُ الْأَحْقَادُ ، وَيَدْفَعُهُ التَّحَدِّي .

وَلَمْ يَكُنْ مَعَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ إِلَّا ثَلَاثُمِائَةٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ...

وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَ الْقَرَارَ الْحَاسِمَ ...

فَإِمَّا أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ تَارِكًا جَيْشَ الْمُشْرِكِينَ يَجُوسُ[١] خِلَالَ الدِّيَارِ وَيُبَاهِي بِقُوَّتِهِ أَمَامَ الْقَبَائِلِ الضَّارِبَةِ[٢] بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ...

وَإِمَّا أَنْ يُنَازِلَ جَيْشَ الْمُشْرِكِينَ الْكَبِيرَ بِجَيْشِهِ الصَّغِيرِ .

وَكَانَ هَذَا الْقَرَارُ يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ مَوْقِفِ الْأَنْصَارِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ جُلَّ جَيْشِهِ مِنْهُمْ ...

(١) يَجُوس خلال الديار : يتجول في أرجاء الديار .
(٢) الضَّارِبَة : المقيمة .

وَهُمُ الَّذِينَ سَيَحْمِلُونَ عِبْءَ الْمَعْرَكَةِ عَلَىٰ كَوَاهِلِهِمْ .

ثُمَّ إِنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ فِي الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ ؛ تَعَهَّدُوا لَهُ بِحِمَايَتِهِ مِمَّا يَحْمُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ...

وَلَمْ يَعِدُوهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُ خَارِجَ دِيَارِهِمْ .

عِنْدَ ذَلِكَ وَقَفَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، وَأَعْلَنَ فِي كَلِمَاتٍ حَاسِمَةٍ حَازِمَةٍ ؛ عَزْمَ الأَنْصَارِ عَلَىٰ خَوْضِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَقَالَ :

« يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقَدْ آمَنَّا بِكَ ، وَصَدَّقْنَاكَ ...

وَأَعْطَيْنَاكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...

فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ ...

فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَٰذَا الْبَحْرَ ؛ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ...

إِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ ؛ صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ ...

وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ(١) بِهِ عَيْنُكَ » .

فَسُرَّ الرَّسُولُ ﷺ بِذَلِكَ أَشَدَّ السُّرُورِ وَأَعْظَمَهُ ، وَعَقَدَ رَايَةَ الأَنْصَارِ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَرَايَةَ الْمُهَاجِرِينَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ...

* * *

وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ كَانَ لِسَعْدٍ مَوْقِفٌ مَشْهُودٌ ...

ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَأَىٰ شِدَّةَ وَطْأَةِ الأَحْزَابِ(٢) عَلَىٰ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؛ أَرَادَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمْ .

---

(١) تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ : تَسْعَدُ به وترضىٰ .

(٢) الأَحزاب : الجماعات من الناس، وهم هنا جنود الكفار من قريش وغَطَفَان وبني قريظة وبهم سُمِّيت هذه الغزوة « غزوة الأحزاب » .

فَفَاوَضَ قَادَةَ غَطْفَانَ عَلَىٰ إِعْطَائِهِمْ ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ ؛ إِذَا تَرَكُوا قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَرَضُوا بِذَلِكَ .

فَلَمَّا عَرَفَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مَا يَدُورُ بَيْنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَغَطْفَانَ ؛ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ :

أَهَٰذَا أَمْرٌ تُحِبُّهُ ؟ ... فَنَصْنَعُهُ[1] لَكَ .

أَمْ شَيْءٌ أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ ؟ فَنَسْمَعُ وَنُطِيعُ .

أَمْ هُوَ أَمْرٌ تَصْنَعُهُ لَنَا ؟ لِتُخَفِّفَ عَنَّا .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(بَلْ هُوَ أَمْرٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ ...

وَوَاللَّهِ ! مَا صَنَعْتُهُ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ[2] عَنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ) .

فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

وَاللَّهِ ! لَقَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ؛ فَمَا طَمِعُوا أَنْ يَنَالُوا مِنَّا ثَمَرَةً إِلَّا بِشِرَاءٍ أَوْ قِرًى[3] ...

وَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَأَعَزَّنَا بِكَ ؛ نُعْطِيهِمْ مِنْ أَمْوَالِنَا ؟! ...

وَاللَّهِ ! ـ يَا رَسُولَ اللَّهِ ـ مَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ ... حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

---

(١) نَصْنَعُهُ لكَ : نؤدِّيه لكَ .

(٢) قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ : أي تجمَّعَت علىٰ عداوتكم .

(٣) القِرىٰ : إكرام الضيف .

فَسُرَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِمَقَالَةِ سَعْدٍ، وَصَرَفَ الْأَمْرَ.

* * *

وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ هَٰذَا؛ أُصِيبَ سَعْدٌ بِسَهْمٍ قَطَعَ أَكْحَلَهُ(١)، وَأَوْرَدَهُ مَوَارِدَ الْمَوْتِ...

وَفِيمَا كَانَ فَتَى الْإِسْلَامِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ يُحْتَضَرُ؛ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَضَعُ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهِ، وَيُسَجِّيهِ(٢) بِثَوْبٍ أَبْيَضَ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي لَوْعَةٍ وَحُزْنٍ، وَيَقُولُ:

(اللَّهُمَّ إِنَّ سَعْدًا جَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ...

وَصَدَّقَ رَسُولَكَ...

وَقَضَىٰ الَّذِي عَلَيْهِ...

فَتَقَبَّلْ رُوحَهُ بِخَيْرِ مَا تَقَبَّلْتَ بِهِ رُوحًا).

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ سَعْدٍ وَهْوَ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَمَا إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ...

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ (*).

(١) الأكحل: عرق في وسط الذراع يكثر فصده، وهو عرق الحياة فإذا قطع في اليد لم يتوقف الدمُ.
(٢) يُسَجِّيه: يغطيه.

(*) للاستزادة من أخبار سَعْدِ بْنِ مُعَاذ انظر:
١ - الإصابة: ٣٧/٢ أو «الترجمة» ٣٢٠٤.
٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٢/ ٢٧.
٣ - الطبقات الكبرىٰ: ٢/ ٧٧، ٣/ ٢٤١، ٤٢٧.
٤ - كنز العمال: ٧/ ٤٠.
٥ - مجمع الزوائد: ٩/ ٣٠٨.
٦ - أسد الغابة: ٢/ ٣٧٣.
٧ - صفة الصفوة: ١/ ٤٥٥.
٨ - تهذيب التهذيب: ٣/ ٤٨١.
٩ - البداية والنهاية: ٣/ ١٥٢، ٤/ ١١٠، ١١٨.

شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ الأَنْصَارِيُّ

« إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْتَىٰ عِلْمًا وَلَا يُؤْتَىٰ حِلْمًا ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَىٰ حِلْمًا وَلَا يُؤْتَىٰ عِلْمًا ، وَإِنَّ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ أُوتِيَ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ مَعًا »

[عَارِفُوهُ مِنَ الصَّحَابَةِ]

هَٰذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ وِعَاءٌ[1] مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ ...

وَعَابِدٌ مِنْ عُبَّادِ الصَّحَابَةِ ...

وَزَاهِدٌ مِنْ زُهَّادِ الأَنْصَارِ ...

قَدْ تَشَبَّعَ بِحُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَارْتَوَىٰ مِنْ دِينِ اللَّهِ الْقَوِيمِ ، وَالْتَزَمَ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ .

إِنَّهُ شَدَّادُ بْنُ أَوْسِ بْنِ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ...

* * *

نَشَأَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ فِي أُسْرَةٍ بَذَلَتْ لِلرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُهُ مِنْ تَأْيِيدٍ وَنُصْرَةٍ ، وَأَعْطَتْهُ سَائِرَ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ طَاقَةٍ وَعَوْنٍ .

فَأَبُوهُ أَوْسُ بْنُ ثَابِتٍ ؛ كَانَ أَحَدَ الرِّجَالِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ .

وَعَاهَدُوهُ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعُوهُ[2] هُوَ وَمَنْ مَعَهُ ؛ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ .

فَبَرَّ أَوْسُ بْنُ ثَابِتٍ أَبُو شَدَّادٍ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ ، وَبَذَلَ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ

---

(١) وِعَاءٌ من أوعية العلم : أي أنه حافظ للعلم ؛ بالغ منتهىٰ الحلم .

(٢) يمنعونه : يحمونه .

جَمِيعَ مَا تَمْلِكُهُ قُوَاهُ .

وَظَلَّ يُجَاهِدُ إِلَىٰ جَانِبِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

وَعَمُّهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ شَاعِرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَالذَّائِدُ[١] عَنْهُ بِلِسَانٍ ؛ كَانَ أَحَدَّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُرْهَفَاتِ[٢] السُّيُوفِ .

وَالْمُدَافِعُ عَنْهُ بِبَيَانٍ ؛ كَانَ أَشَدَّ عَلَىٰ الْكُفَّارِ مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ فِي غَبَشِ[٣] الظَّلَامِ .

* * *

وَقَدْ أُتِيحَ[٤] لِشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ فَوْقَ ذَلِكَ مَا لَمْ يُتَحْ لِغَيْرِهِ مِنْ شُبَّانِ الْمَدِينَةِ .

فَقَدْ كُتِبَ لِبَيْتِهِمْ شَرَفُ اسْتِضَافَةِ رُقَيَّةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاسْتِضَافَةِ زَوْجِهَا التَّقِيِّ النَّقِيِّ الْبَرِّ[٥] عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ[٦] ذِي النُّورَيْنِ زَوْجِ الِابْنَتَيْنِ، وَصَاحِبِ الْهِجْرَتَيْنِ .

* * *

ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حِينَ أَخَذَ يُؤَاخِي بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ اخْتَارَ وَالِدَ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ؛ لِيَكُونَ أَخًا لِصِهْرِهِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ .

---

(١) الذَّائد عنه : المدافع عنه .

(٢) مُرْهفَات السّيوف : السّيوف المرققة المحدّدة .

(٣) غَبَش الظّلَام : ظلمة آخر الليل .

(٤) أُتيح لشداد : يُسِّرَ له .

(٥) الْبَرّ : الصادق ، المطيع لله .

(٦) عُثْمَانَ بْنِ عَفَّان : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

كَمَا اخْتَارَ أُمَّ شَدَّادٍ ؛ لِتَنْزِلَ ابْنَتُهُ رُقَيَّةُ فِي جِوَارِهَا ...

فَلَقِيَ عُثْمَانُ وَزَوْجَتُهُ فِي كَنَفِ[١] هَـٰذَا الْبَيْتِ الْمُؤْمِنِ مِنْ كَرِيمِ الرِّعَايَةِ ، وَعَظِيمِ الْعِنَايَةِ مَا يَلِيقُ بِمَنْزِلَتِهِمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَدْ تَيَسَّرَ لِشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ - بِسَبَبِ صِلَتِهِ بِالرَّسُولِ ﷺ - أَنْ يَأْخُذَ الْعِلْمَ مِنْ أَصْفَىٰ مَنَاهِلِهِ وَأَغْزَرِ مَوَارِدِهِ[٢]؛ حَتَّىٰ قَالَ عَنْهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فَقِيهًا ...

وَإِنَّ فَقِيهَ هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ الْأَنْصَارِيُّ .

* * *

كَمَا أَتَاحَتْ لَهُ صِلَتُهُ بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَتَمَرَّسَ[٣] عَلَىٰ الْعِبَادَةِ وَالزَّهَادَةِ عَلَىٰ يَدَيْ عَلَمٍ مِنْ أَعْلَامِ التُّقَىٰ وَالصَّلَاحِ ؛ فَبَلَغَ فِي هَـٰذَا الْمَيْدَانِ شَأْوًا[٤] لَمْ تَبْلُغْهُ إِلَّا الْقِلَّةُ الْقَلِيلَةُ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَلَمْ يَحْظَ بِهِ إِلَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ .

فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ لِيَنَالَ قَدْرًا مِنَ الرَّاحَةِ ؛ ظَلَّ يَتَقَلَّبُ فِي مَضْجَعِهِ ؛ كَأَنَّهُ فَوْقَ نُحَاسٍ مَحْمِيٍّ وَهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ ! إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ أَقْلَقَتْنِي ؛ فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنَامَ ...

وَأَذْهَبَتِ الْكَرَىٰ[٥] عَنْ عَيْنِي ؛ فَمَا أُطِيقُ أَنْ أَغْفُوَ .

---

(١) فِي كَنَفِ : فِي رعاية .
(٢) أغزر موارده : أكثرها .
(٣) يتَمَرَّس : يتدرب
(٤) شأوًا : غاية وأمدًا .
(٥) الكَرَىٰ : النوم .

ثُمَّ يَقُومُ وَيُصَلِّي حَتَّىٰ يُسْفِرَ[١] الصُّبْحُ .

* * *

وَقَدْ كَانَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ أَحَدَ الْقَلَائِلِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْعِلْمَ إِلَىٰ الْحِلْمِ ؛ فَقَدْ كَانَ عَارِفُوهُ مِنَ الصَّحَابَةِ يَقُولُونَ عَنْهُ :

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْتَىٰ عِلْمًا وَلَا يُؤْتَىٰ حِلْمًا ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَىٰ حِلْمًا وَلَا يُؤْتَىٰ عِلْمًا ، وَإِنَّ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ أُوتِيَ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ مَعًا .

* * *

وَقَدْ عَرَفَ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ مِنْ نَبِيلِ الْخِلَالِ[٢]، وَجَلِيلِ الْمَزَايَا ؛ فَاسْتَعْمَلَهُ وَالِيًا عَلَىٰ حِمْصَ بَعْدَ أَنْ تَخَلَّىٰ عَنْ وَلَايَتِهَا سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ[٣].

فَارْتَاحَ لَهُ أَهْلُهَا ، وَكَانُوا لَا يَرْتَاحُونَ لِأَحَدٍ ...

وَلَقَدْ ظَلَّ يَلِي[٤] أُمُورَهُمْ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدَ عُثْمَانُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَتَخَلَّىٰ عَمَّا أُسْنِدَ إِلَيْهِ ، وَعَادَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

* * *

أَحَسَّ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ بَعْدَ مَصْرَعِ الْخَلِيفَةِ الشَّهِيدِ أَنَّ الْفِتْنَةَ ذَرَّتْ[٥] بِقَرْنِهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَشِيَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يُدْفَعَ إِلَىٰ الْمُشَارَكَةِ فِيهَا دَفْعًا .

فَجَمَعَ أَهْلَهُ وَأَبْنَاءَهُ ، وَنَزَحَ[٦] بِهِمْ عَنْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) يسفر الصبح : يضيء.
(٢) الْخِلَال : الأخلاق والصفات .
(٣) سعيد بْنُ عَامر : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٤) يلي أمورهم : يتولىٰ أمورهم .
(٥) ذرَّت بقرنها : أي فرَّقت .
(٦) نزح بهم : انتقل بهم .

وَسَلَّمَ ؛ غَيْرَ قَالٍ(١) لَهَا ، وَلَا كَارِهٍ ...

وَحَطَّ رِحَالَهُ فِي فِلَسْطِينَ أَرْضِ الْقَدَاسَاتِ ، وَمَسْرَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَقَامَ فِي مَرَابِعِ أُولَىٰ الْقِبْلَتَيْنِ وَثَالِثِ الْحَرَمَيْنِ حَتَّىٰ عُمِّرَ وَشَاخَ .

غَيْرَ أَنَّهُ ظَلَّ - مَعَ ذَلِكَ - شَدِيدَ الْحَنِينِ إِلَىٰ مَكَّةَ مَنْبَعِ النُّورِ ؛ كَثِيرَ التَّشَوُّقِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مُهَاجَرِ(٢) رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

حَدَّثَ فَتًى مِنْ مُجَاشِعٍ ؛ قَالَ :

انْطَلَقْتُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ أَنَا وَصَحْبٌ لِي قَاصِدِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ؛ فَإِذَا نَحْنُ بِأَخْبِيَةٍ(٣) فِيهَا فُسْطَاطٌ كَبِيرٌ ؛ فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي :

عَلَيْكُمْ بِصَاحِبِ هَٰذَا الْفُسْطَاطِ فَإِنَّهُ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ .

فَلَمَّا بَلَغْنَا الْفُسْطَاطَ سَلَّمْنَا ؛ فَرَدَّ السَّلَامَ رَجُلٌ كَانَ قَائِمًا هُنَاكَ ؛ وَهَشَّ لَنَا وَبَشَّ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّىٰ خَرَجَ إِلَيْنَا شَيْخٌ وَقُورٌ جَلِيلُ الْقَدْرِ ...

فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ هِبْنَاهُ مَهَابَةً لَمْ نَهَبْ مِثْلَهَا وَالِدًا قَطُّ وَلَا سُلْطَانًا ...

فَحَيَّانَا ؛ فَرَدَدْنَا التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ؛ فَقَالَ : مَا أَنْتُمْ ؟

فَقُلْنَا : نَحْنُ فِتْيَةٌ خَرَجْنَا لِنَؤُمَّ(٤) الْبَيْتَ الْعَتِيقَ .

---

(١) غير قَالٍ لها : غير هاجر لها ، ولا مبغض .
(٢) مُهاجَر الرسول ﷺ : مكان هجرته .
(٣) الأخبية : الخيام ، والفسطاط أكبرها .
(٤) لنؤم البيت العتيق : لنقصد الكعبة بمكة المكرمة .

فَنَظَرَ إِلَيْنَا فِي حُنُوٍّ - وَكَأَنَّمَا حَرَّكَتْ كَلِمَتُنَا أَشْجَانَهُ[١] - وَقَالَ :

وَأَنَا تُحَدِّثُنِي نَفْسِي بِأَنْ أَمْضِيَ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَسَأَصْحَبُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَأَعَانَ .

* * *

ثُمَّ نَادَىٰ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْأَخْبِيَةِ شَبَابٌ كَثِيرٌ كَأَنَّهُمُ النُّجُومُ الزُّهْرُ ؛ فَجَمَعَهُمْ ، وَخَطَبَهُمْ ، وَأَوْصَاهُمْ ثُمَّ قَالَ :

إِنَّكُمْ يَا بَنِيَّ لَمْ تَرَوْا مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَطْرَافَهُ ...

وَلَمْ تَرَوْا مِنَ الشَّرِّ إِلَّا أَطْرَافَهُ أَيْضًا ...

وَلَا يَفُتْكُمْ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ[٢] فِي الْجَنَّةِ ، وَأَنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي النَّارِ ...

وَأَنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ[٣] حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ...

وَأَنَّ الْآخِرَةَ وَعْدٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ عَادِلٌ ...

وَأَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَنُونَ ...

فَكُونُوا أَبْنَاءَ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا .

ثُمَّ أَعْلَنَ لَهُمْ عَزْمَهُ عَلَىٰ الرَّحِيلِ مَعَنَا إِلَىٰ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ؛ فَجَعَلُوا يَنْتَحِبُونَ[٤] بُكَاءً عَلَىٰ فِرَاقِهِ ، وَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَىٰ عَنْهُمْ وَالدُّعَاءَ لَهُمْ .

قَالَ فَتَىٰ مُجَاشِعٍ :

فَقُلْتُ لِلْوَاقِفِينَ حَوْلِي : مَنْ هَٰذَا الَّذِي تَفِيضُ الْحِكْمَةُ مِنْ جَوَانِبِهِ ؟!

---

(١) أشجانه : أحزانه .

(٢) بحذافيره : بجملته .

(٣) عَرَض : متاع .

(٤) النحيب : شدة البكاء .

فَقَالُوا : هَـٰذَا شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَابْنُ صَاحِبِهِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ ؛ حَتَّىٰ دَعَا لَنَا بِالسَّوِيقِ[1] وَجَعَلَ يَبُسُّهُ[2] لَنَا بِيَدِهِ ، وَيُطْعِمُنَا وَيَسْقِينَا .

* * *

فَلَمَّا أَزِفَ[3] مَوْعِدُ الرَّحِيلِ خَرَجْنَا مَعَهُ ، وَمَضَيْنَا فِي طَرِيقِنَا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْنَا مَكَانًا مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ ؛ أَلْقَيْنَا فِيهِ رِحَالَنَا طَلَبًا لِلرَّاحَةِ ؛ فَقَالَ لِغُلَامٍ مِنْ غِلْمَانِهِ :

اِصْنَعْ لَنَا طَعَامًا نَتَلَهَّىٰ بِهِ .

فَعَجِبْنَا لِكَلِمَتِهِ هَـٰذِهِ ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ[4] شَابٌّ مِنَّا قَوْلَهُ : « نَتَلَهَّىٰ بِهِ » .

فَنَدِمَ عَلَىٰ كَلِمَتِهِ تِلْكَ ، وَقَالَ :

جَزَاكُمُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا ...

ثُمَّ أَتْبَعَ قَائِلًا - وَالْأَسَىٰ يَصْبِغُ وَجْهَهُ - :

وَاللَّهِ ! مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مُنْذُ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ إِلَّا وَأَنَا أُرَاقِبُهَا قَبْلَ أَنْ أُفْضِيَ بِهَا ؛ غَيْرَ هَـٰذِهِ ...

فَلَا تَحْفَظُوهَا عَلَيَّ ، وَلَا تُشِيعُوهَا عَنِّي .

وَإِنَّمَا احْفَظُوا عَنِّي مَا أَرْوِيهِ لَكُمْ ...

فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

---

(١) السَّويق : نقيع الشعير .

(٢) يَبُسُّه : يخلطه .

(٣) أزف : حان .

(٤) أنكر عَلَيْهِ : رفض وعاب .

(إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ؛ فَاكْنِزُوا هَٰذِهِ الْكَلِمَاتِ :

اللَّٰهُمَّ ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ ...

وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ ...

وَأَسْأَلُكَ يَقِينًا صَادِقًا ، وَقَلْبًا سَلِيمًا ...

وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ...

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ...

وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ ...

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ وَأَرْضَاهُ ، وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ ...

فَلَقَدْ كَانَ تَوَّابًا أَوَّابًا ؛ حَفِيًّا بِالْخَيْرِ ؛ بَعِيدًا عَنِ الشَّرِّ ...

مُؤْثِرًا لِمَا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار شَدَّاد بن أوسٍ وأبيه انظر :
١ - حلية الأولياء: ١/ ٢٦٤.
٢ - سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٦٠.
٣ - أسد الغابة : ٢/ ٥٠٧.
٤ - الإصابة : ٢/ ١٣٩ «الترجمة» ٣٨٤٧.
٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/ ١٣٥.
٦ - صفة الصفوة: ١/ ٧٠٨.

عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه

طَرَفٌ مِنْ أَخْبَارِهِ

«وَاللهِ! ... إِنَّ الَّذِينَ كَبَّرُوا عِنْدَ وِلَادَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ؛ أَكْثَرُ وَأَبَرُّ مِنَ الَّذِينَ كَبَّرُوا عِنْدَ مَوْتِهِ»

[عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ]

بَلَغَتْ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ[1] أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ مَشَارِفَ[2] يَثْرِبَ مُتْعَبَةً مُجْهَدَةً ...

فَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ الْآخَرُونَ يُعَانُونَ مِنْ مَشَاقِّ السَّفَرِ وَحْدَهَا.

أَمَّا هِيَ؛ فَقَدْ كَانَتْ تُعَانِي فَوْقَ مَشَاقِّ السَّفَرِ مَشَاقَّ الْحَمْلِ أَيْضًا.

وَمَا كَادَتْ أَسْمَاءُ تَحُطُّ رِحَالَهَا فِي قِبَاءَ مِنْ ضَوَاحِي يَثْرِبَ حَتَّىٰ جَاءَهَا الْمَخَاضُ[3].

فَوَلَدَتْ غُلَامًا أَقَامَ مَوْلِدُهُ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَقْعَدَهَا.

ذَلِكَ أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ كَانُوا قَدْ أَذَاعُوا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ أَحْبَارَهُمْ[4] عَقَدُوا لِلْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ سِحْرًا.

وَأَنَّ هَٰذَا السِّحْرَ يُصِيبُهُمْ بِالْعُقْمِ ...

فَلَا يُولَدُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَوْلُودٌ.

* * *

(١) أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيات للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.
(٢) مشارف يثرب: الأماكن المطلة عليها.
(٣) المَخَاض: الطلق ووجع الولادة.
(٤) الحبر: رئيس الكهنة عند اليهود.

فَمَا كَادَ نَبَأُ وِلَادَةِ الْغُلَامِ السَّعِيدِ يَنْتَشِرُ بَيْنَ النَّاسِ ؛ حَتَّىٰ دَوَّتْ أَرْجَاءُ مَدِينَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ ، وَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَبَاشَرُونَ(١) وَيَهْتِفُونَ :

كَذَبَ الْيَهُودُ ...

كَذَبَ الْيَهُودُ ...

* * *

حُمِلَ الْمَوْلُودُ الْجَدِيدُ السَّعِيدُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ ، وَدَعَا بِعَجْوَةٍ فَلَاكَهَا فِي فَمِهِ الشَّرِيفِ ، ثُمَّ أَدْخَلَهَا فِي فَمِ الْغُلَامِ الْمَحْظُوظِ فَأَسَاغَهَا(٢) ...

ثُمَّ سَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ ؛ وَهْوَ اسْمُ جَدِّهِ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَكَنَّاهُ(٣) أَبَا بَكْرٍ ؛ وَهْيَ كُنْيَتُهُ .

ثُمَّ أَمَرَ الصِّدِّيقَ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي أُذُنِهِ ؛ فَأَذَّنَ لَهُ .

فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ فِي جَوْفِ ذَلِكَ الْمَوْلُودِ الْمَحْظُوظِ ؛ رِيقُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَكَانَ أَوَّلَ صَوْتٍ اسْتَقَرَّ فِي أُذُنِهِ صَوْتُ الْأَذَانِ ؛ رَفَعَهُ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

وَقَدِ اجْتَمَعَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ مِنْ كَرَمِ الْحَسَبِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ إِلَّا لِلْقَلِيلِ النَّادِرِ مِنَ النَّاسِ ...

---

(١) يتباشرون : يبشر بعضهم بعضًا .
(٢) أساغها : ابتلعها .
(٣) الكنية : ما صُدِّر بأب أو أم كأبي بكر وأم المؤمنين .

فَأَبُوهُ : الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ؛ حَوارِيُّ[1] رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَحَدُ الْعَشَرةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ ...

وَأُمُّهُ : أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ ...

وَجَدُّهُ لِأُمِّهِ : أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؛ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَصَفِيُّهُ ...

وخَالَتُهُ : عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ؛ الْبَرِيئَةُ الْمُبَرَّأَةُ ...

وَجَدَّتُهُ لِأَبِيهِ : صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[2] ؛ عمَّةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَعَمَّةُ أَبِيهِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ؛ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَرَبِ .

فَهَلْ يَسْمُو عَلَىٰ ذَلِكَ الْعِزِّ غَيْرُ عِزِّ الْإِسْلَامِ ...

وَهَلْ يَعْلُو على هَذَا الْمَجْدِ غَيْرُ مَجْدِ الْإِيمَانِ ؟! .

* * *

نَبَتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ ، وَعَلَىٰ أَرْضِ ذَلِكَ الْبَيْتِ الطَّاهِرِ دَرَجَ ، وَبِآدَابِهِ السَّامِيَةِ تَأَدَّبَ .

فَقَدْ كَانَ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَىٰ خَالَتِهِ عَائِشَةَ ؛ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ ...

وَبَعْدَ وَالِدِهَا الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِهِ ؛ أَمَرَهُ أَبُوهُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ أَنْ

(١) حوَاريو الرسل : الخاصة من أصحابهم .
(٢) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِب : انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

يَذْهَبَ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبَايِعَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ؛ فَمَضَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَكَانَ غُلَامًا صَغِيرًا فِي مِثْلِ سِنِّهِ .

فَلَمَّا رَآهُمَا النَّبِيُّ ﷺ مُقْبِلَيْنِ عَلَيْهِ لِمُبَايَعَتِهِ(١) ؛ كَمَا يَفْعَلُ كَمَلَةُ(٢) الرِّجَالِ ... تَبَسَّمَ سُرُورًا مِنْ صَنِيعِهِمَا وَمَدَّ يَدَهُ الْكَرِيمَةَ إِلَيْهِمَا وَبَايَعَهُمَا .

* * *

ظَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ يَذْكُرُ هَٰذِهِ الْبَيْعَةَ ...

وَالْتَزَمَ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ وَأَمَرَ أَوْلَادَهُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... فَقَدْ غَابَ ابْنُهُ مَرَّةً عَنِ الْبَيْتِ وَطَالَ غِيَابُهُ ؛ فَلَمَّا عَادَ قَالَ لَهُ :

أَيْنَ كُنْتَ يَا بُنَيَّ ؟! .

فَقَالَ : وَجَدْتُ قَوْمًا مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْهُمْ ...

لَقَدْ كَانُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ ؛ فَيُرْعِي(٣) أَحَدُهُمْ وَيُرْعِدُ(٤) حَتَّىٰ يُغْشَىٰ(٥) عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ؛ فَقَعَدْتُ مَعَهُمْ نَهَارِي كُلَّهُ .

فَقَالَ لَهُ : لَا تَقْعُدْ مَعَهُمْ بَعْدَ هَٰذِهِ الْمَرَّةِ يَا بُنَيَّ أَبَدًا ...

فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ يَتْلُو الْقُرْآنَ ، وَيَذْكُرُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ؛ أَطْيَبَ الذِّكْرِ وَأَعْمَقَهُ وَأَصْدَقَهُ .

وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ

---

(١) لمبايعته : تأييده علىٰ نصرة الإسلام .
(٢) كملة الرّجال : جمع كامل وهو الجامع للمناقب الحسنة .
(٣) فيرغي : يضج غضبًا .
(٤) يُرْعد : يرتعد خوفًا .
(٥) يغشَىٰ عَلَيْهِ : يغمىٰ عليه فلا يدري شيئًا مما حوله .

ويَذْكُرُونَ اللَّهَ أَيْضًا ؛ فَمَا كَانَ يُصِيبُهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَٰذَا .

أَفَتَظُنُّ أَنَّ أَصْحَابَكَ هَؤُلَاءِ أَخْشَعَ لِلَّهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ ؟!! .

* * *

وَكَمَا نُشِّئَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَىٰ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَىٰ ؛ فَقَدْ نُشِّئَ عَلَىٰ الْفُرُوسِيَّةِ وَمُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ(١) .

فَكَانَ أَبُوهُ يَحْرِصُ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يُشْهِدَهُ الْغَزَوَاتِ ...

وَأَنْ يَأْخُذَهُ مَعَهُ إِلَىٰ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ(٢) لِيَحْضُرَ الْمَعَارِكَ ، وَيَشْهَدَ الْفُتُوحَ ...

فَقَدِ اصْطَحَبَهُ مَعَهُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ ...

وَخَصَّهُ بِجَوَادٍ مِنْ عِتَاقِ(٣) الْخَيْلِ ...

وَاسْتَأْجَرَ لَهُ قَيِّمًا يَرْعَاهُ .

فَأُتِيحَ لَهُ أَنْ يَشْهَدَ أَعْظَمَ مَعْرَكَةٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ عَنْ كَثَبٍ ...

وَأَنْ يَرَىٰ الْجُيُوشَ الْجَرَّارَةَ فِي الْكَرِّ وَالْفَرِّ(٤)...

وَأَنْ يَصْحَبَهَا فِي الْهَزِيمَةِ وَالنَّصْرِ .

فَغَدَا(٥) مِسْعَرَ(٦) حَرْبٍ ؛ كَمَا كَانَ عَابِدَ لَيْلٍ .

* * *

(١) منذ نعومة أظفاره : كناية عن صغر السن .
(٢) النائية : البعيدة .
(٣) عتاق الخيل : الخيل الأصيلة الكريمة .
(٤) الكرّ والفرّ : حركة الجنود في هجومها وتراجعها .
(٥) فغدَا : أصبح وصار .
(٦) مسْعَر حرب : بطلها وموقدها .

لَمْ يَتَأَخَّرِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا الْمُسْلِمُونَ ؛ مُنْذُ غَدَا أَهْلًا لِحَمْلِ السِّلَاحِ ...

وَكَانَ لَهُ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ خَاضَهَا الْمُجَاهِدُونَ ؛ أَثَرٌ يُذْكَرُ فَيُشْكَرُ.

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ أَذِنَ لِوَالِيهِ عَلَىٰ مِصْرَ بِغَزْوِ أَفْرِيقِيَّةَ ...

فَمَضَىٰ الْجَيْشُ الْغَازِي إِلَىٰ غَايَتِهِ.

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنِ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنِ الْخَلِيفَةِ ؛ فَأَهَمَّهُ أَمْرُ ذَلِكَ الْجَيْشِ وَأَغَمَّهُ ...

فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ عَلَىٰ رَأْسِ جَمَاعَةٍ مِنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِإِمْدَادِ الْجَيْشِ ، وَمُوَافَاتِهِ بِأَخْبَارِهِ(٢).

* * *

الْتَقَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بِالْجَيْشِ الْغَازِي ، وَاطَّلَعَ عَلَىٰ أَحْوَالِهِ ...

فَوَجَدَ أَنَّ قَائِدَهُ كَانَ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَىٰ الظُّهْرِ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

ثُمَّ يَرْكَنُ جَيْشُهُ وَجَيْشُهُمْ إِلَىٰ الرَّاحَةِ مِنْ قَسْوَةِ الْجَوِّ وَشِدَّةِ الْحَرِّ.

فَمَا أَسْرَعَ أَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِأَنْ يُقَسِّمَ جَيْشَهُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ :

قِسْمٍ يُحَارِبُ نِصْفَ النَّهَارِ الْأَوَّلِ ...

وَقِسْمٍ يُحَارِبُ نِصْفَ النَّهَارِ الثَّانِي ...

فَيَتَبَادَلُ الْفَرِيقَانِ الرَّاحَةَ ، وَيَسْتَمِرُّ الْقِتَالُ ...

---

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره في الكتاب الثامن من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.
(٢) مُوَافَاته بأخباره : إبلاغه بأخباره.

وَبِذَلِكَ لَا يُعْطِي الْعَدُوَّ الْفُرْصَةَ لِالْتِقَاطِ أَنْفَاسِهِ .

فَسُرَّ قَائِدُ الْجَيْشِ بِالْخُطَّةِ الْمُقْتَرَحَةِ ، وَأَمَرَ بِتَنْفِيذِهَا .

وَتَخَلَّىٰ عَنِ الْقِيَادَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ طَائِعًا مُخْتَارًا .

* * *

اقْتَتَلَ الْجَيْشَانِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي كَمَا كَانَا يَقْتَتِلَانِ كُلَّ يَوْمٍ ...

فَلَمَّا حَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ ؛ شَرَعَ الْأَعْدَاءُ يَنْصَرِفُونَ عَلَىٰ عَادَتِهِمْ .

فَمَا رَاعَهُمْ[1] إِلَّا أَنْ فُوجِئُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُوَاصِلُونَ الْقِتَالَ بِجَيْشٍ مَشْبُوبِ[2] الْقُوَّةِ ...

مَشْحُوذِ[3] الْعَزِيمَةِ ...

مَوْفُورِ[4] النَّشَاطِ ...

فَدَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الذُّعْرُ[5] ...

وَحَلَّ فِي صُفُوفِهِمُ الْخَلَلُ ...

وَبَدَتْ عَلَيْهِمْ بَوَادِرُ الْهَزِيمَةِ .

عِنْدَ ذَلِكَ رَأَىٰ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً ؛ فَاخْتَارَ ثَلَاثِينَ مِنْ رِجَالِهِ الْأَشِدَّاءِ ، وَقَالَ لَهُمْ :

صُونُوا[6] ظَهْرِي ، وَسَتَرَوْنَ مَا أَنَا فَاعِلٌ .

* * *

(١) الرّوع : الفزع والخوف .
(٢) مشبوب القوة : متقد قوة .
(٣) مشحوذ العزيمة : شديد الإصرار .
(٤) موفور النّشاط : تام النشاط .
(٥) الذّعر : الخوف والهلع .
(٦) صونوا ظهري : احموا ظهري .

كَانَ « جَرْجِيرُ » مَلِكُ الْأَعْدَاءِ، وَقَائِدُ جَيْشِهِمْ يَسْتَقِرُّ فِي وَسَطِ عَسْكَرِهِ رَاكِبًا بِرْذَوْنَهُ[١] الْأَشْهَبَ[٢]...

وَكَانَتْ مَعَهُ جَارِيَتَانِ تُظَلِّلَانِ عَلَيْهِ بِرِيشِ الطَّوَاوِيسِ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ لِرِجَالِهِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ:

إِنِّي مَاضٍ إِلَيْهِ؛ فَاتْبَعُونِي...

وَرُدُّوا عَنِّي كَيْدَ مَنْ يَعْتَرِضُنِي.

ثُمَّ مَضَىٰ نَحْوَ « جَرْجِيرَ » رَابِطَ الْجَأْشِ[٣]...

ثَابِتَ الْعَزْمِ...

رَصِينَ الْخُطَا.

وَجَعَلَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ فِي هُدُوءٍ...

فَظَنَّهُ الْقَوْمُ رَسُولًا جَاءَ مِنْ لَدُنِ الْمُسْلِمِينَ لِلْمُفَاوَضَةِ.

فَلَمَّا غَدَا فِي وَسَطِ الْعَسْكَرِ؛ عَرَفَ الْمَلِكُ قَصْدَهُ، وَخَشِيَ بَطْشَهُ...

فَوَلَّىٰ هَارِبًا.

فَأَدْرَكَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَطَعَنَهُ طَعْنَةً طَرَحَتْهُ أَرْضًا.

ثُمَّ أَكَبَّ فَوْقَهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ[٤]، وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ، وَنَصَبَهُ فَوْقَ رُمْحِهِ...

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ؛ فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ لِتَكْبِيرِهِ...

---

(١) البرذون: دابة فوق الحمار ودون الحصان.

(٢) الأشهب: الذي خالط بياضه سواده.

(٣) رَابط الجأش: قوي الإرادة.

(٤) أجهز عَلَيْهِ: قتله.

فَهَزَّتِ الْحَمِيَّةُ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ ...

وَدَبَّ الذُّعْرُ[1] فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ .

فَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ...

وَمَنَحُوا ظُهُورَهُمْ لِابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَجُنْدِهِ الْمُقَاتِلِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَلَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ ؛ فَحَظِيَ فَوْقَ مَزَايَاهُ كُلِّهَا بِسُمُوِّ التَّقْوَىٰ وَطُهْرِ الصَّلَاحِ ؛ حَيْثُ عَاشَ قَوَّامًا لِلَّيْلِ صَوَّامًا لِلنَّهَارِ ؛ مُعَلَّقَ الْقَلْبِ بِبُيُوتِ اللَّهِ ...

فَكَانَ النَّاسُ يَدْعُونَهُ « حَمَامَةَ الْمَسْجِدِ » .

وَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ جَعَلَ لَيَالِيَ عُمُرِهِ ثَلَاثًا :

فَلَيْلَةٌ يَقْضِيهَا وَهْوَ قَائِمٌ يُصَلِّي حَتَّىٰ الصَّبَاحِ ...

وَلَيْلَةٌ يَقْضِيهَا وَهْوَ رَاكِعٌ حَتَّىٰ الصَّبَاحِ ...

وَلَيْلَةٌ يَقْضِيهَا وَهْوَ سَاجِدٌ حَتَّىٰ الصَّبَاحِ أَيْضًا .

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ مَوَاقِفُ فِي الْمَوَاسِمِ تَهُزُّ أَفْئِدَةَ الْمُسْلِمِينَ هَزًّا ، وَتُثِيرُ فِي قُلُوبِهِمْ كَوَامِنَ الْإِيمَانِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ ؛ قَالَ :

خَرَجَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ قَبْلَ التَّرْوِيَةِ[2] بِيَوْمٍ - وَهْوَ مُحْرِمٌ - فَلَبَّىٰ تَلْبِيَةً

(١) دبّ الذّعر : دخل الخوف قلوبهم .

(٢) يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذي الحجة ، وسُمّي بالتروية لأنّ الحجيج يتروون فيه بالماء قبل النهوض إلى مِنىٰ ؛ أي يتزودون بالماء .

مَا سَمِعْتُ بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلَا بِمِثْلِهَا قَطُّ ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ أَوْفَرَ الْحَمْدِ ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ أَجْزَلَ الثَّنَاءِ ، ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ مِنْ آفَاقٍ شَتَّىٰ وُفُودًا إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَحَقٌّ عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ وَفْدَهُ ...

فَمَنْ جَاءَ مِنْكُمْ يَطْلُبُ مَا عِنْدَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ طَالِبَ اللَّهِ لَا يَخِيبُ ...

وَصَدِّقُوا قَوْلَكُمْ بِالْفِعْلِ ؛ فَإِنَّ مَلَاكَ الْقَوْلِ الْعَمَلُ ...

وَالنِّيَّةَ النِّيَّةَ ؛ فَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ...

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي أَيَّامِكُمْ هَٰذِهِ ؛ فَإِنَّهَا أَيَّامٌ تُغْفَرُ فِيهَا الذُّنُوبُ .

ثُمَّ لَبَّىٰ وَلَبَّىٰ النَّاسُ بِتَلْبِيَتِهِ ...

فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَلَقَدْ ظَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ طَوَالَ عُمُرِهِ يُنَاضِلُ عَمَّا كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ .

حَتَّىٰ قُتِلَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ بِحَجَرٍ مِنْ مَنْجَنِيقِ(١) الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ(٢).

فَلَمَّا سَقَطَ صَرِيعًا ؛ كَبَّرَ الْحَجَّاجُ وَجُنُودُهُ ...

فَسَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ(٣) تَكْبِيرَهُمْ ؛ فَقَالَ :

---

(١) المنجنيق : آلة حربية تُرمىٰ بها القذائف .

(٢) انظر قصة مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في كتاب صور من حياة الصحابيات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٣) انظره : ص ٢٣٥.

« وَاللَّهِ ! ... إِنَّ الَّذِينَ كَبَّرُوا عِنْدَ وِلَادَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ؛ أَكْثَرُ وَأَبَرُّ مِنَ الَّذِينَ كَبَّرُوا عِنْدَ مَوْتِهِ » (*) .

(*) للاستزادة من أخبار عَبْد اللّه بن الزُّبَيْر انظر :
١ - حياة الصحابة : ٣٧٩/١ وانظر الفهارس .
٢ - سير أعلام النبلاء : ٣/ ٣٦٣.
٣ - سيرة ابن هشام : انظر الفهرس .
٤ - حلية الأولياء : ١/ ٣٢٩.
٥ - الإصابة : ٣٠٩/٢ أو الترجمة [٤٦٨٢] .
٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/ ٣٠٠.
٧ - صفة الصفوة : ١/ ٧٦٤.
٨ - تهذيب ابن عساكر : ٧/ ٣٩٦.
٩ - الطبري : ٧/ ٢٠٢.
١٠- تاريخ الخميس : ٢/ ٣٠١.
١١- وفاة الوفيات : ١/ ٢١٠.

القَعْقَاعُ بنُ عَمْرٍو ﷺ
مَعَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ

«إِنَّ صَوْتَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو فِي الْجَيْشِ لَخَيْرٌ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ»

[أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ]

هَا نَحْنُ أُولَاءِ فِي الْعَامِ التَّاسِعِ لِلْهِجْرَةِ ؛ وَهُوَ الْعَامُ الَّذِي دَعَاهُ الْمُسْلِمُونَ عَامَ الْوُفُودِ .

وَهَا هِيَ ذِي مَدِينَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَفْتَحُ صَدْرَهَا الرَّحْبَ ... لِتَسْتَقْبِلَ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ صَبَاحٍ وَفْدًا أَوْ أَكْثَرَ ؛ قَدِمُوا عَلَيْهَا مِنْ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ...

لِيُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيُبَايِعُوهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

وَهَا هُمْ أُولَاءِ السَّادَةُ الْأَمَاجِدُ(١) مِنْ وُجُوهِ بَنِي تَمِيمٍ يُذْعِنُونَ لِلْإِسْلَامِ بَعْدَ طُولِ نِفَارٍ(٢)، وَيُقْدِمُونَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ مُسْلِمِينَ طَائِعِينَ ...

وَيَبْسُطُونَ أَيْدِيَهُمْ لِلرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُبَايِعِينَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ الْقَوْمُ يُعْلِنُونَ إِسْلَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَيَأْخُذُونَ جَوَائِزَهُمُ الَّتِي أَمَرَ لَهُمْ بِهَا ...

كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَتَوَسَّمُ(٣) فَتًى مِنْهُمْ ، وَيَتَفَرَّسُ فِي

---

(١) الأَمَاجِد : جمع ماجد ، وهو العظيم الكريم .

(٢) نِفَار : هرب ومجانبة ومحاربة .

(٣) يَتَوَسَّم : يأمل الخير ويتوقعه .

وَجْهِهِ... ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ حَدَّقَ فِيهِ، وَقَالَ:

(مَا اسْمُ الْفَتَىٰ؟).

فَقَالَ: الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو.

فَقَالَ: (مَا أَعْدَدْتَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَا قَعْقَاعُ؟).

فَقَالَ: طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْخَيْلَ الصَّافِنَاتِ، وَالرِّمَاحَ الْمُرْهَفَاتِ[1].

فَقَالَ: (تِلْكَ الْغَايَةُ).

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ وَضَعَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَجَعَلَ مَفْرَشَهُ صَهَوَاتِ الْجِيَادِ.

فَتَعَالَ نَقْضِ هَٰذِهِ اللَّحَظَاتِ الرَّائِعَاتِ مَعَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو، وَقَائِدِهِ سَيْفِ الْإِسْلَامِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

* * *

مَا كَادَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يُسْلِمُ جَنْبَهُ إِلَىٰ الرَّاحَةِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ حُرُوبِ الرِّدَّةِ؛ حَتَّىٰ جَاءَهُ كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَأْمُرُهُ فِيهِ بِالتَّوَجُّهِ لِفَتْحِ بِلَادِ الْعِرَاقِ، وَاسْتِنْقَاذِهَا مِنْ أَيْدِي الْفُرْسِ، وَ إِدْخَالِ أَهْلِهَا فِي دِينِ اللَّهِ.

لَكِنَّ جُنُودَ خَالِدٍ كَانُوا قَدْ تَنَاقَصُوا، وَتَفَرَّقُوا...

حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ مَنِ اسْتُشْهِدَ فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ الطَّاحِنَةِ، وَسُرِّحَ مِنْهُمْ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَنْ سُرِّحَ؛ بَعْدَ أَنْ طَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمُ الْعَهْدُ.

فَلَمْ يَبْقَ مَعَ خَالِدٍ مِنْ جَيْشِهِ الْكَبِيرِ إِلَّا الْعَدَدُ الْيَسِيرُ.

فَكَتَبَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَطْلُبُ مِنْهُ الْمَدَدَ...

---

(١) الرِّمَاحُ الْمُرْهَفَاتُ: الَّتِي سُنَّتْ فرقت حواشيها.

(٢) خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: انظره ص ١٨٧.

فَلَمَّا فَضَّ[1] الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كِتَابَ خَالِدٍ، وَوَقَفَ عَلَىٰ مَا فِيهِ؛ قَالَ لِمَنْ مَعَهُ:

إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ يَطْلُبُ مِنَّا مَدَدًا؛ فَأَمِدُّوهُ بِالْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو.

فَفَغَرَ[2] الْحَاضِرُونَ أَفْوَاهَهُمْ دَهْشَةً مِمَّا سَمِعُوهُ، وَقَالُوا:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُمِدُّ قَائِدًا انْفَضَّ[3] عَنْهُ أَكْثَرُ جُنْدِهِ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ؟!.

فَقَالَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ: نَعَمْ...

فَإِنَّ صَوْتَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو فِي الْجَيْشِ لَخَيْرٌ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ...

وَإِنَّهُ لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيهِ الْقَعْقَاعُ...

* * *

مَضَىٰ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَىٰ رَأْسِ عَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِهِ نَحْوَ الْعِرَاقِ وَمَعَهُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو؛ الَّذِي عَدَّهُ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَلْفِ فَارِسٍ.

وَوَجَّهَ وَجْهَهُ شَطْرَ مِنْطَقَةِ «الْحَفِيرِ» الْوَاقِعَةِ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنَ الْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ؛ مِمَّا يَلِي الصَّحْرَاءَ.

وَكَانَ «هُرْمُزُ» أَمِيرًا لِهَٰذِهِ الْمِنْطَقَةِ مِنْ قِبَلِ مَلِكِ الْفُرْسِ.

وَ«هُرْمُزُ» - إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ - أَحَدُ الرِّجَالِ الْقَلَائِلِ الَّذِينَ تَمَّ لَهُمُ الشَّرَفُ مِنَ الْفُرْسِ فِي عَصْرِهِ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ شَرَفِهِ الَّذِي بَلَغَهُ مِنْ قَلَنْسُوَتِهِ[4] الَّتِي تُسَاوِي مِائَةَ أَلْفٍ.

إِذْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْفُرْسِ أَنْ يَجْعَلُوا قَلَانِسَهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ شَرَفِهِمْ فِي

---

(١) فَضَّ الكِتاب: فتحه.
(٢) فَغَرُوا أَفْوَاهَهُم: فتحوها بدهشة.
(٣) انْفَضَّ: تفرق.
(٤) القَلَنْسُوة: غطاء الرأس.

قَوْمِهِمْ ... فَمَنْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الشَّرَفِ ؛ فَقِيمَةُ قَلَنْسُوَتِهِ مِائَةُ أَلْفٍ .

غَيْرَ أَنَّ « هُرْمُزَ » كَانَ مِنْ أَسْوَإِ أُمَرَاءِ الْفُرْسِ مُعَامَلَةً لِلْعَرَبِ ، وَأَشَدِّهِمْ غَطْرَسَةً[1] عَلَيْهِمْ .

فَكَرِهَ الْعَرَبُ « هُرْمُزَ » أَشَدَّ الْكُرْهِ ؛ حَتَّىٰ جَعَلُوهُ مَضْرِبًا لِلْمَثَلِ فِي الشَّرِّ فَكَانُوا يَقُولُونَ فِي أَمْثَالِهِمْ :

« أَشَرُّ مِنْ هُرْمُزَ » ، « وَأَكْفَرُ مِنْ هُرْمُزَ » .

* * *

مَا إِنْ حَطَّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رِحَالَهُ فِي الْمِنْطَقَةِ ؛ حَتَّىٰ وَجَّهَ كِتَابًا إِلَىٰ « هُرْمُزَ » يَقُولُ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أَوِ اخْتَرْ لِنَفْسِكَ وَقَوْمِكَ الذِّمَّةَ[2] ، وَادْفَعُوا لِلْمُسْلِمِينَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ ...

وَإِلَّا فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ ...

فَقَدْ جِئْتُكَ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَ الْمَوْتَ ؛ كَمَا تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ .

* * *

طَارَ صَوَابُ « هُرْمُزَ » لَمَّا قَرَأَ رِسَالَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَكَتَبَ إِلَىٰ « أَرْدَشِيرَ » مَلِكِ الْفُرْسِ يُخْبِرُهُ بِقُدُومِ الْمُسْلِمِينَ نَحْوَ الْعِرَاقِ ...

ثُمَّ هَبَّ مِنْ سَاعَتِهِ وَرَصَّ صُفُوفَهُ وَجَمَعَ جُمُوعَهُ ، وَأَسْرَعَ بِهِمْ نَحْوَ مَوَارِدِ الْمَاءِ فِي الْحَفِيرِ ، وَنَزَلَ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا خَالِدٌ بِجَيْشِهِ .

فَلَمَّا بَلَغَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْحَفِيرَ أَمَرَ جُنْدَهُ بِأَنْ يُلْقُوا رِحَالَهُمْ فِي مَكَانٍ

(١) الغَطْرَسَة : التجبر والتطاول .
(٢) الذِّمَّة : الدخول في عهد المسلمين وحمايتهم .

اخْتَارَهُ لَهُمْ ؛ فَقَامَ إِلَيْهِ نَفَرٌ(١) مِنْهُمْ وَقَالَ

أَيُّهَا الأَمِيرُ إِنَّ عَدُوَّنَا عَلَىٰ مَاءٍ وَنَحْنُ عَلَىٰ غَيْرِ مَاءٍ ، وَ إِنَّا لَنَخْشَىٰ أَنْ نَمُوتَ عَطَشًا .

فَقَالَ لَهُمْ خَالِدٌ :

أَلَا حُطُّوا رِحَالَكُمْ حَيْثُ أَمَرْتُكُمْ ، ثُمَّ جَالِدُوا(٢) عَدُوَّكُمْ عَلَىٰ الْمَاءِ مُجَالَدَةَ الْمُسْتَمِيتِينَ ...

فَلَعَمْرِي ؛ لَيَصِيرَنَّ الْمَاءُ لِأَصْبَرِ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَكْرَمِ الْجُنْدَيْنِ ...

وَأَنْتُمُ الأَصْبَرُ وَالأَكْرَمُ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

اصْطَفَّ الْعَسْكَرَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا قُبَالَةَ الآخَرِ .

وَوَقَفَ « هُرْمُزُ » فِي مُقَدِّمَةِ جُنْدِهِ ، وَجَعَلَ عَنْ يَمِينِهِ أَمِيرًا مِنْ أُمَرَاءِ الْبَيْتِ الْمَالِكِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ أَمِيرًا آخَرَ .

وَكَانَ قَدْ أَضْمَرَ(٣) فِي نَفْسِهِ شَرًّا ، وَطَوَىٰ صَدْرَهُ عَلَىٰ غَدْرَةٍ .

* * *

لَقَدْ أَيْقَنَ « هُرْمُزُ » أَنَّهُ إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْتُلَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ قَطَعَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الطَّرِيقِ إِلَىٰ النَّصْرِ .

لَكِنَّهُ كَانَ عَلَىٰ يَقِينٍ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَقْتُلَهُ مُكَافَحَةً(٤).

وَمَا دَامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ فَلْيَقْتُلْهُ غَدْرًا ...

---

(١) النَّفَر : الجماعة .
(٢) جَالِدُوا عَدُوَّكُم : قاتلوهم .
(٣) أَضْمَرَ فِي نَفْسِه : أخفىٰ في نفسه ونَوَىٰ .
(٤) مكافحة : أي مُضاربة وجهًا لوجه .

وَلْيَتَحَدَّثِ النَّاسُ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا يَشَاؤُونَ ، وَلْيَرْمُوهُ[١] بِمَا يُرِيدُونَ .

فَأَسَرَّ إِلَىٰ فَرِيقٍ مِنْ خَاصَّةِ فُرْسَانِهِ بِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ الْعَزْمَ ، وَأَحْكَمَ مَعَهُمُ الْخُطَّةَ ، وَحَدَّدَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مُهِمَّتَهُ .

* * *

خَرَجَ « هُرْمُزُ » مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ ، وَوَقَفَ فِي السَّاحَةِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ الْعَسْكَرِينِ ، وَهَتَفَ هُتَافَ الْمُتَحَدِّي ، وَأَخَذَ يَقُولُ :

إِلَيَّ يَا خَالِدُ ... ابْرُزْ لِي يَا خَالِدُ .

لَكِنَّهُ جَعَلَ وَقْفَتَهُ قَرِيبًا مِنْ مُعَسْكَرِ الْفُرْسِ بَعِيدًا عَنْ مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ نِدَاءَهُ ؛ حَتَّىٰ تَرَجَّلَ عَنْ جَوَادِهِ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ لِقَائِهِ .

غَيْرَ أَنَّ خَالِدًا مَا كَادَ يُشْهِرُ سَيْفَهُ لِيُصَاوِلَ[٢] عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُ ؛ حَتَّىٰ وَثَبَ عَلَيْهِ الرِّجَالُ الَّذِينَ أَعَدَّهُمْ « هُرْمُزُ » وَثْبَةً وَاحِدَةً ، وَسُيُوفُهُمْ مُصْلَتَةٌ[٣] فِي أَيْدِيهِمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ غَدْرًا .

وَهُنَا هَبَّ الْفَارِسُ الَّذِي عَدَّهُ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَلْفِ فَارِسٍ ، وَانْطَلَقَ مِنْ مَكَانِهِ انْطِلَاقَ السَّهْمِ ، وَقَذَفَ بِنَفْسِهِ فِي السَّاحَةِ وَهُوَ يَقُولُ :

لَقَدْ جَاءَكَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو يَا عَدُوَّ اللَّهِ ...

لَقَدْ جَاءَكَ الْقَعْقَاعُ .

ثُمَّ انْصَبَّ عَلَىٰ « هُرْمُزَ » وَرِجَالِهِ انْصِبَابَ الصَّاعِقَةِ ، وَتَبِعَهُ رِجَالٌ أَنْجَادٌ

---

(١) لِيَرْمُوهُ بِمَا يُرِيدُونَ : لِيَتَّهِمُوه بما يريدون .

(٢) لِيُصَاوِلَ : لينازل .

(٣) مُصْلَتَةٌ : مُجَرَّدةٌ .

أَمْجَادٌ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ خَاطِفَةٌ ؛ اسْتَلَّ خِلَالَهَا خَالِدٌ رُوحَ « هُرْمُزَ » مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ ...

وَصَرَعَ الْقَعْقَاعُ وَمَنْ مَعَهُ الْعُصْبَةَ الْغَادِرَةَ الْعَابِثَةَ بِآدَابِ الْحُرُوبِ ، وَأَلْقَوْهُمْ جُثَثًا هَامِدَةً فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ عَلَىٰ مَرْأًى مِنَ الْفُرْسِ وَمَسْمَعٍ ...

فَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُحَرِّكَ سَاكِنًا .

ثُمَّ كَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ كَرَّةً وَاحِدَةً ؛ فَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ وَحَمَلُوهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُوَلُّوا الْأَدْبَارَ ، وَطَوَّحُوا[1] بِهِمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ وَهَزِيمٍ ...

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا ؛ نَظَرَ خَالِدٌ إِلَىٰ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو وَقَالَ :

لِلَّهِ دَرُّ[2] أَبِي بَكْرٍ ؛ فَإِنَّهُ أَعْرَفُ مِنَّا بِالرِّجَالِ ...

لَقَدْ صَدَقَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ :

إِنَّ جَيْشًا فِيهِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو لَا يُغْلَبُ .

* * *

وَثُّقَ يَوْمُ الْحَفِيرِ مَا بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَالْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو ...

وَلَا غَرْوَ ؛ فَقَدْ عَرَفَ خَالِدٌ مَقَامَ صَاحِبِهِ فِي سَاحَاتِ الْوَغَىٰ ، وَغَنَاءَهُ[3] إِذَا جَدَّ الْجِدُّ ، وَأَلَمَّتِ الْمُلِمَّاتُ .

فَوَلَّاهُ الْقِيَادَاتِ ، وَأَلْقَىٰ عَلَىٰ كَاهِلِهِ أَثْقَلَ الْمُهِمَّاتِ ...

وَجَعَلَهُ سَاعِدَهُ الْأَيْمَنَ فِي الْيَرْمُوكِ ، وَغَيْرِ يَوْمِ الْيَرْمُوكِ ...

(١) طَوَّحُوا بِهِم : أهلكوهم وذهبوا بهم .
(٢) لِلَّهِ دَرُّ أَبِي بَكْرٍ : ما أكثر خير أبي بكر .
(٣) غَنَاءَه : كفايته ودفعه .

وَكَانَ لَهُ مَعَهُ يَوْمَ فَتْحِ دِمَشْقَ مُغَامَرَةٌ لَا يَجْرُؤُ عَلَىٰ اقْتِحَامِهَا ؛ إِلَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ قُدَّتْ[١] قُلُوبُهُمْ مِنَ الصَّخْرِ ، وَصِيغَتْ أَذْهَانُهُمْ مِنَ الْجَوْهَرِ .

* * *

كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَوْمَ فَتْحِ دِمَشْقَ وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعَةِ قُوَّادٍ يَعْمَلُونَ تَحْتَ إِمْرَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ[٢].

لَكِنَّ خَالِدًا ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ قَائِدًا عَامًّا لِلْجَيْشِ كُلِّهِ أَمْ قَائِدَ كَتِيبَةٍ مِنْ كَتَائِبِهِ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحْرِصُ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو مَعَهُ .

ذَلِكَ لِأَنَّ خَالِدًا كَانَ يَطْمَحُ دَائِمًا إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ ...

وَمَنْ مِثْلُ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو لِصُنْعِ الْمُعْجِزَاتِ ؟! .

* * *

كَانَتْ مَدِينَةُ دِمَشْقَ إِذْ ذَاكَ تُحِيطُ بِهَا الْأَسْوَارُ الْمَنِيعَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ .

وَكَانَ حَوْلَهَا خَنْدَقٌ عَمِيقٌ يُطَوِّقُهَا مِنْ جِهَاتِهَا الثَّلَاثِ ، وَكَانَتْ لَهَا أَبْوَابٌ خَمْسَةٌ ؛ تُفْتَحُ فِي أَوْقَاتِ السِّلْمِ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ صَبَاحٍ لِيَخْرُجَ النَّاسُ مِنْهَا وَيَدْخُلُوا إِلَيْهَا ، وَتُغْلَقُ مَعَ كُلِّ مَسَاءٍ ؛ لِيَنَامَ النَّاسُ فِي حِمَاهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ مِنَ السُّرَّاقِ وَالطُّرَّاقِ[٣].

فَإِذَا تَعَرَّضَتِ الْمَدِينَةُ الْعَرِيقَةُ لِغَزْوِ غَازٍ ؛ أَغْلَقَ حُمَاتُهَا أَبْوَابَهَا ، وَغَمَرُوا خَنْدَقَهَا بِالْمِيَاهِ ...

(١) قُدَّت : قُطِعت .
(٢) أبو عبيدة بن الجراح : انظره في الكتاب الثاني من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف .
(٣) السُّرَّاق : مفرده سارق ، والطراق : مفرده طارق وهو الآتي ليلًا .

فَإِذَا هِيَ جَزِيرَةٌ مَنِيعَةٌ ؛ مَحُوطَةٌ بِالْأَسْوَارِ وَالْمِيَاهِ فِي وَقْتٍ مَعًا .

* * *

وَزَّعَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَبْوَابَ دِمَشْقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ قُوَّادِهِ ؛ فَنَزَلَ هُوَ أَمَامَ بَابِ الْجَابِيَةِ ...

وَنَزَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ[1] أَمَامَ بَابِ تَوْمَاءَ ...

وَنَزَلَ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ أَمَامَ بَابِ الْفَرَادِيسِ ...

وَنَزَلَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ[2] أَمَامَ الْبَابِ الصَّغِيرِ .

أَمَّا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ؛ فَنَزَلَ هُوَ وَصَاحِبُهُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو أَمَامَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ ، وَكَانَ أَمْنَعَ هَٰذِهِ الْأَبْوَابِ وَأَشَدَّهَا قُوَّةً .

* * *

نَصَبَ الْمُسْلِمُونَ مَنْجَنِيقَاتِهِمْ[3] حَوْلَ الْمَدِينَةِ الْحَصِينَةِ ، وَأَقَامُوا دَبَّابَاتِهِمْ[4] عِنْدَ أَبْوَابِهَا .

فَرَدَّ حُمَاةُ الْمَدِينَةِ جُنُودَ الدَّبَّابَاتِ ، وَثَبَتَتْ حُصُونُهُمْ لِرَمْيِ الْمَنْجَنِيقَاتِ ...

فَلَمْ يَجِدِ الْمُسْلِمُونَ وَسِيلَةً لِإِرْغَامِ الْعَدُوِّ عَلَىٰ الِاسْتِسْلَامِ ؛ إِلَّا الْحِصَارَ .

* * *

لَكِنَّ حِصَارَ دِمَشْقَ طَالَ حَتَّىٰ بَلَغَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ؛ أَوْ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ .

وَلَمْ يَكُنْ ضِيقُ الْمُحَاصَرِينَ دَاخِلَ دِمَشْقَ بِأَشَدَّ مِنْ ضِيقِ الْمُحَاصِرِينَ لَهَا

---

(١) عمرو بن العاص : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَان : انظره ص ٢٦٩.

(٣) المَنْجَنِيق : آلة حربية تُرمىٰ بها القذائف من الصخور ونحوها .

(٤) الدَّبَّابَة : آلة تُتخذ في الحروب ؛ يَدْخل فيها الرجال ، ثم تُدْفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها .

مِنَ الْخَارِجِ ؛ فَقَدْ بَاتَ الْمُسْلِمُونَ يَتَسَاءَلُونَ فِيمَا يُشْبِهُ الْيَأْسَ :

كَيْفَ لَنَا بِفَتْحِ الْمَدِينَةِ وَمَتَىٰ ؟! .

فَجَاءَهُمُ الْجَوَابُ عَلَىٰ لِسَانِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَصَاحِبِهِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو .

* * *

كَانَتْ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ آذَانٌ تَسْمَعُ كُلَّ مَا يُقَالُ خَلْفَ أَسْوَارِ دِمَشْقَ ، وَعُيُونٌ تَرَىٰ كُلَّ مَا يَجْرِي فِيهَا ...

فَجَاءَتْهُ عُيُونُهُ[١] ذَاتَ يَوْمٍ ؛ تَقُولُ :

أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ إِنَّ بِطْرِيقَ[٢] دِمَشْقَ قَدْ وُلِدَ لَهُ عَلَىٰ الْكِبَرِ مَوْلُودٌ بَعْدَ طُولِ تَرَقُّبٍ ؛ فَفَرِحَ بِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ ...

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ فَرَحِهِ أَنَّهُ دَعَا حُمَاةَ الْمَدِينَةِ وَجُنْدَهَا فِي لَيْلَةِ غَدٍ إِلَىٰ وَلِيمَةٍ جَفْلَىٰ[٣]؛ سَيَأْكُلُونَ فِيهَا رَوَائِعَ الطَّعَامِ ، وَيَشْرَبُونَ خِلَالَهَا عَتِيقَ الْخُمُورِ ، وَيَطْرَبُونَ حَتَّىٰ الصَّبَاحِ ، وَإِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ تَهْتَبِلَ[٤] هَـٰذِهِ الْفُرْصَةَ .

بَادَرَ الْقَائِدُ الْمُلْهَمُ ؛ فَصَنَعَ سَلَالِمَ مِنَ الْحِبَالِ وَأَعَدَّ لِغَزْوَتِهِ هَـٰذِهِ طَائِفَةً وَافِيَةً مِنَ الْأَوْهَاقِ[٥].

* * *

فَلَمَّا دَجَا[٦] اللَّيْلُ وَلَفَّ الْكَوْنَ بِظَلَامِهِ ؛ قَالَ خَالِدٌ لِجُنُودِهِ :

إِنَّا سَنَرْقَىٰ إِلَىٰ السُّورِ ؛ فَإِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا ...

(١) العُيُون : الجواسيس .
(٢) البِطْريق : القائد ذو الرتبة .
(٣) وليمة جفلىٰ : أي عامَّة يَجْفُل إليها الناس بجماعتهم .
(٤) تهتبل : تغتنم .
(٥) الأوهاق : حِبَال مَتِينَة فِي رَأْس كُل مِنْهَا أُنْشُوطة يَقْذِفُهَا الرَّامِي الْحَاذِق فَتَعلَق بِمَا رُمِيَت عَلَيْهِ .
(٦) دَجَا اللَّيْل : أَظْلَمَ .

فَلْيَصْعَدْ نَفَرٌ كَبِيرٌ مِنْكُمْ خَلْفَنَا ، وَلْتَتَدَفَّقْ بَقِيَّتُكُمْ عَلَىٰ الْبَابِ .

ثُمَّ مَضَىٰ هُوَ وَالْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو ، وَثُلَّةٌ[١] قَلِيلَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَعَبَرُوا الْخَنْدَقَ عَوْمًا عَلَىٰ الْقِرَبِ[٢] حَتَّىٰ وَصَلُوا أَسْوَارَ الْمَدِينَةِ ... ثُمَّ قَذَفُوا أَوْهَاقَهُمْ فَأَثْبَتُوهَا فِي شُرُفَاتِ السُّورِ ، وَتَسَلَّقُوا عَلَيْهَا حَتَّىٰ رَكِبُوا أَعَالِيَهُ ...

وَنَصَبُوا سَلَالِمَ الْحِبَالِ الَّتِي مَعَهُمْ مِنْ خَارِجِ السُّورِ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَرْقَىٰ[٣] إِلَيْهِ ، وَمِنْ دَاخِلِهِ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ... ثُمَّ كَبَّرَ خَالِدٌ ؛ فَعَبَرَ جُنْدُهُ الْخَنْدَقَ ...

ثُمَّ انْحَدَرَ هُوَ وَالْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو أَمَامَ الْبَابِ ؛ فَقَتَلُوا حُمَاتَهُ ، وَفَتَحُوا أَقْفَالَهُ ...

وَتَدَفَّقَ جُنْدُ اللَّهِ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ مِنْ أَعْلَىٰ وَمِنْ أَسْفَلَ ، وَانْدَفَعُوا دَاخِلَ دِمَشْقَ مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ ...

فَدَبَّ فِي الْمَدِينَةِ الْحَصِينَةِ الذُّعْرُ وَالْجَزَعُ ، وَسَيْطَرَ عَلَىٰ حُمَاتِهَا الِاضْطِرَابُ وَالْهَلَعُ ، وَشَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ...

فَرَأَوْا أَنْ يَفْتَحُوا الْأَبْوَابَ الْأُخْرَىٰ لِلْمَدِينَةِ بِأَيْدِيهِمْ ؛ لِيَدْخُلَهَا الْمُسْلِمُونَ سِلْمًا بَدَلًا مِنْ أَنْ يَدْخُلُوهَا حَرْبًا ... فَيَقْتُلُوا الْمُقَاتِلَةَ ، وَيَسْبُوا الذَّرَارِيَ ، وَيُحْرِزُوا الْغَنَائِمَ ...

فَفَتَحُوهَا ...

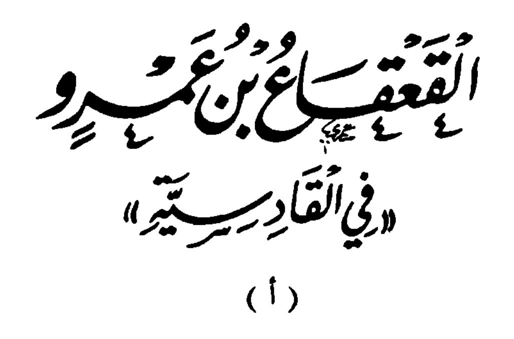
وَلَوْ لَمْ يَفْعَلُوا ؛ لَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ بِنَصْرٍ مِنَ اللَّهِ .

* * *

---

١) ثُلَّة : جماعة .
٢) القِرَب : أوعية من الجلد .
٣) يَرْقَىٰ إِلَيْهِ : يَصْعَد .

وَإِلَىٰ لِقَاءٍ آخَرَ مَعَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو الَّذِي وَضَعَ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ وَرُمْحَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَجَعَلَ مَفْرَشَهُ عَلَىٰ صَهَوَاتِ الْجِيَادِ .



(أ)

مَا كَادَ يَنْفُضُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو يَدَيْهِ مِنْ غُبَارِ الْمَعَارِكِ فِي بِلَادِ الشَّامِ، وَيُسْلِمُ جَنْبَهُ إِلَىٰ الرَّاحَةِ بَعْدَ فَتْحِ دِمَشْقَ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؛ حَتَّىٰ وَرَدَ كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَىٰ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ[1]؛ يَقُولُ فِيهِ:

اِقْتَطِعْ مِنْ جُنْدِكَ كَذَا وَكَذَا، وَأَنْفِذْهُمْ حَثِيثًا[2] إِلَىٰ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[3] فِي الْقَادِسِيَّةِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَرَيَّثَ أَوْ تَتَلَبَّثَ[4].

فَصَدَعَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَمْرِ عُمَرَ، وَوَلَّىٰ عَلَىٰ الْجَيْشِ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، وَجَعَلَ عَلَىٰ مُقَدِّمَتِهِ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو، وَقَالَ لَهُمَا:

الْعَجَلَ الْعَجَلَ؛ فَالْمُسْلِمُونَ فِي الْقَادِسِيَّةِ يُوَاجِهُونَ أَضْخَمَ حَشْدٍ حَشَدَتْهُ فَارِسُ فِي حَرْبٍ، وَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ...

* * *

مَضَىٰ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو بِالْمُقَدِّمَةِ، وَكَانَ فِيهَا أَلْفُ فَارِسٍ...

وَطَفِقَ يُوَاصِلُ هُوَ وَرِجَالُهُ كَلَالَ[5] اللَّيْلِ بِكَلَالِ النَّهَارِ؛ حَتَّىٰ سَبَقُوا

(١) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاح: انظره في الكتاب الثاني من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.
(٢) أَنْفِذْهُمْ حَثِيثًا: أي أرسلهم سريعًا.
(٣) سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص: انظره في الكتاب الرابع من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.
(٤) تَتَرَيَّثَ أَوْ تَتَلَبَّثَ: تتمهل أو تتأخر.
(٥) الكَلَال: العناء التعب.

هَاشِمَ ابْنَ عُتْبَةَ ، وَبَلَغُوا مَشَارِفَ الْقَادِسِيَّةِ فَجْرَ الْيَوْمِ التَّالِي مِنْ أَيَّامِ الْمَعْرَكَةِ .

* * *

عَرَفَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو أَنَّ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ كَانَ شَدِيدَ الْبَأْسِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا تَوَافَرَ لِعَدُوِّهِمْ مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ...

ثَقِيلَ الْوَطْأَةِ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْفِيلَةِ الَّتِي أَرْهَبَتْ خَيْلَهُمْ ، وَزَرَعَتْ فِي قُلُوبِهَا الْخَوْفَ ، وَجَعَلَتْهَا تَنْكُصُ[1] عَلَىٰ الْأَعْقَابِ ...

وَأَنَّهُمْ يَتَرَقَّبُونَ بِلَهْفَةٍ وُصُولَ الْمَدَدِ إِلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو غَيْرُ أَلْفِ فَارِسٍ ، وَمَاذَا تُغْنِي الْأَلْفُ أَمَامَ جُيُوشِ فَارِسَ الْجَرَّارَةِ ؟! .

وَلَكِنَّ الْقَائِدَ الْمُلْهَمَ ؛ جَعَلَ الْأَلْفَ فِي عُيُونِ الْمُسْلِمِينَ وَعُيُونِ أَعْدَائِهِمُ الْمُشْرِكِينَ أُلُوفًا ...

وَإِلَيْكُمْ نَبَأَ ذَلِكَ :

قَسَّمَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو فُرْسَانَهُ الْأَلْفَ إِلَىٰ عَشْرِ فِرَقٍ ؛ فِي كُلِّ فِرْقَةٍ مِائَةُ فَارِس ، وَأَمَرَ الْفِرْقَةَ الْأُولَىٰ أَنْ تَنْطَلِقَ فِي اتِّجَاهِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ تَتَعَمَّدَ إِثَارَةَ الْغُبَارِ مِنْ حَوْلِهَا حَتَّىٰ تَشْحُنَ بِهِ الْجَوَّ شَحْنًا .

ثُمَّ أَمَرَ الْفِرَقَ التِّسع الْأُخْرَىٰ أَنْ تَفْعَلَ فِعْلَ الْأُولَىٰ ؛ عَلَىٰ أَلَّا تَنْطَلِقَ أَيُّ فِرْقَةٍ مِنْ مَكَانِهَا ؛ إِلَّا إِذَا أَصْبَحَتْ سَابِقَتُهَا بَعِيدَةً عَنْهَا بِمِقْدَارِ مَدِّ الْبَصَرِ .

* * *

ثُمَّ انْطَلَقَ عَلَىٰ رَأْسِ الْفِرْقَةِ الْأُولَىٰ مُكَبِّرًا ، وَكَانَ صَوْتُهُ بِأَلْفِ فَارِس - كَمَا قَالَ عَنْهُ الصِّدِّيق رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْهِ - وَمَرَّ بِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَبَشَّرَهُ بِالْمَدَدِ ...

---

(١) تَنْكُص عَلَىٰ الأَعْقَاب : ترجع وتحجم عما كانت عليه من أمر.

فَمَا إِنْ رَأَىٰ الْعَسْكَرَانِ : عَسْكَرُ الْفُرْسِ وَعَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ ؛ سَنَابِكَ الْخَيْلِ تُثِيرُ الْعَجَاجَ[١]...

وَسَمِعَا أَصْوَاتَ التَّكْبِيرَةِ تَهُزُّ الْأَرْجَاءَ هَزًّا ...

وَنَظَرَا إِلَىٰ النَّجْدَاتِ تَتَوَالَىٰ كَتِيبَةً إِثْر كَتِيبَةٍ ؛ حَتَّىٰ دَبَّ الذُّعْرُ فِي نُفُوسِ الْفُرْسِ ، وَثَارَتِ الْحَمِيَّةُ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَجَعَلُوا يُهَلِّلُونَ وَيُكَبِّرُونَ بِأَصْوَاتٍ صَدَعَتْ[٢] أَفْئِدَةَ عَدُوِّهِمْ صَدْعًا .

وَمَضَىٰ الْقَعْقَاعُ إِلَىٰ السَّاحَةِ مَعَ أَوَّلِ خَيْطٍ مِنْ خُيُوطِ الصَّبَاحِ بَيْنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ .

وَبَرَزَ إِلَىٰ الْأَعْدَاءِ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الْمَعْرَكَةُ ...

وَجَعَلَ يَخْطِرُ[٣] عَلَىٰ جَوَادِهِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ وَيَقُولُ :

هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ؟ ... هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ؟

فَتَوَجَّهَتِ الْعُيُونُ إِلَىٰ مُعَسْكَرِ الْفُرْسِ لِتَرَىٰ مَنْ سَيَبْرُزُ لِلْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو .

* * *

لَمْ تَمْضِ غَيْرُ لَحَظَاتٍ قَلِيلَاتٍ عَلَىٰ حَمَاسَةِ[٤] الْقَعْقَاعِ وَجَرَاءَتِه ؛ حَتَّىٰ خَرَجَ مِنْ صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ فَارِسٌ مُدَجَّجٌ بِالسِّلَاحِ وَقَالَ :

أَنَا لَكَ ... أَتَدْرِي مَنْ أَنَا ؟ ...

أَنَا « بَهْمَنُ » ذُو الْحَاجِبِ قَائِدُ جُيُوشِ فَارِسَ يَوْمَ الْجِسْرِ[٥]...

---

(١) الْعَجَاج : مفردها عجاجة وهي السحابة من الغبار .
(٢) صَدَعَت : شَقَّت وفرّقت .
(٣) يَخْطِر : يمشي متبخترًا .
(٤) حماسة : شجاعة .
(٥) يَوْمَ الْجِسْر : انظر خبره في أَبِي عُبَيْدِ بن مَسْعُود الثَّقَفِيِّ ص ١٥٥.

أَنَا قَاتِلُ قَائِدِكُمْ أَبِي عُبَيْدَةَ الثَّقَفِيِّ وَأَصْحَابِهِ.

فَقَالَ لَهُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو: يَا لَثَارَاتِ يَوْمِ الْجِسْرِ - وَكَانَ يَوْمُ الْجِسْرِ أَشَدَّ الْأَيَّامِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ صَاحِبَ ذَلِكَ الْيَوْمِ «بَهْمَنُ» ذُو الْحَاجِبِ -.

* * *

امْتَشَقَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو حُسَامَهُ، وَصَالَ عَلَىٰ «بَهْمَنَ» صَوْلَةَ الْأَسَدِ الْخَادِرِ[1]؛ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ، وَتَهَيَّأَتْ لَهُ الضَّرْبَةُ الْقَاضِيَةُ؛ كَفَّ عَنْهُ لِيُطِيلَ عَذَابَهُ...

ثُمَّ مَا زَالَ يُعِيدُ الهجمة عَلَيْهِ الْكَرَّةَ تِلْوَ الْكَرَّةِ وَيَكُفُّ عَنْهُ، وَقُلُوبُ الْفُرْسِ وَاجِفَةٌ، وَعُيُونُهُمْ زَائِغَةٌ، وَالْمُسْلِمُونَ يَصِيحُونَ:

اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ.

أَجْهِزْ[2] عَلَيْهِ يَا قَعْقَاعُ...

اثْأَرْ لِأَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيِّ وَأَصْحَابِهِ.

فَأَهْوَىٰ عَلَيْهِ الْقَعْقَاعُ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ؛ طَرَحَتْهُ أَرْضًا، وَتَرَكَتْهُ يَسْبَحُ فِي دِمَائِهِ سَبْحًا.

فَضَجَّ مُعَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ، وَتَرَدَّدَ فِي أَرْجَاءِ الْقَادِسِيَّةِ أَصْدَاءُ «اللَّهُ أَكْبَرُ».

* * *

لَمْ يَتْرُكِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو السَّاحَةَ؛ وَإِنَّمَا وَقَفَ يُنَادِي فِي تَحَدٍّ:

هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟

(١) الخادر: الشديد القوي.

(٢) أَجْهِزْ عَلَيْهِ: اقضِ عليه وأهلكه.

فَخَرَجَ لَهُ فَارِسَانِ مُعَلَّمَانِ[1] مِنْ أَبْطَالِ الْفُرْسِ فِي وَقْتٍ مَعًا ؛ فَتَلَقَّاهُمَا هُوَ وَالْحَارِثُ بْنُ ظَبْيَانَ ... وَسَقَيَاهُمَا مِنَ الْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَ مِنْهَا ذُو الْحَاجِبِ فِي لَحَظَاتٍ مَعْدُودَاتٍ .

ثُمَّ نَادَىٰ الْقَعْقَاعُ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ بَاشِرُوا أَعْدَاءَكُمْ بِالسُّيُوفِ ؛ انْقَضُّوا عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِكُمْ بِالرِّمَاحِ ...

فَإِذَا خَالَطْتُمُوهُمْ فَبَاشِرُوهُمْ بِالسُّيُوفِ ؛ فَإِنَّمَا تُحْصَدُ الْأَرْوَاحُ بِالْمُرْهَفَاتِ[2] حَصْدًا .

فَتَوَاثَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ تَوَاثُبَ الْأُسْودِ ، وَانْقَضُّوا عَلَيْهِ انْقِضَاضَ الصُّقُورِ ، وَجَعَلُوا يُنَادُونَ : يَا لَثَارَاتِ الْبَارِحَةِ .

* * *

لَمْ يُنْزِلِ الْفُرْسُ فِيلَتَهُمْ فِي هَـٰذَا الْيَوْمِ إِلَىٰ الْمَعْرَكَةِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا بِالْأَمْسِ قَدْ قَطَعُوا وُضُنَهَا[3] ، وَحَطَّمُوا تَوَابِيتَهَا الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا الْفَيَّالَةُ عَلَىٰ ظُهُورِهَا ...

وَلَمْ تَكُنْ يَدُ اللَّيْلِ بِقَادِرَةٍ عَلَىٰ إِصْلَاحِ مَا خَرَّبَتْهُ يَدُ النَّهَارِ .

فَأَمَرَ الْقَعْقَاعُ جَمَاعَاتٍ مِنْ بَنِي عُمُومَتِهِ أَنْ يَسْتَحْضِرُوا عَشَرَاتٍ مِنْ ضِخَامِ الْإِبِلِ ، وَأَنْ يُجَلِّلُوهَا[4] بِالْمُلَاءَاتِ السُّودِ ، وَأَنْ يُبَرْقِعُوهَا[5] بِالْبَرَاقِعِ

(١) الفارسُ المُعَلَّمُ : الذي يُعْلِمُ مكانه في الحرب بعلامة يُعْلِمُها هو ، وهي علامة علىٰ شجاعته .
(٢) المُرْهَفَات : السيوف المرققة المحدَّدة .
(٣) الوُضُنُ : جمع مفرده وَضِين : وَهُوَ للهودج بمنزلة الحِزَام للسَّرْج .
(٤) يُجَلِّلُوهَا : يغطوها ويُعَمِّمُوا الغطاء علىٰ سائر بدنها .
(٥) يُبَرْقِعُوهَا : أي يلبسوها البُرْقُع ، وهو غطاء للوجه فيه فتحتان للعينين .

الْمُلَوَّنَةِ ، وَأَنْ يَرْكَبُوا ظُهُورَهَا ، وَأَنْ يُهَاجِمُوا بِهَا خَيْلَ الْفُرْسِ .

فَمَا إِنْ رَأَتْهَا الْخَيْلُ مُقْبِلَةً ؛ حَتَّىٰ جَفَلَتْ[1] مِنْهَا ؛ كَمَا جَفَلَتْ خَيْلُ الْمُسْلِمِين مِنَ الْفِيلَةِ ...

وَحَرَنَتْ[2] فِي أَمَاكِنِهَا ؛ فَمَا تَتَقَدَّمُ خُطْوَةً وَلَا تَتَأَخَّرُ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنِ ارْتَدَّتْ عَلَىٰ أَعْقَابِهَا مُوَلِّيَةً بِمَنْ عَلَيْهَا الْأَدْبَارَ ؛ فَرَكِبَ الْمُسْلِمُونَ ظُهُورَ الْفُرْسَانِ الْفَارِّينَ وَأَعْمَلُوا فِي رِقَابِهِمُ السُّيُوفَ وَالرِّمَاحَ .

* * *

لَمْ تَغِبْ شَمْسُ الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ حَتَّىٰ كَانَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو قَدْ حَمَلَ عَلَىٰ الْفُرْسِ ثَلَاثِينَ حَمْلَةً ، وَأَرْدَىٰ مِنْ صَنَادِيدِهِمْ ثَلَاثِينَ قَتِيلًا بِنَفْسِهِ .

وَلَمَّا تَوَقَّفَ الْقِتَالُ ؛ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُكَبِّرُونَ وَيَهْتِفُونَ :

يَوْمٌ بِيَوْمٍ ...

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

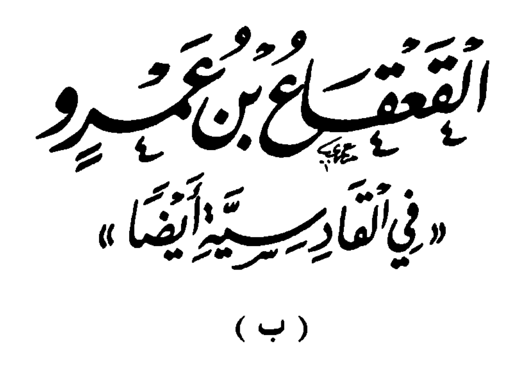
* * *

كَانَ ذَلِكَ بَلَاءَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ .

أَمَّا بَلَاؤُهُ فِي الْيَوْمَيْنِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ ؛ فَسَيَأْتِيكَ نَبَؤُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ .

---

(١) جَفَلَت : نفرت .
(٢) حَرَنَت : وقفت وامتنعت عن التقدُّم .
(٣) سورة الحج آية ٤٠.



(ب)

مَا كَادَ يُقْبِلُ اللَّيْلُ وَيَلُفُّ بِظَلَامِهِ سَاحَةَ الْقَادِسِيَّةِ ؛ حَتَّىٰ وَضَعَ الْجُنْدُ سِلَاحَهُمْ ، وَأَسْلَمُوا جُنُوبَهُمْ لِلْمَضَاجِعِ ...

فَقَدْ كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ الْمَعْرَكَةِ كَسَابِقِهِ ؛ ثَقِيلَ الْوَطْأَةِ شَدِيدَ الْبَأْسِ ... لَكِنَّ عَيْنَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو لَمْ تَنَمْ .

وَأَنَّىٰ لَهَا أَنْ تَنَامَ ...

وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ نَفِدَ صَبْرُهُمْ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْمَدَدَ الْقَادِمَ مِنَ الشَّامِ بِقِيَادَةِ هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ ؛ حَتَّىٰ كَادَ يُدْرِكُهُمُ الْيَأْسُ ، وَتَذْهَبُ بِهِمُ الظُّنُونُ[1] كُلَّ مَذْهَبٍ .

فَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَ فِي هَٰذَا الْيَوْمِ مَا فَعَلَهُ بِالْأَمْسِ .

* * *

أَخَذَ الْقَعْقَاعُ يُسَرِّبُ فُرْسَانَهُ الْأَلْفَ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهُ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي وَقَفُوا فِيهِ صَبِيحَةَ الْيَوْمِ الْمَاضِي ؛ بَعِيدًا عَنِ الْقَادِسِيَّةِ ...

وَأَمَرَهُمْ إِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ أَنْ يُقْبِلُوا عَلَىٰ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ مِائَةً إِثْرَ مِائَةٍ ؛ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمِائَةِ وَأُخْتِهَا مِقْدَارُ مَدِّ الْبَصَرِ ...

---

(١) تَذْهَب بِهِم الظُّنُون كل مذهب : تسير بهم في كل طريق ومعتقد ، من الحيرة والاضطراب .

وَأَنْ يَشْحَنُوا الْجَوَّ بِالْغُبَارِ وَأَنْ يَمْلَأُوا الْأَرْضَ بِالضَّجِيجِ وَالْعَجِيجِ ... لِيَبُثُّوا فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ الثِّقَةَ وَالْعَزْمَ ، وَيُشِيعُوا فِي نُفُوسِ الْفُرْسِ الْقَلَقَ وَالْخَوْفَ .

وَمَا إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ؛ حَتَّىٰ طَفِقَتِ الْكَتَائِبُ تُقْبِلُ مِنْ خَلْفِ الصَّحْرَاءِ عَلَىٰ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ مُكَبِّرَةً مُهَلِّلَةً ...

فَيَتَلَقَّاهَا الْقَعْقَاعُ كَتِيبَةً إِثْرَ كَتِيبَةٍ ، وَيُحَدِّدُ لَهَا مَكَانَهَا بَيْنَ الصُّفُوفِ .

لَكِنَّ سَيْلَ الْكَتَائِبِ جَاوَزَ الْعَشْرَ ؛ فَنَظَرَ ... فَإِذَا هَاشِمُ بْنُ عُتْبَةَ قَدْ وَصَلَ بِجَيْشِهِ إِلَىٰ مَشَارِفِ الْقَادِسِيَّةِ مَعَ الصَّبَاحِ أَيْضًا ...

وَرَأَىٰ هَاشِمٌ فُرْسَانَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو وَمَا يَصْنَعُونَ ؛ فَسُرَّ مِنْ صَنِيعِهِمْ ، وَقَسَمَ هُوَ الْآخَرُ جُنْدَهُ إِلَىٰ مِئَاتٍ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَلَاحَقُوا تِبَاعًا إِلَىٰ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ...

* * *

لَمْ يَفُتَّ[1] هَٰذَا الْمَدَدُ الْكَبِيرُ فِي عَضُدِ الْفُرْسِ كَثِيرًا .

ذَٰلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَصْلَحُوا تَوَابِيتَ[2] فِيَلَتِهِمْ وَجَدَّدُوا وُضُنَهَا ، وَصَفُّوهَا فِي طَلِيعَةِ الْجَيْشِ ؛ كَأَنَّهَا الْبُنْيَانُ الْمَرْصُوصُ .

وَلَقَدْ كَانُوا عَلَىٰ ثِقَةٍ بِأَنَّهَا سَتَفْتِكُ بِالْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِمَّا فَتَكَتْ بِهِمْ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ .

ذَٰلِكَ لِأَنَّهُمُ احْتَاطُوا لَهَا هَٰذِهِ الْمَرَّةَ بِمَا لَمْ يَحْتَاطُوا لَهَا مِنْ قَبْلُ ...

فَأَحَاطُوهَا بِالْفُرْسَانِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّىٰ لَا يَخْلُصَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ ؛

(١) يَفُتّ فِي عَضُدهم : يوهن قوتهم .
(٢) تَوَابِيت فِيَلَتِهِم : صناديقها التي يجلس فيها الرجال .

فَيَقْطَعُوا وُضُنَهَا وَيُحَطِّمُوا تَوَابِيتَهَا وَيَرْمُوا فَيَّالَتَهَا ؛ فَتُوَلِّي مُدْبِرَةً ... كَمَا فَعَلَتْ فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ .

* * *

وَمَا إِنْ دَارَتْ رَحَى الْمَعْرَكَةِ حَتَّى شَدَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى حُمَاةِ الْفِيَلَةِ ، وَشَدَّ الْفُرْسُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَصَدَّوا لِهَؤُلَاءِ الْحُمَاةِ ...

فَدَارَتْ حَوْلَ هَٰذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الرَّهِيبَةِ مَعَارِكُ ضَارِيَةٌ ؛ أُرِيقَ فِيهَا الْغَزِيرُ مِنَ الدِّمَاءِ ، وَأُزْهِقَ خِلَالَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الأَنْفُسِ .

فَصَبَرَ الْمُسْلِمُونَ وَصَابَرُوا ، وَتَجَلَّدُوا[1] لِعَدُوِّهِمْ وَجَالَدُوا ؛ حَتَّى أَطَاحُوا بِحُمَاةِ الْفِيَلَةِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ ...

فَإِذَا هُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ أَوْ جَرِيحٍ أَوْ نَاكِصٍ عَلَى الأَعْقَابِ .

* * *

لَكِنَّ هَٰذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الشَّرِسَةَ مَا كَادَتْ تَرَى أَنَّ حُمَاتَهَا قَدِ انْفَضُّوا عَنْهَا ؛ حَتَّى اسْتَوْحَشَتْ وَهَاجَتْ وَهَجَمَتْ عَلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ؛ كَأَنَّهَا الْحُصُونُ الْمُتَحَرِّكَةُ ، وَجَعَلَتْ تَضْرِبُ بِخَرَاطِيمِهَا الطَّوِيلَةِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ؛ فَلَا تُبْقِي أَمَامَهَا أَحَدًا وَلَا تَذَرُ .

وَلَمْ تَكُنْ لِتُؤَثِّرَ فِيهَا ضَرَبَاتُ السُّيُوفِ ، وَلَمْ تَكُنْ لِتَنَالَ مِنْهَا طَعَنَاتُ الرِّمَاحِ ، وَمَا كَانَتِ النِّبَالُ[2] إِلَّا لِتَزِيدَهَا ثَوْرَةً وَهَيَجَانًا .

* * *

شَعَرَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ بِالْكَارِثَةِ الَّتِي تُوشِكُ أَنْ تُحِيقَ بِالْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ هَٰذِهِ الْفِيَلَةِ ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا ؛ فَسَيُصَابُ الْمُسْلِمُونَ بِهَزِيمَةٍ

(١) تجلدوا : أظهروا الجَلَدَ والصبر .
(٢) النِّبال : السهام .

لَا تَقُومُ لَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمَةٌ .

وَكَانَ أَشَدَّ هَٰذِهِ الْفِيَلَةِ وَطْأَةً عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ الْفِيلُ الْأَبْيَضُ ؛ وَهُوَ فِيلُ «يَزْدَجِرْدَ» مَلِكِ الْفُرْسِ ، ثُمَّ الْفِيلُ الْأَجْرَبُ الَّذِي لَا يَقِلُّ عَنْهُ هَوْلًا[(١)].

وَكَانَتِ الْفِيَلَةُ الْأُخْرَىٰ تَتْبَعُهُمَا كَأَنَّهُمَا قَائِدَانِ لَهَا .

* * *

اسْتَشَارَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ جَمَاعَةً مِنَ الْفُرْسِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي أَمْرِ هَٰذِهِ الْفِيَلَةِ ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ مَقَاتِلِهَا ؛ فَقَالُوا :

افْقَؤُوا عُيُونَهَا ، وَاقْطَعُوا خَرَاطِيمَهَا ؛ فَتَفْشَلَ وَتَذْهَبَ رِيحُهَا .

فَأَرْسَلَ إِلَىٰ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو وَأَخِيهِ عَاصِمٍ وَقَالَ :

اكْفِيَا الْمُسْلِمِينَ الْفِيلَ الْأَبْيَضَ .

وَأَرْسَلَ إِلَىٰ اثْنَيْنِ جَلْدَيْنِ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَقَالَ :

عَلَيْكُمَا بِالْفِيلِ الْأَجْرَبِ .

* * *

تَرَجَّلَ الْقَعْقَاعُ وَأَخُوهُ عَاصِمٌ عَنْ جَوَادَيْهِمَا ...

وَانْدَفَعَا يَشُقَّانِ الصُّفُوفَ فِي اتِّجَاهِ الْفِيلِ الْأَبْيَضِ ؛ حَتَّىٰ إِذَا أَصْبَحَا قَابَ قَوْسٍ مِنْهُ أَوْ أَدْنَىٰ ... سَدَّدَ الْقَعْقَاعُ رُمْحَهُ إِلَىٰ عَيْنِهِ الْيُمْنَىٰ ؛ بَيْنَمَا تَكَفَّلَ أَخُوهُ بِعَيْنِهِ الْيُسْرَىٰ ، وَأَهْوَيَا عَلَىٰ عَيْنَيْهِ بِرُمْحَيْهِمَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ...

فَإِذَا بِسِنَانَيْهِمَا[(٢)] يَغِيبَانِ فِي مِحْجَرَيْهِ[(٣)]...

(١) الهَوْل : الخطر المرعب .
(٢) السِّنَان : نصل الرمح .
(٣) المِحْجَر من العين : ما أحاط بها .

فَنَفَضَ الْحَيَوَانُ الرَّهِيبُ رَأْسَهُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ نَفْضَةً أَلْقَتْ بِفَيَّالِهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ ، وَدَاسَ فِي بَطْنِهِ فَصَرَعَهُ .

ثُمَّ إِنَّ الْفِيلَ دَلَّىٰ خُرْطُومَهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ لِيَتَحَسَّسَ بِهِ طَرِيقَهُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ ؛ فَوَثَبَ عَلَيْهِ الْقَعْقَاعُ وَقَطَّهُ[1] بِسَيْفِهِ قَطًّا ...

وَحَمَلَ الْفَارِسَانِ الْأَسَدِيَّانَ عَلَىٰ الْفِيلِ الْأَجْرَبِ ؛ فَفَقَآ إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ ، وَأَصَابَا خُرْطُومَهُ إِصَابَةً بَالِغَةً ...

فَارْتَدَّ عَلَىٰ صُفُوفِ الْفُرْسِ هَائِجًا مَائِجًا وَمَضَىٰ يَفْتِكُ فِيهِمْ فَتْكًا ذَرِيعًا ؛ فَنَخَسُوهُ[2]؛ فَانْقَلَبَ إِلَىٰ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَوَخَزَهُ الْمُسْلِمُونَ ؛ فَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَىٰ ...

ثُمَّ طَفِقَ يُهَرْوِلُ جِيئَةً وَذَهَابًا ، وَيَصِيحُ كَالْخِنْزِيرِ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ .

ثُمَّ انْدَفَعَ نَحْوَ النَّهْرِ وَوَثَبَ فِيهِ ؛ فَتَبِعَتْهُ الْفِيلَةُ الْأُخْرَىٰ وَوَثَبَتْ وَرَاءَهُ ، وَطَرَحَتْ فَيَّالَتَهَا ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .

* * *

كَانَ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ الْفِيَلَةِ أَثَرٌ كَبِيرٌ لَدَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَعَدُوِّهِمْ عَلَىٰ السَّوَاءِ .

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ ؛ فَأَيْقَنُوا بِعَوْنِ اللَّهِ وَوَثِقُوا بِنَصْرِهِ ؛ إِذَا هُمْ صَبَرُوا وَصَابَرُوا وَأَرْخَصُوا الدِّمَاءَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَأَمَّا الْفُرْسُ ؛ فَعَوَّضُوا عَنِ الْفِيَلَةِ بِالْإِمْدَادَاتِ الضَّخْمَةِ الَّتِي أَمَدَّهُمْ بِهَا مَلِكُهُمْ « يَزْدَجَرْدُ » فَشَدَّتْ مِنْ عَزَائِمِهِمْ شَدًّا .

* * *

(١) قَطَّه : قطعه .
(٢) فَنَخَسُوه : هيجوه وأزعجوه ، وذلك بأن يغرزوا جنبه أو مؤخرته بعود أو نحوه .

أَقْبَلَ الْفَرِيقَانِ عَلَىٰ الْقِتَالِ إِقْبَالَ الْعِطَاشِ عَلَىٰ الْمَاءِ ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ تَطْحَنَ الرِّجَالَ وَالسِّلَاحَ طَحْنًا ...

وَلَمَّا دَجَا[1] اللَّيْلُ ، وَلَفَّ الْكَوْنَ بِشَمْلَتِهِ السَّوْدَاءِ ؛ لَمْ يَضَعْ أَيٌّ مِنَ الْفَرِيْقَيْنِ سِلَاحَهُ ؛ كَمَا كَانَا يَفْعَلَانِ كُلَّ لَيْلَةٍ ...

وَ إِنَّمَا وَصَلَا قِتَالَ النَّهَارِ بِقِتَالِ اللَّيْلِ ؛ حَتَّىٰ لَكَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا قَدْ عَزَمَ عَلَىٰ أَلَّا يُلْقِيَ السِّلَاحَ ؛ إِلَّا إِذَا دَارَتِ الدَّائِرَةُ[2] عَلَىٰ عَدُوِّهِ .

وَبِسَبَبٍ مِنْ هَٰذَا الْعَزْمِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ الْمُتَقَاتِلُونَ ...

وَبِسَبَبِ الظَّلَامِ الَّذِي خَيَّمَ عَلَىٰ الْكَوْنِ ، وَبِسَبَبِ الْغُبَارِ الَّذِي غَطَّىٰ سَاحَةَ الْمَعْرَكَةِ ...

خَرَجَ الْأَمْرُ مِنْ يَدَيْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ؛ كَمَا خَرَجَ مِنْ يَدَيْ « رُسْتُمَ » قَائِدِ جَيْشِ الْفُرْسِ ، وَفَقَدَا سَيْطَرَتَهُمَا عَلَىٰ جَيْشَيْهِمَا .

وَقَدْ عَرَفَ سَعْدٌ أَنَّ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرو زَحَفَ عَلَىٰ الْفُرْسِ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِ ؛ فَتَخَوَّفَ عَلَىٰ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ تُصِيبَهُمْ كَارِثَةٌ ...

لٰكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ سِوَىٰ أَنْ قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو وَانْصُرْهُ ... اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُ وَ إِنْ لَمْ يَسْتَأْذِنِّي .

وَقَدْ زَادَهُ جَزَعًا عَلَىٰ جَزَعِهِ ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ قَبَائِلَ الْعَرَبِ تَزْحَفُ وَرَاءَ الْقَعْقَاعِ الْوَاحِدَةَ تِلْوَ الْأُخْرَىٰ .

فَهَٰذِهِ أَسَدٌ تَنْدَفِعُ بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا ، وَتِلْكَ بَجِيلَةُ تَزْحَفُ بِخَيْلِهَا وَرَجِلِهَا ، وَهَٰذِهِ كِنْدَةُ تُقْبِلُ ، وَتِلْكَ النَّخَعُ تَحْمِلُ ...

---

(١) دَجَا اللَّيْل : أظلم الليل.

(٢) الدَّائِرَة : النكبة والمصيبة .

فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يُكَبِّرَ تَكْبِيرَاتِهِ الثَّلَاثَ إِيذَانًا بِالْهُجُومِ الْعَامِّ ؛ فَهَجَمَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا .

* * *

أَسْعَرَ[1] الْجَيْشَانِ الْمُتَقَابِلَانِ لَظَىٰ مَعْرَكَةٍ مُسْتَطِيرَةِ الشَّرَرِ ؛ فَكُنْتَ لَا تَرَىٰ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ غَيْرَ عُيُونٍ كَالْجَمْرِ تَدُورُ فِي الْمَحَاجِرِ ...

وَلَا تَسْمَعُ غَيْرَ هَمْهَمَةٍ كَالزَّئِيرِ تَنْبَعِثُ مِنَ الْحَنَاجِرِ ...

وَلَا تُبْصِرُ غَيْرَ الشَّرَرِ الْمُتَطَايِرِ مِنْ وَقْعِ النِّصَالِ[2] عَلَىٰ النِّصَالِ .

* * *

وَلَمَّا تَنَفَّسَ الصُّبْحُ عَنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلَاءِ الَّتِي دُعِيَتْ بِلَيْلَةِ « الْهَرِيرِ »[3] كَانَ الْإِعْيَاءُ[4] قَدْ بَلَغَ بِكُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ غَايَتَهُ .

فَالسَّوَاعِدُ قَدْ كَلَّتْ[5]، وَالْعَزَائِمُ قَدْ وَهَنَتْ ، وَالسُّيُوفُ قَدْ تَثَلَّمَتْ[6]...

وَتَمَنَّىٰ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَضَعَ السِّلَاحَ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ ، وَلَمَّا يُكْتَبْ لَهُ النَّصْرُ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَقَفَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ إِنَّ النَّصْرَ سَيَكُونُ بَعْدَ سَاعَةٍ لِمَنْ يَثْبُتُ عَلَىٰ الْقِتَالِ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ...

فَكُونُوا أَنْتُمُ الَّذِينَ تَصْبِرُونَ هَٰذِهِ السَّاعَةَ .

---

(١) أَسْعَر : أوقد .
(٢) النِّصَال : جمع نصل ، ونصل السيف حديدته .
(٣) الْهَرِير : صوت الكلب دون النباح .
(٤) الْإِعْيَاء : التعب .
(٥) كَلَّت : تعبت .
(٦) تَثَلَّمَت : انكسرت .

ثُمَّ شَدَّ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ خَوَاصِّ رِجَالِهِ عَلَىٰ مُعَسْكَرِ الْفُرْسِ ...

فَشَدَّ الْمُسْلِمُونَ لِشَدَّتِهِ .

* * *

لَمْ تَرْتَفِعْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَالِيًا ؛ حَتَّىٰ كَانَتْ صُفُوفُ الْفُرْسِ تَتَرَنَّحُ تَحْتَ وَطْأَةِ هَجَمَاتِ الْمُسْلِمِينَ .

وَهَبَّتْ عَلَىٰ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ رِيحٌ عَاصِفَةٌ أَطَارَتْ قُبَّةَ سَرِيرِ[1] « رُسْتُمَ » مِنْ فَوْقِهِ وَقَذَفَتْ بِهَا إِلَىٰ النَّهْرِ ...

فَانْدَفَعَ الْقَعْقَاعُ وَمَنْ مَعَهُ نَحْوَ السَّرِيرِ لِيَفْتِكُوا بِصَاحِبِهِ ؛ فَقَفَزَ « رُسْتُمُ » عَنْهُ .

وَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَوْشَكُوا أَنْ يُطْبِقُوا عَلَيْهِ ؛ أَلْقَىٰ بِنَفْسِهِ فِي النَّهْرِ ... فَانْقَضَّ عَلَيْهِ أَحَدُ رِجَالِ الْقَعْقَاعِ ، وَفَلَقَ جَبِينَهُ بِالسَّيْفِ فَلْقَتَيْنِ .

ثُمَّ صَعَدَ عَلَىٰ سَرِيرِهِ وَجَعَلَ يَصِيحُ :

قَتَلْتُ « رُسْتُمَ » ، وَرَبِّ مُحَمَّدٍ ...

قَتَلْتُ « رُسْتُمَ » وَرَبِّ الْكَعْبَةِ .

* * *

لَقَدْ كَانَ مَصْرَعُ « رُسْتُمَ » خَاتِمَةً لِأَعْظَمِ مَعْرَكَةٍ غَيَّرَتْ وَجْهَ التَّارِيخِ .

وَكَانَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو هُوَ بَطَلَ هَٰذِهِ الْمَعْرَكَةِ الْفَذَّ غَيْرَ مُنَازَعٍ (*) .

---

(١) سَرِيرِ رُسْتُم : مُضْطَجَعُه .

(*) للاستزادة من أخبار القَعْقَاع بْن عَمْرو انظر :
١ - الإصابة : ٣/٢٣٩ أو « الترجمة » ٧١٢٧.
٢ - الاستيعاب : ٣/٢٦٣.
٣ - أسد الغابة : ٤/٤٠٩.
٤ - الطبري : ٣/ ٢٦١، ٣٤٩، ٣٧٣، ٣٩٦، ٤٣٦، ٥٤٢، ٥٥٠، ٤/٢٦، ٤٨٤.
٥ - البداية والنهاية : ٦/٣٤٤، ٣٥١.



أَبُو عُبَيْدِ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ

«قَائِدُ وَقْعَةِ الْجِسْرِ»

هَا هُوَ ذَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مُوَسَّدًا(١) عَلَىٰ فِرَاشِهِ ؛ مُتَرَقِّبًا قَضَاءَ اللَّهِ فِيهِ ؛ بَعْدَ أَنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْمَرَضِ .

وَهَا هُمْ أُولَاءِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَتَرَدَّدُونَ عَلَىٰ بَيْتِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ وَجِلِينَ مُشْفِقِينَ(٢) .

وَفِيمَا كَانَ الصِّدِّيقُ عَلَىٰ حَالَتِهِ هَٰذِهِ ؛ دَعَا خَلِيفَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَقَالَ :

يَا عُمَرُ ؛ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَمُوتَ فِي يَوْمِي هَٰذَا ... فَإِذَا أَنَا مِتُّ ؛ فَلَا تُصْبِحَنَّ حَتَّىٰ تَنْدُبَ النَّاسَ إِلَىٰ قِتَالِ الْفُرْسِ ...

ثُمَّ ابْعَثْ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ مِنْهُمْ مَدَدًا(٣) لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُقَاتِلِ هُنَاكَ ... وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنْ أَمْرِ دِينِكُمْ مُصِيبَةٌ مَهْمَا جَلَّتْ(٤) .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ أَسْلَمَ الرُّوحَ قَبْلَ مَغِيبِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

وَارَىٰ الْفَارُوقُ صَاحِبَهُ التُّرَابَ لَيْلًا ... وَمَا إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ حَتَّىٰ كَانَ أَوَّلَ عَمَلٍ قَامَ بِهِ أَنَّهُ نَدَبَ(٥) النَّاسَ لِقِتَالِ الْفُرْسِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ التَّرْغِيبِ ...

لَكِنَّهُ فُوجِئَ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ خَشْيَتِهِمْ مِنَ

---

(١) موسَّدًا علىٰ فراشه : موضوعًا علىٰ فراشه .
(٢) مشفقين : حريصين علىٰ خيره خائفين حنانًا وعطفًا .
(٣) الْمَدَدُ : العساكر التي تُلْحق بالمغازي في سبيل الله .
(٤) مهما جلَّت : مهما عمَّت وعَظُمَتْ .
(٥) نَدَبَ الناس : دعاهم .

الْفُرْسِ ، وَكَثْرَةِ مَا سَمِعُوهُ عَنْ بَأْسِهِمْ[١] وَبَطْشِهِمْ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ التَّالِي دَعَا النَّاسَ كَرَّةً[٢] أُخْرَىٰ ؛ فَلَمْ يُلَبِّهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ ...

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ نَدَبَهُمْ مَرَّةً ثَالِثَةً ؛ فَلَمْ يَنْتَدِبْ لَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ....

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ ؛ خَرَجَ إِلَىٰ النَّاسِ ضَيِّقَ الصَّدْرِ كَاسِفَ الْبَالِ[٣] وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ قِتَالِ الْفُرْسِ ؛ فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو عُبَيْدِ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لَقَدْ سَمِعْنَا دَعْوَتَكَ وَأَطَعْنَا أَمْرَكَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ وَمَعِي أَوْلَادِي وَأَهْلِي وَعَشِيرَتِي ...

فَانْفَرَجَتْ[٤] أَسَارِيرُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَدَبَّتِ الْحَمِيَّةُ[٥] فِي صُدُورِ الرِّجَالِ ... فَأَقْبَلُوا عَلَىٰ الِانْضِمَامِ إِلَىٰ الْجَيْشِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا اكْتَمَلَ جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ ؛ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :

وَلِّ عَلَىٰ الْجَيْشِ أَحَدَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَوِ الْأَنْصَارِ ؛ فَهُمْ أَرْفَعُ النَّاسِ قَدْرًا ، وَأَعْظَمُهُمْ شَأْنًا[٦] .

فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ! ...

إِنَّمَا رَفَعَ قَدْرَهُمْ وَعَظَّمَ شَأْنَهُمْ سَبْقُهُمْ إِلَىٰ الصَّالِحَاتِ ، وَمُسَارَعَتُهُمْ إِلَىٰ لِقَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ...

فَإِذَا تَثَاقَلُوا[٧] عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَخَفَّ[٨] إِلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ؛ كَانَ هُوَ السَّابِقَ مِنْ دُونِهِمْ ، وَالْأَوْلَىٰ بِالرِّيَاسَةِ عَلَيْهِمْ ...

---

(١) البأس : القوة والشدة .
(٢) كرّة أخرىٰ : مرة ثانية .
(٣) كاسف البال : سيئ الحال .
(٤) انفرجت أساريره : بدا السرور علىٰ وجهه .
(٥) الحمية : النخوة والمروءة .
(٦) شأنًا : منزلةً ومقامًا .
(٧) تثاقلوا : تباطؤوا .
(٨) خفّ إليه : نشط وأسرع إليه .

وَاللَّهِ ! لَا أُؤَمِّرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ اسْتِجَابَةً لِدَاعِي الْجِهَادِ .

ثُمَّ دَعَا أَبَا عُبَيْدِ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ ، وَعَقَدَ لَهُ الرَّايَةَ عَلَىٰ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَوَجِّهِ لِحَرْبِ الْفُرْسِ .

* * *

مَضَىٰ أَبُو عُبَيْدٍ بِجَيْشِهِ الْبَالِغِ خَمْسَةَ آلَافِ مُجَاهِدٍ وَمَعَهُ أَخُوهُ ، وَأَوْلَادُهُ الثَّلَاثَةُ ، وَزَوْجَتُهُ .

وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَضَّهُمْ(١) عَلَىٰ الْجِهَادِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِي الِاسْتِشْهَادِ ...

فَمَا زَالَ الْجَيْشُ يَنْمُو وَيَكْبُرُ ؛ حَتَّىٰ بَلَغَ عَشْرَةَ آلَافِ مُجَاهِدٍ .

* * *

وَصَلَتْ أَنْبَاءُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْقَادِمِ بِقِيَادَةِ أَبِي عُبَيْدٍ إِلَىٰ مَسَامِعِ الْفُرْسِ ؛ فَحَشَدُوا جُنُودَهُمْ ، وَعَبَّؤُوا(٢) قُوَاهُمْ ، وَعَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ ضَرْبَةً قَاضِيَةً(٣) لَا تَقُومُ لَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمَةٌ ، وَجَعَلُوا عَلَىٰ قِيَادَةِ جَيْشِهِمْ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يُدْعَىٰ « جَابَانَ » ، وَجَعَلُوا عَلَىٰ مَيْمَنَتِهِ(٤) فَارِسًا مِنْ مَشَاهِيرِ فُرْسَانِهِمْ يُقَالُ لَهُ « مَرْدَانُ » .

* * *

الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ فِي النَّمَارِقِ(٥)، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ طَحُونٍ(٦) أَبْدَىٰ فِيهَا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ أَبِي عُبَيْدٍ مِنْ ضُرُوبِ الْبَسَالَةِ وَالْبَذْلِ ؛ مَا زَلْزَلَ(٧) أَقْدَامَ الْفُرْسِ ، وَأَلْحَقَ بِهِمُ الْهَزِيمَةَ الْمُنْكَرَةَ ، وَمَزَّقَهُمْ شَرَّ مُمَزَّقٍ ...

(١) حضهم علىٰ الجهاد : رغبهم فيه وحثهم عليه .
(٢) عبّؤوا قواهم : جهّزوها .
(٣) القاضية : المهلكة المدمرة .
(٤) ميمنته : جناح جيشه الأيمن .
(٥) النمارق : موضع قرب الكوفة من أرض العراق .
(٦) معركة طحون : الحرب العظيمة المهلكة .
(٧) زلزل أقدامهم : أرجف أقدامهم .

فَوَقَعَ « جَابَانُ » قَائِدُ الْجَيْشِ فِي أَسْرِ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ يُدْعَىٰ مَطَرَ بْنَ فِضَّةَ التَّيْمِيَّ ، وَوَقَعَ « مَرْدَانُ » فِي أَسْرِ جُنْدِيٍّ آخَرَ يُدْعَىٰ أَكْتَلَ بْنَ شَمَّاخٍ الْعُكْلِيَّ .

فَقَتَلَ أَكْتَلُ أَسِيرَهُ ...

أَمَّا « جَابَانُ » ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ آسِرَهُ لَمْ يَعْرِفْهُ ؛ فَجَعَلَ يَتَذَلَّلُ لَهُ ، وَيُظْهِرُ لَهُ الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ وَتَقَدُّمَ السِّنِّ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يُؤَمِّنَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ .

وَيُمَنِّيهِ بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْعَطَاءِ ...

فَأَشْفَقَ[1] عَلَيْهِ مَطَرٌ وَأَمَّنَهُ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ .

لَكِنَّ « جَابَانَ » مَا كَادَ يَتَخَلَّصُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ آسِرِهِ ؛ حَتَّىٰ عَرَفَهُ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ، وَأَتَوْا بِهِ إِلَىٰ قَائِدِ الْجَيْشِ أَبِي عُبَيْدٍ وَقَالُوا :

هَٰذَا « جَابَانُ » قَائِدُ جَيْشِ الْفُرْسِ ، وَلَقَدْ أَمَّنَهُ أَحَدُ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ وَهْوَ لَا يَعْرِفُهُ ، ثُمَّ أَشَارُوا عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ ! لَا أَقْتُلُهُ بَعْدَ أَنْ أَمَّنَهُ ...

فَالْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ مَا لَزِمَ بَعْضَهُمْ ؛ فَقَدْ لَزِمَهُمْ جَمِيعًا ...

وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ .

* * *

اسْتَسْلَمَ الْجُنْدُ الْمُنْهَزِمُونَ لِأَبِي عُبَيْدٍ ... وَصَالَحُوهُ عَلَىٰ أَنْ يَدْفَعُوا لَهُ الْجِزْيَةَ[2]، وَجَاءُوا لَهُ بِنَفَائِسِ الطَّعَامِ وَالْأَخْبِصَةِ[3]...

(١) أشفق عليه : عطف عليه .

(٢) الجزية : ما يؤخذ من الذميين لأنها تجزئ عنه ؛ أي تكفيه معاملة الحربيين .

(٣) الأخبصة : نوع من الحلوىٰ .

فَلَمَّا وَضَعُوهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ أَعْرَضَ[1] عَنْهَا وَقَالَ :

هَلْ أَكْرَمْتُمْ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا بِمِثْلِ مَا تُكْرِمُونَنِي بِهِ ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَنَا الْيَوْمَ وَسَنَفْعَلُهُ غَدًا .

فَقَالَ : ارْفَعُوهُ ؛ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ ...

ثُمَّ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ :

بِئْسَ الْمَرْءُ أَبُو عُبَيْدٍ إِنْ هُوَ صَحِبَ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَانْتَزَعَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَأْثَرَ[2] مِنْ دُونِهِمْ بِشَيْءٍ ...

لَا وَاللَّهِ ! لَا آكُلُ شَيْئًا مِمَّا أَتَيْتُمْ بِهِ وَلَا مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ[3] بِهِ عَلَيْنَا مِنَ الْغَنَائِمِ ؛ إِلَّا مَا يَأْكُلُ أَوْسَطُ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، فَرَفَعُوهُ .

* * *

جَمَعَ أَبُو عُبَيْدٍ الْغَنَائِمَ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَا غَنِمَهُ : نَوْعٌ مِنْ فَاخِرِ التَّمْرِ يُدْعَىٰ « النَّرْسِيَانَ » وَذَلِكَ نِسْبَةً إِلَىٰ نَرْسِي ابْنِ خَالَةِ الْمَلِكِ ، وَإِنَّمَا نُسِبَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ اسْتَأْثَرَ بِزِرَاعَتِهِ ، وَحَظَرَهَا[4] عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ .

وَكَانَ مَلِكُ فَارِسٍ يَخُصُّ نَفْسَهُ بِهَٰذَا النَّوْعِ الْفَرِيدِ مِنَ التَّمْرِ ؛ فَلَا يَأْكُلُهُ أَحَدٌ إِلَّا هُوَ وَأُسْرَتُهُ ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُكْرِمَهُ بِهَدِيَّةٍ مِنْهُ .

فَوَزَّعَهُ أَبُو عُبَيْدٍ عَلَىٰ فَلَّاحِي الْفُرْسِ ؛ الَّذِينَ كَانُوا يَغْرِسُونَهُ ، وَيَجْنُونَهُ[5] ، وَلَا يَذُوقُونَهُ ...

وَبَعَثَ بِخُمْسِهِ إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ .

---

(١) أعرض عنها : صدّ عنها وتركها .

(٢) استأثر : آثر نفسه واختصها بشيء .

(٣) أفاء الله : أعطىٰ ومنح .

(٤) حظرها علىٰ غيره : منعها عن غيره .

(٥) يجنونه : يحصدونه .

وَكَتَبَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَقُول :

إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنَا مَطَاعِمَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ[١] تَحْمِيهَا ، وَتَخْتَصُّ بِهَا مِنْ دُونِ رَعِيَّتِهَا .

فَأَحْبَبْنَا أَنْ تَرَوْهَا - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لِتَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِنْعَامِهِ وَإِفْضَالِهِ ...

* * *

بَلَغَتْ أَنْبَاءُ الْهَزِيمَةِ الْمُنْكَرَةِ[٢] الَّتِي حَلَّتْ بِالْفُرْسِ مَسَامِعَ كَبِيرِهِمْ « رُسْتُمَ » وَعَرَفَ مَا حَلَّ « بِجَابَانَ » وَقَائِدِ مَيْمَنَتِهِ ...

فَاسْتَشَاطَ[٣] غَضَبًا ...

وَكَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ تَنْهَزِمَ جُيُوشُ الْفُرْسِ الْمُظَفَّرَةُ أَمَامَ هَـٰذِهِ الْقِلَّةِ الْقَلِيلَةِ مِنَ الْعَرَبِ الْحُفَاةِ الْعُرَاةِ .

فَجَمَعَ خَاصَّتَهُ[٤] وَقَالَ لَهُمْ :

أَيُّ الْعَجَمِ أَشَدُّ بَأْسًا عَلَىٰ الْعَرَبِ فِيمَا تَرَوْنَ ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّهُ « بَهْمَنُ » ذُو الْحَاجِبِ .

فَقَالَ : أَصَبْتُمْ .

ثُمَّ اسْتَدْعَىٰ « بَهْمَنَ » وَعَقَدَ لَهُ اللِّوَاءَ عَلَىٰ ثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ أَشِدَّاءِ الْمُقَاتِلِينَ ، وَجَعَلَ فِي جَيْشِهِ عِشْرِينَ فِيلًا لَمْ تَرَ الْعَيْنُ أَضْخَمَ مِنْهَا وَلَا أَقْوَىٰ .

فَسَارَ « بَهْمَنُ » بِهَـٰذَا الْجَيْشِ اللَّجِبِ[٥] حَتَّىٰ نَزَلَ عَلَىٰ شَاطِئِ الْفُرَاتِ

---

(١) الأكاسِرَة : ملوك الفرس .
(٢) المنكرة : القاسية الشديدة .
(٣) استشاط : اشتعل .
(٤) خاصَّته : حاشيته ومعاونوه .
(٥) اللجب : الجرار ذو الجلبة .

الشَّرْقِيِّ بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْقِعِ الْكُوفَةِ[1]

أَمَّا أَبُو عُبَيْدٍ ؛ فَقَدْ تَوَجَّهَ بِجُنْدِهِ وَعَسْكَرَ عَلَىٰ ضِفَّةِ النَّهْرِ الْمُقَابِلَةِ لِمُعَسْكَرِ الْفُرْسِ ؛ فَكَتَبَ « بَهْمَنُ » إِلَىٰ أَبِي عُبَيْدٍ يَقُولُ :

إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَلَا نَمُدُّ لَكُمْ يَدًا بِسُوءٍ عِنْدَ عُبُورِكُمْ ، وَإِمَّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ كَذَلِكَ .

فَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ لِمَنْ حَوْلَهُ : لَا يَكُونُ الْفُرْسُ أَجْرَأَ مِنَّا عَلَىٰ الْمَوْتِ ...

وَعَزَمَ عَلَىٰ الْعُبُورِ ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ مُعَارَضَةِ كَثِيرٍ مِنْ رِجَالِهِ لِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ ، وَأَعْلَمَ الْفُرْسَ بِذَلِكَ .

* * *

وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الْعُبُورَ ؛ رَأَتْ زَوْجَةُ أَبِي عُبَيْدٍ فِيمَا يَرَاهُ النَّائِمُ : أَنَّ رَجُلًا هَبَطَ مِنَ السَّمَاءِ وَمَعَهُ إِبْرِيقٌ[2] فِيهِ شَرَابٌ ؛ فَسَقَىٰ مِنْهُ زَوْجَهَا ، وَأَخَاهُ ، وَأَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ .

فَلَمَّا قَصَّتْ رُؤْيَاهَا عَلَىٰ أَبِي عُبَيْدٍ ؛ قَالَ لَهَا

بُشْرَاكِ !

فَقَدْ كُتِبَتْ لِيَ الشَّهَادَةُ أَنَا وَأَخِي وَأَوْلَادِي ، ثُمَّ وَقَفَ فِي جُنْدِهِ وَقَالَ

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنْ قُتِلْتُ فَأَمِّرُوا[3] عَلَيْكُمْ أَخِي حَكَمًا

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمِّرُوا وَلَدِي وَهْبًا ...

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمِّرُوا أَخَاهُ مَالِكًا

(١) الكوفة : مدينة اختطها المسلمون بأرض بابل من سواد العراق
(٢) الإبريق : الإناء ، وهي كلمة فارسية ، والجمع : أباريق .
(٣) أمّروا عليكم : اجعلوا أميرًا عليكم .

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمِّرُوا أَخَاهُ جَبْرًا

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمِّرُوا الْمُثَنَّىٰ بْنَ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ[1]

ثُمَّ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْعُبُورِ ؛ فَصَدَعُوا[2] بِالْأَمْرِ ، وَطَفِقُوا يَتَدَفَّقُونَ نَحْوَ الشَّاطِئِ الشَّرْقِيِّ مِنَ النَّهْرِ كَمَا يَتَدَفَّقُ السَّيْلُ .

وَعَبَرُوهُ فَوْقَ جِسْرٍ نَصَبُوهُ هُنَاكَ .

* * *

وَلَمَّا الْتَقَىٰ الْجَيْشَانِ عَلَىٰ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ؛ فُوجِئَ الْمُسْلِمُونَ بِالْفِيَلَةِ الَّتِي تَتَقَدَّمُ جَيْشَ الْفُرْسِ ، وَقَدْ ثُبِّتَتْ عَلَىٰ ظُهُورِهَا وَرِقَابِهَا أَغْصَانٌ كَثِيفَةٌ مِنْ سَعَفِ[3] النَّخْلِ ...

وَعُلِّقَتْ عَلَيْهَا أَجْرَاسٌ كَبِيرَةٌ مُجَلْجِلَةٌ[4] .

فَبَدَا كُلُّ فِيلٍ مِنْهَا كَأَنَّهُ جَبَلٌ مُشَجَّرٌ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ ...

فَهَابَهَا جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ[5] بِهَا مِنْ قَبْلُ ...

وَأَجْفَلَتْ[6] مِنْهَا خُيُولُهُمْ .

فَأَيْقَنَ أَبُو عُبَيْدٍ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَىٰ الْفِيَلَةِ وَفُرْسَانِهَا حَتَّىٰ يُحَقِّقَ لِجَيْشِهِ النَّصْرَ ؛ فَنَادَىٰ بِجُنُودِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ أَقْبِلُوا عَلَىٰ الْفِيَلَةِ وَاقْطَعُوا أَحْزِمَتَهَا وَاقْلِبُوا الرِّجَالَ مِنْ فَوْقِهَا وَاطْعَنُوهَا فِي مَقَاتِلِهَا[7]

وَهَا أَنَا ذَا مَاضٍ أَمَامَكُمْ ...

(١) المثنى بن حارثة الشيباني : انظره ص ١٩٩
(٢) فَصَدَعُوا بالأمر : جهروا بالأمر وأنفذوه .
(٣) سعف النخل : ورق جَريده .
(٤) مجلجلة : مُصْدرَةً صَوْتًا شَدِيدًا .
(٥) عهد بها معرفة بها .
(٦) أجفلت منها خيولهم نفرت منها .
(٧) مقاتِلِهَا : مواضع قتلها

وَمَا إِنْ أَتَمَّ كَلامَهُ ؛ حَتَّىٰ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْفِيلِ الْأَكْبَرِ ؛ فَقَطَعَ حِزَامَهُ وَأَرْدَىٰ[1] الْفَارِسَ الَّذِي عَلَىٰ ظَهْرِهِ ...

لَكِنَّ الْفِيلَ مَا لَبِثَ أَنْ ضَرَبَهُ بِخُرْطُومِهِ[2] ضَرْبَةً أَلْقَتْهُ فِي الْأَرْضِ ...

ثُمَّ دَاسَ عَلَيْهِ بِيَدَيْهِ وَصَرَعَهُ[3]

* * *

تَوَالَىٰ عَلَىٰ الْقِيَادَةِ مِنْ بَعْدِ أَبِي عُبَيْدٍ أَخُوهُ الْحَكَمُ ؛ فَخَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا ...

فَتَلَاهُ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ ؛ فَلَحِقَ بِأَبِيهِ وَعَمِّهِ ...

فَتَلَاهُ ابْنُهُ الثَّانِي ؛ فَلَحِقَ بِهِمْ أَيْضًا

فَتَلَاهُ ابْنُهُ الثَّالِثُ ؛ فَآلَ[4] إِلَىٰ مَا آلَ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَأَخَوَاهُ وَعَمُّهُ ...

فَتَحَقَّقَتْ رُؤْيَا زَوْجَةِ أَبِي عُبَيْدٍ ، وَصَحَّ تَأْوِيلُهُ لَهَا

حَيْثُ كُتِبَتِ الشَّهَادَةُ لَهُمْ جَمِيعًا

* * *

لَمْ يُحَقِّقِ الْمُسْلِمُونَ فِي هَٰذِهِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي دُعِيَتْ بِوَقْعَةِ الْجِسْرِ مَا كَانُوا يَرْجُونَهُ مِنْ نَصْرٍ ...

غَيْرَ أَنَّهُمْ مَلَؤُوا قُلُوبَ أَعْدَائِهِمْ رُعْبًا

وَشَحَنُوا[5] أَفْئِدَتَهُمْ رَهْبَةً وَخَوْفًا

وَلَقَدْ كَانَتْ وَقْعَةُ الْجِسْرِ حَدَثًا خَطِيرًا كَبِيرًا لَهُ مَا بَعْدَهُ ...

---

(١) أَرْدَىٰ الفارس : قتله .
(٢) بخرطومه : بأنفه .
(٣) صَرَعه : قَتَلَه .
(٤) آل : انتهىٰ أمره.
(٥) شحنوا : ملأوا .

ذَلِكَ أَنَّ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ[1] الْأَبْلَجَ الْأَغَرَّ لَمْ يَكُنْ عَنْ يَوْمِ الْجِسْرِ بِبَعِيدٍ (*) .

(١) انظر طرفًا من أخبارها في القعقاع بن عمرو.

(*) للاستزادة من أخبار أبي عُبَيْد الثَّقَفِيّ انظر:
١ - تاريخ الطبري: ٢/ ٣٦٣.
٢ - تاريخ خليفة بن خياط: ١/ ٢٢.
٣ - السيرة لابن حبان: ١/ ٤٥٢.
٤ - تاريخ الإسلام: ١/ ٣٨٧.
٥ - معجم البلدان: ٢/ ١٤٠، ٤/ ٣٤٩.
٦ - الإصابة: ٤/ ١٣٠ «الترجمة» ٧٣٨.
٧ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٤/ ١٢٤
٨ أسد الغابة: ٦/ ٢٠٥.

الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ﷺ

«إِنَّ الْـمَلَائِكَةَ نَزَلَتْ عَلَىٰ سِيمَا الزُّبَيْرِ»

[قَالَهَا الرَّسُولُ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ]

مَنْ هَٰذَا الْفَارِسُ الَّذِي شَقَّ بِسَيْفِهِ صُفُوفَ النَّاسِ فِي مَكَّةَ حَمِيَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَكَانَ أَوَّلَ مَنِ امْتَشَقَ(١) حُسَامًا(٢) فِي الْإِسْلَامِ ؟!

مَنْ هَٰذَا الْكَمِيُّ(٣) الَّذِي بَعَثَهُ الْفَارُوقُ مَدَدًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي مِصرَ ، وَعَدَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَلْفٍ ...

فَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ آلَافٍ ؟!

مَنْ هَٰذَا الْفِدَائِيُّ الَّذِي مَا عَرَفَ تَارِيخُ الْفِدَاءِ فَتًى أَشْجَعَ مِنْهُ شَجَاعَةً

وَلَا أَجَلَّ تَضْحِيَةً .

وَلَا أَنْبَلَ(٤) غَايَةً .

وَلَا أَكْثَرَ بَرَكَةً عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ؟!

إِنَّهُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ؛ حَوَارِيُّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

كَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الذُّؤَابَةِ(٥) مِنْ قُرَيْشٍ ...

---

(١) امْتَشَقَ : اسْتَلَّ وأَمسكَ .
(٢) حُسَامًا : سيفًا .
(٣) الْكَمِيُّ : البطل الشجاع .
(٤) وَلَا أَنْبَل : ولا أَشْرَفَ .
(٥) في الذُّؤَابَةِ : في المرتبة العليا من قريش .

فَنَسَبُهُ يَجْتَمِعُ مَعَ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ[١]

وَكَانَتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[٢]؛ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَكَانَتْ عَمَّتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ؛ أَبَرَّ وَأَكْرَمَ زَوْجَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* * *

وُلِدَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ قُبَيْلَ الْبَعْثَةِ بِنَحْوِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ إِلَّا أَنَّهُ مَا كَادَ يُبْصِرُ النُّورَ ... حَتَّىٰ وَجَدَ نَفْسَهُ يَتِيمًا

فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ فِي سَاحَاتِ الْوَغَىٰ[٣]

كَمَا قُتِلَ جَدُّهُ مِنْ قَبْلُ.

* * *

تَوَلَّتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تَرْبِيَتَهُ ...

فَنَشَّأَتْهُ عَلَىٰ الْخُشُونَةِ وَالْبَأْسِ.

فَلَقَدْ كَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً حَازِمَةً صَارِمَةً ...

فَجَعَلَتْ تَقْذِفُ بِهِ فِي كُلِّ مَخَافَةٍ، وَتُقْحِمُهُ فِي كُلِّ خَطَرٍ ...

فَإِذَا أَحْجَمَ[٤] أَوْ تَرَدَّدَ أَوْ قَصَّرَ؛ ضَرَبَتْهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا[٥]

حَتَّىٰ إِنَّ عَمَّهُ نَوْفَلَ بْنَ خُوَيْلِدٍ كَانَ يُعَاتِبُهَا عَلَىٰ قَسْوَتِهَا عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: مَا هَكَذَا يُضْرَبُ الْوَلَدُ ...

إِنَّكِ لَتَضْرِبِينَهُ ضَرْبَ مُبْغِضَةٍ ...

---

(١) قصي بن كلاب: سيد قريش في زمنه، وكان موصوفًا بالدهاء، وولي البيت الحرام وجدد بنيان الكعبة، وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي.

(٢) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيات للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.

(٣) سَاحَاتُ الْوَغَىٰ: ساحات الحرب.

(٤) أَحْجَمَ عن الأمر: رجع عنه وتأخر عن فعله.

(٥) ضربًا مُبَرِّحًا: أي شديد الوجع.

فَكَانَتْ تَرْتَجِزُ قَائِلَةً :

مَـنْ قَـالَ أَبْـغَـضْـتُـهُ فَـقَـدْ كَـذَبْ
وَإِنَّـمَـا أَضْـرِبُـهُ لِـكَـيْ يَـلِـبْ
وَيَـهْـزِمَ الْـجَـيْـشَ وَيَـأْتِـي بِـالـسَّـلَـبْ

* * *

وَلَمَّا أَشْرَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِنُورِ الْإِسْلَامِ ؛ كَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ اعْتِنَاقِهِ .

فَقَدْ أَسْلَمَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِإِسْلَامِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ فِي الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ .

* * *

وَقَدْ لَقِيَ الْفَتَىٰ الْبَاسِلُ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ مَا تَتَضَعْضَعُ(١) لَهُ عَزَمَاتُ(٢) أَشَدِّ الرِّجَالِ ؛ فَلَمْ يَهِنْ ، وَلَمْ يَضْعُفْ ...

فَهَٰذَا عَمُّهُ نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ يَتَفَنَّنُ فِي تَعْذِيبِهِ ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يَلُفُّ عَلَيْهِ الْحَصِيرَ ، وَيُوقِدُ فِي أَطْرَافِهَا النَّارَ ...

فَتَشْتَعِلُ فِي بُطْءٍ ، وَتَبْعَثُ الْحَرَارَةَ فِي جَسَدِهِ ، وَتَنْفُثُ(٣) الدُّخَانَ فِي عَيْنَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَخَيَاشِيمِهِ(٤) وَرِئَتَيْهِ ؛ حَتَّىٰ يُوشِكَ أَنْ يَمُوتَ خَنْقًا

وَكَانَ عَمُّهُ يَرْقُبُهُ فِي هُدُوءٍ ؛ فَإِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الضَّنْكُ ؛ قَالَ لَهُ :

عُدْ إِلَىٰ دِينِكَ ...

---

(١) مَا تَتَضَعْضَعُ : ما تُضعف قوتهم .
(٢) العَزَمَاتُ : جمع مفرده عزمة وهي الثبات والصبر فيما يعزم عليه .
(٣) نَفَثَ الشيءَ : قذفه وألقاه .
(٤) خَيَاشِيمه : أيْ أنفه .

فَيَقُولُ : لَا أَكْفُرُ أَبَدًا

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ ؛ كَانَ الزُّبَيْرُ فِي طَلِيعَةِ الْمُهَاجِرِينَ ...

فَلَقِيَ هُوَ وَإِخْوَانُهُ فِي كَنَفِ مَلِيكِهَا الصَّالِحِ ؛ الْأَمْنَ عَلَىٰ عَقِيدَتِهِمْ وَالطُّمَأْنِينَةَ عَلَىٰ دِينِهِمْ .

وَطَفِقُوا[١] يَعْبُدُونَ اللَّهَ لَا يَخَافُونَ أَحَدًا

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ ؛ خَرَجَ عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ[٢] رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ وَاجْتَازَ النِّيلَ لِيَلْقَاهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ

فَجَزِعَ الْمُسْلِمُونَ أَشَدَّ الْجَزَعِ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ[٣] وَكَانَتْ مَعَهُمْ :

فَوَاللَّهِ ! مَا أَعْلَمُ أَنَّا حَزِنَّا حُزْنًا قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ؛ تَخَوُّفًا مِنْ أَنْ يَظْهَرَ[٤] ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ ، وَيُسْلِمَنَا إِلَىٰ قَوْمِنَا الَّذِينَ كَانُوا يَجِدُّونَ فِي طَلَبِنَا ؛ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

مَنْ رَجُلٌ يَجْتَازُ النِّيلَ ، وَيَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟!

فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ :

أَنَا - وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ[٥] الْقَوْمِ سِنًّا - .

* * *

(١) طَفِقُوا : أخذوا .
(٢) النَّجَاشِيّ انظره في كتاب صور من حياة التابعين للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٣) أُمُّ سَلَمَة : انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٤) أَنْ يَظْهَرَ عَلَىٰ النَّجَاشِيّ : يَنْتَصِر عليه وَيغْلِبه . (٥) أَحْدَث سِنًّا : أصغر سنًّا .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً ؛ فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ

ثُمَّ مَضَىٰ يَسْبَحُ بَيْنَ الْأَمْوَاجِ وَالْحِيتَان ؛ حَتَّىٰ قَطَعَ النِّيلَ مِنْ شَاطِئِهِ ، إِلَىٰ شَاطِئِهِ ، وَبَلَغَ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ .

وَفِيمَا كُنَّا مُجْتَمِعِينَ مُتَرَقِّبِينَ نَدْعُو اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَىٰ عَدُوِّهِ ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا الزُّبَيْرُ ، وَهْوَ يُلَوِّحُ بِثَوْبِهِ مِنْ بَعِيدٍ ، وَيَقُولُ

أَلَا أَبْشِرُوا ... فَقَدْ ظَفِرَ النَّجَاشِيُّ ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَوَاللَّهِ ! مَا عَلِمْتُنَا فَرِحْنَا فَرْحَةً قَطُّ مِثْلَهَا

* * *

وَلَمَّا عَادَ الزُّبَيْرُ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنَ الْحَبَشَةِ ؛ وَضَعَ شَبَابَهُ وَبَأْسَهُ وَجُرْأَتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ...

فَقَدْ أَرْجَفَ[1] الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا :

إِنَّهُ أُخِذَ لِيُقْتَلَ ...

فَجَرَّدَ[2] الْفَتَىٰ الْبَاسِلُ سَيْفَهُ ...

وَجَعَلَ يَشُقُّ بِهِ صُفُوفَ النَّاسِ شَقًّا ؛ حَتَّىٰ بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَعْلَىٰ مَكَّةَ ؛ فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَالَكَ يَا زُبَيْرُ ؟!) .

قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّكَ أُخِذْتَ

(١) أرجف : زعم .
(٢) جرَّد سيفه : سل سيفه من غمده .

فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَلِسَيْفِهِ ...

وَكَانَ بِذَلِكَ سَيْفُهُ ؛ أَوَّلَ سَيْفٍ سُلَّ فِي الْإِسْلَامِ .

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ... جَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَخْرُجُونَ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ ؛ لِيَشُدَّ بَعْضُهُمْ أَزْرَ بَعْضٍ .

وَحَرَصُوا عَلَىٰ أَنْ يَخْرُجُوا سِرًّا حَتَّىٰ لَا تَتَصَدَّىٰ لَهُمْ قُرَيْشٌ ؛ إِلَّا ثَلَاثَةً مِنْ صَنَادِيدِ الْمُسْلِمِينَ ؛ خَرَجُوا فُرَادَىٰ وَعَلَىٰ مَلَإٍ مِنْ قُرَيْشٍ ...

فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيُؤْذِنُ[1] قُرَيْشًا بِخُرُوجِهِ ، وَيَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَصُدُّوهُ[2] أَوْ يَلْحَقُوا بِهِ .

هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ :

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[3]؛ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ؛ حَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَفِي يَوْمِ بَدْرٍ ؛ لَمْ يَكُنْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ غَيْرُ فَرَسَيْنِ ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا لِلزُّبَيْرِ ابْنِ الْعَوَّامِ ؛ فَامْتَطَىٰ صَهْوَةَ فَرَسِهِ ، وَلَاثَ[4] عَلَىٰ رَأْسِهِ عِمَامَةً صَفْرَاءَ ...

وَلَمَّا أَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْمَلَائِكَةِ ؛ فَإِذَا عَلَيْهِمْ عَمَائِمُ صُفْرٌ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

---

(١) وَيُؤْذِنُ : يُعْلِمُ .
(٢) يَصُدُّوه : يمنعوه .
(٣) حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب : انظره ص ٥٩.
(٤) لَاث العمامة على رأسه لفها وعصبها

(إِنَّ الْمَلَائِكَةَ نَزَلَتْ عَلَىٰ سِيمَا[١] الزُّبَيْرِ) .

* * *

وَأَبْلَىٰ[٢] الزُّبَيْرُ فِي بَدْرٍ بَلَاءً يَلِيقُ[٣] بِفَارِسٍ كَمِيٍّ مِثْلِهِ ، وَلَقِيَ طَائِفَةٌ مِنْ صَنَادِيدِ[٤] الْمُشْرِكِينَ مَصَارِعَهُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِ ...

وَقَدْ تَتَمَلَّكُكَ الدَّهْشَةُ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ أَحَدَ صَرْعَاهُ ؛ إِنَّمَا هُوَ عَمُّهُ نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ صَاحِبُ الْحَصِيرِ .

* * *

وَفِي يَوْمِ أُحُدٍ ؛ بَايَعَ الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْمَوْتِ فِي هَٰذِهِ الْغَزْوَةِ .

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْكَرْبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَطَفِقُوا يَنْهَزِمُونَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ؛ رَأَىٰ الرَّسُولُ ﷺ فَارِسًا عَلَىٰ فَرَسِهِ ؛ يُوقِعُ[٥] بِالْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ الْإِيقَاعِ ، وَيَقْتُلُ رِجَالَهُمْ أَعْنَفَ[٦] الْقَتْلِ ... فَالْتَفَتَ إِلَىٰ الزُّبَيْرِ وَقَالَ :

(إِلَيْهِ يَا زُبَيْرُ) ...

فَمَا كَادَتْ كَلِمَةُ الرَّسُولِ ﷺ تُلَامِسُ سَمْعَهُ ؛ حَتَّىٰ هَبَّ كَالْأَسَدِ عَادِيًا ، وَصَعِدَ مَكَانًا فَوْقَ النَّاسِ ، وَوَثَبَ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَىٰ جَوَادِهِ ، وَاعْتَنَقَهُ وَهَوَىٰ بِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ ، وَجَعَلَا يَتَدَحْرَجَانِ مَعًا حَتَّىٰ عَلَا فَوْقَ صَدْرِهِ ، وَقَتَلَهُ ...

فَفَدَّاهُ الرَّسُولُ ﷺ حِينَئِذٍ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ .

* * *

---

١) سِيمَا الزبير : صفته وصورته .
٢) أَبْلَىٰ : أظهر قوته وكشف عن بأسه .
٣) يَلِيق : يُناسب .
٤) صَنَادِيد : جمع صنديد ، وهو الفارس الشجاع والسيد العظيم .
٥) يُوقِعُ بالمسلمين : يُنْزِلُ بهم . (٦) أَعْنَفَ : أَشَدَّ وأَقْسَىٰ .

وَفِي يَوْمِ حُنَيْنٍ ؛ أَوْشَكَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُحِيطُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَمَا زَالَ يُطَاعِنُهُمْ حَتَّىٰ أَزَالَهُمْ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ ...

فَشَكَا الْمُشْرِكُونَ لِأَحَدِ قَادَتِهِمْ مِنْ فَارِسٍ يَضَعُ رُمْحَهُ عَلَىٰ عَاتِقِهِ، وَيَعْصِبُ رَأْسَهُ بِمَلَاءَةٍ صَفْرَاءَ واسْتَعَانُوهُ[١] عَلَيْهِ، وسَأَلُوهُ عَنْهُ ؛ فَقَالَ

هَٰذَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ... وَأَحْلِفُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَيَقْتَحِمَنَّ جُمُوعَكُمْ وَلَيُخَالِطَنَّ صُفُوفَكُمْ ؛ فَاثْبُتُوا لَهُ

فَلَمْ يُكَذِّبِ الزُّبَيْرُ ظَنَّهُ ...

إِذْ مَا لَبِثَ أَنْ قَصَدَ قَصْدَ الْمُشْرِكِينَ، وَطَفِقَ يُطَاعِنُهُمْ حَتَّىٰ خَالَطَ صُفُوفَهُمْ، وَأَزَاحَهُمْ عَنْهَا

* * *

ظَلَّ سَيْفُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ مَسْلُولًا طَوَالَ حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ، وَقَدْ تَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ ذَٰلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ ...

حَتَّىٰ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِهِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الْمَسْتُورَةِ ؛ إِلَّا وَقَدْ جُرِحَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

* * *

وَلَوْ رُحْنَا نَسْتَقْصِي صُوَرَ بُطُولَةِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لَوَجَدْنَاهَا لَا تَقِلُّ تَأَلُّقًا وَفَذَاذَةً[٢] عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ .

(١) واسْتَعَانُوه : طلبوا منه المعونة .
(٢) فَذَاذَةً فرادةً وروعةً .

وَحَسْبُنَا مِنْ هَٰذِهِ الصُّوَرِ الْمُشْرِقَةِ الْوَضَّاءَةِ ؛ مَا كَانَ مِنْهُ يَوْمَ فَتْحِ مِصْرَ .

* * *

لَقَدْ قَصَدَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ[1] مِصْرَ لِفَتْحِهَا فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةِ رَجُلٍ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَمَا إِنْ أَوْغَلَ[2] فِي أَرْضِ الْكِنَانَةِ[3] حَتَّىٰ شَعَرَ بِحَاجَتِهِ إِلَىٰ الْمَدَدِ ؛ فَكَتَبَ إِلَىٰ الْفَارُوقِ يَسْتَمِدُّهُ بِمَا يَفِيضُ عَنْ حَاجَتِهِ مِنَ الْجُنْدِ .

فَتَلَفَّتَ الْفَارُوقُ حَوْلَهُ ... فَلَمْ يَجِدْ خَيْرًا مِنَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ يَبْعَثُ بِهِ مَدَدًا بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي مِصْرَ ، وَكَانَ الزُّبَيْرُ يَوْمَئِذٍ قَدْ عَزَمَ عَلَىٰ غَزْوِ أَنْطَاكِيَةَ[4] ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؛ هَلْ لَكَ فِي وِلَايَةِ مِصْرَ ؟

فَقَالَ :

لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، وَلَكِنْ أَخْرُجُ مُجَاهِدًا لِلَّهِ ؛ مُعَاوِنًا لِلْمُسْلِمِينَ ...

فَإِنْ وَجَدْتُ عَمْرًا قَدْ فَتَحَهَا ؛ لَمْ أَعْرِضْ لِعَمَلِهِ ، وَقَصَدْتُ إِلَىٰ بَعْضِ سَوَاحِلِ فَرَابَطْتُ[5] فِيهِ ، وَإِنْ وَجَدْتُهُ فِي جِهَادٍ كُنْتُ مَعَهُ .

* * *

فَجَهَّزَ الْفَارُوقُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ ، وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ[6]، وَعُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ[7]، وَمَسْلَمَةَ بْنَ مُخَلَّدٍ ...

(١) عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) أَوْغَلَ : دخل بعيدًا

(٣) الكِنَانة الجعبة التي توضع فيها السهام ، وأرض الكنانة أي مصر .

(٤) انظر تحرير أَنْطَاكِيَة في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٥) المرابطة الملازمة لثغور الأعداء.

(٦) الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَد انظره ص ٤٠٩. (٧) عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِت : انظره ص ٢٥٩.

وَكَتَبَ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ

إِنِّي أَمْدَدْتُكَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ رَجُلٍ ؛ عَلَىٰ كُلِّ أَلْفٍ مِنْهُمْ رَجُلٌ فِي مَقَامِ أَلْفٍ .

* * *

وَلَمَّا قَدِمَ الزُّبَيْرُ عَلَىٰ عَمْرٍو ؛ وَجَدَهُ يُحَاصِرُ حِصْنَ بَابِلْيُونَ(١) فِي الْفُسْطَاطِ ...

فَرَكِبَ جَوَادَهُ وَطَافَ حَوْلَ أَسْوَارِ الْحِصْنِ ، ثُمَّ حَدَّدَ لِرِجَالِهِ أَمَاكِنَهُمْ ...

وَطَالَ حِصَارُ حِصْنِ بَابِلْيُونَ ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ

إِنَّ فِي الْحِصْنِ طَاعُونًا

فَقَالَ الزُّبَيْرُ :

إِنَّمَا جِئْنَا لِلطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ .

وَلَمَّا أَبْطَأَ الْفَتْحُ وَكَادَ الْمَلَلُ وَالسَّآمَةُ يَنَالَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ قَالَ الزُّبَيْرُ :

إِنِّي أَهَبُ نَفْسِي لِلَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بِهَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

أَعَدَّ الزُّبَيْرُ سُلَّمًا وَثِيقًا مَتِينًا ، وَأَسْنَدَهُ إِلَىٰ جِدَارٍ مِنْ جُدْرَانِ الْحِصْنِ ، وَأَمَرَ رِجَالَهُ إِذَا سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ أَنْ يُجِيبُوهُ جَمِيعًا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ وَأَنْ يَلْحَقُوا بِهِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّىٰ امْتَشَقَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ سَيْفَهُ ، وَصَعِدَ دَرَجَاتِ السُّلَّمِ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وَتَسَوَّرَ جِدَارَ الْحِصْنِ وَهَتَفَ :

---

(١) حِصْنَ بَابِلْيُون : انظر خبره في كتاب «الطريق إلىٰ الأندلس» لمحات وقطوف للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

اللَّهُ أَكْبَرُ ...

اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَانْطَلَقَتْ وَرَاءَهُ آلَافُ الْحَنَاجِرِ تُرَدِّدُ اللَّهُ أَكْبَرُ ؛ اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَزَلْزَلَ دَوِيُّهَا قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ .

وَأَلْقَىٰ الزُّبَيْرُ بِنَفْسِهِ إِلَىٰ دَاخِلِ الْحِصْنِ .

وَتَتَابَعَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ إِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَرَاءَهُ .

وَأَعْمَلُوا سُيُوفَهُمْ فِي رِقَابِ الرُّومِ الَّذِينَ أَذْهَلَتْهُمُ(١) الْمُفَاجَأَةُ .

وَعَمَدَ(٢) الزُّبَيْرُ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ بَابِ الْحِصْنِ ؛ فَفَتَحُوهُ .

فَاقْتَحَمَتْهُ(٣) جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ ...

وَانْقَضُّوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمُ انْقِضَاضَ الصَّاعِقَةِ .

فَهَزَمُوهُ شَرَّ هَزِيمَةٍ .

وَكَتَبَ اللَّهُ النَّصْرَ لِجُنْدِهِ ...

وَقِيلَ سُحْقًا(٤) لِلظَّالِمِينَ (*) .

---

(١) أَذْهَلَتْهُم المفاجأة : أطارت عقولهم .

(٢) عَمَد : قَصَدَ .

(٣) فَاقْتَحَمَتْه : دخلته .

(٤) سُحقًا : بُعْدًا .

(*) للاستزادة من أخبار الزبير بن العوام انظر

الإصابة : ١/٥٤٥ « الترجمة » ٢٧٨٩.

الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/ ٥٨٠.

سيرة ابن هشام : ١/٣٣٨ وانظر الفهارس.

سيرة أعلام النبلاء : ١/ ٤١.

أسد الغابة : ٢/ ٢٤٩.

صفة الصفوة : ١/ ٣٤٢.

٧ - حلية الأولياء : ١/ ٨٩.

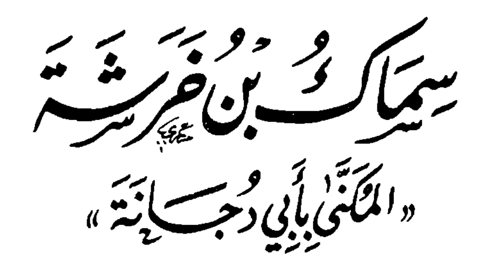
٨ - دائرة المعارف الإسلامية : ٣٣٩/٨٠.

٩ - الأعلام : ٣/ ٧٤.

١٠ - الطبقات الكبرىٰ : ٣/ ١٠٠

١١ - الأوائل : ٤٦.

١٢ - البداية والنهاية : ٧/ ٢٤٩.



« أعْطَاهُ الرَّسُولُ ﷺ سَيْفَهُ ...
وآثَرَهُ بِهِ عَلَىٰ شُيُوخِ الْمُهَاجِرِينَ وَفُرْسَانِ الأَنْصَارِ »

هَٰذِهِ مَدِينَةُ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ يَمُوجُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ؛ تَأَهُّبًا[1] لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ .

وَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ ؛ يَرُوحُونَ وَيَغْدُونَ فِي دُرُوعِ الْحَدِيدِ كَأُسْدِ الشَّرَىٰ[2] ...

وَهُمْ يَتَوَهَّجُونَ[3] شَوْقًا إِلَىٰ نَيْلِ الشَّهَادَةِ ، وَالظَّفَرِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ .

وَهَٰذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ إِلَىٰ النَّاسِ لَابِسًا لأْمَتَهُ[4]؛ مستعدًا لِلِقَاءِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ .

فَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ عُيُونُ الْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّىٰ اشْتَعَلَتْ صُدُورُهُمْ بِنِيرَانِ الْحَمِيَّةِ[5]

واتَّقَدَتْ أَفْئِدَتُهُمْ بِالْعَزِيمَةِ وَالْبَأْسِ ...

وَهَا هُمْ أُولَاءِ الْفِتْيَةُ الْيَافِعُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ؛ يُقْبِلُونَ عَلَىٰ

---

(١) تَأَهُّبًا : استعدادًا .
(٢) أُسْدِ الشَّرَىٰ : أسد الغاب .
(٣) وهم يَتَوَهَّجُون أي تشرق وجوههم وتتلألأ فرحًا وشوقًا .
(٤) لأمته : درعه .
(٥) الحمية : الأنفة والإباء .

الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ جَاوَزَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ...

وَهُمْ يَشُدُّونَ قَامَاتِهِمُ الْقَصِيرَةَ، وَيَنْفُخُونَ صُدُورَهُمُ الْغَضَّةَ ...

لِيَظْهَرُوا بِمَظَاهِرِ الرِّجَالِ أَمَامَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أَمَلًا فِي أَنْ يُجِيزَهُمْ(١)، وَيُتِيحَ لَهُمْ(٢) فُرْصَةَ الْقِتَالِ تَحْتَ رَايَتِهِ ...

وَالِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَرِيبًا مِنْهُ.

* * *

وَمَا إِنِ اكْتَمَلَتِ الْجُمُوعُ؛ حَتَّىٰ رَفَعَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ سَيْفَهُ بِيَدِهِ، وَقَالَ:

(مَنْ يَأْخُذُ سَيْفِي هَٰذَا؟).

فَامْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ؛ كُلُّهَا تُرِيدُ أَنْ تَظْفَرَ بِسَيْفِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَتَحْظَىٰ بِهِ ...

فَرَدَّهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَقَالَ:

(مَنْ يَأْخُذُ سَيْفِي هَٰذَا بِحَقِّهِ؟!).

فَقَامَ إِلَيْهِ رِجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ(٣)، وَغَيْرُهُمَا فَأَمْسَكَهُ؛ حَتَّىٰ قَامَ إِلَيْهِ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَخُو بَنِي سَاعِدٍ؛ الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي دُجَانَةَ وَقَالَ: وَمَا حَقُّ سَيْفِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فَقَالَ ﷺ (تُقَاتِلُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ أَوْ تُقْتَلَ).

فَقَالَ: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ.

* * *

(١) يُجِيزَهُم: يسمح لهم.   (٢) يتيح لهم: ييسر لهم.   (٣) انظره: ص ١٦٥

عِنْدَ ذَلِكَ اشْرَأَبَّتِ[1] الْأَعْنَاقُ إِلَىٰ أَبِي دُجَانَةَ ؛ الَّذِي مَنَحَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ سَيْفَهُ .

وَآثَرَهُ بِهِ عَلَىٰ شُيُوخِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَفُرْسَانِ الْأَنْصَارِ .

* * *

لَمْ يَكُنْ أَبُو دُجَانَةَ مَجْهُولَ الْمَكَانِ فِي الْحَرْبِ عِنْدَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، أَوْ مَغْمُورَ الْمَقَامِ ...

فَهُمْ جَمِيعًا يُقِرُّونَ لَهُ بِأَنَّهُ كَمِيٌّ شُجَاعٌ ؛ لَا يَهَابُ الْمَوْتَ ...

وَهُمْ جَمِيعًا يَعْرِفُونَ عِصَابَتَهُ[2] الْحَمْرَاءَ الَّتِي يَعْصِبُ بِهَا رَأْسَهُ ؛ إِذَا حَمِيَ الْوَطِيسُ ، وَالْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ ...

وَيُطْلِقُونَ عَلَيْهَا « عِصَابَةَ الْمَوْتِ »

وَهُمْ جَمِيعًا يَعْجَبُونَ مِنْ مِشْيَتِهِ الَّتِي يَخْتَالُ[3] بِهَا بَيْنَ الصُّفُوفِ ؛ لِمُبَارَزَةِ الْأَقْرَانِ[4]

وَمَعَ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ نَفِسَ[5] عَلَيْهِ بَعْضُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ هَٰذِهِ الْمَزِيَّةَ الَّتِي خَصَّهُ بِهَا الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ ؛ لِيُحَدِّثَنَا عَنْ خَبَرِ أَبِي دُجَانَةَ هَٰذَا ، وَوَقْعِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ .

* * *

---

(١) اشْرَأَبَّت الأعناق تطاولت الرقاب وامتدت .
(٢) العِصَابَة : العِمَامة ، وكل ما يُعصب به الرأس .
(٣) يَخْتَال : يعتز ويتباهىٰ .
(٤) الأقران : جمع قِرْن بكسر القاف ، وقرن الرجل البطل المماثل له .
(٥) نَفِس عليه حسده .

قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ

لَقَدْ وَجَدْتُ[١] فِي نَفْسِي ؛ حِينَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْطِيَنِي سَيْفَهُ ؛ فَمَنَعَنِي إِيَّاهُ ، وَأَعْطَاهُ أَبَا دُجَانَةَ وَقُلْتُ :

أَنَا ابْنُ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[٢]؛ عَمَّةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَإِنِّي أَقَعُ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ قُرَيْشٍ حَسَبًا[٣] وَمَجْدًا

وَلَقَدْ قُمْتُ إِلَيْهِ وَسَأَلْتُهُ أَنْ يُعْطِيَنِي السَّيْفَ قَبْلَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنِّي ، وَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ !!

وَاللَّهِ لَأَنْظُرَنَّ مَا يَصْنَعُ بِهِ ...

ثُمَّ مَضَىٰ ؛ فَتَبِعْتُهُ ، وَمَضَيْتُ فِي إِثْرِهِ[٤] فَلَمَّا غَدَا قُبَالَةَ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ ؛ أَخْرَجَ عِصَابَتَهُ الْحَمْرَاءَ وَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ ؛ فَلَمَّا رَآهُ الْأَنْصَارُ ؛ الْتَفَتَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَقَالُوا :

شَدَّ أَبُو دُجَانَةَ عِصَابَةَ الْمَوْتِ عَلَىٰ رَأْسِهِ .

وَهَكَذَا كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ ؛ إِذَا تَعَصَّبَ بِهَا

ثُمَّ امْتَشَقَ[٥] سَيْفَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِيَمِينِهِ ، وَطَفِقَ يَمْشِي بِهِ مُخْتَالًا مُتَبَخْتِرًا[٦] بَيْنَ الصُّفُوفِ ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَالَ

---

(١) وَجَدْت في نفسي غضبتُ .

(٢) صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِب : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٣) في الذروة من قريش حَسَبًا ومجدًا : في المقام الرفيع في قومه

(٤) مضيت في إِثْره تبعته .

(٥) امْتَشَق السيف : استلَّه وأشهره.

(٦) التبختر السير في كبر وعجب .

(هَـٰذِهِ مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ إِلَّا فِي هَـٰذَا الْمَوْطِنِ) [أَيْ مَوْطِنِ لِقَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ] .

ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو دُجَانَةَ وَهْوَ يُنْشِدُ نَشِيدًا يَهُزُّ الْقُلُوبَ هَزًّا ، وَيُفْعِمُ الصُّدُورَ حَمِيَّةً وَشَهَامَةً .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ يَصُولُ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ وَيَجُولُ ؛ فَمَا لَقِيَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ .

* * *

وَكَانَ فِي عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ رَجُلٌ دَأَبَ عَلَىٰ تَتَبُّعِ جَرْحَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْإِجْهَازِ[1] عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ .

فَرَأَيْتُ أَبَا دُجَانَةَ يَتَّجِهُ نَحْوَهُ ...

وَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَدْنُو مِنْ أَبِي دُجَانَةَ ...

فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا ، وَأَنْ يَجْعَلَ مَصْرَعَ هَـٰذَا الْكَافِرِ عَلَىٰ يَدَيْ أَبِي دُجَانَةَ .

فَمَا لَبِثَا أَنِ الْتَقَيَا ، وَتَبَادَلَا ضَرْبَتَيْنِ بِسَيْفَيْهِمَا فِي أَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ ... فَتَلَقَّىٰ أَبُو دُجَانَةَ ضَرْبَةَ خَصْمِهِ بِتُرْسِهِ ؛ فَقَدَّتِ التُّرْسَ قَدًّا[2] ...

أَمَّا ضَرْبَةُ أَبِي دُجَانَةَ فَقَدْ أَصَابَتْ مِنَ الْمُشْرِكِ مَقْتَلًا ؛ فَخَلَّفَهُ وَرَاءَهُ يَسْبَحُ فِي دِمَائِهِ ...

وَمَضَىٰ يَقْتَحِمُ الصُّفُوفَ ذَائِدًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَيْفِهِ ؛ مُتَصَدِّيًا لِأَعْدَائِهِ

(١) الْإِجْهَاز عليهم : القضاء عليهم وإهلاكهم .
(٢) فقدت الترس قدًّا : شقّته شقًّا

فَكُنْتُ أَرَاهُ تَارَةً عَنْ يَمِينِهِ ، وَتَارَةً عَنْ شِمَالِهِ ، وَتَارَةً قُدَّامَهُ أَوْ خَلْفَهُ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ أَبَا دُجَانَةَ رَأَىٰ شَخْصًا يَجُولُ بَيْنَ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ ، وَهْوَ يُثِيرُ حَمَاسَتَهُمْ ، وَيُؤَلِّبُهُمْ[1] عَلَىٰ قَتْلِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَأَهْوَىٰ عَلَىٰ رَأْسِهِ بِسَيْفِهِ .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ حَرَفَ السَّيْفَ عَنْهُ ...

فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ وَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ

لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهَا وَاحِدَةٌ مِنَ النِّسْوَةِ اللَّوَاتِي جَاءَ بِهِنَّ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ مَعَهُ إِلَىٰ الْمَعْرَكَةِ ...

فَأَكْرَمْتُ سَيْفَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ أَنْ أَقْتُلَ بِهِ امْرَأَةً .

عِنْدَ ذَلِكَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ وَضَعَ سَيْفَهُ فِي مَوْضِعِهِ ...

وَقُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

* * *

ظَلَّ أَبُو دُجَانَةَ يُنَافِحُ[2] عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِسَيْفِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا دَامَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَىٰ قَيْدِ الْحَيَاةِ .

فَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ؛ وَضَعَ أَبُو دُجَانَةَ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ فِي طَاعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَلَمَّا ارْتَدَّ بَنُو حَنِيفَةَ مَعَ الْمُرْتَدِّينَ .

(١) يؤلبهم : يجمعهم ويحثّهم .

(٢) يُنَافِح : يدافع .

وَطَفِقُوا يَخْرُجُونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا

وَتَبِعُوا الْمُتَنَبِّئَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ ؛ جَهَّزَ لَهُمُ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ جَيْشًا كَبِيرًا ... حَشَدَ فِيهِ وُجُوهَ الصَّحَابَةِ[1] مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَكَانَ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ أَبُو دُجَانَةَ صَاحِبُ سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ عَقَدَ لِوَاءَ الْجَيْشِ لِسَيْفِ اللَّهِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ .

* * *

انْصَبَّ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ انْصِبَابَ الْهَوْلِ ...

وَصَمَدَ لَهُمْ مُسَيْلِمَةُ وَمَنْ مَعَهُ صُمُودَ الْجِبَالِ ...

وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَىٰ مَعَارِكَ تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا الْوِلْدَانُ ...

وَكَثُرَ الْقَتْلُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ؛ فَمَا زَادَتْهُمَا كَثْرَةُ الْقَتْلَىٰ إِلَّا حَمِيَّةً وَحِدَّةً وَضَرَاوَةً ...

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ كِفَّةِ عَدُوِّهِمْ بَعْدَ طُولِ[2] بَلَاءٍ ، وَشِدَّةِ عَنَاءٍ ...

فَانْحَازَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ وَالْآلَافُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ جُنْدِهِ ؛ إِلَىٰ الْحَدِيقَةِ الَّتِي عُرِفَتْ ـ بَعْدَ ذَلِكَ ـ بِاسْمِ : حَدِيقَةِ الْمَوْتِ .

فَتَحَصَّنُوا وَرَاءَ جُدْرَانِهَا الْمُمَنَّعَةِ[3]...

وَتَتَرَّسُوا[4] خَلْفَ أَبْوَابِهَا الْمُوصَدَةِ[5]

---

(1) وجوه الصحابة : سادة الصحابة .
(2) بعد طولِ بَلَاء : بعد امتحان وشدة .
(3) المُمَنَّعة : المنيعة الحصينة .
(4) وتترسوا بها : جعلوها ترسًا لهم ووقاية من رماح المسلمين وسهامهم .
(5) المُوصَدَة : المحكمة الإغلاق

وَلَمَّا أَعْيَتِ الْمُسْلِمِينَ الْحِيَلُ ؛ قَامَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ[1] بِأَجْرَإِ عَمَلٍ بُطُولِيٍّ عَرَفَهُ تَارِيخُ الْفِدَاءِ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ ...

حَيْثُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْتَحَ أَبْوَابَ الْحَدِيقَةِ فِي وَجْهِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَهَبَّ صَحَابَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَتَدَفَّقُونَ عَلَىٰ « حَدِيقَةِ الْمَوْتِ » تَدَفُّقَ السَّيْلِ ...

وَيَنْصَبُّونَ عَلَىٰ مَنْ فِيهَا انْصِبَابَ الْمَنُونِ ...

فَبَعْضُهُمْ ؛ دَخَلَ الْحَدِيقَةَ مِنْ أَبْوَابِهَا

وَبَعْضُهُمُ الْآخَرُ ؛ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقِ جُدْرَانِهَا .

وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ .

* * *

أَلْقَىٰ أَبُو دُجَانَةَ بِنَفْسِهِ عَلَىٰ الْحَدِيقَةِ مِنْ فَوْقِ أَحَدِ جُدْرَانِهَا الْعَالِيَةِ ...

فَلَمَّا سَقَطَ عَلَىٰ أَرْضِهَا ؛ كُسِرَتْ سَاقُهُ ؛ فَلَمْ يُبَالِ بِهَا وَلَمْ يَأْبَهْ لَهَا[2]

وَإِنَّمَا انْتَضَىٰ[3] سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ يَشُقُّ بِهِ الصُّفُوفَ ؛ مُعْتَمِدًا عَلَىٰ رِجْلِهِ الصَّحِيحَةِ حَتَّىٰ بَلَغَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ .

فَأَهْوَىٰ عَلَيْهِ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ ...

وَذَلِكَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي سَدَّدَ إِلَيْهِ فِيهَا وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ[4] طَعْنَةً مِنْ حَرْبَتِهِ

(١) البراء بن مالك : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) لم يأبه لها : لم يهتم بها .
(٣) انتضى السيف : استلَّهُ من غمده .
(٤) وَحْشِيُّ بْنُ حَرْب : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصّحابة » للمؤلف .

فَخَرَّ الْمُتَنَبِّئُ الْكَذَّابُ بَيْنَهُمَا صَرِيعًا يَخُوضُ فِي دِمَائِهِ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ كَرَّ أَصْحَابُ مُسَيْلِمَةَ عَلَىٰ الْفَارِسِ الَّذِي يُحَارِبُ بِرِجْلٍ وَاحِدَةٍ ؛ يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ ...

فَمَا زَالَ يُجَالِدُهُمْ وَيُجَالِدُونَهُ ؛ حَتَّىٰ كَلَّتْ قَدَمُهُ ...

وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ ضَرَبَاتُ السُّيُوفِ وَطَعَنَاتُ الرِّمَاحِ ...

فَخَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا

* * *

لَكِنَّ أَبَا دُجَانَةَ لَمْ يُغْمِضْ عَيْنَيْهِ غَمْضَتَهَا الأَخِيرَةَ ... إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَأَىٰ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ ؛ يَرْفَعُونَ عَلَىٰ أَرْضِ الْيَمَامَةِ رَايَاتِ الإِسْلَامِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار سِمَاكِ بْنِ خَرَشَة انظر :
١ - نهاية الأرب : ١٧/ ٨٨.
٢ - البداية والنهاية : ٤/ ١٥، ٦/ ٣٣٧.
٣ - المستدرك ٣/ ٢٥٥، ٢٥٦.
كنز العمال : ١٣/ ٣٦٠.
٥ - المعارف لابن قتيبة : ٢٧١.
٦ - العبر : ١/ ١٤.
- المغازي للواقدي : ٦٠ وانظر الفهارس .
- حياة الصحابة : انظر الفهارس .
الطبري : ٣/ ١٣٩٧
١٠- السيرة الحلبية : ٢/ ٤٩٧، ٥٠١.
١- سير أعلام النبلاء : ١/ ٢٤٣.
١٢- المحبر : ٧٢.
١٣- الإصابة ٤/ ٥٨ «الترجمة» ١٧٣.
١٤- الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤/ ٥٨.
١٥- أسد الغابة ٢/ ٤٥١.
الطبقات الكبرىٰ : ٣/ ٥٥٦ وانظر الفهارس .

خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ

« اللَّـهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا سَلَفَ مِنْهُ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ »

[مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ]

سِيرَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ مَلْحَمَةٌ مَجِيدَةُ الْفُصُولِ

تَبْتَدِئُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالْبُطُولَةِ ...

وَتَنْتَهِي بِالْإِيمَانِ وَالرُّجُولَةِ .

كَانَ خَالِدٌ مِنْ مَخْزُومٍ ...

وَكَانَتْ مَخْزُومٌ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ قُرَيْشٍ .

وَكَانَتْ نَشْأَتُهُ فِي أَعْرَقِ بُيُوتِهَا نَسَبًا وَأَشْرَفِهَا حَسَبًا

وَأَكْثَرِهَا مَالًا وَنَشَبًا[1]

كَانَ عَمُّهُ هِشَامٌ قَائِدَ بَنِي مَخْزُومٍ يَوْمَ حَرْبِ الْفِجَارِ[2]

وَبِوَفَاتِهِ أَرَّخَتِ الْعَرَبُ كَمَا تُؤَرِّخُ بِالْأَحْدَاثِ الْعِظَامِ ...

وَلَمْ تُقِمْ قُرَيْشٌ سُوقًا بِمَكَّةَ ثَلَاثًا لِحُزْنِهَا عَلَيْهِ .

وَكَانَ عَمُّهُ الْفَاكِهُ بْنُ الْمُغِيرَةِ مِنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ فِي زَمَانِهِ ، وَكَانَ لَهُ بَيْتٌ لِلضِّيَافَةِ يَأْوِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ .

أَمَّا أَبُوهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ ؛ فَقَدْ كَانَ أَغْنَىٰ أَبْنَاءِ زَمَانِهِ ...

---

(١) نَشَبًا : مالًا أصيلًا وَعقَارًا .

(٢) حَرْب الْفِجَار : حرب كانت بين قيس وقريش قبل الإسلام، وقد سُمِّيَتْ فِجَارًا لأنها كانت في الأشهر الحرم .

يَمْلِكُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْبَسَاتِينِ وَالْكُرُومِ وَالتِّجَارَةِ، وَالْخَدَمِ وَالْجَوَارِي وَالرَّقِيقِ؛ مَا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ سِوَاهُ

فَقَدْ كَانَ أَبُوهُ يَكْسُو الْكَعْبَةَ وَحْدَهُ سَنَةً وَتَكْسُوهَا قُرَيْشٌ كُلُّهَا سَنَةً أُخْرَىٰ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ دُعِيَ بِالْوَحِيدِ(١)

وَلُقِّبَ بِرَيْحَانَةِ قُرَيْشٍ.

وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا** ﴾(٢)

وَقَدْ كَانَ أَبُوهُ لِفَرْطِ جُودِهِ؛ يَأْنَفُ أَنْ تُوقَدَ نَارٌ غَيْرُ نَارِهِ فِي مِنًى لِإِطْعَامِ الْحَجِيجِ.

وَكَانَ يَزْعُمُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالنُّبُوَّةِ وَبِنُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ ... وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾(٣).

فِي هَٰذَا الْبَيْتِ السَّرِيِّ الْغَنِيِّ الْوَجِيهِ؛ وُلِدَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

* * *

كَانَ خَالِدٌ طَوِيلًا بَائِنَ(٤) الطُّولِ ...

مَدِيدَ الْقَامَةِ؛ عَظِيمَ الْهَامَةِ ...

مَهِيبَ الطَّلْعَةِ ...

---

(١) وَمِنْ أَلْقَابِهِ أَيْضًا الْعَدْلُ.
(٢) سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ الآيات ١١ ١٤
(٣) سُورَةُ الزُّخْرُفِ الآية ٣١.
(٤) بَائِنَ الطُّول: شَدِيد الطُّول.

يَمِيلُ إِلَىٰ الْبَيَاضِ .

وَكَانَ شَدِيدَ الشَّبَهِ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ حَتَّىٰ كَانَ ضِعَافُ الْبَصَرِ كَثِيرًا مَا يَخْلِطُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ .

* * *

وَلَمَّا أَظْهَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ دَعْوَتَهُ ؛ كَانَ خَالِدٌ فَتًى نَاشِئًا

فَنَفَرَ مِنْهَا لِأَنَّهُ رَأَىٰ فِيهَا زَعَامَةً جَدِيدَةً ؛ تُنَاهِضُ زَعَامَةَ أُسْرَتِهِ ...

وَسِيَادَةً مُحْدَثَةً ؛ تَقِفُ فِي وَجْهِ سِيَادَةِ أَبِيهِ ...

فَتَصَدَّىٰ لَهَا هُوَ وَأَخُوهُ عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ .

* * *

أَمَّا عُمَارَةُ ؛ فَقَدْ خَاضَ بَدْرًا مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَوَقَعَ فِي أَسْرِ الْمُسْلِمِينَ .

وَقَدْ طَالَ الْكَلَامُ فِي أَمْرِ فِدَائِهِ لِفَرْطِ غِنَاهُ ، وَشِدَّةِ عَدَاوَةِ أَهْلِهِ لِلْإِسْلَامِ ...

فَطَلَبَ آسِرُهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ .

وَأَوْصَىٰ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَلَّا يَقْبَلُوا لَهُ فِدْيَةً ؛ غَيْرَ دِرْعِ أَبِيهِ نَغْضَفَاضَةَ[١] ، وَسَيْفِهِ وَبَيْضَتِهِ[٢]

وَطَالَتِ الْمُسَاوَمَةُ ؛ وَالرَّجُلُ بَاقٍ عَلَىٰ دِينِهِ فِي أَسْرِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَلَمَّا تَمَّ فِدَاؤُهُ وَذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ... أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْهُمْ وَهُمْ كَارِهُونَ .

وَعَجِبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ فِعْلِهِ ، وَسَأَلُوهُ :

---

(١) الْفَضْفَاضَة : الدِّرع الواسعة .

(٢) البَيْضة : الخوذة المصنوعة من الحديد .

هَلَّا أَسْلَمْتَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَدَىٰ ؟!

فَقَالَ : كَرِهْتُ أَنْ يُقَالَ إِنِّي جَزِعْتُ(١) مِنَ الْإِسَارِ .

وَأَمَّا خَالِدٌ ؛ فَظَلَّ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي أُحُدٍ ؛ عَقَدَتْ قُرَيْشٌ لَهُ لِوَاءَ الْمَيْمَنَةِ .

فَتَوَلَّىٰ بِنَفْسِهِ الْهَجْمَةَ الَّتِي رَجَّحَتْ كِفَّةَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ .

فَقَدْ كَرَّ بِالْخَيْلِ عَلَىٰ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَاخْتَلَّتْ صُفُوفُهُمْ وَاخْتَلَطَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ... حَتَّىٰ مَا عَادُوا يَفْرِقُونَ بَيْنَ شِيعَتِهِمْ(٢) وَعَدُوِّهِمْ ...

فَاسْتَطَارَ أَبُو سُفْيَانَ(٣) فَرَحًا ... وَقَالَ

هَٰذَا يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ .

* * *

وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ ؛ اقْتَسَمَ الْمُشْرِكُونَ كَتَائِبَهُمْ ، وَخَصُّوا كُلَّ كَتِيبَةٍ بِجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَدْهَمُهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ .

وَكَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ هُوَ الْمُوَكَّلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَكَادَ يَظْفَرُ خَالِدٌ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ لَوْلَا يَقَظَةُ حَرَسِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَائِدِهِمْ أُسَيْدِ بْنِ الْحُضَيْرِ(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

* * *

وَفِي سَنَةِ الْحُدَيْبِيَةِ ؛ خَرَجَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ مَكَّةَ مُعْتَمِرًا فِي

---

(١) جَزِعْت　خفت .

(٢) شِيعَتِهِم : أنصارهم .

(٣) أبو سفيان بن حرب : اسمه صخر وهو والد معاوية ؛ أسلم عام الفتح وشهد حنينًا .

(٤) أُسَيْد بْن الْحُضَيْر : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

نَحْوِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لَا يَحْمِلُونَ سِلَاحًا غَيْرَ السُّيُوفِ فِي أَغْمَادِهَا

فَأَوْجَسَ[1] الْمُشْرِكُونَ خِيفَةً مِنْ ذَلِكَ ، وَنَدَبُوا خَالِدًا لِلِقَاءِ الرَّسُولِ ﷺ فِي مِائَتَيْ فَارِسٍ ، واسْتِطْلَاعِ أَمْرِهِ ...

فَدَنَا خَالِدٌ حَتَّىٰ نَظَرَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ ...

ثُمَّ حَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ ؛ فَصَلَّىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْخَوْفِ[2]، وَهَمَّ خَالِدٌ أَنْ يُغِيرَ عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

فَصَدَّتْهُ سَكِينَةُ الْمُسْلِمِينَ ...

وَرَهْبَةُ الصَّلَاةِ ...

وَنَخْوَةُ الْفَارِسِ الَّتِي تَأْبَىٰ الْغَدْرَ .

وَسَرَىٰ فِي رُوعِهِ أَنَّ لِمُحَمَّدٍ سِرًّا ، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَمْنُوعٌ .

وَكَانَتْ هَٰذِهِ أَوَّلَ عَاطِفَةٍ عَطَفَتْهُ نَحْوَ الْإِسْلَامِ .

ثُمَّ جَاءَتْهُ رِسَالَةٌ مِنْ أَخِيهِ الْوَلِيدِ[3] الَّذِي أَسْلَمَ بَعْدَ بَدْرٍ ؛ يَحْمِلُ لَهُ فِيهَا كَلَامًا مِنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ ...

فَكَانَتْ سَبَبًا فِي أَنْ يُخْرِجَهُ اللَّهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ .

* * *

وَلْنَتْرُكْ لِخَالِدٍ نَفْسِهِ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْنَا قِصَّةَ إِسْلَامِهِ ؛ قَالَ :

---

(1) أَوْجَسوا خِيفَةً : شعروا بالخوف .

(2) صَلَاةُ الْخَوْف : هي صلاة مشروعة وقت الخوف كالحرب ، ولها صفة مخصوصة ؛ ومن ذلك أن تصلي طائفة من المسلمين ، وتحرسهم فئة أخرىٰ .

(3) الوليد بن الوليد : حضر مع المشركين بدرًا وأسره المسلمون ، الإصابة ٣/٦٠٣

لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ ؛ قَذَفَ فِي قَلْبِي حُبَّ الْإِسْلَامِ ، وَحَضَرَنِي رُشْدِي وَقُلْتُ

شَهِدْتُ هَـٰذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ، وَكُنْتُ كُلَّمَا انْصَرَفْتُ مِنْ مَوْطِنٍ أَجِدُنِي عَلَىٰ غَيْرِ شَيْءٍ ...

وَأَجِدُ أَنَّ مُحَمَّدًا سَيَظْهَرُ .

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ :

وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ كَتَبَ إِلَيَّ أَخِي كِتَابًا ؛ فَإِذَا فِيهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ...

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ ...

وَعَقْلُكَ عَقْلُكَ ...

وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ .

وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْكَ ؛ فَقَالَ : (أَيْنَ خَالِدٌ ؟) .

فَقُلْتُ يَأْتِي اللَّهُ بِهِ .

فَقَالَ : (مَا مِثْلُ خَالِدٍ يَجْهَلُ الْإِسْلَامَ ، وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ[1] مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ ...

وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ) .

فَاسْتَدْرِكْ يَا أَخِي مَا فَاتَكَ مِنْهُ ؛ فَقَدْ فَاتَتْكَ مَوَاطِنُ صَالِحَةٌ .

* * *

ثُمَّ أَتْبَعَ خَالِدٌ يَقُولُ :

---

(١) نِكَايَته قتاله وحربه .

فَلَمَّا جَاءَنِي كِتَابُهُ ؛ نَشَطْتُ لِلْخُرُوجِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ .

وَسَرَّتْنِي مَقَالَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي فِي بِلَادٍ ضَيِّقَةٍ جَدْبَةٍ[1]... فَخَرَجْتُ إِلَىٰ بَلَدٍ أَخْضَرَ وَاسِعٍ ؛ فَقُلْتُ :

إِنَّ هَـٰذِهِ الرُّؤْيَا حَقٌّ .

فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَىٰ الْخُرُوجِ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ :

مَنْ أُصَاحِبُ مَعِي إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ؟

فَلَقِيتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ[2]؛ فَقُلْتُ :

أَمَا تَرَىٰ يَا أَبَا وَهْبٍ مَا نَحْنُ فِيهِ ؛ لَقَدْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَىٰ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ... فَلَوْ قَدِمْنَا عَلَيْهِ ؛ فَاتَّبَعْنَاهُ ... فَإِنَّ شَرَفَ مُحَمَّدٍ شَرَفٌ لَنَا

فَأَبَىٰ عَلَيَّ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ، وَقَالَ :

لَوْ لَمْ يَبْقَ غَيْرِي مِنْ قُرَيْشٍ مَا تَبِعْتُهُ أَبَدًا ؛ فَافْتَرَقْنَا ، وَقُلْتُ :

هَـٰذَا رَجُلٌ مَوْتُورٌ[3] يَطْلُبُ ثَأْرًا ؛ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ فِي بَدْرٍ .

* * *

ثُمَّ تَابَعَ خَالِدٌ قِصَّةَ إِسْلَامِهِ ؛ فَقَالَ :

تَرَكْتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ[4]؛ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا قُلْتُ لِصَفْوَانَ .

---

(1) جَدْبَة : لا مطر فيها ولا نبات .
(2) صفوان بن أمية : أسلم بعد الفتح ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وشهد اليرموك .
(3) المَوْتُور : من قتل له قتيل فلم يأخذ بثأره .
(4) عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْل انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَهُ صَفْوَانُ .

فَقُلْتُ لَهُ اطْوِ[١] مَا ذَكَرْتُ لَكَ ...

وَخَرَجْتُ إِلَىٰ مَنْزِلِي ؛ فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي أَنْ تُعَدَّ لِي إِلَىٰ أَنْ أَلْقَىٰ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ[٢]، وَهْوَ صَدِيقٌ لِي أَذْكُرُ لَهُ مَا أُرِيدُ ...

ثُمَّ تَذَكَّرْتُ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ ؛ فَكَرِهْتُ ذَلِك ثُمَّ قُلْتُ :

وَمَا عَلَيَّ أَن أَلْقَاهُ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي ؟

فَذَكَرْتُ لَهُ مَا صَارَ إِلَيْهِ الأَمْرُ ، وَقُلْتُ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قُلْتُهُ لِصَاحِبَيْهِ ...

فَأَسْرَعَ الإِجَابَةَ ، وَأَدْلَجْنا بِسُحْرَةٍ[٣]

وَفِيمَا نَحْنُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ الْتَقَيْنَا بِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ[٤]؛ فَقَالَ :

مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ .

قُلْنَا وَبِكَ .

فَقَالَ : أَيْنَ سَيْرُكُمْ ؟

قُلْنَا : مَا أَخْرَجَكَ أَنْتَ ؟

قَالَ : بَلْ مَا أَخْرَجَكُمْ أَنْتُمْ ؟

قُلْنَا : الدُّخُولُ فِي الإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ .

قَالَ : وَذَاكَ الَّذِي أَقْدَمَنِي .

---

(١) اطْوِ : انْسَ .

(٢) عثمان بن أبي طلحة : حاجب البيت ؛ شهد الفتح مع الرسول ﷺ ، وأعطاه مفاتيح الكعبة .

(٣) أَدْلَجْنَا بِسُحْرَة : أي سرنا ليلًا في وقت السحور .

(٤) عَمْرِو بْنِ الْعَاص : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّىٰ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ؛ فَلَقِيَنِي أَخِي ؛ فَقَالَ :
أَسْرِعْ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُخْبِرَ بِقُدُومِكَ ؛ فَسُرَّ ...
وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ .

فَأَسْرَعْتُ الْمَشْيَ فَطَلَعْتُ عَلَيْهِ ؛ فَمَا زَالَ يَبْتَسِمُ إِلَيَّ حَتَّىٰ وَقَفْتُ عَلَيْهِ .

فَسَلَّمْتُ بِالنُّبُوَّةِ ... فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ .

فَقُلْتُ : إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ...

فَقَالَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ ...
قَدْ كُنْتُ أَرَىٰ لَكَ عَقْلًا
وَرَجَوْتُ أَلَّا يُسْلِمَكَ إِلَّا لِلْخَيْرِ) .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْإِسْلَامِ بِقَلْبِهِ وَلُبِّهِ .

وَجَعَلَ يَنْدَمُ عَلَىٰ مَا فَرَطَ[1] مِنْ أَيَّامِهِ السَّالِفَةِ ؛ فَقَالَ ذَاتَ مَرَّةٍ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ مُعَانِدًا عَنِ الْحَقِّ ؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لِي .

فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ[2] مَا كَانَ قَبْلَهُ) ...

فَعَادَ خَالِدٌ يُؤَكِّدُ رَجَاءَهُ ...

فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ رَبَّهُ ؛ فَقَالَ (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا سَلَفَ مِنْهُ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ) .

---

(١) فَرَط : وقع .
(٢) يَجُبُّ مَا قَبْلَه : يمحو ما قبله من ذنوب .

فَرَضِيَ خَالِدٌ بِذَلِكَ وَاسْتَرَاحَتْ نَفْسُهُ

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَىٰ فَتْحِ مَكَّةَ ؛ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَهْوَ يَقُودُ كَتِيبَتَهُ الْخَضْرَاءَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ(١) عَلَىٰ الْمُقَدِّمَةِ ...

وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ(٢) عَلَىٰ الْمَيْمَنَةِ ...

وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَىٰ الْمَيْسَرَةِ .

وَبِذَلِكَ عَادَ خَالِدٌ إِلَىٰ مَكَّةَ قَائِدًا ، وَلَمْ يَمْضِ عَلَىٰ إِسْلَامِهِ إِلَّا بِضْعَةُ أَشْهُرٍ .

* * *

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ عَقَدَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِحْدَىٰ رَايَاتِهِ يَوْمَ دُخُولِ مَكَّةَ ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ إِسْلَامِهِ ... يَنْظُرُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ إِلَىٰ مَا سَيَكُونُ لِخَالِدٍ مِنْ شَأْنٍ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَإِعْلَاءِ رَايَاتِ الْقُرْآنِ .

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ، وَآلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

شَهِدَ خَالِدٌ فِي عَهْدِهِ حُرُوبَ الرِّدَّةِ مِنْ أَوَائِلِهَا إِلَىٰ نِهَايَتِهَا ، وَكَانَ لَهُ النَّصِيبُ الْأَوْفَرُ فِي أَهَمِّ وَقَائِعِهَا ، وَأَعْصَبِ أَوْقَاتِهَا ، وَعَلَىٰ رَأْسِهَا وَقْعَةُ الْيَمَامَةِ .

* * *

وَلَمَّا اتَّجَهَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ فَتْحِ فَارِسٍ ؛ كَانَ لِخَالِدٍ فِي هَٰذَا الْمَيْدَانِ مَا لَمْ

(١) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ : انظره ص ١٦٥

يَكُنْ لِرَجُلٍ سِوَاهُ ...

فَقَدْ لَقِيَ الْفُرْسَ وَأَنْصَارَهُمْ فِي خَمْسَ عَشْرَةَ وَقْعَةً ...

لَمْ يُهْزَمْ فِي أَيَّةٍ مِنْهَا ، وَلَمْ يُخْطِئْ ، وَلَمْ يُخْفِقْ ...

وَلَمَّا قَصَدَ الْمُسْلِمُونَ حَرْبَ الرُّومِ ؛ كَانَ لِخَالِدٍ شَرَفُ قِيَادَةِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ ؛ كُبْرَىٰ مَعَارِكِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَقَدْ بَلَغَ خَالِدٌ ذُرْوَةَ عَظَمَتِهِ ؛ يَوْمَ أَتَاهُ كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِعَزْلِهِ عَنِ الْقِيَادَةِ ، وَهُوَ فِي قِمَّةِ انْتِصَارَاتِهِ ...

فَصَدَعَ[1] بِالْأَمْرِ ...

وَأَسْلَمَ الْقِيَادَةَ لِخَلَفِهِ .

وَبِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ ؛ تَحَوَّلَ الْمُنْتَصِرُ الْكَبِيرُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَىٰ جُنْدِيٍّ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ...

بَعْدَ أَنْ كَانَ قَائِدًا لِهَـٰذَا الْجَيْشِ .

رَحِمَ اللَّهُ أَبَا سُلَيْمَانَ ...

فَقَدْ كَانَ طِرَازًا فَرِيدًا بَيْنَ النَّاسِ (*) .

---

(١) صَدَعَ بِالْأَمْرِ : كشف الأمر واستجاب له .

(*) للاستزادة من أخبار خَالِدِ بْنِ الْوَلِيد انظر :

– الإصابة : ٤١٣/١ أو « الترجمة » ٢٢٠١.

٢ – الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/ ٤٠٥.

٣ – أسد الغابة : ٢/ ١٠٩

تهذيب التهذيب : ٣/ ١٢٤.

ابن خياط : ٥١، ٥٦، ٧٢.

– العبر : ١/ ٢٥.

٧ – المعارف : ١١٥.

٨ – سير أعلام النبلاء : ١/ ٣٦٦.

٩ – تاريخ الإسلام ، الذهبي : ٢/ ٤٢.

١٠ – أشهر مشاهير الإسلام : ١/ ١٤٧.

١١ – دائرة المعارف الإسلامية : ٨/ ٢٠٢.

١٢ – الأعلام : ٢/ ٣٤١.

١٣ – السيرة النبوية لابن هشام : ٢٧٢/٤ وانظر الفهارس .

١٤ – الطبقات الكبرى : ٦/ ٦٧.

١٥ – المحبر ١٩٠

١٦ – حياة الصحابة : انظر الفهارس .

١٧ – تاريخ ابن عساكر : ٥/ ٢٩٢.

المُثنّى بن حارثة الشيباني

«قَالَ الصِّدِّيقُ : مَنْ هَـٰذَا الَّذِي تَأْتِي أَخْبَارُ وَقَائِعِهِ قَبْلَ مَعْرِفَةِ نَسَبِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ : هَـٰذَا الْـمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ وَإِنَّهُ لَرَجُلٌ غَيْرُ خَامِلِ الذِّكْرِ وَلَا مَجْهُولِ النَّسَبِ»

[وَلَّادُ الْخَلِيلِ الْعِمَاد]

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ أَسْوَاقِ مَكَّةَ ؛ يَعْرِضُ[1] نَفْسَهُ عَلَىٰ الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا مِنْ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ ، وَكَانَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ...

فَرَأَوْا مَشَايِخَ لَهُمْ أَقْدَارٌ وَعَلَيْهِمْ هَيْئَاتٌ[2]

فَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ :

مِنْ مَنِ الْقَوْمُ ؟

قَالُوا : مِنْ بَنِي شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ .

فَمَالَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَقَالَ :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ؛ لَيْسَ فَوْقَ هَؤُلَاءِ مِنْ عِزٍّ فِي قَوْمِهِمْ .

وَكَانَ فِي الْقَوْمِ الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ ، وَمَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو ، وَهَانِي ابْنُ قُبَيْصَةَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ ، وَقَالَ :

إِنْ كَانَ بَلَغَكُمْ خَبَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَهَا هُوَ ذَا ...

---

(١) يَعْرِضُ نَفْسَه : يُظْهِرُ لَهُمْ دَعْوَتَه ؛ طَالبًا مِنْهم الْعَوْنَ والنَّصْر .

(٢) عَلَيْهِمْ هَيْئَات : أيْ ذوو هيئات حَسَنَة .

وَأَشَارَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ .

فَقَالُوا : نَعَمْ .

ثُمَّ الْتَفَتُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُونَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ ؛ فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ خَلْفَهُ يُظَلِّلُهُ بِثَوْبِهِ .

فَقَالَ لَهُ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو - وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ مَجْلِسًا مِنْهُ - :

إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

(أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنْ تُؤْوُونِي ، وَتَنْصُرُونِي ؛ حَتَّىٰ أُؤَدِّيَ عَنِ اللَّهِ مَا أَمَرَنِي بِهِ) .

فَقَالَ مَفْرُوقٌ : وَإِلَامَ تَدْعُو أَيْضًا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟

فَتَلَا الرَّسُولُ ﷺ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ[1] **نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾**[2].

فَقَالَ مَفْرُوقٌ : وَإِلَامَ تَدْعُو أَيْضًا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟

فَوَاللَّهِ ! مَا هَٰذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَلَوْ كَانَ كَلَامَهُمْ لَعَرَفْنَاهُ .

فَتَلَا الرَّسُولُ ﷺ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

---

(١) الإِمْلَاق : الفقر.

(٢) سورة الأنعام ١٥١.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ[1]؛ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]

فَقَالَ لَهُ : دَعَوْتَ وَاللَّهِ - يَا أَخَا قُرَيْشٍ - إِلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ مَفْرُوقٌ إِلَىٰ الْمُثَنَّىٰ بْنِ حَارِثَةَ ؛ وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي الْكَلَامِ ؛ فَقَالَ : هَـٰذَا الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ ؛ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ حَرْبِنَا

فَقَالَ الْمُثَنَّىٰ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ وَاسْتَحْسَنْتُ كَلَامَكَ ؛ لَكِنَّ أَمْرًا كَهَـٰذَا لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَرْجِعَ فِيهِ إِلَىٰ قَوْمِنَا ...

ثُمَّ إِنَّنَا نَزَلْنَا عَلَىٰ مَاءٍ مُشْرِفٍ عَلَىٰ أَرْضِ فَارِسٍ ، وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْنَا كِسْرَىٰ عَهْدًا أَلَّا نُحْدِثَ[3] حَدَثًا ، وَأَلَّا نُؤْوِيَ مُحْدِثًا[4]

وَلَعَلَّ هَـٰذَا الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ ؛ مِمَّا يَكْرَهُهُ كِسْرَىٰ وَقَوْمُهُ ، وَنَحْنُ لَا قِبَلَ لَنَا بِهِمْ وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِحَرْبِهِمْ .

وَلَـمَّا هَمُّوا بِالِانْصِرَافِ ؛ اِلْتَفَتَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ :

(أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ يَمْنَحَكُمُ اللَّهُ بِلَادَ فَارِسَ ، وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ ...

أَتُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَتُقَدِّسُونَهُ ؟) .

فَقَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ ...

وَهَلْ ذَلِكَ لَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟!

فَقَالَ : (نَعَمْ) .

* * *

---

(١) الْبَغْي : الظلم للناس.
(٢) سورة النحل الآية ٩٠.
(٣) نُحْدِث حَدَثًا : نبتدع أمرًا جديدًا.
(٤) مُحْدِثًا : مُبتَدِعًا.

قَفَلَ[1] الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ رَاجِعًا إِلَىٰ دِيَارِ قَوْمِهِ، وَصُورَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَا تُفَارِقُ مُخَيِّلَتَهُ، وَرَنِينُ كَلِمَاتِهِ لَا يُبَارِحُ[2] أُذُنَيْهِ ...

وَظَلَّ يَتَتَبَّعُ أَخْبَارَهُ، وَيَتَذَكَّرُ قَوْلَتَهُ: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ يَمْنَحَكُمُ اللَّهُ بِلَادَ فَارِسَ وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ). ثُمَّ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ:

مَا الَّذِي جَعَلَنِي أَقْبِضُ يَدِي عَنْ بَيْعَةِ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَيْقَنْتُ بِصِدْقِهِ وَصِحَّةِ دَعْوَتِهِ ؟!

* * *

وَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ؛ أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُثَنَّىٰ بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ بِأَنْ يَتَشَرَّفَ بِالِانْضِمَامِ إِلَىٰ كَتَائِبِ الْإِيمَانِ ...

فَوَفَدَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي جُمُوعٍ غَفِيرَةٍ[3] مِنْ بَنِي شَيْبَانَ، وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَبَايَعَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

* * *

لَكِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا؛ حَتَّىٰ لَحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ، وَطَفِقَ الْعَرَبُ يَخْرُجُونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ أَفْوَاجًا؛ فَتَصَدَّىٰ لَهُمُ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

وَرَمَاهُمْ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مُسْتَمْسِكًا بِدِينِهِ.

وَكَانَ الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ وَقَوْمُهُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا عَلَىٰ الْمُرْتَدِّينَ، وَأَعْظَمِهِمْ أَثَرًا فِي الْقَضَاءِ عَلَىٰ تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْمُدَمِّرَةِ الْعَمْيَاءِ.

* * *

(١) قفل: رجع من السفر.
(٢) لا يبارح: لا يغادر.
(٣) غفيرة: كثيرة وفيرة.

خَرَجَ الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ مِنْ حُرُوبِ الرِّدَّةِ ظَافِرًا ، وَوَجَدَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ ثَمَانِيَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ لَا يَعْصُونَ لَهُ أَمْرًا ...

وَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ اسْتِيلَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ بِلَادِ الْفُرْسِ مَا تَزَالُ تَرِنُّ فِي أُذُنَيْهِ ؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

لِمَ لَا أَضْرِبُ بِهَٰذَا الْجَيْشِ الْبَاسِلِ الْفُرْسَ ، وَأَسْتَنْقِذُ مِنْ أَيْدِيهِمْ سَوَادَ[1] الْعِرَاقِ ؟!

أَلَمْ يَعِدْنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ؛ بِأَنَّ اللَّهَ سَيُمَلِّكُنَا دِيَارَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ؟!

وَهَلْ تُمَلَّكُ الدِّيَارُ وَتُحْرَزُ الْأَمْوَالُ ؛ إِلَّا بِأَسِنَّةِ الرِّمَاحِ وَشَفَرَاتِ السُّيُوفِ ؟!

فَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَمْضِيَ بِقَوْمِهِ إِلَىٰ سَوَادِ الْعِرَاقِ ؛ دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ الْخَلِيفَةَ بِذَلِكَ ؛ حَتَّىٰ لَا يُحْرِجَهُ ...

فَإِذَا انْتَصَرَ كَانَ نَصْرُهُ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا

وَإِذَا انْكَسَرَ كَانَ انْكِسَارُهُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ .

* * *

هَاجَمَ الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ سَوَادَ الْعِرَاقِ ؛ فَجَعَلَتْ مُدُنُهُ وَقُرَاهُ تَتَسَاقَطُ تَحْتَ سَنَابِكِ[2] خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقَطُ أَوْرَاقُ الشَّجَرِ فِي فَصْلِ الْخَرِيفِ .

وَطَفِقَتْ أَخْبَارُ انْتِصَارَاتِهِ تُشَرِّقُ فِي أَنْحَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَتُغَرِّبُ .

فَقَالَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِمَنْ حَوْلَهُ

(١) سواد العراق : قُرَىٰ الْعِرَاق .

(٢) سنابك خيله : حوافرها .

مَنْ هَٰذَا الَّذِي تَأْتِينَا أَخْبَارُ انْتِصَارَاتِهِ دُونَ أَنْ نَعْلَمَ عَنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ؟!

وَكَانَ الْجَوَابُ عَلَىٰ هَٰذَا التَّسَاؤُلِ ؛ هُوَ الْمُثَنَّىٰ نَفْسَهُ ...

فَلَقَدْ أَسْرَعَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَلَقِيَ الصِّدِّيقَ ، وَأَخْبَرَهُ بِغَارَاتِهِ عَلَى سَوَادِ الْعِرَاقِ

وَعَدَّدَ لَهُ الْمُدُنَ وَالْقُرَىٰ وَالْحُصُونَ ؛ الَّتِي حَرَّرَهَا مِنَ الْفُرْسِ ، وَضَمَّهَا إِلَىٰ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، وَوَصَفَ لَهُ جَمَالَ تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَوَفْرَةَ خَيْرَاتِهَا وَكَثْرَةَ غَلَّاتِهَا

وَأَطْلَعَهُ عَلَىٰ حَالَةِ الْفُرْسِ ، وَاضْطِرَابِ أُمُورِهِمْ وَاخْتِلَالِ مُلْكِهِمْ

وَمَا زَالَ بِهِ ؛ حَتَّىٰ أَغْرَاهُ بِفَتْحِ بِلَادِ فَارِسٍ .

فَنَشِطَ الصِّدِّيقُ لِذَٰلِكَ الْأَمْرِ الْكَبِيرِ وَجَيَّشَ لَهُ الْجُيُوشَ ...

وَجَعَلَ الْمُثَنَّىٰ بْنَ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ أَحَدَ كِبَارِ قَادَتِهِ فِي هَٰذِهِ الْحُرُوبِ .

* * *

خَاضَ الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ مَعَ جُيُوشِ الْفُرْسِ طَائِفَةً مِنَ الْمَعَارِكِ ؛ كَانَ أَعْظَمُهَا مَعْرَكَةَ « بَابِلَ » الشَّهِيرَةَ

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَٰذِهِ الْمَعْرَكَةِ أَنَّ « شَهْرَذَانَ » مَلِكَ الْفُرْسِ ؛ أَرْسَلَ قُبَيْلَ الْمَعْرَكَةِ كِتَابًا إِلَىٰ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُثَنَّىٰ بْنِ حَارِثَةَ يَقُولُ فِيهِ

إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ لِحَرْبِكَ رُعَاةَ الدَّجَاجِ وَالْخَنَازِيرِ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الرَّعَاعِ[1]

وَلَسْتُ أُقَاتِلُكَ إِلَّا بِهِمْ ...

فَمَا أَنْتَ لِمَنْ فَوْقَهُمْ بِأَهْلٍ .

(١) الرَّعَاع : سفلة الناس .

فَرَدَّ عَلَيْهِ الْمُثَنَّىٰ بِرِسَالَةٍ جَاءَ فِيهَا

مِنَ الْمُثَنَّىٰ بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ « شَهْرَذَانَ » ...
مَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّنَا نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي رَدَّ كَيْدَكُمْ إِلَىٰ نَحْرِكُمْ ، وَأَحْوَجَكُمْ إِلَىٰ رُعَاةِ لدَّجَاجِ وَالْخَنَازِيرِ لِلدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِكُمْ ...

وَغَدًا حِينَ يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ ؛ سَيَعْلَمُ الظَّالِمُونَ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

* * *

وَلَمَّا الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ ؛ أَقْبَلَ « هُرْمُزُ » قَائِدُ جَيْشِ الْفُرْسِ عَلَىٰ رَأْسِ الْآلَافِ لْمُؤَلَّفَةِ مِنْ جُنُودِهِ ... يَتَقَدَّمُهُمُ الْفِيلُ الْأَعْظَمُ ؛ الَّذِي كَانُوا يَحْتَفِظُونَ بِهِ كُبْرَيَاتِ الْمَعَارِكِ .

فَطَفِقَ ذَلِكَ الْحَيَوَانُ الرَّهِيبُ الْمُدَرَّبُ ؛ يَضْرِبُ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ بِخُرْطُومِهِ الطَّوِيلِ الْغَلِيظِ ؛ يَمْنَةً وَيَسْرَةً .

فَوَجِلَتْ(١) مِنْهُ قُلُوبُهُمْ ، وَجَفِلَتْ(٢) مِنْ رُؤْيَتِهِ خُيُولُهُمْ ، وَتَصَدَّعَ بِسَبَبِهِ ظَامُهُمْ .

* * *

أَدْرَكَ الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ أَنَّ النَّصْرَ مُحَالٌ عَلَيْهِ ؛ مَا دَامَ هَٰذَا الْحَيَوَانُ الْجَبَّارُ يَفْتِكُ بِجُنُودِهِ ذَلِكَ الْفَتْكَ الذَّرِيعَ ...

فَتَجَرَّدَ لَهُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ رِجَالِهِ الْأَشِدَّاءِ ، وَحَمَلَ عَلَىٰ الْعَسْكَرِ الْمُحِيطِينَ بِهِ حَمْلَةً صَادِقَةً ؛ زَلْزَلَتْ أَقْدَامَهُمْ وَكَشَفَتْهُمْ عَنْهُ ...

ثُمَّ عَاجَلَهُ بِطَعْنَةٍ نَجْلَاءَ(٣) مِنْ رُمْحِهِ ؛ فَأَصَابَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا ، وَأَتْبَعَهَا بِطَعَنَاتٍ أُخْرَيَاتٍ مُمِيتَاتٍ ...

---

(١) وَجِل : الخوف والقلق.
(٢) جَفِلَت : نفرت.
(٣) الطَّعْنَة النَّجْلَاء : الطعنة الواسعة.

فَمَا لَبِثَ أَنْ خَرَّ الْفِيلُ صَرِيعًا عَلَىٰ الْأَرْضِ يَسْبَحُ بِدِمَائِهِ ...

فَعَلَا تَكْبِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَتَهْلِيلُهُمْ ، وَتَدَفَّقُوا عَلَىٰ سَاحَةِ الْقِتَالِ تَدَفُّقَ السَّيْلِ ، وَأَعْمَلُوا رِمَاحَهُمْ وَسُيُوفَهُمْ فِي نُحُورِ الْأَعْدَاءِ ...

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّىٰ وَلَّىٰ رُعَاةُ الدَّجَاجِ وَالْخَنَازِيرِ الْأَدْبَارَ ...

وَلَاذَ قَائِدُهُمُ « هُرْمُزُ » بِالْفِرَارِ .

وَاحْتَلَّ الْمُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ « بَابِلَ »

فَأَحْرَزَ مَا حَوَتْهُ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَسَبَىٰ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ ؛ فَجَعَلَ يُسَبِّحُ اللَّهَ الْعَظِيمَ وَيَقُولُ

صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ...

صَدَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ...

لَقَدْ مَلَكْنَا الْأَرْضَ ، وَأَخَذْنَا الْمَالَ ، وَسَبَيْنَا النِّسَاءَ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار الْمُثَنَّىٰ بن حارِثَة الشَّيْبانيّ انظر

١ - البداية والنهاية : ٣/١٤٣، ٧/١٦، ٢٧، ٣٦، ٤٩، ١١٥.

٢ - دلائل النبوة : ٢٣٨.

٣ - حياة الصحابة : ١/١٤١.

٤ - التاريخ الكبير ٥/٢٤٤

٥ - الإصابة : ٣/٣٦١ أو « الترجمة » ٧٧٢٠.

٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٣/٥٢٢.

٧ - أسد الغابة : ٥/٥٩.

٨ - الأعلام : ٦/١٥٨.



« كَانَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا ، وَأَشْجَعِهِمْ قَلْبًا ، وَيَسْبِقُ الْفَرَسَ عَدْوًا »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ؟!!

إِنَّهُ أُعْجُوبَةٌ مِنْ أَعَاجِيبِ الدَّهْرِ ، وَنَادِرَةٌ مِنْ نَوَادِرِ الزَّمَانِ ...

فَهْوَ عَدَّاءٌ[1] لَا يُسْبَقُ ...

وَرَامٍ لَا يُخْطِئُ ...

وَمِقْدَامٌ لَا يَهَابُ

وَمُغَامِرٌ لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُ مُغَامَرَاتِهِ .

تَقْرَأُ أَخْبَارَ بُطُولَاتِهِ ؛ فَيُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ الْأَسَاطِيرِ[2]، وَمَا هِيَ بِالْأَسَاطِيرِ ... فَقَدْ رَوَاهَا الشَّيْخَانِ مُسْلِمٌ وَالْبُخَارِيُّ وَأَثْبَتَاهَا فِي صَحِيحَيْهِمَا

* * *

كَانَ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ فِي مَكَّةَ أَمْوَالٌ وَعَقَارٌ ؛ فَاعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ ، وَهَاجَرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَخَلَّفَ وَرَاءَهُ كُلَّ مَا يَمْلِكُ ...

وَجَعَلَ يَعْمَلُ فِي الْمَدِينَةِ سَائِسًا[3] لِفَرَسِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ؛ لِقَاءَ طَعَامِهِ ... فَمَا كَانَ يُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ لُقَيْمَاتٍ يُقِيمُ بِهَا صُلْبَهُ ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ .

---

(1) عَدَّاء : شديد العَدْو ، وهو الجَرْي .

(2) الأساطير : الأباطيل .

(3) السائس : الذي يقوم على ترويض الخيول ورعاية شئونها .

وَلَعَلَّكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - قَدْ نَزَعَ[١] بِكَ الشَّوْقُ إِلَىٰ سَمَاعِ طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِ هَٰذَا الْفَارِسِ، وَالْوُقُوفِ عَلَىٰ بَعْضِ عَجَائِبِهِ؛ فَإِلَيْكَ شَيْئًا مِنْهَا:

* * *

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فِيهِمْ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ ... فَلَمَّا بَلَغَ قُرَيْشًا نَبَأُ خُرُوجِهِ؛ قَامَتْ لَهُ تُرِيدُ أَنْ تَصُدَّهُ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ؛ فَنَزَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ فِي الْحُدَيْبِيَةِ، وَأَوْفَدَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ[٢] إِلَىٰ مَكَّةَ سَفِيرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ...

لَكِنَّ الْأَخْبَارَ مَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَتْ بِأَنَّ قُرَيْشًا قَتَلَتْ عُثْمَانَ؛ فَعَزَمَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَىٰ حَرْبِهِمْ، وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَعَهُ إِلَىٰ مُبَايَعَتِهِ عَلَىٰ الْقِتَالِ وَالْمَوْتِ؛ قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ:

لَمَّا دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ مُبَايَعَتِهِ عِنْدَ الشَّجَرَةِ؛ بَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ ...

ثُمَّ طَفِقَ الْمُسْلِمُونَ يُبَايِعُونَهُ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ نَحْوًا مِنْ نِصْفِ النَّاسِ؛ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ:

(بَايِعْ يَا سَلَمَةُ).

فَقُلْتُ قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ.

قَالَ: (وَأَيْضًا)؛ فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ ...

وَعِنْدَ ذَلِكَ رَآنِي عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْزَلَ[٣] مِنَ السِّلَاحِ؛ فَأَعْطَانِي تُرْسًا أَحْتَمِي بِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يُبَايِعُونَهُ؛ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ آخِرَ النَّاسِ؛ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ:

---

(١) نزع بك الشوق: دفعك.

(٢) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ انظره في الكتاب الثامن من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

(٣) أعزل: متجرد من السلاح.

(أَلَّا تُبَايِعُني يَا سَلَمَةُ ؟!) .

فَقُلْتُ قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ ، وَفِي وَسَطِهِمْ .

قَالَ : (وَأَيْضًا) ؛ فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ ...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ يَدِي وَقَالَ : (أَيْنَ التُّرْسُ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ ؟) .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ ؛ فَوَجَدْتُهُ أَعْزَلَ فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ ...

فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

* * *

قَالَ سَلَمَةُ :

ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا بِالصُّلْحِ ؛ فَاصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ...

فَأَتَيْتُ شَجَرَةً وَكَنَسْتُ مَا تَحْتَهَا مِنْ شَوْكٍ وَاضَّجَعْتُ فِي ظِلِّهَا

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ أَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؛ فَعَلَّقُوا أَسْلِحَتَهُمْ عَلَىٰ الشَّجَرَةِ ، وَاضَّجَعُوا قَرِيبًا مِنِّي وَجَعَلُوا يَنَالُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَأَبْغَضْتُهُمْ ، وَتَحَوَّلْتُ عَنْهُمْ خَوْفًا مِنْ أَنْ أُسْتَثَارَ ؛ فَأَبْدَأَهُمْ بِقِتَالٍ .

وَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ؛ إِذْ نَادَىٰ مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي :

يَا لَلْمُهَاجِرِينَ(١)؛ لَقَدْ قَتَلَ الْمُشْرِكُونَ ابْنَ زُنَيْمٍ ...

فَامْتَشَقْتُ السَّيْفَ فِي يَمِينِي ، وَوَثَبْتُ عَلَىٰ أَسْلِحَتِهِمْ ؛ فَجَعَلْتُهَا حُزْمَةً فِي يَسَارِي ، وَشَدَّدْتُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْهَضُوا ... كُلُّ ذَلِكَ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، ثُمَّ بَادَرْتُهُمْ قَائِلًا :

(١) يا للمهاجرين : أسلوب استغاثه لطلب النجدة .

وَالَّذِي أَكْرَمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ .

ثُمَّ أَوْثَقْتُهُمْ ، وَقَرَنْتُ بَعْضَهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ... وَجِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَضَىٰ بِأَصْحَابِهِ وَمَعَهُ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ حَتَّىٰ بَلَغَ الْمَدِينَةَ .

وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ بِهَا قَلِيلًا حَتَّىٰ أَمَرَ غُلَامَهُ رَبَاحًا أَنْ يَخْرُجَ بِإِبِلِهِ لِيَرْعَاهَا فِي الْبَادِيَةِ ؛ فَعَزَمَ سَلَمَةُ عَلَىٰ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ لِيَرْعَىٰ فَرَسَ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَيْضًا .

* * *

تَوَشَّحَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ قَوْسَهُ وَحَمَلَ نِبَالَهُ ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَصَاحِبُهُ حَتَّىٰ بَلَغَا مَكَانًا شَمَالِيَّ الْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ « الْغَارُ » ... فَأَرَاحَا فِيهِ سَوَائِمَهُمَا[1]، وَبَاتَا هُنَاكَ لَيْلَتَهُمَا .

وَفِي الْهَزِيعِ[2] الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ اسْتَيْقَظَا عَلَىٰ كَتِيبَةٍ مِنْ فُرْسَانِ غَطَفَانَ ؛ عِدَّتُهَا أَرْبَعُونَ فَارِسًا ؛ أَغَارَتْ عَلَىٰ إِبِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَاقَتْهَا ، وَقَتَلَتْ وَلَدًا لِأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ[3] كَانَ عِنْدَ الْإِبِلِ .

* * *

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ : عِنْدَ ذَلِكَ قُلْتُ لِرَبَاحٍ :

خُذْ هَٰذَا الْفَرَسَ وَأَدِّهِ إِلَىٰ صَاحِبِهِ ، وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَغَارُوا عَلَىٰ إِبِلِهِ .

---

(١) سَوَائِمَهُمَا : إبلهما ومواشيهما .
(٢) الهزيع الأخير : الثلث الأخير .
(٣) أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِي : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

ثُمَّ ارْتَقَيْتُ أَكَمَةً فَوْقَ ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ، وَاسْتَقْبَلْتُ الْمَدِينَةَ، وَنَادَيْتُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِي: وَاصَبَاحَاهُ[1] ثَلَاثًا

ثُمَّ خَرَجْتُ أَعْدُو فِي إِثْرِ الْقَوْمِ؛ حَتَّىٰ غَدَوْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْهُمْ؛ فَوَتَرْتُ قَوْسِي وَرَمَيْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِسَهْمٍ فَاسْتَقَرَّ فِي كَتِفِهِ؛ فَقُلْتُ خُذْهُ...

وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ الْيَوْمَ يَوْمُ الرُّضَّعِ

ثُمَّ طَفِقْتُ أَطْرُدُهُمْ وَأَرْمِيهِمْ وَأَنَا أَرْتَجِزُ[2] وَكَانُوا فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُخَلِّفُونَ وَرَاءَهُمْ بَعْضًا مِنْ إِبِلِ رَسُولِ ﷺ؛ فَأَجْعَلُهَا خَلْفِي وَأَمْضِي فِي إِثْرِهِمْ.

فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ مِنْهُمْ يُرِيدُ قَتْلِي كَفَفْتُ عَنِ الْعَدْوِ، وَالْتَمَسْتُ شَجَرَةً، وَتَتَرَّسْتُ فِي جِذْعِهَا، وَجَعَلْتُ أَرْمِيهِ؛ فَيَرْتَدُّ عَنِّي.

* * *

ثُمَّ مَا زِلْتُ أَطْرُدُهُمْ حَتَّىٰ دَخَلُوا فِي طَرِيقٍ ضَيِّقٍ يَكْنُفُهُ[3] جَبَلَانِ...

فَتَسَلَّقْتُ أَحَدَهُمَا، وَجَعَلْتُ أُهِيلُ عَلَيْهِمُ الْحِجَارَةَ مِنْ أَعْلَاهُ؛ فَتَتَسَاقَطُ فَوْقَهُمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ.

ثُمَّ مَا فَتِئْتُ أَتْبَعُهُمْ؛ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنْ إِبِلِ رَسُولِ ﷺ إِلَّا خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَجَعَلْتُهُ وَرَائِي.

لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُثْنِنِي عَنْ مُطَارَدَتِهِمْ... فَأَخَذُوا يَرْمُونَ أَثْقَالَهُمْ لِيَتَخَفَّفُوا مِنْهَا؛ فَأَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً، وَثَلَاثِينَ رُمْحًا

فَكَانُوا كُلَّمَا طَرَحُوا شَيْئًا؛ جَعَلْتُ عَلَيْهِ عَلَامَةً مِنَ الْحِجَارَةِ حَتَّىٰ يَهْتَدِيَ

(١) واصباحاه: أسلوب نُدبة، والغرض منه أن تَدْعُوَ إنسانًا أو قومًا إلىٰ أمر مهم كالحرب.
(٢) أرتَجِز: أقول شعرًا علىٰ بحر الرَّجَز.
(٣) يكنفه: يحيط به.

لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَلَّفْتُهُ وَرَائِي .

* * *

ثُمَّ أَدْرَكَهُمْ وَأَدْرَكَنِي الْإِعْيَاءُ(١)؛ فَجَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ وَيَتَغَدَّوْنَ ، وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْهُمْ ؛ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَأَرْقُبُهُمْ .

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ أَتَاهُمْ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِمْ وَنَظَرَ إِلَىٰ مَا حَلَّ بِهِمْ ؛ فَقَالَ :

مَا هَٰذَا الَّذِي أَرَىٰ ؟!

فَأَشَارُوا إِلَيَّ وَقَالُوا

لَقِينَا مِنْ شُؤْمِ هَٰذَا الرَّجُلِ مَا لَقِينَا ؛ فَوَاللَّهِ مَا فَارَقَنَا مُنْذُ الْغَلَسِ وَهْوَ يَرْمِينَا ؛ حَتَّىٰ انْتَزَعَ مِنَّا كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا

قَالَ : فَلْيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ ؛ فَصَعِدَ إِلَيَّ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ ... فَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنِّي بِحَيْثُ يَسْمَعُونَ كَلَامِي ؛ قُلْتُ لَهُمْ

هَلْ تَعْرِفُونَنِي ؟

قَالُوا لَا ؛ وَمَنْ أَنْتَ ؟!

قُلْتُ : أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ لَا أَطْلُبُ رَجُلًا مِنْكُمْ إِلَّا أَدْرَكْتُهُ ، وَلَا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكُنِي .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَنَا أَظُنُّ ذَلِكَ .

ثُمَّ رَجَعُوا عَنِّي ...

فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّىٰ رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ ؛ فَإِذَا أَوَّلُهُمُ الْأَخْرَمُ الْأَسَدِيُّ ، وَعَلَىٰ إِثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَعَلَىٰ إِثْرِهِ

(١) الإعياء : التعب .

الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ(١)

فَمَا إِنْ رَآهُمُ الْقَوْمُ حَتَّىٰ هَبُّوا وَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؛ فَهَمَّ الْأَخْرَمُ بِأَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ فَأَخَذْتُ بِعَنَانِ فَرَسِهِ ، وَوَقَفْتُ فِي وَجْهِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ :

احْذَرْ يَا أَخْرَمُ أَنْ تَلْحَقَ بِهِمْ فَيَقْطَعُوكَ عَنَّا وَيَنْفَرِدُوا بِكَ ، وَتَرَيَّثْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ .

فَقَالَ يَا سَلَمَةُ ؛ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ ... فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ .

قَالَ سَلَمَةُ :

فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ؛ فَانْطَلَقَ وَرَاءَهُمْ حَتَّى الْتَقَى مَعَ مُقَدَّمِ الْقَوْمِ ؛ فَعَقَرَ فَرَسَهُ لَكِنَّ هَٰذَا كَرَّ عَلَىٰ الْأَخْرَمِ فَطَعَنَهُ طَعْنَةً أَرْدَتْهُ ؛ فَخَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا

* * *

قَالَ سَلَمَةُ

فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ إِنِّي تَبِعْتُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَعْدُوا عَلَىٰ رِجْلَيَّ ؛ حَتَّىٰ انْفَصَلْتُ عَنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ... فَمَا أَرَاهُمْ وَلَا أَرَىٰ مِنْ غُبَارِهِمْ شَيْئًا

فَلَمَّا دَنَتِ الشَّمْسُ إِلَىٰ الْمَغِيبِ ؛ أَرَادُوا أَنْ يَعْدِلُوا إِلَىٰ شِعْبٍ فِيهِ مَاءٌ ؛ يُقَالُ لَهُ : « ذُو قَرَدٍ » لِيَرْتَوُوا مِنْهُ

فَلَمَّا رَأَوْنِي فِي إِثْرِهِمْ تَرَكُوهُ ؛ فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً ...

ثُمَّ انْطَلَقُوا يُسْرِعُونَ ، وَقَدْ خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ فَرَسَيْنِ ؛ فَجِئْتُ بِهِمَا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

---

(١) الْمِقْدَاد بْن عمرو انظره ص ٤٠٩.

فَإِذَا هُوَ وَصَحْبُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ الَّذِي دَفَعْتُهُمْ عَنْهُ ، وَإِذَا رَسُولُ اللَّه ﷺ قَدْ أَخَذَ الْإِبِلَ الَّتِي اسْتَنْقَذْتُهَا مِنْهُمْ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ كُلِّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ خَلَّفُوهَا وَرَاءَهُمْ ، وَإِذَا بِلَالٌ[1] نَحَرَ نَاقَةً وَجَعَلَ يَشْوِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ كَبِدِهَا وَسِنَامِهَا

قَالَ سَلَمَةُ

وَلَمَّا أَصْبَحْنَا نُودِيَ بِالرَّحِيلِ ... فَأَرْدَفَنِي الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلْفَهُ عَلَىٰ نَاقَتِهِ الْعَضْبَاءِ ، وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّىٰ بَلَغْنَا الْمَدِينَةَ .

* * *

هَنِيئًا لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أَنَّهُ غَدَا رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَمَسَّ جَسَدُهُ جَسَدَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ ...

وَهَنِيئًا لِلْإِسْلَامِ فَتَاهُ الْجَرِيءُ الْمِقْدَامُ ...

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أُعْجُوبَةِ الْفُرْسَانِ ...

وَسَبَّاقِ الْخُيُولِ الصَّافِنَاتِ (*) .

---

(١) بِلَال بن رباح : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(*) للاستزادة من أخبار سَلَمَة بن الأَكْوَع انظر :

١ - طبقات ابن سعد : ٤/ ٣٠٥.
٢ - أسد الغابة : ٢/ ٤٢٣.
٣ - الإصابة : ٢/ ٦٦ أو « الترجمة » ٣٣٨٩.
٤ - الاستيعاب علىٰ هامش الإصابة : ٢/ ٨٧.
٥ - تهذيب التهذيب ٤/ ١٥٠
٦ - تاريخ ابن عساكر : ٧/ ٢٤٥.
٧ - تاريخ الإسلام : ٣/ ١٥٨.

أَبُو بَصِيرٍ عُتْبَةُ بْنُ أُسَيْدٍ رضي الله عنه

« وَيْلُ أُمِّهِ مِنْ مِسْعَرِ حَرْبٍ ؛ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ]

فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ مُيَمِّمِينَ[1] وُجُوهَهُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ؛ يُرِيدُونَ أَدَاءَ الْعُمْرَةِ .

فَمَا إِنْ عَلِمَتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ ؛ حَتَّىٰ عَقَدَتِ الْعَزْمَ عَلَىٰ أَنْ تَصُدَّهُمْ عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ ؛ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِيًا

لَكِنَّهَا آثَرَتْ[2] أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ صُلْحًا إِذَا وَجَدَتْ لِلصُّلْحِ سَبِيلًا

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْطَقَةَ الْحُدَيْبِيَةِ[3] ؛ عَلَىٰ بُعْدِ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَكَّةَ ، وَحَطَّ رِحَالَهُ فِيهَا

طَفِقَتِ السُّفَرَاءُ تَرُوحُ وَتَغْدُو بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَطَالَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ التَّرَاجُعُ وَالتَّفَاوُضُ ...

إِلَىٰ أَنْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو[4] سَفِيرًا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَصَالَحَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ أَنْ يَقْفِلَ عَائِدًا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَأَنْ يُرْجِئَ[5] عُمْرَتَهُ إِلَىٰ الْعَامِ الْقَادِمِ ؛

---

(١) ميمِّمين : قاصدين .

(٢) آثرت : فضلت واختارت .

(٣) الحديبية : بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة وياء اختلفوا فيها منهم من شددها ومنهم من خففها وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة سميت ببئرها عند مسجد الشجرة التي بايع الرسول ﷺ تحتها وسميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع وهي أقرب إلىٰ مكة منها إلىٰ المدينة .

(٤) سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٥) يرجئ : يؤخر .

شَرِيطَةَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ بِغَيْرِ سِلَاحٍ ، وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا هُوَ وَمَنْ مَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ...

وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ صُلْحٌ مُدَّتُهُ عَشْرَةُ أَعْوَامٍ ؛ يَسُودُ خِلَالَهَا السَّلَامُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ...

فَعَظُمَ الْأَمْرُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصُدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ هَٰذَا الصَّدَّ ، وَأَنْ يُبْرِمُوا[1] مَعَ قُرَيْشٍ هَٰذَا الْعَقْدَ .

* * *

وَزَادَ الْأَمْرَ قَسْوَةً عَلَىٰ قُلُوبِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ أَنَّ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو ؛ اشْتَرَطَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ مُؤْمِنًا ؛ مِنْ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ ؛ رَدَّهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ قُرَيْشٍ ...

وَأَنَّ مَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ ؛ مُرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ ؛ لَمْ يَرُدُّوهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

مِمَّا أَثَارَ حَفِيظَةَ[2] عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَوَثَبَ إِلَىٰ الصِّدِّيقِ وَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : أَلَيْسَ مُحَمَّدٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟!

قَالَ : بَلَىٰ .

قَالَ : أَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟!

---

(١) يبرموا : يعقدوا .

(٢) حفيظته : غضبه .

قَالَ بَلَىٰ .

قَالَ : أَوَ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟!

قَالَ : بَلَىٰ .

قَالَ : فَعَلَامَ[1] نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟!!

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي حَزْمٍ[2] :

اِلْزَمْ[3] أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ يَا عُمَرُ ...

وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ...

ثُمَّ مَضَىٰ عُمَرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَالَ :

يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؛ أَلَسْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟!

قَالَ (بَلَىٰ) .

قَالَ : أَوَ لَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟!

قَالَ : (بَلَىٰ) .

قَالَ : أَوَ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟! .

قَالَ : (بَلَىٰ) .

قَالَ : فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟!!

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(١) فعلام : علىٰ أيِّ شَيْءٍ، ولأيِّ سبب .
(٢) الحزم : ضبط الإنسان أمْرَهُ والأخذ فيه بالثقة ، والمراد : الشِّدة والصَّرامة .
(٣) الزم : التزم ولا تخالف .

(إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ...

وَلَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ ...

وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا) ...

قَالَ عُمَرُ :

فَمَا زِلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ ، وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ ؛ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ ؛ حَتَّىٰ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ عَفَا عَنِّي .

* * *

وَلَمَّا تَمَّ تَوْقِيعُ الْعَقْدِ بَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقُرَيْشٍ ؛ قَفَلَ الرَّسُولُ ﷺ رَاجِعًا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ...

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَقِرُّ بِهَا قَلِيلًا ؛ حَتَّىٰ تَعَرَّضَتْ ذِمَّتُهُ ﷺ وَمَوَاثِيقُهُ لِاخْتِبَارٍ قَاسٍ بِسَبَبِ أَبِي بَصِيرٍ عُتْبَةَ بْنِ أَسِيدٍ بَطَلِ قِصَّتِنَا هَٰذِهِ ؛ فَلْنَتْرُكْ لَهُ الْكَلَامَ لِيَرْوِيَ قِصَّتَهُ الْمُثِيرَةَ .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :

كُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِي بِمَكَّةَ عَشِيرَةٌ تَحْمِينِي ، أَوْ رِجَالٌ يُجِيرُونَنِي ...

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ صَبَّتْ عَلَيَّ سَوْطَ[1] عَذَابِهَا ؛ بِسَبَبِ مُفَارَقَتِي لِدِينِهَا وَنَبْذِي[2] لِأَوْثَانِهَا

وَلَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يُهَاجِرُونَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ حَبَسَتْنِي قُرَيْشٌ ...

---

(١) سوط عذابها : شدة عذابها .

(٢) نبذي لأوثانها : تركي لأصنامها .

فَلَمْ تَسْمَحْ لِي بِالْهِجْرَةِ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَتَرَكَتْنِي أَتَقَلَّبُ عَلَىٰ نَارٍ مَشْبُوبَةٍ مِنْ غَيْظِهَا وَحِقْدِهَا

فَكَانَتْ كُلَّمَا أَصَابَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَعْرَكَةٍ أَوْ غَزْوَةٍ ... انْتَقَمَتْ مِنِّي وَمِنْ إِخْوَانِي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ الَّذِينَ حَبَسَتْهُمْ عِنْدَهَا أَشَدَّ انْتِقَامٍ .

ثُمَّ سَنَحَتْ لِي غَفْلَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَاغْتَنَمْتُهَا

وَمَضَيْتُ فَارًّا بِدِينِي إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ إِلَّا الْقَلِيلَ .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ

فَمَضَيْتُ أُغِذُّ[1] السَّيْرَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ ؛ يَطِيرُ بِيَ الشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَيَحْدُونِي[2] الْحَنِينُ إِلَىٰ الْعَيْشِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَمَا إِنْ وَطِئَتْ قَدَمَايَ الْمَدِينَةَ ، وَاكْتَحَلَتْ عَيْنَايَ بِمَرْأَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... حَتَّىٰ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ بِكِتَابٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، مَعَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ ، وَمَوْلَىٰ[3] مِنْ مَوَالِيهَا ؛ تَطْلُبُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَرُدَّنِي إِلَيْهَا ؛ عَمَلًا بِشُرُوطِ الصُّلْحِ .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :

وَلَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَأْمُرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَالْعَوْدَةِ إِلَىٰ أَسْرِ قُرَيْشٍ ... بَعْدَ أَنْ نَجَوْتُ مِنْهُمْ بِنَفْسِي وَدِينِي .

---

(١) أغذ السير : أسرع .

(٢) يحدوني : يسوقني .

(٣) المَوْلَىٰ : العصبة ، والحليف ، والمُعْتَق .

وَلٰكِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ :

(يَا أَبَا بَصِيرٍ ؛ إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الْعَهْدِ ، وَلَا يَصْلُحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ...

وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ فَرَجًا وَمَخْرَجًا فَانْطَلِقْ إِلَىٰ قَوْمِكَ) ...

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَتَرُدُّنِي إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي[1] فِي دِينِي ؟! .

قَالَ ﷺ : (يَا أَبَا بَصِيرٍ انْطَلِقْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا) .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :

فَانْطَلَقْتُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ ؛ حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِذِي الْحُلَيْفَةِ عَلَىٰ بُعْدِ سَبْعَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ؛ جَلَسْنَا لِنُصِيبَ شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةِ ؛ فَقُلْتُ لِلْقُرَشِيِّ :

أَصَارِمٌ سَيْفُكَ هَٰذَا يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ ...

وَجَعَلَ يَقُصُّ عَلَيَّ مِنْ خَبَرِهِ كَيْتَ[2] وَكَيْتَ ؛ فَأَبْدَيْتُ لَهُ عَجَبِي مِنْهُ ...

فَلَمَّا رَآنِي أَعْجَبُ مِنَ السَّيْفِ هَٰذَا الْعَجَبَ ؛ قَالَ :

انْظُرْهُ إِنْ شِئْتَ .

فَلَمَّا صَارَ السَّيْفُ فِي يَدِي ؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي :

(١) الفتنة : الاختبار ، والمراد : يعذبونني حتى يَرُدُّونني عن الإسلام .
(٢) كيت وكيت : كلمة تقولها العرب للكناية عن القصة .

مُشْرِكٌ يَقُودُنِي إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ لِيَفْتِنُونِي عَنْ دِينِي ، وَيُذِيقُونِي شَرَّ الْعَذَابِ ...

وَاللَّهِ ! لَا أَنْقَادُ لَهُ وَلَا أَمْضِي مَعَهُ ...

لَقَدْ بَرِئَتْ ذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَسْلَمَنِي إِلَيْهِ ؛ فَمَا عَلَيَّ إِذَا قَتَلْتُهُ ؟

ثُمَّ سَلَلْتُ السَّيْفَ مِنْ غِمْدِهِ وَعَلَوْتُ رَأْسَهُ بِهِ ، وَقَتَلْتُهُ ...

فَلَمَّا رَأَىٰ الْمَوْلَىٰ الَّذِي كَانَ مَعَهُ مَصْرَعَهُ ؛ وَلَّىٰ هَارِبًا مِنْ وَجْهِي ؛ فَلَمْ أَتْبَعْهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِي بِهِ أَرَبٌ[1] .

وَمَضَىٰ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ حَتَّىٰ أَتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ .

فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ طَالِعًا ؛ قَالَ :

(إِنَّ هَٰذَا الرَّجُلَ مَذْعُورٌ ؛ أَصَابَهُ فَزَعٌ) .

فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ قَالَ لَهُ :

(وَيْحَكَ ! ... مَا لَكَ ؟!!) .

قَالَ :

قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :

فَوَاللَّهِ مَا بَرِحَ الرَّجُلُ مِنْ مَكَانِهِ ؛ حَتَّىٰ طَلَعْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ الَّذِي قَتَلْتُ بِهِ الْقُرَشِيَّ ، وَقُلْتُ :

---

(١) الْأَرَبُ : الغاية والحاجة .

يَا رَسُولَ اللَّهِ ... قَدْ وَفَتْ ذِمَّتُكَ ، وَأَدَّىٰ اللَّهُ عَنْكَ .

قَالَ (وَكَيْفَ ؟) .

قُلْتُ : لَقَدْ وَفَيْتَ بِعَهْدِكَ ، وَأَسْلَمْتَنِي إِلَىٰ الْقَوْمِ يَدًا بِيَدٍ ، ثُمَّ امْتَنَعْتُ أَنَا بِنَفْسِي مِنْهُمْ ، وَنَجَوْتُ بِدِينِي مَخَافَةَ أَنْ يَفْتِنُونِي أَوْ يَعْبَثُوا بِي .

فَالْتَفَتَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ مَنْ مَعَهُ وَقَالَ :

(وَيْلُ أُمِّهِ مِنْ مِسْعَرِ[1] حَرْبٍ ...

لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ) ...

فَوَقَعَتْ مَقَالَتُهُ هَٰذِهِ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعًا

* * *

ثُمَّ أَتْبَعَ أَبُو بَصِيرٍ يَقُولُ :

لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْتَبْقِيَنِي عِنْدَهُ ؛ وَفَاءً بِعَهْدِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أَعُودَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ ؛ بَعْدَ أَنْ قَتَلْتُ صَاحِبَهُمْ ...

فَمَضَيْتُ حَتَّىٰ نَزَلْتُ « الْعِيصَ » عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ ؛ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي كَانَتْ تَسْلُكُهَا قُرَيْشٌ فِي تِجَارَتِهَا مَعَ الشَّامِ ...

وَأَقَمْتُ هُنَاكَ .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُحْتَبَسُونَ[2] فِي مَكَّةَ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ عَنِّي

(وَيْلُ أُمِّهِ مِنْ مِسْعَرِ حَرْبٍ ؛ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ) .

---

(١) مسعر حرب : بطلها وموقد نارها .

(٢) الْمُحْتَبَسُون في مكة : الممنوعون من مغادرتها

فَجَعَلُوا يَخْرُجُونَ إِلَيَّ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ...

حَتَّىٰ بَلَغْنَا نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا .

وَكَانَ أَوَّلَ هَؤُلَاءِ خُرُوجًا إِلَيَّ : أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنُ عَمْرٍو .

فَجَعَلْنَا نَقْطَعُ طَرِيقَ التِّجَارَةِ عَلَىٰ قُرَيْشٍ .

فَلَا نَظْفَرُ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَتَلْنَاهُ ...

وَلَا تَمُرُّ بِنَا عِيرٌ لَهَا إِلَّا أَخَذْنَاهَا

وَقَدِ اشْتَدَّ سَاعِدُنَا(١) وَقَوِيَتْ شَوْكَتُنَا ، وَغَدَوْنَا فِي حُلُوقِ قُرَيْشٍ ؛ نُقِضُّ مَضَاجِعَهَا ، وَنَبُثُّ الذُّعْرَ فِي قَوَافِلِهَا ... حَتَّىٰ ضَاقَتْ بِنَا ذَرْعًا(٢) وَأَعْيَتْهَا الْحِيَلُ فِي أَمْرِنَا

فَكَتَبَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُهُ بِأَرْحَامِهَا(٣) أَنْ يَدْعُوَنَا إِلَيْهِ ، وَتُعْلِنُ لَهُ أَنَّهَا نَزَلَتْ عَنْ شَرْطِهَا الْمُتَعَلِّقِ بِنَا

* * *

قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ صَاحِبُ أَبِي بَصِيرٍ :

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ ... وَصَلَنَا كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا فِيهِ إِلَىٰ الْقُدُومِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَخِي أَبُو بَصِيرٍ مَرِيضًا مَرَضَ الْمَوْتِ ...

فَأَعْطَيْتُهُ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَهُ إِلَىٰ شَفَتَيْهِ وَقَبَّلَهُ ...

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ وَهْوَ يَقُولُ :

اقْرَئُوا عَنِّي السَّلَامَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

---

(١) اشتد ساعدنا وقويت شوكتنا : كناية عن زيادة قوتهم .

(٢) ضاقت بنا ذرعا : لم تستطع الصبر علينا وأصابها منا الضيق .

(٣) تَسْأَلُهُ بِأَرْحَامِهَا : تسأله متوسِّلةً إليه بما بينها وبينه من صلة رَحِمٍ .

فَوَارَيْنَاهُ تُرَابَهُ هُنَاكَ ، وَلَحِقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ مِسْعَرِ الْحَرْبِ أَبِي بَصِيرٍ ...

فَقَدْ عَاشَ مُعَذَّبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَمَاتَ مُشَرَّدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيْضًا .

(*) للاستزادة من أخبار أبي بصير عتبة بن أسيد انظر

١ - الإصابة : ٢/٤٥٢ أو «الترجمة» ٥٣٩٧.
٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤/ ٢٠.
٣ - أسد الغابة : ٣/ ٥٥٩.
٤ - سيرة ابن هشام : ٢/ ٣٢٢.
٥ - عيون الأثر : ٢/ ١٧٨.
٦ - الطبري : ٢/ ١٢٤.
٧ - الطبقات الكبرى : ٢/ ٩٥.
٨ - الكامل لابن أثير : ٢/ ١٣٥.
٩ - البداية والنهاية : ٤/١٦٤ وما بعدها.
١٠- المغازي : ٣٠٨.

زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ رضي الله عنه

« اعْتَنَقَ ابْنُ سُعْنَةَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ تَأَمُّلٍ وَتَتَبُّعٍ لِأَخْبَارِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ »

جَلَسَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ كِبَارِ أَحْبَارِ(١) الْيَهُودِ ؛ يَسْتَمِعُونَ إِلَىٰ حَدِيثِ حَبْرٍ مِنْ عُظَمَاءِ أَحْبَارِهِمْ ؛ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْهَيَّبَانِ .

وَكَانَ ابْنُ الْهَيَّبَانِ هَٰذَا ؛ قَدْ وَفَدَ عَلَيْهِمْ مِنْ دِيَارِ الشَّامِ ، وَعَزَمَ عَلَىٰ الْإِقَامَةِ عِنْدَهُمْ فِي يَثْرِبَ .

فَأُخِذَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ بِرَوْعَةِ حَدِيثِ الْحَبْرِ ، وَصِدْقِ لَهْجَتِهِ ، وَحَرَارَةِ إِيمَانِهِ ، وَسَعَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَىٰ التَّوْرَاةِ(٢)

لَكِنَّهُ كَانَ وَهْوَ يُصْغِي إِلَيْهِ ؛ يُسَائِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ هَٰذَا الْحَبْرَ يَهْجُرُ بِلَادَ الْجَنَّاتِ الْمَعْرُوشَةِ(٣)، وَالظِّلَالِ الْوَارِفَةِ(٤)، وَالْمِيَاهِ الْمُتَدَفِّقَةِ ...

وَدَفَعَتْهُ إِلَىٰ قَطْعِ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ ؛ لِيَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ فِي يَثْرِبَ ...
نَائِيًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ؛ بَعِيدًا عَنِ الْعَشِيرِ(٥) وَالسَّكَنِ .

* * *

فَمَا إِنِ انْتَهَىٰ ابْنُ الْهَيَّبَانِ مِنْ كَلَامِهِ ؛ حَتَّىٰ بَادَرَهُ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ قَائِلًا

---

(١) الْحَبر : رئيس الكهنة عند اليهود ، والحبر : العالم المتبحر في العلم أيضًا .
(٢) التوراة : الكتاب الذي أُنزل علىٰ موسىٰ عليه السلام .
(٣) المعروشة : المبسوطة علىٰ الأرض .
(٤) الظلال الوارفة : الممتدة المتسعة .
(٥) العشير : المعاشر من زوج وأهل وغيرهم .

أَيُّهَا الْحَبْرُ الْجَلِيلُ ؛ لَقَدْ نَزَلْتَ فِي دِيَارِنَا سَهْلًا ، وَسَتَلْقَىٰ بِنَا أَهْلًا وَلَكِنْ مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ تَتْرُكَ دِيَارَ الشَّامِ ؛ الَّتِي تُكْثِرُ كُتُبُنَا الْمُقَدَّسَةُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ اعْتِدَالِ هَوَائِهَا ، وَعُذُوبَةِ مَائِهَا ، وَجَمَالِ رِيَاضِهَا ، وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهَا ؟!

أَفَهُنَاكَ مَنْ يَصُدُّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، أَوْ يَحُولُ[1] دُونَكُمْ وَدُونَ إِقَامَةِ شَعَائِرِكُمْ[2]؟!

فَقَالَ الْحَبْرُ :

وَاللَّهِ ! إِنَّ دِيَارَ الشَّامِ ؛ لَكَمَا وَصَفْتَ وَأَكْثَرُ مِمَّا وَصَفْتَ ؛ طِيبَ مَاءٍ ، وَاعْتِدَالَ هَوَاءٍ ، وَوَفْرَةَ خَيْرٍ ...

وَنَحْنُ فِيهَا آمِنُونَ مُطْمَئِنُّونَ .

وَإِنَّمَا أَخْرَجَنِي مِنْهَا تَرَقُّبُ ظُهُورِ نَبِيٍّ أَطَلَّ[3] زَمَانُهُ وَآنَ أَوَانُهُ ، وَجُعِلَتْ بَلْدَتُكُمُ الطَّيِّبَةُ هَٰذِهِ مَكَانَ هِجْرَتِهِ ، وَمُنْطَلَقَ دَعْوَتِهِ .

فَقَالَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ :

أَتَعْنِي بِهِ ذَلِكَ النَّبِيَّ الْعَرَبِيَّ الَّذِي نَجِدُهُ فِي كُتُبِنَا وَنُبَشِّرُ بِهِ أَبْنَاءَنَا ؟!

فَقَالَ : مَا عَنَيْتُ إِلَّا هُوَ .

* * *

ثُمَّ طَفِقَ الْحَبْرُ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ عَنْ شَمَائِلِ[4] النَّبِيِّ الْمُرْتَقَبِ ، وَيَذْكُرُ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ ...

---

(١) يَحُولُ دُونَكُم : يمنعكم .

(٢) شعَائركم : مناسككم وعباداتكم .

(٣) أطل زمَانه : اقترب زمانه .

(٤) شمَائل النَّبِيّ أخلاقه وصفاته .

وَيَحُضُّ الْيَهُودَ عَلَىٰ اتِّبَاعِهِ ، وَيُمَنِّيهِمْ بِالْخَيْرِ إِذَا هُمْ آمَنُوا بِهِ وَنَصَرُوهُ ... وَيُنْذِرُهُمْ بِالشَّرِّ إِذَا هُمْ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَخَذَلُوهُ(١).

لَكِنَّ ابْنَ الْهَيَّبَانِ مَا لَبِثَ(٢) كَثِيرًا حَتَّىٰ وَافَاهُ الْأَجَلُ ؛ فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَقَّقَ حُلُمُهُ فِي رُؤْيَةِ النَّبِيِّ الْمُنْتَظَرِ ، وَالتَّمَلِّي مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِنُبُوَّتِهِ ، وَالْفَوْزِ بِنُصْرَتِهِ .

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ وَفَاةِ ابْنِ الْهَيَّبَانِ ؛ حَتَّىٰ طَفِقَتِ الْأَخْبَارُ تَتْرَىٰ(٣) عَلَىٰ يَثْرِبَ بِظُهُورِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَزَايُدِ أَتْبَاعِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَصَبْرِهِمْ عَلَىٰ الْأَذَىٰ فِي سَبِيلِهِ ، وَسَبِيلِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ .

فَهَبَّ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ مِنَ الْيَهُودِ ؛ بِمَا كَانَ يُحَدِّثُهُمْ بِهِ ابْنُ الْهَيَّبَانِ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ تَقَصِّي(٤) خَبَرِ هَٰذَا النَّبِيِّ الَّذِي كَانُوا يَتَبَاشَرُونَ بِظُهُورِهِ ، وَيُهَدِّدُونَ بِهِ الْعَرَبَ ؛ كُلَّمَا أَلْحَقُوا بِهِمْ أَذًى ، أَوْ نَالُوهُمْ بِشَرٍّ .

وَطَفِقَ يَحُضُّهُمْ عَلَىٰ الْمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ ؛ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَهُمْ أَحَدٌ إِلَىٰ هَٰذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ .

لَكِنَّ زَيْدًا لَمْ يَلْقَ مِنْ قَوْمِهِ الْيَهُودِ إِلَّا الْإِعْرَاضَ وَالصَّدَّ(٥)، ثُمَّ بَدَأَ يَشْعُرُ بِنَارِ الْحِقْدِ الَّتِي جَعَلَتْ تَنْهَشُ أَكْبَادَهُمْ حَسَدًا لِهَٰذَا النَّبِيِّ ؛ الَّذِي أَخَذَ نَجْمُهُ يَعْلُو ، وَطَفِقَتْ دَعْوَتُهُ تَتَأَلَّقُ(٦)

* * *

(١) خذلوه : أي لم ينصروه .
(٢) مَا لبث : ما أبطأ .
(٣) تَتْرَىٰ : تتوافد واحدًا بعد واحد .
(٤) تقصي الخبر : التحقق منه وتتبعه .
(٥) الصَّدُّ : الإعراض والهجران .
(٦) تتألّق : تلمع وتبرق

ثُمَّ جَعَلَتِ الْأَيَّامُ تَمْضِي سِرَاعًا ، وَالْأَحْدَاثُ تَتْرَىٰ تِبَاعًا ...

فَإِذَا بِقَوَافِلِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ تَنْزِلُ فِي يَثْرِبَ عَلَىٰ الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ؛ فَتَلْقَىٰ بِالْأَهْلِ أَهْلًا وَبِالْإِخْوَانِ إِخْوَانًا ...

وَ إِذَا بِالْبَشَائِرِ تَغْمُرُ الْمَدِينَةَ ؛ بِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ قَادِمٌ إِلَيْهَا مَعَ صَفِيِّهِ وَخَلِيلِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ .

فَضَجَّتْ يَثْرِبُ بِالْفَرْحَةِ ، وَتَأَلَّقَتْ بِالْبَهْجَةِ ...

وَخَرَجَ النَّاسُ زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانًا[1] لِاسْتِقْبَالِ نَبِيِّ الْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةِ ﷺ وَصَاحِبِهِ .

فَازْدَادَ الْيَهُودُ غَمًّا عَلَىٰ غَمٍّ ، وَشُحِنَتْ صُدُورُهُمْ حِقْدًا عَلَىٰ حِقْدٍ .

لَكِنَّ زَيْدَ بْنَ سُعْنَةَ كَانَ لَهُ شَأْنٌ آخَرُ ...

فَلْنَتْرُكْ لَهُ الْكَلَامَ ؛ لِيَرْوِيَ لَنَا قِصَّتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

قَالَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ :

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ هَٰذَا الْقَادِمَ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَشَدَّ التَّأَمُّلِ وَأَعْمَقَهُ ، وَتَتَبَّعْتُهُ أَدَقَّ التَّتَبُّعِ وَأَقْصَاهُ ...

فَلَمْ تَبْقَ لَدَيَّ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ ؛ إِلَّا رَأَيْتُهَا فِيهِ وَعَرَفْتُهَا فِي وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ﷺ ؛ بَعْدَ أَنْ تَحَرَّيْتُهُ وَأَطَلْتُ النَّظَرَ إِلَيْهِ ؛ إِلَّا اثْنَتَيْنِ ؛ لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِمَا عِنْدَهُ ...

(١) زَرَافَات وَوِحدَانًا : جماعات وأفرادًا. والزرافة : العشرة من القوم .

أُولَاهُمَا أَنَّهُ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ...

وَثَانِيَتُهُمَا : أَنَّهُ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا سَمَاحَةً وَلُيُونَةً .

فَجَعَلْتُ أَبْحَثُ عَنْ هَاتَيْنِ الْعَلَامَتَيْنِ حَتَّىٰ وَجَدْتُهُمَا فِيهِ ...

ذَٰلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْحُجُرَاتِ[1] وَمَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْبُدَاةِ ، وَوَقَفَ إِلَىٰ جَانِبِهِ رَاكِبًا رَاحِلَتَهُ ، وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ لِي جَمَاعَةً فِي قَرْيَةِ بَنِي فُلَانٍ ؛ قَدْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ، وَكُنْتُ قُلْتُ لَهُمْ : إِنْ أَسْلَمُوا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرِهِ وَأَتَاهُمُ الرِّزْقُ رَغَدًا[2] ؛ فَمَا لَبِثَ أَنْ أَصَابَهُمْ قَحْطٌ شَدِيدٌ مُهْلِكٌ ، وَجَدْبٌ[3] مِنَ الْغَيْثِ مُضْنٍ ...

وَأَنَا أَخْشَىٰ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ طَمَعًا فِي غَيْرِهِ ؛ كَمَا دَخَلُوهُ طَمَعًا فِيهِ ...

فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بِشَيْءٍ تُغِيثُهُمْ[4] بِهِ فَعَلْتَ .

فَنَظَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ نَظْرَةً يَسْأَلُهُ بِهَا عَمَّا لَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ :

لَمْ يَبْقَ لَدَيَّ مِمَّا جَاءَنَا شَيْءٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

* * *

قَالَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ :

فَاغْتَنَمْتُ هَٰذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَدَنَوْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الحجرات : جمع حُجرة ، وهي حُجرات نسائه ﷺ .
(٢) الرّغد : طيب العيش ووفرة الخصب .
(٣) الجدب : احتباس المطر .
(٤) تغيثهم بِهِ : تُفرّج عنهم به وتعينهم .

وَقُلْتُ :

يَا مُحَمَّدُ ... هَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي تَمْرًا مَعْلُومًا إِلَىٰ أَجَلٍ[1] مَحْدُودٍ ؟ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ ؟

قَالَ : (نَعَمْ) .

فَأَطْلَقْتُ كِيسَ نُقُودِي ، وَأَخْرَجْتُ مِنْهُ ثَمَانِينَ مِثْقَالًا[2] مِنْ ذَهَبٍ ، وَدَفَعْتُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ وَقَالَ (أَغِثْ جَمَاعَتَكَ بِهَـٰذَا الْمَالِ ، وَاعْدِلْ بَيْنَهُمْ) .

* * *

قَالَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ :

فَلَمَّا بَقِيَ عَلَىٰ حُلُولِ الْأَجَلِ يَوْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ؛ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ وَقَدْ خَرَجُوا لِلصَّلَاةِ عَلَىٰ جَنَازَةِ أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَلَمَّا قَضَوْا صَلَاتَهُمْ ؛ دَنَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ جِدَارٍ لِيَجْلِسَ إِلَيْهِ ؛ فَأَتَيْتُهُ وَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ[3] قَمِيصِهِ وَرِدَائِهِ ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ غَلِيظٍ . وَقُلْتُ لَهُ :

يَا مُحَمَّدُ ؛ أَلَا تَقْضِينِي[4] حَقِّي ؟

فَوَاللَّهِ ! مَا عُرِفْتُمْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَّا مُمَاطِلِينَ[5] فِي أَدَاءِ الْحُقُوقِ ...

---

(١) إِلَىٰ أَجَلٍ : إلى مُدّة .
(٢) المثقال : ما يوزن به الذّهب ونحوه .
(٣) أخذت بمجامع قميصه : أي بجوانب قميصه .
(٤) تقضيني حقي : أي ترد لي دَيني .
(٥) مماطلين : مُسَوِّفين .

وَإِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِسُوءِ طِبَاعِكُمْ ...

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ ...

فَإِذَا عَيْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكِ(١) الْمُسْتَدِيرِ ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ وَقَالَ :

أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَسْمَعُ ؛ وَتَصْنَعُ بِهِ مَا أَرَىٰ ؟

فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا مَا أُحَاذِرُ(٢) مِنْ تَفْوِيتِ فُرْصَةِ الْإِيمَانِ عَلَيْكَ ؛ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ .

أَمَّا الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَنَظَرَ إِلَيَّ فِي سُكُونٍ وَتُؤَدَةٍ(٣)، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ عُمَرَ وَقَالَ :

(يَا عُمَرُ ؛ لَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ أَحْوَجَ إِلَىٰ غَيْرِ هَـٰذَا مِنْكَ ...

فَلَقَدْ كَانَ عَلَيْكَ ؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ ...

وَأَنْ تَأْمُرَهُ بِحُسْنِ الطَّلَبِ) ...

ثُمَّ قَالَ لَهُ : (اِذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ ؛ فَأَعْطِهِ حَقَّهُ ...

وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ جَزَاءَ مَا رُعْتَهُ(٤)) .

فَسَكَنَتْ نَفْسُ عُمَرَ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي ، وَأَعْطَانِي حَقِّي ، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ ...

فَقُلْتُ : مَا لِي مِنْ حَقٍّ فِي هَـٰذِهِ الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ !! .

---

(١) الفلك : مدار النجوم .
(٢) أُحاذِر : أخاف وأحذر .
(٣) تؤدة : هدُوء .
(٤) رعته : أخفته .

فَقَالَ أَمَرَنِي الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ أُعْطِيَهَا لَكَ جَزَاءَ مَا رُعْتُكَ ؛ فَخُذْهَا

فَقُلْتُ : أَوَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ ؟!

فَقَالَ : لَا

فَقُلْتُ أَنَا زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ .

فَقَالَ : الْحَبْرُ ؟!

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ : فَمَا دَعَاكَ إِلَىٰ أَنْ تَفْعَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلْتَ ؟! وَأَنْ تَقُولَ لَهُ مَا قُلْتَ ؟! .

فَقُلْتُ : يَا عُمَرُ ؛ لَمْ يَكُنْ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ ؛ إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَجِدْهُمَا فِيهِ ...

أُولَاهُمَا : أَنَّهُ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ...

وَثَانِيَتُهُمَا : أَنَّهُ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا حِلْمًا ...

وَقَدْ وَجَدْتُهُمَا الْآنَ ...

فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا ...

وَأَنَّ شَطْرَ[(١)] مَالِي صَدَقَةٌ عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

قَالَ عُمَرُ : بَلْ قُلْ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسَعُهُمْ[(٢)] جَمِيعًا

(١) الشّطر : القسم .
(٢) لَا تسعُهم : لا تكفيهم وتشملهم .

فَقُلْتُ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ .

* * *

ثُمَّ رَجَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَزَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (مَا أَرْجَعَكُمَا ؟!) .

فَقَالَ زَيْدٌ لَقَدْ رَجَعْتُ لِأَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...

وَأَشْهَدَ أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

وَأَنَّكَ صَفْوَةُ أَنْبِيَائِهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ... (*) .

(*) لِلاسْتِزَادَةِ مِنْ أَخْبَارِ زَيْدِ بْنِ سُعْنَةَ انظر
- أسد الغابة : ٢/٢٨٨.
الإصابة : ١/٥٦٦ « الترجمة » ٢٩٠٤.
الاستيعاب : ١/٥٦٣.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه

«كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ شَابًّا مُعَلَّقَ الْقَلْبِ بِالْمَسَاجِدِ»

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ؟!

أَمَّا أَبُوهُ؛ فَهْوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَثَانِي الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ.

وَأَمَّا أُمُّهُ؛ فَهْيَ السَّيِّدَةُ الرَّصَانُ الرَّزَانُ[1] زَيْنَبُ بِنْتُ مَظْعُونٍ.

وَأَمَّا أُخْتُهُ؛ فَهْيَ حَفْصَةُ إِحْدَىٰ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

* * *

وُلِدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ وَأَسْلَمَ وَهْوَ صَغِيرٌ، وَرُبِّيَ فِي مَدْرَسَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَنَشَأَ فِي أَكْنَافِ[2] الْإِسْلَامِ...

فَلَمْ يُدَنَّسْ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَلَمْ يُوصَمْ بِعِبَادَةِ صَنَمٍ.

ثُمَّ هَاجَرَ مَعَ أَبِيهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْحُلُمَ[3].

وَقَدْ كَانَ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً وَبِضْعَةُ أَشْهُرٍ؛ فَجَاءَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَتْرَابِهِ[4] الصِّغَارِ يَرْجُونَ مِنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ؛ فَأَذِنَ لِبَعْضِهِمْ، وَرَدَّ بَعْضَهُمُ الْآخَرَ لِصِغَرِ سِنِّهِمْ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فِي جُمْلَةِ مَنْ رَدَّهُمْ...

---

(١) الرَّصَانُ الرَّزَان: الرصينة العاقلة الوقور.

(٢) أَكْنَافِ الإِسْلَام: حرز الإسلام.

(٣) يَبْلُغَ الْحُلُم: يبلغ سن التكليف.

(٤) التِّرب: جمعها أتراب، وتربك من ولد معك ومن كان في سنك.

فَعَادَ الْفِتْيَةُ الْأَخْيَارُ الْأَبْرَارُ يَبْكُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ حُرِمُوا مِمَّا كَانَتْ تَطْمَحُ إِلَيْهِ نُفُوسُهُمُ الْكَبِيرَةُ مِنْ شَرَفِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي يَوْمِ أُحُدٍ ؛ أَصْبَحَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَبِضْعَةُ أَشْهُرٍ ؛ فَجَاءَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَمَعَهُ أَتْرَابُهُ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الْجِهَادِ ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً مُسْتَأْنِيَةً ، ثُمَّ اخْتَبَرَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا ؛ فَقَبِلَ مِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ ، وَرَدَّ مِنْهُمْ مَنْ رَدَّ(١)

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمَرْدُودِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ...

فَعَادُوا وَهُمْ يَبْكُونَ ؛ لِأَنَّ صِغَرَ أَعْمَارِهِمْ قَدْ حَالَ دُونَهُمْ وَدُونَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ ؛ أَصْبَحَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ فَجَاءَ هُوَ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَتْرَابِهِ يَجُرُّونَ سُيُوفَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَمُدُّونَ قَامَاتِهِمْ إِلَى أَعْلَى ؛ وَيَسْأَلُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِالْجِهَادِ ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ هَٰذِهِ الْمَرَّةَ .

عِنْدَ ذَٰلِكَ غَمَرَتْهُمُ الْفَرْحَةُ ، وَفَاضَ عَلَى وُجُوهِهِمُ السُّرُورُ ، وَطَفَحَ عَلَيْهَا الْبِشْرُ .

ثُمَّ شَهِدَ بَعْدَ ذَٰلِكَ سَائِرَ الْغَزَوَاتِ الَّتِي غَزَاهَا الْمُسْلِمُونَ .

---

(١) انظر الامتحانات عند المسلمين في كتاب « فن الامتحانات بين الطالب والمعلم » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

وَدَخَلَ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ ـ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ ـ فَلَمَّا أَبْصَرَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ طَفِقَ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيَقُولُ :

(إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ ... وَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ ...) .

* * *

وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ مِثَالًا فَرِيدًا لِلشَّابِّ الَّذِي نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ؛ حَتَّىٰ قِيلَ : إِنَّ أَمْلَكَ(١) شَبَابِ قُرَيْشٍ لِنَفْسِهِ ؛ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ .

وَلَا غَرْوَ ؛ فَقَدْ كَانَ شَابًّا مُعَلَّقَ الْقَلْبِ بِالْمَسَاجِدِ ... فَالْمَسْجِدُ دَارُ إِقَامَتِهِ إِذَا أَرَادَ الرَّاحَةَ ، وَالْمَسْجِدُ مَحَلُّ عِبَادَتِهِ إِذَا رَامَ الْعِبَادَةَ .

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا رَأَىٰ رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكُنْتُ آنَئِذٍ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا(٢)، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ...

فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي وَذَهَبَا بِي إِلَىٰ النَّارِ ، وَإِذَا لِلنَّارِ قَرْنَانِ(٣)، وَإِذَا بِي أَرَىٰ فِيهَا نَاسًا قَدْ عَرَفْتُهُمْ ؛ فَجَعَلْتُ أَقُولُ :

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ... أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ...

فَلَقِيَنِي مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تُرَاعَ(٤)

فَقَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَىٰ أُخْتِي أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ حَفْصَةَ ؛ فَقَصَّتْهَا عَلَىٰ الرَّسُولِ

(١) أَمْلَكَ لِنَفْسِه : أقدر علىٰ التحكم فيها .

(٢) عَزَبًا : غير متزوج .

(٣) لِلنَّارِ قَرْنَان : لسانان من اللهب .

(٤) الروع : الفزع .

الْكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ :

(نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ ؛ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ) .

فَمَا إِنْ سَمِعَ ذَلِكَ ؛ حَتَّىٰ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ أَلَّا يَنَامَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ...

فَكَانَ إِذَا أَسْلَمَ النَّاسُ جُنُوبَهُمْ إِلَىٰ الْمَضَاجِعِ(١) يُصَلِّي مَا يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ...

ثُمَّ يَصِيرُ إِلَىٰ الْفِرَاشِ ؛ فَيَغْفُو إِغْفَاءَةَ الطَّائِرِ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي ...

ثُمَّ يَغْفُو إِغْفَاءَةَ الطَّائِرِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي اللَّيْلِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسَ مَرَّاتٍ .

* * *

وَلَقَدْ شَهِدَ كِرَامُ الصَّحَابَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بِالصَّلَاحِ .

وَصَدَّقَ الْفَتَىٰ الْعُمَرِيُّ شَهَادَتَهُمْ فِيهِ ، وَحَقَّقَهَا بِأَفْعَالِهِ ...

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ :

مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ أَدْرَكَ الدُّنْيَا إِلَّا وَمَالَتْ(٢) بِهِ وَمَالَ بِهَا ؛ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ، وَآلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ(٣)؛ أَرَادَ أَنْ يَكِلَ أَمْرَ الْقَضَاءِ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ؛ فَقَالَ لَهُ :

---

(١) أسلم الناس جنوبهم إلى المضاجع : غرق الناس في النوم .
(٢) مَالَتْ بِهِ وَمَالَ بِهَا : نازعته ونازعها .
(٣) عُثْمَان بن عَفَّان : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

اقْضِ بَيْنَ النَّاسِ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّكَ مِنْ أَفْقَهِ الْمُسْلِمِينَ بِدِينِ اللَّهِ ، وَأَوْسَعِهِمْ رِوَايَةً لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَأَبَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ، وَقَالَ :

لَا أَقْضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ ، وَلَا أَؤُمُّ اثْنَيْنِ .

فَقَالَ : إِنَّ أَبَاكَ كَانَ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيٌّ ؛ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْتَ ؟!

فَقَالَ : إِنَّ أَبِي كَانَ يَقْضِي ؛ فَإِذَا أَشْكَلَ[١] عَلَيْهِ شَيْءٌ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ شَيْءٌ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ...

وَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا أَسْأَلُهُ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ :

أَمَا سَمِعْتَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ :

(مَنْ عَاذَ بِاللَّهِ ؛ فَقَدْ عَاذَ بِمَعَاذٍ[٢]) .

فَقَالَ بَلَىٰ ؛ لَقَدْ سَمِعْتُهُ .

فَقَالَ : إِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تَسْتَعْمِلَنِي عَلَىٰ الْقَضَاءِ .

فَأَعْفَاهُ عُثْمَانُ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ لَهُ :

لَا تُخْبِرْ بِهَذَا أَحَدًا ؛ فَالْمُسْلِمُونَ بِحَاجَةٍ لِمَنْ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَابِدًا زَاهِدًا فَحَسْبُ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ مَعَ ذَلِكَ

(١) أَشْكَلَ عَلَيْهِ : اخْتَلَطَ عَلَيْهِ .
(٢) عَاذَ بِمَعَاذٍ : لَجَأَ إِلَىٰ مَلْجَإٍ وَلَاذَ بِمَلَاذٍ حقًّا .

جُنْدِيًّا مُجَاهِدًا فَغَزَا مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ كُلًّا مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَالْبَصْرَةِ وَفَارِسَ ...

وَشَهِدَ مَعَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ(١) فَتْحَ مَصْرَ ، وَأَقَامَ فِيهَا رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ ؛ فَرَوَىٰ عَنْهُ الْحَدِيثَ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَرْبَعِينَ مِنْ أَهْلِهَا .

* * *

وَلَمَّا ثَارَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ جَعَلَ بَعْضُ النَّاسِ يَلْتَمِسُونَ لِلْخِلَافَةِ رَجُلًا غَيْرَهُمَا ؛ فَتَوَجَّهَ نَفَرٌ مِنْ ذَوِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ(٢) إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَقَالُوا :

هَاتِ يَدَكَ نُبَايِعْ لَكَ ؛ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْعَرَبِ وَابْنُ سَيِّدِهَا ، وَخَيْرُ النَّاسِ وَابْنُ خَيْرِ النَّاسِ .

فَقَالَ : مَا أَنَا بِخَيْرِ النَّاسِ وَلَا ابْنِ خَيْرِ النَّاسِ ، وَلَكِنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، أَرْجُو اللَّهَ وَأَخَافُهُ ...

وَاللَّهِ ! لَا تَزَالُونَ تُطْرُونَ(٣) الرَّجُلَ حَتَّىٰ تُهْلِكُوهُ ، وَإِذَا بَايَعْتُمُونِي أَنْتُمْ ؛ فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِأَهْلِ الْمَشْرِقِ ؟!

قَالُوا يُبَايِعُونَكَ أَوْ تُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يَدِينُوا لَكَ بِالْوَلَاءِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ ! مَا أُحِبُّ أَنَّ الْخِلَافَةَ دَانَتْ لِي سَبْعِينَ سَنَةً ، وَأَنَّهُ قُتِلَ بِسَبَبِي رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ قَلْبُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ طُوَالَ حَيَاتِهِ مُعَلَّقًا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ

(١) عَمْرو بْنِ الْعَاص : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) ذَوِي الْحَلِّ وَالْعَقْد : هم أهل الشورىٰ وذوو الرأي والمكانة .
(٣) الإطراء : الثناء والمبالغة في المدح .

اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَكَانَ يَهْتَدِي بِهَدْيِهِ ، وَيَقْتَدِي بِفِعْلِهِ ، وَيَسْلُكُ مَسَالِكَهُ ، وَيَحْفَظُ مَا يَسْمَعُهُ مِنْهُ ، وَيَعُضُّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ .

وَمَا ذُكِرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَامَهُ مَرَّةً ؛ إِلَّا بَكَىٰ لِفِرَاقِهِ .

وَقَدْ كَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ شَدِيدَ الْخَشْيَةِ مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمْعِ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ؛ فَمَا تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾(١)

إِلَّا غَلَبَ عَلَيْهِ الْبُكَاءُ .

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ قَرَأَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَيْرَةَ أَمَامَهُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ(٢) بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ(٣) اللَّهَ حَدِيثًا ﴾(٤)...

فَجَعَلَ يَبْكِي أَشَدَّ الْبُكَاءِ وَيَذْرِفُ سَخِيَّ الدَّمْعِ ؛ حَتَّىٰ تَبَلَّلَتْ ثِيَابُهُ وَكَادَ الْبُكَاءُ يُقَطِّعُ نِيَاطَ(٥) قَلْبِهِ ، وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ رَجُلٌ فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ ؛ حَتَّىٰ هَمَّ بِأَنْ يَقُومَ إِلَىٰ الْقَارِئِ وَيَقُولَ لَهُ : أَقْصِرْ(٦)؛ فَإِنَّكَ قَدْ آذَيْتَ الشَّيْخَ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ طُلَّابِ الْمَعْرِفَةِ يَكْتُبُونَ إِلَيْهِ رَاغِبِينَ فِي أَنْ يُزَوِّدَهُمْ بِخَالِصِ نُصْحِهِ وَثَمِينِ إِرْشَادِهِ ... فَكَانَ يُجِيبُهُمْ عَنْ طَلَبِهِمْ بِكَلِمَاتٍ بَاقِيَاتٍ

---

(١) سورة الحديد آية ١٦.
(٢) تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْض : أي تستوي بهم ؛ بأن يكونوا ترابًا مثلها .
(٣) يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا : يُنْكِرُونَ وَيُخْفُونَ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا مِمَّا عَمِلُوا
(٤) سورة النساء آية ٤١ - ٤٢.
(٥) نِيَاطَ القَلْب : العروق التي يتعلق بها القلب .
(٦) أَقْصِر أوجز .

عَلَىٰ الدَّهْرِ ...

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ أَحَدَهُمْ بَعَثَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

اكْتُبْ لِي - يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ - بِالدِّينِ كُلِّهِ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

إِنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَىٰ اللَّهَ خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؛ خَمِيصَ[1] الْبَطْنِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ؛ كَافَّ اللِّسَانِ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ ؛ لَازِمًا لِأَمْرِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَافْعَلْ .

* * *

وَقَدْ جَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ دَأْبَهُ كُلَّهُ فِي إِطْعَامِ الطَّعَامِ ، وَبِرِّ الْمَسَاكِينِ وَالْأَيْتَامِ ؛ حَتَّىٰ رُوِيَتْ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَذُكِرَتْ لَهُ فِيهِ آثَارٌ وَفِيرَةٌ .

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّهُ اشْتَهَىٰ ذَاتَ مَرَّةٍ سَمَكًا ؛ فَبَحَثَتِ امْرَأَتُهُ صَفِيَّةُ عَنْ سَمَكَةٍ حَتَّىٰ وَقَعَتْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ صَنَعَتْهَا فَأَحْسَنَتْ صُنْعَهَا ، ثُمَّ قَرَّبَتْهَا إِلَيْهِ ...

فَسَمِعَ نِدَاءَ مِسْكِينٍ عَلَىٰ الْبَابِ ؛ فَقَالَ :

ادْفَعُوا السَّمَكَةَ إِلَيْهِ .

فَقَالَتْ صَفِيَّةُ : نَشَدْتُكَ اللَّهَ أَنْ تُقَوِّيَ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ مِنْهَا .

فَقَالَ : ادْفَعُوهَا إِلَيْهِ .

فَقَالَتْ : نَحْنُ نُرْضِيهِ بَدَلًا مِنْهَا ، وَقَالَتْ لِلسَّائِلِ :

إِنَّهُ قَدِ اشْتَهَىٰ هَٰذِهِ السَّمَكَةَ .

(١) خَمِيصَ الْبَطْنِ : ضامر البطن .

فَقَالَ : وَأَنَا ـ وَاللَّهِ ـ أَشْتَهِيهَا أَيْضًا فاشْتَرَتْهَا مِنْهُ بِدِينَارٍ ، وَأَرْضَتْهُ .

ثُمَّ قَالَتْ لِزَوْجِهَا : إِنَّا قَدْ أَرْضَيْنَا السَّائِلَ ، وَأَجْزَلْنَا[١] عَطِيَّتَهُ .

فَقَالَ لَهُ : هَلْ أَرْضُوكَ وَرَضِيتَ ، وَأَخَذْتَ الثَّمَنَ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ .

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَقَالَ : الْآنَ ادْفَعُوهَا إِلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ عُوتِبَتِ امْرَأَتُهُ فِي أَمْرِ هُزَالِهِ[٢]؛ فَقِيلَ لَهَا :

أَمَا تَرْفُقِينَ بِهَٰذَا الشَّيْخِ ؟! .

فَقَالَتْ : وَمَا أَصْنَعُ بِهِ ؟!

وَاللَّهِ ! مَا أَعْدَدْتُ لَهُ طَعَامًا إِلَّا دَعَا إِلَيْهِ مَنْ يَأْكُلُهُ ؛ فَأَرْسَلْتُ إِلَىٰ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْلِسُونَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَأَطْعَمْتُهُمْ ، وَقُلْتُ لَهُمْ : لَا تَجْلِسُوا فِي طَرِيقِهِ ...

فَلَمَّا جَاءَ إِلَىٰ بَيْتِهِ قَالَ : أَرْسِلُوا طَعَامًا إِلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ ؛ فَقُلْتُ :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ بِمَا تُرِيدُ وَأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُ ؛ فَقَالَ

بَلْ إِنَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَلَّا أَتَعَشَّىٰ اللَّيْلَةَ ، ثُمَّ نَهَضَ وَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ ؛ فَمَا اسْتَحْسَنَتْ نَفْسُهُ شَيْئًا مِنْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ[٣] إِلَّا وَتَصَدَّقَ بِهِ .

---

١) أَجْزَلْنَا عَطِيَّتَه : أكرمناه وأكثرنا هبته .

٢) الهزيل : الضعيف الناحل .

٣) المَتَاع : كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ عُرُوضِ الدُّنْيَا .

وَقَدْ عَرَفَ أَرِقَّاؤُهُ[١] ذَلِكَ ؛ فَجَعَلُوا يَحْتَالُونَ بِهِ عَلَيْهِ ... فَإِذَا تَاقَتْ نَفْسُ أَحَدِهِمْ إِلَىٰ الْعِتْقِ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدَيْهِ لِلْعِبَادَةِ ، وَلَزِمَ الْمَسْجِدَ ؛ فَإِذَا رَآهُ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْحَالِ اسْتَحْسَنَهَا مِنْهُ ، وَأَعْتَقَهُ ؛ فَيَقُولُ لَهُ أَصْحَابُهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْدَعُوكَ بِعِبَادَتِهِمْ هَٰذِهِ ؛ فَيَقُولُ :

مَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ لَا يَكْتَفِي بِإِعْتَاقِ الْعَبْدِ ؛ وَإِنَّمَا يُغْدِقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ مَا يُيَسِّرُ لَهُ سُبُلَ الْعِيشَةِ الرَّاضِيَةِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ ؛ قَالَ :

خَرَجْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ إِلَىٰ مَكَّةَ نَبْتَغِي الْعُمْرَةَ ؛ فَعَرَّسْنَا[٢] فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ ؛ فَانْحَدَرَ عَلَيْنَا رَاعٍ مِنَ الْجَبَلِ ؛ فَأَرَادَ ابْنُ عُمَرَ أَنْ يَخْتَبِرَهُ ؛ فَقَالَ :

أَمَمْلُوكٌ[٣] أَنْتَ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ : بِعْنِي شَاةً مِنَ الْغَنَمِ ، وَإِذَا سَأَلَكَ سَيِّدُكَ عَنْهَا فَقُلْ : أَكَلَهَا الذِّئْبُ .

فَقَالَ : وَأَيْنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

فَبَكَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَقَالَ :

نَعَمْ ! ... أَيْنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ...

---

(١) أَرِقَّاؤُه : عبيده .
(٢) فَعَرَّسْنَا : نزلنا للاستراحة .
(٣) مَمْلُوك : عَبْد

ثُمَّ بَعَثَ فَشَرَاهُ مِنْ مَالِكِهِ ، وَشَرَىٰ لَهُ الْغَنَمَ الَّتِي كَانَ يَرْعَاهَا ، وَأَعْتَقَهُ .

* * *

وَأَخِيرًا - وَلَيْسَ آخِرًا - فَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ جَوَّادًا[1] لَا تُمْسِكُ يَدَاهُ الْمَالَ ...

فَقَدْ أُتِيَ مَرَّةً بِبِضْعَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا ؛ فَمَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّىٰ أَنْفَقَهَا كُلَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَزَادَهَا

فَجَاءَهُ بَعْضُ السَّائِلِينَ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ شَيْءٌ ؛ فَاسْتَدَانَ مَبْلَغًا مِنْ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ دَفَعَ بِهِ إِلَىٰ السَّائِلِ .

* * *

وَبَعْدُ ... فَلَقَدْ عَاشَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ حَتَّىٰ نَيَّفَ عَلَىٰ الثَّمَانِينَ ؛ فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ ؛ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ :

مَا آسَىٰ[2] عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا عَلَىٰ ثَلَاثٍ :

ظَمَإِ الْهَوَاجِرِ[3]

وَمُكَابَدَةِ[4] اللَّيْلِ ...

وَأَنِّي لَمْ أُقَاتِلْ أَهْلَ الْفِتْنَةِ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

---

(١) الجوَّاد : كثير الجود والعطاء .
(٢) مَا آسَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ : لا أحزن علىٰ شيء .
(٣) ظَمَإِ الْهَوَاجِرِ : الصِّيام للّه في شِدَّة الْحَرِّ
(٤) مُكَابَدَةِ اللَّيْلِ : بالقيام والعبادة للّه فيه

فَلَقَدْ عَاشَ بَرًّا تَقِيًّا ...

وَمَاتَ زَاهِدًا عَابِدًا (*) .

(*) للاستزاده من أخبار عَبْد اللَّه بْن عُمَر بْن الْخَطَّاب انْظُر:

١ - الإصابة: ٣٤٧/٢ أو «الترجمة» ٤٨٣٤.
٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٢/ ٣٤١.
٣ - الطبقات الكبرى: ١٤٢/٤ وانظر الفهارس.
٤ - البداية والنهاية: ٩/ ٤.
٥ - أسد الغابة: ٣/ ٣٤٠.
٦ - حلية الأولياء: ١/ ٢٩٢.
٧ - صفة الصفوة: ١/ ٥٦٣.
٨ - ابن خياط: ٢٢/ ١٩٠.
٩ - العبر: ١/ ٨٣.
١٠- شذرات الذهب: ١/ ٨١.
١١- طبقات الشعراني: ٣٢.
١٢- تاريخ الإسلام: ٣/ ١٧٧
١٣- الأعلام: ٤/ ٢٤٦.

طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ

« طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ يُعَدُّ بِأَلْفِ فَارِسٍ »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ قَدِمَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَفْدٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ. وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ.

فَلَمَّا بَلَغُوا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ ؛ مَثُلُوا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَامَ خَطِيبُهُمْ وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّهُ بَعَثَكَ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ...

وَنَحْنُ إِنَّمَا جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا وَلَمْ تَبْعَثْ إِلَيْنَا أَحَدًا

فَتَقَبَّلْ إِسْلَامَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَرَحَّبَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ ، وَأَنْزَلَهُمْ خَيْرَ مَنْزِلٍ .

* * *

لَكِنَّ طُلَيْحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ مَا لَبِثَ أَنْ تَغَيَّرَتْ نَفْسُهُ عَلَىٰ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ ، وَدَبَّ فِي قَلْبِهِ الْحَسَدُ[1] لَهُ .

وَجَعَلَ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِ وَكَيْفَ بَدَأَ صَغِيرًا ، ثُمَّ مَا زَالَ يَنْمُو وَيَكْبُرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ حَتَّىٰ دَانَتْ لَهُ[2] جَزِيرَةُ الْعَرَبِ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا بِالْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ .

ثُمَّ أَخَذَ شَيْطَانُ طُلَيْحَةَ يَسْتَدْرِجُهُ ، وَيُمَنِّيهِ الْأَمَانِيَّ ...

---

(١) دب الحسد في قلبه : مشىٰ الحسد في فؤاده ، وتمنَّىٰ زوال هذه النعمة عن الرَّسول ﷺ .
(٢) دانت له : خضعت لطاعته .

فَيَقُولُ لَهُ يَا طُلَيْحَةُ ... أَيْنَ مُحَمَّدٌ مِنْكَ ؟!

فَمَا هُوَ بِأَفْصَحَ مِنْكَ لِسَانًا ؛ فَأَنْتَ أَدِيبٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ ...

وَمَا هُوَ بِأَقْوَىٰ مِنْكَ جَنَانًا[1] ؛ فَأَنْتَ أَشْجَعُ الْعَرَبِ شَجَاعَةً ، وَأَشَدُّهُمْ بَأْسًا ؛ حَتَّىٰ إِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَكَ بِأَلْفِ فَارِسٍ إِذَا جَدَّ الْجِدُّ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ بِأَعَزَّ مِنْكَ نَفَرًا[2] ؛ فَأَنْتَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ، وَبَنُو أَسَدٍ مَسَاعِرُ[3] حَرْبٍ ؛ لَهُمْ فِي مَيَادِينِهَا أَيَّامٌ مَشْهُودَاتٌ ، وَمَوَاقِفُ مَعْدُودَاتٌ .

فَلَمَّا عَادَ الْوَفْدُ إِلَىٰ مَنَازِلِهِ ... وَقَفَ طُلَيْحَةُ فِي بَنِي أَسَدٍ يَزْعُمُ لَهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

فَتَبِعُوهُ جَمِيعًا إِمَّا إِيمَانًا بِهِ ، وَ إِمَّا عَصَبِيَّةً[4] لَهُ .

* * *

بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ جَيْشًا بِقِيَادَةِ ضِرَارِ بْنِ الْأَزْوَرِ لِقِتَالِ طُلَيْحَةَ وَقَوْمِهِ .

فَأَبْلَىٰ الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ فِي بَنِي « أَسَدٍ » وَأَحْلَافِهِمْ أَعْظَمَ الْبَلَاءِ .

وَأَوْشَكَ أَمْرُ طُلَيْحَةَ أَنْ يَضْمَحِلَّ ؛ لَوْلَا أَنَّ ضِرَارًا الْتَقَىٰ بِهِ وَجْهًا لِوَجْهٍ ...

وَضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ ؛ فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْبُوَ[5] عَنْهُ السَّيْفُ ، وَأَلَّا يُؤَثِّرَ فِيهِ .

فَاغْتَنَمَ طُلَيْحَةُ ذَلِكَ ، وَجَعَلَ يُشِيعُ فِي قَوْمِهِ أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ ...

وَأَنَّ السُّيُوفَ الْقَوَاطِعَ لَا تَعْمَلُ فِي جَسَدِهِ ...

فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَنْ تَفَرَّقَ عَنْهُ ، وَتَبِعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ .

---

(١) جنانًا : قلبًا

(٢) أعز نفرًا : أشرف جماعة .

(٣) مَسَاعِرُ حربٍ : موقدو نار الحروب .

(٤) العصبية : شِدَّة ارتباط المرء بجماعته .

(٥) أن يَنْبُوَ عنه السيف : أن يرتدَّ عنه .

وَقَدْ زَادَهُ قُوَّةً عَلَىٰ قُوَّةٍ ؛ وَفَاةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَارْتِدَادُ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ عَنْ دِينِ اللَّهِ ، وَخُرُوجُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا ؛ كَمَا دَخَلُوا فِيهِ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا

* * *

مَا كَادَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّىٰ عَقَدَ أَحَدَ عَشَرَ لِوَاءً لِأَحَدَ عَشَرَ قَائِدًا ، وَوَجَّهَهُمْ جَمِيعًا لِحَرْبِ الْمُرْتَدِّينَ .

وَكَانَ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ وَقَوْمُهُ بَنُو أَسَدٍ مِنْ حِصَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ[١]

فَتَوَجَّهَ سَيْفُ اللَّهِ إِلَىٰ مَوَاطِنِ بَنِي أَسَدٍ فِي نَجْدٍ ، وَأَرْسَلَ فِي مُقَدِّمَةِ جَيْشِهِ مِغْوَارَيْنِ[٢] اثْنَيْنِ مِنْ مَغَاوِيرِ الْمُسْلِمِينَ هُمَا

عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ ، وَثَابِتُ بْنُ سَلَمَةَ لِيَجُوسَا[٣] خِلَالَ الدِّيَارِ ...

وَيَتَسَقَّطَا[٤] لِلْمُسْلِمِينَ الْأَخْبَارَ .

فَظَفِرَ بِهِمَا طُلَيْحَةُ ، وَقَتَلَهُمَا شَرَّ قِتْلَةٍ .

فَلَمَّا عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِمَصْرَعِهِمَا ؛ حَزِنُوا عَلَيْهِمَا أَشَدَّ الْحُزْنِ وَأَمَرَّهُ ...

وَآلَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَثْأَرُوا لَهُمَا مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِيًا .

* * *

الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ عَلَىٰ بِئْرِ « بُزَاخَةَ » فِي أَرْضِ نَجْدٍ ...

وَاقْتَتَلَا قِتَالًا عَنِيفًا ضَارِيًا ؛ تَسَاوَىٰ الْفَرِيقَانِ فِي أَوَّلِهِ .

وَكَانَ سَيِّدُ بَنِي فَزَارَةَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ قَدْ هَبَّ مَعَ قَوْمِهِ لِنَجْدَةِ طُلَيْحَةَ ،

(١) خَالِدِ بْنِ الْوَلِيد : انظره ص ١٨٧.
(٢) المِغوار : الكثير الغارات ، والجمع مغاوير .
(٣) ليجوسا خلال الديار : ليدورا خلال المنازل ويستقصيا ما فيها .
(٤) يتسقطا الأخبار : يأخذا الأخبار شيئًا فشيئًا .

وَصَدِّ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ ...

فَلَمَّا أَخَذَتْ كِفَّةُ الْمُسْلِمِينَ تَرْجُحُ عَلَىٰ كِفَّةِ الْمُشْرِكِينَ ؛ نَظَرَ عُيَيْنَةُ إِلَىٰ طُلَيْحَةَ فَوَجَدَهُ قَدِ انْحَازَ إِلَىٰ فُسْطَاطِهِ(١)

وَتَلَفَّفَ بِكِسَائِهِ ...

وَزَعَمَ لِأَتْبَاعِهِ بِأَنَّ الْوَحْيَ سَيَنْزِلُ عَلَيْهِ ...

وَأَنَّ اللَّهَ سَيُمِدُّهُ بِالْمَلَائِكَةِ .

وَلَمَّا حَمِيَ الْوَطِيسُ(٢)، وَثَقُلَتْ وَطْأَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَتْبَاعِ طُلَيْحَةَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ سَيِّدُ بَنِي فَزَارَةَ وَقَالَ :

هَلْ جَاءَكَ الْمَلَكُ يَا طُلَيْحَةُ ؟

قَالَ : لَا يَا عُيَيْنَةُ .

فَرَجَعَ وَقَاتَلَ ؛ حَتَّىٰ ازْدَادَتِ الْوَطْأَةُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ قَوْمِهِ ثِقَلًا .

فَكَرَّ عَلَىٰ طُلَيْحَةَ وَقَالَ : لَا أَبَا لَكَ ! أَجَاءَكَ جِبْرِيلُ ؟

قَالَ : لَا

فَقَالَ عُيَيْنَةُ : حَتَّىٰ مَتَىٰ ؟!! ...

وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغَ الْجَهْدُ مِنَّا كُلَّ مَبْلَغٍ ...

ثُمَّ رَجَعَ فَقَاتَلَ قِتَالًا عَنِيفًا

ثُمَّ كَرَّ عَلَىٰ طُلَيْحَةَ ؛ فَقَالَ : هَلْ جَاءَكَ جِبْرِيلُ ؟

قَالَ : نَعَمْ ...

---

(١) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

(٢) حمي الوطيس : اشتدت الحربُ .

قَالَ : فَبِمَاذَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ؟

قَالَ : لَقَدْ قَالَ لِي : « إِنَّ لَكَ يَوْمًا سَتَلْقَاهُ ؛ لَيْسَ لَكَ أَوَّلُهُ ، وَلَكِنْ لَكَ أُخْرَاهُ ... ثُمَّ إِنَّ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ حَدِيثًا لَا تَنْسَاهُ » .

فَقَالَ لَهُ عُيَيْنَةُ : تَبًّا لَكَ ؛ أَرَىٰ ـ وَاللَّهِ ـ لَكَ حَدِيثًا لَا تَنْسَاهُ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَقَالَ : يَا بَنِي فَزَارَةَ ؛ إِنَّ هَٰذَا كَذَّابٌ أَشِرٌ[١].

ثُمَّ انْحَازَ عَنْهُ بِمَنْ مَعَهُ ؛ فَظَهَرَ[٢] الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ بَنِي أَسَدٍ ...

وَوَلَّىٰ طُلَيْحَةُ هَارِبًا ، وَنَزَلَ عَلَىٰ الْغَسَاسِنَةِ[٣] فِي بِلَادِ الشَّامِ .

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ إِقَامَةِ طُلَيْحَةَ عِنْدَ الْغَسَاسِنَةِ حَتَّىٰ ثَابَ إِلَىٰ رُشْدِهِ .

فَجَعَلَ يَعَضُّ بَنَانَ النَّدَمِ عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَقُولُ :

ثَكِلَتْكَ[٤] أُمُّكَ يَا طُلَيْحَةُ ...

كَمْ هُوَ مُرِيعٌ لَوْ أَنَّ سَيْفَ ضِرَارِ بْنِ الْأَزْوَرِ أَطَاحَ بِهَامَتِكَ ؟

لَقَدْ كُنْتَ تُقْتَلُ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِكَ مُشْرِكًا بِرَبِّكَ ...

وَيَكُونُ مَصِيرُكَ النَّارَ ...

ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا طُلَيْحَةُ إِنْ لَمْ تَمْضِ هَٰذِهِ السَّاعَةَ إِلَىٰ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْلِمًا مُسْتَسْلِمًا[٥]...

(١) أَشِرٌ : بَطِرٌ .
(٢) ظَهَرَ الْمُسْلِمُون عَلَىٰ القوم : غلبوهم .
(٣) الغَسَاسِنَة : أو آل جفنة ، سلالة عربية يمنية الأصل ، هجرت بلادها عندما هدم سد مأرب ، واستوطنت بلاد حوران وشرق الأردن واعتنقت المسيحية ، وعملوا في الجيش البيزنطي وحموا الحدود السورية .
(٤) ثكلتك أُمُّكَ : فقدتكَ أُمُّكَ .
(٥) مستسلمًا : منقادًا .

وَلْيَفْعَلْ بِكَ مَا يَشَاءُ ...

فَإِنَّ ذَلِكَ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ لَحْظَةِ عَذَابٍ تَصْلَاهَا فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...

عَاهِدِ اللَّهَ - يَا طُلَيْحَةُ - إِنْ هُوَ سَلَّمَكَ حَتَّىٰ تَفِدَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ أَنْ تَجْعَلَ عُنُقَكَ الَّتِي نَجَتْ مِنْ سَيْفِ ضِرَارِ بْنِ الأَزْوَرِ ؛ فِدَاءً لِدِينِ اللَّهِ وَوِقَاءً[1] لِلْمُسْلِمِينَ .

ثُمَّ نَزَلَ إِلَىٰ بِئْرٍ ؛ فَاغْتَسَلَ بِمَائِهَا ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ .

* * *

بَلَغَ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، وَدَخَلَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مُعْلِنًا إِسْلَامَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ الْفَارُوقُ :

وَيْحَكَ ! أَلَسْتَ الَّذِي قَتَلَ الرَّجُلَيْنِ الصَّالِحَيْنِ عُكَاشَةَ وَثَابِتًا .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا : إِنَّ نَفْسِي - وَاللَّهِ - لَا تَرْتَاحُ إِلَيْكَ أَبَدًا ...

فَقَالَ طُلَيْحَةُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا يُهِمُّكَ مِنْ رَجُلَيْنِ : هُمَا أُكْرِمَا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ يَدَيَّ ...

وَأَنَا شَقِيتُ بِهِمَا ...

وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ...

فَاسْتَجَابَ لَهُ عُمَرُ ، وَقَبِلَ إِسْلَامَهُ .

* * *

(١) وِقَاءً : صَوْنًا .

تَابَ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ مِنْ زَلَّتِهِ الْكُبْرَىٰ تَوْبَةً صَادِقَةً نَصُوحًا(١)

وَعَاهَدَ اللَّهَ عَلَىٰ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِهِ مَا بَقِيَ فِيهِ عِرْقٌ يَنْبِضُ(٢)

وَآلَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يُورِدَهَا مَوَارِدَ الرَّدَىٰ ؛ عَلَّهُ يَمُوتُ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

فَشَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ ذَاتَ مَرَّةٍ لِغَزْوِ بِلَادِ الرُّومِ ، وَفِيهِمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ ، وَبَيْنَمَا هُمْ يَمْخُرُونَ الْعُبَابَ(٣) بَرَزَتْ لَهُمْ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ سُفُنِ الْعَدُوِّ تَحْمِلُ مِنَ الْجُنْدِ مَا يَفُوقُهُمْ عُدَّةً وَعَدَدًا ، وَجَعَلَتْ تُطَارِدُهُمْ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ...

فَقَالَ طُلَيْحَةُ لِأَصْحَابِهِ : قَرِّبُونَا مِنْهَا

فَقَالُوا لَهُ : إِنَّهُ لَا قِبَلَ(٤) لَنَا بِهَا يَا طُلَيْحَةُ .

فَقَالَ لَهُمْ : وَاللَّهِ إِمَّا أَنْ تُقَرِّبُوا سَفِينَتَنَا مِنْ سَفِينَتِهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ أُعْمِلَ فِي رِقَابِكُمْ هَٰذَا السَّيْفَ .

فَلَمْ يَجِدُوا مَنْدُوحَةً(٥) عَنِ الْإِذْعَانِ لَهُ .

وَلَمَّا تَحَاذَتِ السَّفِينَتَانِ ؛ قَالَ طُلَيْحَةُ لِمَنْ مَعَهُ :

ارْفَعُونِي عَلَىٰ سَوَاعِدِكُمْ ، وَاقْذِفُونِي عَلَىٰ سَفِينَةِ الرُّومِ ، وَسَأُرِيكُمْ مَا يُقِرُّ

---

(١) نصوحًا : خالصةً من الشوائب .
(٢) عرق ينبض : نَبَض العرق أي تحرَّكَ حركةً تدل عَلَىٰ حياة الإنسان .
(٣) يمخرون العُباب : مخرت السفينة جَرَت تشق الماء ، والعُباب : ارتفاع الموج .
(٤) لا قبل لنا بها : لا طاقة لنا بها ، ولا قدرة لنا عَلَيها .
(٥) المندوحة : السَّعة والفُسْحَة .

عُيُونَكُمْ[1] إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ ؛ حَتَّىٰ وَثَبَ طُلَيْحَةُ عَلَىٰ سَفِينَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَانْقَضَّ عَلَىٰ مَنْ فِيهَا انْقِضَاضَ الصَّاعِقَةِ ...

وَأَجَالَ سَيْفَهُ فِي رِقَابِهِمْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ؛ فَذَهِلُوا[2]

وَجَعَلُوا يَتَطَايَرُونَ تَحْتَ ضَرَبَاتِهِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّىٰ قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ ...

وَغَرِقَ مِنْهُمْ مَنْ غَرِقَ ...

وَاسْتَسْلَمَ الْبَاقُونَ .

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْقَادِسِيَّةِ[3] ؛ أَخْرَجَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ[4] طُلَيْحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيَّ فِي خَمْسَةٍ مِنْ رِجَالِهِ .

وَأَخْرَجَ عَمْرَو بْنَ مَعْدِي كَرِبٍ[5] فِي خَمْسَةٍ آخَرِينَ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَسَلَّلُوا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ إِلَىٰ مُعَسْكَرَاتِ الْفُرْسِ ؛ لِيَأْتُوهُ بِأَخْبَارِهِمْ .

فَمَا إِنْ دَخَلَتِ السَّرِيَّتَانِ الْمُعَسْكَرَ ؛ حَتَّىٰ انْخَلَعَتْ[6] قُلُوبُ رِجَالِهِمَا مِنْ هَوْلِ مَا رَأَوْا مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ...

---

(١) ما يُقِرُّ عيونكم : ما يسرُّكم .
(٢) ذهلوا : غابوا عن رشدهم .
(٣) القادسية : موقع في العراق غربي النجف حدثت فيه معركة كبرىٰ انتصر فيها المسلمون عَلَىٰ الفرس .
(٤) سعد بن أبي وقاص : انظره في الكتاب الرابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٥) عمرو بن معدي كرب : أحد شجعان العرب المشهورين ؛ كان يقال لكل فارس من العرب فارس بني فلان إلّا هو فكان يقال له فارس العرب جميعًا .
(٦) انخلعت القلوب : كادت القلوب تُنْزَع وتزول من مكانها .

وَمَا وَجَدُوا مِنَ الْيَقَظَةِ وَالأُهْبَةِ(١)

فَرَجَعَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٍ وَأَصْحَابُهُ، وَلَحِقَ بِهِمْ رِجَالُ طُلَيْحَةَ الْخَمْسَةُ.

أَمَّا طُلَيْحَةُ نَفْسُهُ؛ فَمَضَىٰ إِلَىٰ غَايَتِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ...

وَقَضَىٰ لَيْلَتَهُ يَتَنَقَّلُ فِي أَرْجَاءِ الْمُعَسْكَرِ.

* * *

فَلَمَّا أَدْبَرَ اللَّيْلُ؛ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَعُودَ أَدْرَاجَهُ(٢) حَامِلًا مَعَهُ مَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارٍ...

وَإِنَّمَا عَمَدَ إِلَىٰ أَعْظَمِ خَيْمَةٍ مِنْ خِيَامِ الْمُعَسْكَرِ؛ فَإِذَا أَمَامَهَا جَوَادٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهُ قَطُّ؛ فَانْتَضَىٰ(٣) سَيْفَهُ، وَقَطَعَ مِقْوَدَ الْجَوَادِ، وَامْتَطَىٰ ظَهْرَهُ، وَانْطَلَقَ يَعْدُو بِهِ بَيْنَ الْخِيَامِ...

فَلَحِقَ بِهِ فَارِسٌ مِنْ فُرْسَانِ الْقَوْمِ... وَلَمَّا أَدْرَكَهُ سَدَّدَ رُمْحَهُ لِيَطْعَنَهُ بِهِ؛ فَكَرَّ عَلَيْهِ طُلَيْحَةُ، وَطَعَنَهُ طَعْنَةً أَرْدَتْهُ قَتِيلًا...

فَهَبَّ لَهُ فَارِسٌ آخَرُ؛ فَفَعَلَ بِهِ مِثْلَمَا فَعَلَ بِصَاحِبِهِ...

فَنَهَضَ لَهُ فَارِسٌ ثَالِثٌ؛ فَكَرَّ عَلَيْهِ طُلَيْحَةُ.

فَلَمَّا عَرَفَ الْفَارِسُ أَنَّهُ مَقْتُولٌ لَا مَحَالَةَ؛ اسْتَسْلَمَ لَهُ.

فَأَمَرَهُ طُلَيْحَةُ أَنْ يَرْكُضَ بَيْنَ يَدَيْهِ...

ثُمَّ مَضَيَا مَعًا حَتَّىٰ بَلَغَا مُعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ.

---

(١) الأهبة: التهيؤ والاستعداد.
(٢) يعود أدراجه: يرجع من حيث أتىٰ.
(٣) انتضَىٰ سيفه: سَلَّ سيفه.

فَلَمَّا رَآهُمَا الْمُسْلِمُونَ ؛ جَعَلُوا يُهَلِّلُونَ وَيُكَبِّرُونَ .

* * *

دَعَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ تَرْجُمَانًا ، ثُمَّ سَأَلَ الأَسِيرَ عَنْ قَوْمِهِ وَعَسْكَرِهِمْ ؛ فَقَالَ :

أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ عَنْ صَاحِبِكُمْ هَٰذَا أَوَّلًا

ثُمَّ اسْأَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ .

فَقَالُوا : هَاتِ مَا عِنْدَكَ ؟

فَقَالَ لَقَدْ بَاشَرْتُ الْحُرُوبَ وَغَشِيتُهَا[١]

وَرَأَيْتُ الأَبْطَالَ وَلَقِيتُهُمْ مُنْذُ كُنْتُ غُلَامًا إِلَىٰ أَنْ بَلَغْتُ مَا تَرَوْنَ ...

فَلَمْ أَسْمَعْ بِرَجُلٍ دَخَلَ مُعَسْكَرًا فِيهِ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلِينَ ؛ يَخْدِمُ كُلَّ مُقَاتِلٍ مِنْهُمْ خَمْسَةُ رِجَالٍ أَوْ أَكْثَرُ ...

فَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمُعَسْكَرِ حَتَّىٰ أَغَارَ عَلَىٰ فُسْطَاطِ الْقَائِدِ ، وَهَتَكَ أَطْنَابَ[٢] خَيْمَتِهِ ...

وَاسْتَلَبَ فَرَسَهُ ...

فَلَحِقَ بِهِ فَارِسٌ يَعْدِلُ أَلْفًا[٣] مِنَ الْفُرْسَانِ ؛ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ آخَرُ لَا يَقِلُّ عَنْهُ شَجَاعَةً ؛ فَأَلْحَقَهُ بِهِ ...

ثُمَّ أَدْرَكْتُهُ أَنَا ـ وَلَا أَظُنُّنِي خَلَّفْتُ بَعْدِي مَنْ يَعْدِلُنِي ـ وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَثْأَرَ

(١) غَشِيتُهَا : حَلَلْتُ بها ومارستها .
(٢) الأَطْنَاب : الحِبَالُ الَّتِي تُشد بها الخيمة .
(٣) يَعْدِلُ أَلْفًا : يساوي أَلْفًا .

لَهُمَا - فَهُمَا ابْنَا عَمِّي - فَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَوْتَ أَمَامَ عَيْنَيَّ اسْتَسْلَمْتُ لَهُ

* * *

لَمْ تَكُنْ هَٰذِهِ جَمِيعَ بُطُولَاتِ طُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيِّ ...

وَلَمْ يَكُنْ هَٰذَا كُلَّ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

فَقَدْ ظَلَّ يُنَاضِلُ تَحْتَ رَايَاتِ الْقُرْآنِ ؛ حَتَّىٰ خَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا فِي مَعْرَكَةِ « نَهَاوَنْدَ »[١] (*) .

(١) معركة نهاوند: معركة هُزم فيها الفرس ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك وسميت بفتح الفتوح.

(*) للاستزادة من أخبار طُلَيْحَة بْن خُوَيْلِد انظر:
١ - الكامل لابن الأثير: في حوادث ١١ هـ.
٢ - الإصابة: ٢/٢٣٤ أو «الترجمة» ٤٢٩٠.
٣ - معجم البلدان: في «بزاخة».
٤ تهذيب ابن عساكر: ٧/ ٩٠.
٥ - تاريخ الخميس: ٢/ ١٦٠.
٦ - تهذيب الأسماء واللغات: ١/ ٢٥٤.
٧ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٢/ ٢٣٧
٨ - أسد الغابة: ٣/ ٩٥.

عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ

«قَبَّحَ اللَّهُ أَرْضًا لَيْسَ فِيهَا ـ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ـ وَأَمْثَالُهُ»

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

صَحَابِيٌّ هَـٰذِهِ الْمَرَّةِ ... أَنْصَارِيٌّ ؛ عَقَبِيٌّ ؛ بَدْرِيٌّ[(١)].

وَحَسْبُكَ بِهَـٰذِهِ الْمَآثِرِ الثَّلَاثِ ؛ أَوْسِمَةُ رِفْعَةٍ وَفَخَارٍ فِي الدُّنْيَا وَشَوَاهِدُ رِضًا وَزُلْفَىٰ[(٢)] عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .

أَمَّا أَبُوهُ ؛ فَكَانَ يُدْعَىٰ الصَّامِتَ ...

وَأَمَّا أُمُّهُ ؛ فَكَانَتْ تُسَمَّىٰ قُرَّةَ الْعَيْنِ ...

وَأَمَّا هُوَ ؛ فَكَانَ يَدْعُوهُ النَّاسُ عُبَادَةَ .

وَمَنْ مِنَّا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرِفُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ ؟!

فَهُوَ أَحَدُ الْأَبْرَارِ الْأَطْهَارِ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا

وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ وَالسَّبْعِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ .

وَهُوَ أَحَدُ الْبَدْرِيِّينَ الَّذِينَ اطَّلَعَ عَلَيْهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ .

فَإِذَا أَضَفْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ خَامِسُ خَمْسَةٍ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ بَلَغْتَ بِهِ غَايَةَ الْغَايَاتِ ...

---

(١) عَقَبِيٌّ : نِسْبَةً إِلَىٰ العقبة حيث بايع الأنصار الرسول ﷺ تلك البيعة المشهورة ، وبدريٌّ : نسبة إلىٰ موقعة بدر .

(٢) زُلْفَىٰ : قُرْبَىٰ .

وَوَصَلْتَ بِهِ إِلَىٰ أَرْقَىٰ الذُّرَىٰ ، وَأَرْفَعِ الدَّرَجَاتِ .

* * *

قَضَىٰ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ حَيَاتَهُ مُجَاهِدًا ؛ عَابِدًا ؛ مُعَلِّمًا .

فَكَانَ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ ؛ أَسَدًا مِغْوَارًا(١) .

وَكَانَ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ ؛ مُتَبَتِّلًا أَوَّاهًا(٢) .

وَكَانَ فِي أَوْقَاتِ السِّلْمِ ؛ يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيُفَقِّهُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ .

* * *

فَبَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ دِيَارَ الشَّامِ ؛ أَرَادُوا أَنْ يَفْتَحُوا الْعُقُولَ وَالْقُلُوبَ ؛ كَمَا فَتَحُوا الْمَعَاقِلَ وَالْحُصُونَ ...

فَكَتَبَ أَمِيرُ دِمَشْقَ إِلَىٰ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِ الشَّامِ قَدْ كَثُرُوا وَاحْتَاجُوا إِلَىٰ مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ ، وَيُفَقِّهُهُمْ بِدِينِ اللَّهِ ...

فَأَعِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرِجَالٍ يُعَلِّمُونَهُمْ .

فَدَعَا عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ النَّفَرَ الْخَمْسَةَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُمْ : عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ(٣) ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ(٤) ، وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ(٥) ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ(٦) ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ

(١) الْمِغْوَار : الكثير الإغارة علىٰ الأعداء .
(٢) متبتلًا أَوَّاهًا : المتبتل : المنقطع عن الدنيا المنصرف إلىٰ الله ، والأواه : الكثير التأوه من خشية الله .
(٣) مُعَاذ بْن جَبَل : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٤) أُبَيّ بْن كَعْب : انظره ص ٣٩ .
(٥) أَبُو أَيُّوب الأَنْصَارِيّ : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٦) أَبُو الدَّرْدَاء : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

وَجَزَاهُمْ عَنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكْرَمَ الْجَزَاءِ.

فَلَمَّا صَارُوا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ قَالَ لَهُمْ:

إِنَّ إِخْوَانَكُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ قَدِ اسْتَعَانُونِي بِمَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ... فَأَعِينُونِي - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ ...

وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ فَاسْتَهِمُوا(١)

فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَسْتَهِمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: فَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ شَيْخٌ كَبِيرٌ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَجُلٌ مَرِيض، وَبَقِينَا نَحْنُ الثَّلَاثَةَ.

فَوَجَّهَهُمْ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ إِلَىٰ دِيَارِ الشَّامِ.

فَأَقَامَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ فِي حِمْصَ ...

وَنَزَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فِي دِمَشْقَ ...

وَحَلَّ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي فِلَسْطِينَ.

* * *

كَانَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ حِينَ بَايَعَ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ؛ قَدْ بَايَعَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...

وَأَنْ يَقُولَ الْحَقَّ أَيْنَمَا كَانَ ...

وَأَلَّا يَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

فَلَمَّا رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِ الشَّامِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا لَمْ تَرْتَحْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ؛ رَاجَعَهُ فِيمَا رَآهُ وَنَدَّدَ بِهِ ...

(١) فاستهموا: فاقترعوا

فَلَمْ يَأْخُذْ مُعَاوِيَةُ بِرَأْيِهِ ، وَدَعَاهُ إِلَىٰ طَاعَتِهِ ؛ فَغَضِبَ عُبَادَةُ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَا أَسْكُنُ مَعَكَ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ .

وَعَادَ أَدْرَاجَهُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ قَالَ لَهُ

مَا أَقْدَمَكَ يَا عُبَادَةُ ؟!

فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ مِنْ خِلَافٍ .

فَقَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ مَكَانِكَ ؛ قَبَّحَ اللَّهُ أَرْضًا لَيْسَ فِيهَا أَنْتَ وَلَا أَمْثَالُكَ

ثُمَّ كَتَبَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ

لَا إِمْرَةَ لَكَ عَلَىٰ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ أَمِيرُ نَفْسِهِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ مَضَىٰ إِلَىٰ مِصْرَ فَاتِحًا - وَكَانَتْ خَاضِعَةً لِحُكْمِ الرُّومِ - فَطَفِقَ يُحَرِّرُ مُدُنَهَا وَقُرَاهَا إِلَىٰ أَنِ اسْتَعْصَىٰ عَلَيْهِ حِصْنُ « بَابِلْيُونَ » ؛ الْوَاقِعُ عَلَىٰ ضَفَّةِ النِّيلِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْقَاهِرَةِ الْيَوْمَ .

وَكَانَ السَّبَبُ فِي اسْتِعْصَاءِ الْحِصْنِ عَلَيْهِ ؛ أَنَّ الرُّومَ حَفَرُوا حَوْلَهُ خَنْدَقًا عَظِيمًا ، وَثَبَّتُوا فِي الطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ حَسَكَ الْحَدِيدِ ... لِيَعُوقَ الرِّجَالَ وَالْخَيْلَ عَنِ التَّقَدُّمِ نَحْوَهُ ...

وَشَحَنُوهُ بِالْجُنُودِ وَالْعَتَادِ ، وَنَقَلُوا إِلَيْهِ رِجَالَ دَوْلَتِهِمْ وَعُظَمَاءَ الْقِبْطِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمُ الْمُقَوْقَسُ ؛ بَطْرِيَرْكُ مِصْرَ وَحَاكِمُهَا

* * *

حَاصَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْحِصْنَ أَمَلًا فِي أَنْ يَضِيقَ حُمَاتُهُ ذَرْعًا بِالْحِصَارِ

فَيَسْتَسْلِمُوا لَهُ .

غَيْرَ أَنَّ النِّيلَ مَا لَبِثَ أَنْ فَاضَ ...

فَنَسَفَ الرُّومُ السُّدُودَ ، وَقَطَعُوا الْجُسُورَ

فَأَحَاطَ الْمَاءُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكَادُوا يَهْلَكُونَ غَرَقًا

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنْ يُعِينَهُ بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِهِ .

فَبَادَرَ عُمَرُ إِلَىٰ إِمْدَادِهِ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ كُلِّ أَلْفٍ قَائِدًا يَقُومُ مَقَامَ أَلْفٍ ؛ هُمْ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ(١) ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ(٢) ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ مُخَلَّدٍ .

* * *

عَلِمَ الْمُقَوْقَسُ بِالْمَدَدِ الَّذِي وَصَلَ إِلَىٰ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَفْدًا مِنْ خِيرَةِ رِجَالِهِ لِيُفَاوِضُوهُ ، وَأَوْصَاهُمْ بِأَنْ يَقِفُوا لَهُ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَنْقُلُوا لَهُ صُورَةً دَقِيقَةً وَاضِحَةً عَنْ حَيَاتِهِمْ ؛ كَمَا لَوْ كَانَ يَرَاهَا هُوَ بِنَفْسِهِ .

فَقَضَىٰ رِجَالُ الْوَفْدِ فِي ضِيَافَةِ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَ لَيَالٍ ؛ فَلَمَّا عَادُوا سَأَلَهُمُ الْمُقَوْقَسُ عَمَّا رَأَوْا وَمَا سَمِعُوا ؛ فَقَالُوا :

لَقَدْ رَأَيْنَا ـ وَاللَّهِ ـ قَوْمًا الْمَوْتُ أَشْهَىٰ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ ...

وَالتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّفْعَةِ ...

جُلُوسُهُمْ عَلَىٰ التُّرَابِ ، وَأَكْلُهُمْ عَلَىٰ الرُّكَبِ(٣)

---

(١) انظره : ص ١٦٥

(٢) انظره ص ٤٠٩.

(٣) وَأَكْلُهُمْ عَلَىٰ الرُّكَبِ : أي يجلسون على الأرض أثناء الأكل .

أَمِيرُهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ ؛ فَمَا يُعْرَفُ سَيِّدُهُمْ مِنْ مَسُودِهِمْ ، وَلَا رَفِيعُهُمْ[١] مِنْ وَضِيعِهِمْ[٢] .

إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ؛ يَغْسِلُونَ أَطْرَافَهُمْ وَوُجُوهَهُمْ بِالْمَاءِ ، وَيَخْشَعُونَ لِرَبِّهِمْ فِي الصَّلَاةِ .

فَقَالَ الْمُقَوْقَسُ :

وَاللَّهِ ! لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ اسْتَقْبَلُوا[٣] الْجِبَالَ لَأَزَالُوهَا

وَلَوْ نَازَلُوا[٤] الْجِنَّ لَأَبَادُوهَا

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ الْمُقَوْقَسُ أَنْ يَرَىٰ بِأُمِّ عَيْنَيْهِ مَا حَدَّثَهُ بِهِ رِجَالُهُ ؛ فَكَتَبَ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ :

أَرْسِلُوا إِلَيْنَا رُسُلًا مِنْ عِنْدِكُمْ لِنُفَاوِضَهُمْ وَنُعَاهِدَهُمْ .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَشَرَةً مِنْ رِجَالِهِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ .

* * *

كَانَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ طَوِيلَ الْقَامَةِ عَظِيمَ الْهَامَةِ ؛ كَثَّ الشَّعْرِ شَدِيدَ الْهَيْبَةِ ... يَمْلَأُ عَيْنَ رَائِيهِ رَهْبَةً وَرَوْعَةً .

فَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْمُقَوْقَسِ هَابَهُ أَشَدَّ الْهَيْبَةِ ، وَدَخَلَ فِي نَفْسِهِ مِنْهُ خَوْفٌ عَظِيمٌ .

فَقَالَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ : نَحُّوا عَنِّي هَٰذَا الرَّجُلَ وَقَدِّمُوا غَيْرَهُ لِيُكَلِّمَنِي .

---

(١) رَفِيعُهُمْ : كبيرهم ، وصاحب القدر فيهم .
(٢) وَضِيعِهِمْ : صغير القدر أو المنصب بينهم .
(٣) لو اسْتَقْبَلُوا : لو اتجهوا إلىٰ الجبال لأزالوها من مكانها .
(٤) لَوْ نَازَلُوا الْجِنَّ : أي لو حاربوهم .

فَقَالُوا هَـٰذَا أَمِيرُنَا ، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْنَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِأَلَّا نَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ ، وَأَلَّا نُخَالِفَ لَهُ أَمْرًا

فَقَالَ الْمُقَوْقَسُ لِعُبَادَةَ : تَقَدَّمْ إِلَيَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ ، وَكَلِّمْنِي بِرِفْقٍ ؛ فَإِنِّي أَهَابُ(١) مَنْظَرَكَ .

فَقَالَ لَهُ عُبَادَةُ : أَرَاكَ خِفْتَنِي ؛ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ أَصْحَابِي ... وَفِيهِمْ أَلْفُ رَجُلٍ كُلُّهُمْ أَشَدُّ مِنِّي قُوَّةً وَهَوْلًا

فَقَالَ لَهُ الْمُقَوْقَسُ :

مَا الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ؟! وَمَا الَّذِي تُرِيدُونَهُ مِنَّا ؟

فَقَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ :

إِنَّا وَاللَّهِ ! مَا خَرَجْنَا ؛ إِلَّا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَدْ عَهِدَ(٢) إِلَيْنَا نَبِيُّنَا ﷺ أَلَّا تَكُونَ بُغْيَةُ(٣) أَحَدِنَا مِنَ الدُّنْيَا ؛ إِلَّا مَا يَسُدُّ جَوْعَتَهُ ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ لِأَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا لَيْسَ بِنَعِيمٍ ... وَإِنَّمَا النَّعِيمُ نَعِيمُ الْآخِرَةِ .

فَقَالَ لَهُ الْمُقَوْقَسُ

قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ، وَلَعَمْرِي مَا بَلَغْتُمُ مَا بَلَغْتُمُوهُ إِلَّا بِمَا ذَكَرْتَ ، وَمَا انْتَصَرْتُمْ عَلَىٰ الَّذِينَ انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَكُرْهِكُمْ لَهَا

غَيْرَ أَنَّ الرُّومَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ مَا لَا يُحْصَىٰ عَدَدُهُ ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقْوَوْا عَلَيْهِمْ ؛ لِقِلَّتِكُمْ وَضِيقِ ذَاتِ يَدِكُمْ(٤)

---

(١) أَهَابُ أخاف وأخشىٰ .

(٢) عَهِد إِلَيْنَا : أوصانا ، وأخذ علينا العهد .

(٣) الْبُغْيَة : الطلب والرغبة .

(٤) ضِيق ذَات يَدِكُم : فقركم واحتياجكم .

وَنَحْنُ تَطِيبُ أَنْفُسُنَا بِأَنْ نُعْطِيَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ دِينَارَيْنِ ، وَلِأَمِيرِكُمْ مِائَةَ دِينَارٍ ، وَلِخَلِيفَتِكُمْ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَتَنْصَرِفُوا عَنَّا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ .

* * *

فَقَالَ لَهُ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ :

إِنَّ مَا تُخَوِّفُنَا بِهِ مِنْ كَثْرَةِ الرُّومِ ؛ لَا يَصُدُّنَا عَنْ غَايَتِنَا ، وَ إِنَّنَا مُوقِنُونَ بِأَنَّنَا سَنَفُوزُ بِإِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ : فَإِنْ ظَفِرْنَا بِكُمْ عَظُمَتْ لَنَا غَنِيمَةُ الدُّنْيَا ، وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِنَا عَظُمَتْ لَنَا غَنِيمَةُ الْآخِرَةِ ...

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ؛ إِلَّا وَهْوَ يَدْعُو اللَّهَ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ وَأَلَّا يَرُدَّهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ خَائِبًا وَقَدِ اسْتَوْدَعَ كَلُّ وَاحِدٍ مِنَّا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ عِنْدَ اللَّهِ .

ثُمَّ عَرَضَ عَلَىٰ الْمُقَوْقَسِ : الْإِسْلَامَ ، أَوِ الْجِزْيَةَ[1]، أَوِ الْقِتَالَ .

فَأَبَىٰ قَوْمُ الْمُقَوْقَسِ الْإِسْلَامَ ، وَأَنِفُوا[2] مِنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقِتَالُ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ عَزَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ اقْتِحَامِ الْحِصْنِ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِيًا

فَقَامَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَقَالَ : إِنِّي أَهَبُ[3] نَفْسِي لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَخَذَ سُلَّمًا عَالِيًا لِيَرْقَىٰ بِهِ عَلَىٰ جِدَارِ الْحِصْنِ ، وَطَلَبَ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُكَبِّرُوا وَرَاءَهُ

(١) الْجِزْيَة : ما يدفعه أهل الذمة مقابل حمايتهم .
(٢) أَنِفوا استكبروا .
(٣) أَهَب نَفْسِي : أي أبيعها بيع سماح ، وكأنها صدقة أتقرب بها إلىٰ الله .

بِصَوْتٍ وَاحِدٍ إِذَا سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ .

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ ؛ حَتَّىٰ كَانَ الْفَارِسُ الْمِغْوَارُ يَمْتَطِي أَسْوَارَ الْحِصْنِ وَهْوَ مُشْهِرٌ سَيْفَهُ ، وَصَيْحَةُ « اللَّهُ أَكْبَرُ » تَنْطَلِقُ مُدَوِّيَةً مِنْ فَمِهِ ...

فَانْطَلَقَتْ وَرَاءَهُ آلَافُ الْحَنَاجِرِ تُرَدِّدُ «اللَّهُ أَكْبَرُ» ؛ فَزَلْزَلَ دَوِيُّهَا الْقُلُوبَ وَدَكَّ الْعَزَائِمَ .

وَأَلْقَىٰ الزُّبَيْرُ بِنَفْسِهِ دَاخِلَ الْحِصْنِ ، وَتَبِعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ .

فَأَعْمَلُوا السُّيُوفَ فِي رِقَابِ الرُّومِ الَّذِينَ أَذْهَلَتْهُمُ الْمُفَاجَأَةُ ، وَفَتَحُوا بَابَ الْحِصْنِ فِي وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ .

فَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ .

وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ ؛ كَتَبَ اللَّهُ فِيهَا لِجُنْدِهِ النَّصْرَ ، وَضُمَّتْ إِلَىٰ دَوْلَةِ الْقُرْآنِ لُؤْلُؤَةُ الدُّنْيَا مِصْرُ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار عُبادة بن الصَّامت انظر
١ - طبقات ابن سعد : ٣/ ٥٤٦، ٦٢١
٢ - أسد الغابة : ٣/ ١٦٠.
٣ - الإصابة : ٢/٢٦٨ أو «الترجمة» ٤٤٩٧.
٤ - تهذيب التهذيب : ٥/ ١١١
٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/ ٤٤٩.
٦ - النجوم الزاهرة : ١/٤ وما بعدها .
٧ - مختصر تاريخ دمشق : ١١/ ٣٠١.
٨ - تاريخ خليفة : ١٢٩، ١٣٥، ١٤٥
٩ - سير أعلام النبلاء : ٢/ ٥.

يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه

« كَانَ يَزِيدُ أَفْضَلَ بَنِي أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ يَزِيدُ الْخَيْرِ »

هَٰذَا فَتًى مِنْ أَرْفَعِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ نَسَبًا ، وَأَعَزِّهِمْ أُمًّا وَأَبًا

وَأَغْزَرِهِمْ حِجًى[1] وَأَكْمَلِهِمْ فَضْلًا

مِمَّا جَعَلَ قَوْمَهُ يُلَقِّبُونَهُ بِيَزِيدِ الْخَيْرِ .

وَقَدْ كَانَ يَزِيدُ الْخَيْرِ أَوْ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يَوْمَ بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ شَابًّا فِي مُقْتَبَلِ الْعُمُرِ ... وَكَانَ جَدِيرًا بِعَقْلِهِ الرَّاجِحِ[2]، وَنَظَرِهِ الثَّاقِبِ[3] أَنْ يَقُودَاهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَيُرْشِدَاهُ إِلَيْهِ ؛ كَمَا أَرْشَدَا أُخْتَهُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ[4]...

وَلَكِنَّ الْفَتَىٰ الْقُرَشِيَّ ؛ ظَلَّ يَرْعَىٰ لِوَالِدِهِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ حُرْمَتَهُ ؛ فَلَمْ يُسْلِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ أَبُوهُ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ الْفَتْحِ .

* * *

سُرَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِإِسْلَامِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ؛ لِمَا كَانَ يَلْمَحُ فِيهِ مِنْ مَخَايِلِ[5] الرُّجُولَةِ وَشَمَائِلِ الْمُرُوءَةِ[6]

وَلِمَا كَانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَتَحَقَّقَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

---

(١) الحِجَىٰ : العَقْل وَالفِطْنَة ، والجمع : أَحْجَاء .
(٢) العقل الراجح : الذي يرجح بصاحبه ويرزُنُ به ، والرجاحة : الحلم .
(٣) نظره الثاقب : النظر النافذ الذي لا يغيب عنه شيء .
(٤) رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَان انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٥) مخايل : علامات .
(٦) شمائل المروءة : خصال النخوة والالتزام .

وَقَدْ بَالَغَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي إِكْرَامِهِ بَعْدَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ؛ فَأَعْطَاهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنَ الْفِضَّةِ ؛ وَزَنَهَا لَهُ بِلَالٌ الْحَبَشِيُّ(١) وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا آلَتِ(٢) الْخِلَافَةُ إِلَىٰ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْفَارِسُ الْأُمَوِيُّ مِنْ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ(٣)، وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ ، وَعُمْقِ الْإِيمَانِ ؛ فَقَرَّرَ أَنْ يَضَعَ هَٰذِهِ الطَّاقَاتِ الْفَذَّةَ فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ...

لَكِنَّ الصِّدِّيقَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ كَانَ يَخْشَىٰ عَلَىٰ الْفَتَىٰ الْقُرَشِيِّ مِنْ نَزَوَاتِ الرِّئَاسَةِ ، وَيَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ غُرُورِ(٤) الْقِيَادَةِ ؛ فَاسْتَدْعَاهُ وَقَالَ لَهُ

يَا يَزِيدُ ... إِنَّكَ شَابٌّ تُذْكَرُ بِخَيْرٍ ظَهَرَ فِي فِعَالِكَ ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَبْلُوَكَ(٥)، فَأَنْظُرُ كَيْفَ أَنْتَ ؟ وَكَيْفَ وَلَايَتُكَ ؟

فَإِنْ أَحْسَنْتَ زِدْتُكَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ عَزَلْتُكَ ...

وَعَلَيْكَ يَا يَزِيدُ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ يَرَىٰ مِنْ بَاطِنِكَ مِثْلَ الَّذِي يَرَىٰ مِنْ ظَاهِرِكَ ...

وَإِذَا قَدِمْتَ عَلَىٰ جُنْدِكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمْ ، وَابْدَأْهُمْ بِالْخَيْرِ ، وَعِدْهُمْ إِيَّاهُ ...

وَإِذَا وَعَظْتَهُمْ فَأَوْجِزْ ؛ فَإِنَّ كَثِيرَ الْكَلَامِ يُنْسِي بَعْضُهُ بَعْضًا ...

---

(١) بلال بن رباح : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) آلت الخلافة إلَىٰ فلان : صارت إليه وتولاها
(٣) قوة الشكيمة : شدة الصبر وقوة الجلد .
(٤) الغُرُور : ما يُغْتَرُّ به من مَتَاع الدُّنْيا
(٥) أَرَدْتُ أَنْ أَبْلُوَكَ : أن أختبرك .

وَأَصْلِحْ نَفْسَكَ يَصْلُحْ لَكَ النَّاسُ، وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ لِأَوْقَاتِهَا؛ بِإِتْمَامِ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَالتَّخَشُّعِ فِيهَا

* * *

وَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُل عَدُوِّكَ فَأَكْرِمْهُمْ، وَأَقْلِلْ لَبْثَهُمْ[1] عِنْدَكَ ... حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ بِهِ، وَلَا تُرِيَنَّهُمْ فَيَرَوْا خَلَلَكَ[2] وَيَعْلَمُوا عِلْمَكَ ...

وَأَنْزِلْهُمْ فِي ثَرْوَةِ[3] عَسْكَرِكَ وَامْنَعْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ مُحَادَثَتِهِمْ، وَكُنْ أَنْتَ الْمُتَوَلِّيَ لِكَلَامِهِمْ، وَلَا تَجْعَلْ سِرَّكَ لِعَلَانِيَتِكَ فَيُخْلَطَ أَمْرُكَ ...

* * *

ثُمَّ قَالَ لِيَزِيدَ:

وَإِذَا اسْتَشَرْتَ؛ فَاصْدُقِ الْحَدِيثَ تُصْدَقِ الْمَشُورَةَ، وَلَا تَخْزِنْ[4] عَنِ الْمُشِيرِ خَبَرَكَ؛ فَتُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ ...

وَاسْمَرْ[5] فِي اللَّيْلِ مَعَ أَصْحَابِكَ تَأْتِكَ الْأَخْبَارُ وَتَنْكَشِفْ عِنْدَكَ الْأَسْتَارُ ...

وَأَكْثِرْ حَرَسَكَ، وَبَدِّدْهُمْ[6] فِي عَسْكَرِكَ، وَأَكْثِرْ مُفَاجَأَتَهُمْ فِي مَحَارِسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ بِكَ ...

فَمَنْ وَجَدْتَهُ غَفَلَ عَنْ مَحْرَسِهِ؛ فَأَحْسِنْ أَدَبَهُ وَعَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِفْرَاطٍ ...

---

(١) لبثهم: مكثهم ومقامهم.
(٢) خللك: ضعفك ووهنك.
(٣) ثَرْوَة عَسْكَرِك كَثْرَتهم.
(٤) تَخْزِن: تستر وتمنع.
(٥) اسْمَرْ: تحدَّثْ معهم بالليل.
(٦) بددهم: فرقهم.

وَأَعْقِبْ بَيْنَهُمْ بِاللَّيْلِ ، وَاجْعَلِ النَّوْبَةَ الْأُولَىٰ أَطْوَلَ مِنَ الْأَخِيرَةِ ؛ فَإِنَّهَا أَيْسَرُهُمَا لِقُرْبِهَا مِنَ النَّهَارِ ...

وَلَا تَخَفْ مِنْ عُقُوبَةِ الْمُسْتَحِقِّ ، وَلَا تَلْجَّنَّ[1] فِيهَا ، وَلَا تُسْرِعْ إِلَيْهَا

وَلَا تَغْفُلْ عَنْ أَهْلِ عَسْكَرِكَ فَتُفْسِدَهُ ، وَلَا تَتَجَسَّسْ عَلَيْهِمْ فَتَفْضَحَهُمْ ، وَلَا تَكْشِفِ النَّاسَ عَنْ أَسْرَارِهِمْ ، وَاكْتَفِ بِعَلَانِيَتِهِمْ ...

وَلَا تُجَالِسِ الْعَابِثِينَ[2]، وَجَالِسْ أَهْلَ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ ، وَاصْدُقِ اللِّقَاءَ وَلَا تَجْبُنْ ؛ فَيَجْبُنَ النَّاسُ .

* * *

ثُمَّ قَالَ لَهُ :

هَٰذَا ؛ وَإِنِّي أُوصِيكَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ[3] خَيْرًا ؛ فَقَدْ عَرَفْتَ مَكَانَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِيهِ

(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَأَمِينُ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ) ...

فَاعْرِفْ لَهُ سَابِقَتَهُ وَفَضْلَهُ .

وَانْظُرْ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ[4]؛ فَقَدْ عَرَفْتَ مَشَاهِدَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا ، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَأْلُوَا[5] بِكَ خَيْرًا .

فَقَالَ يَزِيدُ :

يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ؛ أَوْصِهِمَا بِي كَمَا أَوْصَيْتَنِي بِهِمَا .

---

(١) تلجن فيها : تتمادىٰ في العقوبة .
(٢) العابث : الهازل واللاعب المستخف .
(٣) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاح : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٤) مُعَاذَ بْنَ جَبَل : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٥) لن يألوا بك خيرًا : لن يُقَصِّرا معك في خير .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ لَنْ أَدَعَ أَنْ أُوصِيَهُمَا بِكَ .

فَقَالَ يَزِيدُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ وَجَزَاكَ عَنِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا

* * *

وَكَانَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهُ عَلَيْهِ قَدْ عَزَمَ عَلَىٰ إِنْفَاذِ جَيْشٍ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ لِغَزْوِ الرُّومِ ؛ فَجَمَعَ جُمُوعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَحَشَدَ طَاقَاتِهِمْ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ ، وَقَسَّمَ الْجَيْشَ إِلَىٰ أَرْبَعِ فِرَقٍ ، وَعَقَدَ لِوَاءَ فِرْقَةٍ مِنْهَا لِفَارِسِ بَنِي أُمَيَّةَ يَزِيدَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ .

* * *

وَلَمَّا فَصَلَ الْجَيْشُ عَنْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يُوَدِّعُ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَقَائِدَهُمُ الشَّابَّ ... فَطَفِقَ الصِّدِّيقُ يَمْشِي ، وَيَزِيدُ رَاكِبٌ ؛ فَقَالَ يَزِيدُ لِلصِّدِّيقِ :

أَتَمْشِي وَأَنَا رَاكِبٌ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ؟!

وَهَمَّ أَنْ يَنْزِلَ لَهُ عَنْ جَوَادِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :

مَا أَنَا بِرَاكِبٍ وَلَا أَنْتَ بِنَازِلٍ ...

إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَٰذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ يَزِيدَ وَقَالَ

إِنَّكُمْ سَتَحِلُّونَ بِلَادًا يُقَدَّمُ لَكُمْ فِيهَا أَصْنَافُ الطَّعَامِ ؛ فَسَمُّوا اللَّهَ عَلَىٰ أَوَّلِهِ ، وَاحْمَدُوهُ عَلَىٰ آخِرِهِ .

وَإِيَّاكُمْ وَالْأَشَرَ[1]، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِكَلِمَاتٍ عَشْرٍ:

لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا صَغِيرًا، وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا...

وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ بَيْتًا عَامِرًا...

وَلَا تَعْقِرَنَّ[2] شَاةً وَلَا بَعِيرًا؛ إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ...

وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تَغْذِقَنَّهُ[3]

وَلَا تَغْلُلْ[4]، وَلَا تَجْبُنْ.

* * *

وَلَمَّا نَزَلَتْ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ الْيَرْمُوكَ؛ بَعَثُوا إِلَىٰ قَائِدِ جَيْشِ الرُّومِ إِنَّنَا نُرِيدُ أَنْ نُكَلِّمَكَ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ...

فَذَهَبَ إِلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ وُجُوهِ الصَّحَابَةِ؛ فَوَجَدُوهُ قَدْ رَفَعَ لِنَفْسِهِ وَلِحَاشِيَتِهِ ثَلَاثِينَ رُوَاقًا[5]، وَثَلَاثِينَ سُرَادِقًا[6]، كُلُّهَا مِنَ الدِّيبَاجِ[7]

فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهَا؛ أَبَىٰ يَزِيدُ وَمَنْ مَعَهُ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالُوا:

إِنَّا لَا نَسْتَحِلُّ الْحَرِيرَ؛ فَاخْرُجْ إِلَيْنَا

فَنَزَلَ عِنْدَ رَغْبَتِهِمْ، وَحَدَّثُوهُ وَحَدَّثَهُمْ؛ فَلَمْ يَنْتَهُوا إِلَىٰ شَيْءٍ.

* * *

ثُمَّ الْتَقَتِ الْفِئَتَانِ عَلَىٰ أَرْضِ الْيَرْمُوكِ:

---

(١) الأشر: البطر.

(٢) وَلَا تَعْقِرَنَّ: ولا تَذْبَحَنَّ، وأصل العَقْر قطع قائمة من قوائم الشاة أو غيرها من الأنعام.

(٣) وَلَا تَغْذِقَنَّه: أي لا تَقْطَعَنَّه إفسادًا له.

(٤) وَلَا تَغْلُل: لا تغش، والغل: الحقد والحسد.

(٥) الرُّوَاق: الفسطاط أي الخيمة الكبيرة.

(٦) السُّرَادِق: ما أحاط بالبناء، أو هو الحائط المشتمل على شيء.

(٧) الدِّيبَاج: الحرير.

فِئَةٌ قَلِيلَةٌ مُسَلَّحَةٌ بِالْإِيمَانِ ...

وَفِئَةٌ كَثِيرَةٌ مُثْقَلَةٌ بِالْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ .

فَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ ـ وَكَانَ شَيْخًا فَانِيًا ـ عَلَىٰ ابْنِهِ يَزِيدَ ، وَقَالَ

يَا بُنَيَّ ... عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ وَالصَّبْرِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ رَجُلٌ فِي هَٰذَا الْمَكَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَحْفُوفًا[1] بِالْقَتْلِ ؛ فَكَيْفَ بِكَ وَبِأَشْبَاهِكَ مِمَّنْ وَلُوا أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ ؟!

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا بُنَيَّ ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ بِأَرْغَبَ مِنْكَ فِي الْأَجْرِ وَالصَّبْرِ فِي الْحَرْبِ ، وَلَا أَجْرَأَ عَلَىٰ عَدُوِّ الْإِسْلَامِ مِنْكَ .

فَقَالَ يَزِيدُ أَفْعَلُ يَا أَبَتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ كَرَّ عَلَىٰ جُنْدِ الرُّومِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ كَرَّةً أَزَاحَتْهُمْ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ .

* * *

وَكَانَ يَزِيدُ كُلَّمَا هَدَأَ أَوْ فَتَرَ ؛ يَسْمَعُ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسْنَةَ يَقُولُ :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...

ثُمَّ يَقُولُ :

أَيْنَ الشَّارُو أَنْفُسِهِمْ لِلَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ ؟!

وَأَيْنَ الْمُشْتَاقُونَ إِلَىٰ جِوَارِ اللَّهِ فِي دَارِهِ ؟!

فَكَانَ كُلَّمَا سَمِعَ ذَٰلِكَ حَمِيَ وَاشْتَدَّ ؛ حَتَّىٰ كَتَبَ اللَّهُ لِجُنْدِهِ النَّصْرَ فِي أَكْبَرِ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الْإِسْلَامِ

(١) محفوفًا : محاطًا

إِذْ لَمْ تَقُمْ بَعْدَهَا لِلرُّومِ قَائِمَةٌ فِي دِيَارِ الشَّامِ.

* * *

ظَلَّ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يُتَابِعُ انْتِصَارَاتِهِ فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ ؛ حَتَّىٰ كَانَ أَحَدَ الْقَادَةِ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ دِمَشْقَ.

ثُمَّ تَابَعَ الْفَارِسُ الْأُمَوِيُّ جِهَادَهُ ؛ حَتَّىٰ فَتَحَ لِلْمُسْلِمِينَ بَيْرُوتَ ، وَصَيْدَاءَ ، وَمَا جَاوَرَهُمَا مِنْ قُرَىٰ لُبْنَانَ (*).

(*) للاستزادة من أخبار يَزِيد بْن أَبِي سُفْيَان انظر:
١ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٣/ ٦٤٩
٢ - أسد الغابة: ٥/ ٤٩١.
٣ - الإصابة: ٣/ ٦٥٦ أو «الترجمة» ٩٢٦٥.
٤ - تهذيب الكمال: ٣٢/ ١٤٥.
٥ - تهذيب التهذيب: ١١م ٣٣٢.
٦ - البداية والنهاية: ٣/ ١٠٦.
٧ - تاريخ الإسلام: ٢/ ٢٥.
٨ - نسب قريش: ١٢٤، ١٢٥ وما بعدها
٩ - مجمع الزوائد: ٩/ ٤١٣.

الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

« هَـٰذَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ ؛ أَجْوَدُ قُرَيْشٍ كَفًّا ، وَأَوْصَلُهَا رَحِمًا »

[مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ]

تَنَاهَىٰ[1] إِلَىٰ زَعِيمِ قُرَيْشٍ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ؛ أَنَّ هُنَاكَ امْرَأَةً ذَاتَ عَقْلٍ وَجَمَالٍ مِنْ بَنَاتِ مُلُوكِ رَبِيعَةَ تُدْعَىٰ « نُتَيْلَةَ » ...

فَسَعَىٰ إِلَيْهَا وَخَطَبَهَا لِنَفْسِهِ ، وَبَنَىٰ بِهَا ... فَوَلَدَتْ لَهُ طِفْلًا قَسِيمًا وَسِيمًا ؛ بَهِيَّ الطَّلْعَةِ فَفَرِحَ بِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ ، ثُمَّ دَعَاهُ الْعَبَّاسَ .

وَلَمْ يَمْضِ عَلَىٰ فَرْحَةِ شَيْخِ مَكَّةَ غَيْرُ سَنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ ؛ حَتَّىٰ أُتِيحَ لِبَيْتِهِ أَنْ تَغْمُرَهُ الْفَرْحَةُ مِنْ جَدِيدٍ ...

فَقَدْ وُلِدَ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ مَوْلُودٌ يُضَارِعُ[2] الْعَبَّاسَ فِي إِشْرَاقِ الْوَجْهِ وَرَوْعَةِ الْمُجْتَلَىٰ[3] ؛ فَلَمَّا أَبْصَرَهُ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ...

فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ حَيًّا ؛ لِيُشَارِكَهُ الْفَرْحَةَ بِهِ ، ثُمَّ دَعَاهُ مُحَمَّدًا .

* * *

نَشَأَ مُحَمَّدٌ وَالْعَبَّاسُ فِي كَنَفِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ إِلَّا أَنَّهُمَا أَخَوَانِ ؛ يَغْدُوَانِ مَعًا وَيَرُوحَانِ مَعًا ، وَيَأْكُلَانِ مِنْ جَفْنَةٍ[4] وَاحِدَةٍ ، وَيَلْعَبَانِ فِي مَلْعَبٍ وَاحِدٍ .

وَلَمَّا بَلَغَ الْعَبَّاسُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ؛ تُوُفِّيَ أَبُوهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ؛

---

(١) تَنَاهَىٰ : بلغ .

(٢) يُضَارِعُ : يُساوي ويماثل .

(٣) رَوْعَةِ الْمُجْتَلَىٰ : يُرَوِّع عين رائيه .

(٤) الجَفْنَة : القصعة الكبيرة .

فَفُجِعَتْ[١] بِهِ مَكَّةُ كُلُّهَا وَجَزِعَ عَلَيْهِ أَهْلُهَا

لَكِنَّ الْغُلَامَيْنِ الْعَبَّاسَ وَمُحَمَّدًا ؛ كَانَا أَشَدَّ النَّاسِ جَزَعًا عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُمَا ذَاقَا طَعْمَ الْيُتْمِ بِفَقْدِهِ .

* * *

وَلَمَّا قُسِّمَتِ الْمَنَاصِبُ الْمَنُوطَةُ بِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ ؛ جَعَلَتْ قُرَيْشٌ لِابْنِهِ الْعَبَّاسِ سِقَايَةَ الْحَاجِّ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ ؛ وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَتَوَسَّمُونَهُ[٢] فِيهِ مِنَ النَّجَابَةِ ، وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لَهُ مِنَ السِّيَادَةِ .

* * *

وَطَفِقَ الْفَتَيَانِ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَنْمُوَانِ ؛ فَإِذَا هُمَا شَابَّانِ مَوْفُورَا الشَّبَابِ ، وَإِذَا فَوَارِقُ السِّنِّ بَيْنَهُمَا تَزُولُ ...

حَتَّىٰ إِنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهِمَا كَانَ يَحْسَبُهُمَا تَوْأَمَيْنِ ...

وَلَقَدْ سَأَلَ أَحَدُهُمُ الْعَبَّاسَ ذَاتَ مَرَّةٍ ؛ بَعْدَ إِسْلَامِهِ :

أَأَنْتَ أَكْبَرُ ؟ أَمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

فَقَالَ : هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي ؛ وَلَكِنَّ سِنِّي تَزِيدُ عَلَىٰ سِنِّهِ سَنَتَيْنِ .

* * *

وَعَلَىٰ رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمُرِ ؛ أَكْرَمَ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بِالرِّسَالَةِ ، وَبَعَثَهُ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ...

وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْعَبَّاسِ ؟!

فَهُوَ تِرْبُهُ[٣] الْأَثِيرُ ، وَصَدِيقُهُ الْحَمِيمُ ، وَعَمُّهُ أَخُو أَبِيهِ .

---

(١) فُجِعَت : أُصِيبَتْ بالوجع والألم لِمُصَابِه .

(٢) يَتَوَسَّمُونَه فيه : يتفرسونه فيه ويترقبوا منه .

(٣) تِرْب الرجل : من كان في سنه .

لَكِنَّ الْعَبَّاسَ الَّذِي وَرِثَ عَنْ أَبِيهِ السِّيَادَةَ فِي قَوْمِهِ ، وَأُنِيطَتْ بِهِ[1] سِقَايَةُ الْحَاجِّ - وَهْوَ مَنْصِبٌ يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ - كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَتَنَكَّرَ لِقَوْمِهِ ، وَيَحْرِصُ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَبْقِيَ زَعَامَتَهُ فِيهِمْ ... فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ظَلَّ يُنْزِلُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ الْأَخِ مِنْ أَخِيهِ ، وَالْحَمِيمِ مِنْ حَمِيمِهِ ؛ فَيَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَىٰ ، وَيَحْتَرِسُ[2] لَهُ أَشَدَّ الِاحْتِرَاسِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّهُ لَمَّا الْتَقَىٰ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ وُفُودِ الْأَنْصَارِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ؛ كَانَ مَعَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ ، وَهْوَ مَا يَزَالُ عَلَىٰ الشِّرْكِ .

وَكَانَ الْعَبَّاسُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ ؛ فَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ ؛ إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَىٰ مثلِ رَأْيِنَا فِيهِ ... فَهْوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ[3] فِي بَلَدِهِ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَنْحَازَ[4] إِلَيْكُمْ وَيَلْحَقَ بِكُمْ ...

فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ ؛ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ ...

وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ ؛ فَمِنَ الْآنَ فَدَعُوهُ ؛ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ .

فَقَالَ الْأَنْصَارُ :

قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ يَا أَبَا الْفَضْلِ .

---

(١) أُنِيطَتْ بِهِ : أُوكِلَت إليه .
(٢) يَحْتَرِسُ لَهُ : يَحْتَاطُ لَهُ وَيَتَيَقَّظُ .
(٣) المَنَعَة : القوة التي تمنع من يريده بسوءٍ .
(٤) يَنْحَازَ إِلَيْكُم : يلجأ إليكم

ثُمَّ الْتَفَتُوا إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالُوا

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ خُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مِنَ الْبَيْعَةِ مَا أَحْبَبْتَ ...

وَلَمَّا تَمَّتِ الْبَيْعَةُ ؛ عَادَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ إِلَىٰ مَكَّةَ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ .

* * *

وَلَمَّا عَزَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ غَزْوَةِ بَدْرٍ ؛ كَرِهَ الْعَبَّاسُ أَنْ يُشَارِكَهَا قِتَالَ ابْنِ أَخِيهِ ...

لَكِنَّ زَعَامَتَهُ فِي قَوْمِهِ حَمَلَتْهُ عَلَىٰ مُشَارَكَتِهَا فِي ذَٰلِكَ حَمْلًا ، وَجَعَلَتْهُ أَحَدَ الرِّجَالِ الِاثْنَيْ عَشَرَ الَّذِينَ تَكَفَّلُوا بِإِطْعَامِ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ خِلَالَ الْغَزْوَةِ .

* * *

لَكِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَنْسَ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ نُصْرَتَهُ لَهُ وَمُؤَازَرَتَهُ(١) إِيَّاهُ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ(٢) فَلَا يَقْتُلْهُ ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ ؛ فَإِنَّهُمَا قَدْ خَرَجَا مُكْرَهَيْنِ) .

* * *

وَلَمَّا كَتَبَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ النَّصْرَ فِي بَدْرٍ ، وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ قُتِلَ ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ مَنْ أُسِرَ ... كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي جُمْلَةِ الْأَسْرَىٰ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ...

وَكَانَ الَّذِي أَسَرَهُ ؛ رَجُلًا ضَئِيلَ الْجِسْمِ ضَعِيفَ الْبِنْيَةِ ؛ يُكْنَىٰ بِأَبِي

(١) مُؤَازَرَتَه مساعدته ومعاونته .
(٢) أبو الْبَخْتَرِيّ هو العاص بن هشام بن الحارث من زعماء قريش في الجاهلية وكان ممن نقض الصحيفة ومزقها ولم يُعرف عنه إيذاء للرسول ﷺ بل كان يكفُّ الناس عنه .

الْيُسْرِ[١] أَمَّا الْعَبَّاسُ فَكَانَ ضَخْمًا طِوَالًا كَالْجَمَلِ الأَوْرَقِ[٢]

وَلَمَّا عَادَ الْعَبَّاسُ إِلَىٰ مَكَّةَ عَجِبَ أَوْلَادُهُ مِنْ أَمْرِ أَسْرِهِ ؛ فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ :

يَا أَبَانَا ؛ كَيْف أَسَرَكَ أَبُو الْيُسْرِ ، وَأَنْتَ لَوْ شِئْتَ لَجَعَلْتَهُ فِي كُمِّ قَمِيصِكَ ؟

فَقَالَ :

ـ وَاللَّهِ ـ يَا بَنِيَّ ؛ إِنَّهُ حِينَ وَثَبَ عَلَيَّ ؛ كَانَ فِي عَيْنِي أَعْظَمَ مِنَ الْفِيلِ ...

وَلَمَّا قَبَضَ عَلَىٰ ذِرَاعِي بِكَفِّهِ الصَّغِيرَةِ الْمَعْرُوقَةِ[٣]؛ ظَنَنْتُ أَنَّ الدَّمَ يُوشِكُ أَنْ يَقْطُرَ مِنْ أَظَافِرِي ...

ثُمَّ إِنَّهُ لَوَىٰ يَدِي ؛ فَجَعَلَهَا خَلْفَ ظَهْرِي ...

ثُمَّ أَخَذَ الأُخْرَىٰ فَضَمَّهَا إِلَىٰ أُخْتِهَا ؛ وَشَدَّهُمَا بِحَبْلٍ ...

وَأَنَا مُسْتَخْزٍ[٤] لَا أَمْنَعُ نَفْسِي مِنْهُ وَلَا أُقَاوِمُهُ .

* * *

بَاتَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَيْلَتَهُ الأُولَىٰ فِي مُعَسْكَرِ الأَسْرَىٰ قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَجَعَلَ يَئِنُّ أَنِينًا عَمِيقًا مُتَوَاصِلًا

فَلَمَّا بَلَغَ أَنِينُهُ مَسَامِعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرِقَ ؛ وَبَدَتْ عَلَىٰ وَجْهِهِ مَلَامِحُ الْحُزْنِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ

وَمَا يُحْزِنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! جُعِلْنَا فِدَاكَ .

فَقَالَ : (أَنِينُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) ...

---

(١) أبو الْيُسْر : هو كعب بن عمرو الأنصاري .

(٢) الْجَمَلِ الأَوْرَق : الجمل الذي لونه كلون الرماد وهو أقوىٰ الجمال .

(٣) الْمَعْرُوقَة : الهزيلة قليلة اللحم .

(٤) مُسْتَخْزٍ مُتَقَبِّل للخزي والعار .

عِنْدَئِذٍ ؛ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ ... فَوَجَدَ أَنَّ وِثَاقَهُ قَدْ شُدَّ عَلَيْهِ شَدًّا قَاسِيًا ؛ فَأَرْخَاهُ لَهُ ؛ فَسَكَتَ ...

فَأَثَارَ سُكُوتُهُ مَخَاوِفَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ :

(مَا لِي لَا أَسْمَعُ أَنِينَ الْعَبَّاسِ ؟!) .

فَقَالَ الرَّجُلُ :

أَنَا أَرْخَيْتُ وِثَاقَهُ .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(فَافْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْأَسْرَىٰ كُلِّهِمْ) .

* * *

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَعَلَ يَأْخُذُ مِنَ الْأَسْرَىٰ الْفِدَاءَ ؛ فَلَمَّا أُتِيَ لَهُ بِعَمِّهِ ؛ جَعَلَ الْعَبَّاسُ يَعْتَذِرُ لَهُ بِأَنَّهُ لَا مَالَ عِنْدَهُ ...

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي وَضَعْتَهُ عِنْدَ زَوْجَتِكَ أُمِّ الْفَضْلِ ، وَقُلْتَ لَهَا إِنْ أُصِبْتُ فَلِلْفَضْلِ كَذَا ، وَلِعَبْدِ اللَّهِ كَذَا ، وَلِعُبَيْدِ اللَّهِ كَذَا ؟!) ...

فَبُهِتَ[1] الْعَبَّاسُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا اللَّهُ .

* * *

وَفِي يَوْمِ أُحُدٍ ... أَبَىٰ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لِقِتَالِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ بَلْ إِنَّهُ أَرْسَلَ يُخْبِرُهُ بِعَزْمِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ...

(١) بُهِت : دُهِش وسكت متحيرًا .

فَكَانَ لِذَلِكَ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِعْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَتَأَهُّبِهِمْ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ.

* * *

مَضَتْ عِشْرُونَ سَنَةً عَلَىٰ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَعَمُّهُ الْعَبَّاسُ لَا يَزَالُ عَلَىٰ الشِّرْكِ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ؛ جَلَسَ الْعَبَّاسُ مَعَ زَوْجِهِ أُمِّ الْفَضْلِ يُعَدِّدَانِ شَمَائِلَ الرَّسُولِ ﷺ الْكَرِيمَةَ، وَيَذْكُرَانِ صِفَاتِهِ النَّبِيلَةَ، وَيَسْتَعِيدَانِ قِصَّةَ مَعْرِفَتِهِ لِلْمَالِ الَّذِي أَوْدَعَهُ مَعَهَا فِي نَجْوَةٍ[1] مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا ...

فَمَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ يَقُولُ لِزَوْجِهِ:

مَا بَالُنَا يَا أُمَّ الْفَضْلِ ... مَا لَنَا لَا نُسْلِمُ؟!

فَهَشَّتْ[2] أُمُّ الْفَضْلِ لِكَلِمَتِهِ هَٰذِهِ وَبَشَّتْ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ ...

وَفِي سَاعَاتٍ مَعْدُودَاتٍ؛ كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَعَدَّ رَاحِلَتَيْنِ لَهُ وَلِزَوْجِهِ، وَمَضَيَا مَعًا نَحْوَ الْمَدِينَةِ؛ مُهَاجِرَيْنِ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْعَبَّاسُ وَزَوْجُهُ الْجُحْفَةَ[3]؛ فُوجِئَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُودُ جَيْشًا جَرَّارًا لِفَتْحِ مَكَّةَ ...

وَفُوجِئَ بِهِمَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْضًا

فَقَدْ كَانَ لِقَاءً عَلَىٰ غَيْرِ مِيعَادٍ.

---

(١) النَّجْوَةِ: البعد عن الأمر حتىٰ يظن أنه لن يراه أحد.
(٢) هَشَّت: ابتسمت له وأظهرت السرور.
(٣) الْجَحْفَة: مكان علىٰ الطريق بين مكة والمدينة يبعد عن مكة أربع مراحل.

وَبَادَرَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ قَائِلًا :

(مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ يَا عَمِّ) ؟

فَقَالَ : الرَّغْبَةُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَأَعْلَنَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ كَلِمَةَ الْحَقِّ، وَدَخَلَا فِي دِينِ اللَّهِ... بَعْدَ طُولِ جُمُوحٍ[١].

فَمَا إِنْ سَمِعَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ يَشْهَدُ : أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؛ حَتَّىٰ فَاضَتْ دُمُوعُ الْفَرَحِ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ :

(هِجْرَتُكَ يَا عَمِّ آخِرُ هِجْرَةٍ، كَمَا أَنَّ نُبُوَّتِي آخِرُ نُبُوَّةٍ) .

* * *

مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ عَزَمَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ ؛ فَوَضَعَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ﷺ .

فَفِي يَوْمِ حُنَيْنٍ ؛ لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ وَتَخَلَّوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَقَفَ إِلَىٰ جَانِبِهِ وَقْفَةَ الْأَسَدِ الْهَصُورِ[٢]

فَامْتَشَقَ السَّيْفَ[٣] بِيَمِينِهِ وَأَمْسَكَ بِزِمَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِيَسَارِهِ، وَظَلَّ يُنَافِحُ[٤] عَنْهُ مَعَ نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ حَتَّىٰ كَتَبَ اللَّهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمُ النَّصْرَ .

وَيَوْمَ عَزَمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَىٰ إِنْفَاذِ جَيْشِ الْعُسْرَةِ ؛ دَعَا أَصْحَابَهُ لِلْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ ؛ فَجَاءَهُ الْعَبَّاسُ، وَصَبَّ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَبًّا .

* * *

(١) الجُمُوح : النفور والعصيان .
(٢) الأَسَدِ الْهَصُور : الأسد الشديد المفترس .
(٣) امْتَشَقَ السَّيْف : أخرجه من غمده وأمسكه بيده .
(٤) يُنَافِح : يدافع .

وَلَمَّا لَحِقَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ، وَآلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ خَلِيفَتَيْهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ ظَلَّ الْعَبَّاسُ لَهُمَا نِعْمَ الْمُشِيرُ وَالنَّصِيرُ .

وَظَلَّا هُمَا يُجِلَّانِهِ وَيُعَظِّمَانِهِ إِقْرَارًا بِفَضْلِهِ ، وَوَفَاءً لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ اشْتَدَّ الْقَحْطُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي عَامِ الرَّمَادَةِ[١]؛ فَجَفَّ الضَّرْعُ وَيَبِسَ الزَّرْعُ ، وَغَدَتِ السَّمَاءُ وَكَأَنَّهَا بُنِيَتْ مِنْ نَحَاسٍ ...

خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالْمُسْلِمِينَ ؛ فَاسْتَسْقَىٰ لَهُمْ[٢]...

فَلَمْ يُسْقَوْا ...

وَكَرَّرَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ ؛ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لَهُمْ ...

فَقَالَ لِجَمْعٍ مِنْ أَصْحَابِهِ :

لَأَسْتَسْقِيَنَّ غَدًا بِمَنْ يَسْقِينَا اللَّهُ بِهِ إِذَا شَاءَ .

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ ؛ مَضَىٰ إِلَىٰ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَقَدْ غَدَا شَيْخًا كَبِيرًا ؛ فَقَالَ لَهُ :

يَا عَمِّ اخْرُجْ مَعَنَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَسْقِيَنَا عَلَىٰ يَدَيْكَ ...

* * *

خَرَجَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ ؛ خَاشِعًا خَاضِعًا مُخْبِتًا لِلَّهِ[٣]، وَكَانَ أَمَامَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَنْ يَمِينِهِ الْحَسَنُ ، وَعَنْ

(١) عَامُ الرَّمَادَة : عام أجدبت فيه الأرض حتىٰ صار لونها كالرماد ، وجاع الناس ؛ فسمي عام الرمادة .
(٢) اسْتَسْقَىٰ لَهُم : الاستسقاء : صلاة مشروعة لطلب السقيا ونزول المطر .
(٣) المخبت : الخاشع .

شِمَالِهِ الْحُسَيْنُ، وَمِنْ خَلْفِهِ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ ... فَصَلَّوْا رَكْعَتَيْنِ ...

ثُمَّ أَخَذَ عُمَرُ بِيَدَي عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدُمُوعُهُ تُبَلِّلُ لِحْيَتَهُ، وَقَالَ:

ادْعُ لَنَا يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَرَفَعَ الْعَبَّاسُ كَفَّيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...

وَأَخَذَ يَجْأَرُ إِلَىٰ اللَّهِ[1] بِصَالِحِ الدُّعَاءِ، وَخَالِصِ الرَّجَاءِ ...

وَالنَّاسُ يُؤَمِّنُونَ مِنْ وَرَائِهِ ضَارِعِينَ مُنْتَحِبِينَ ...

فَمَا كَادَ يُتِمُّ دُعَاءَهُ ...

حَتَّىٰ تَلَبَّدَتِ الْأَجْوَاءُ بِالْغُيُومِ الدُّكْنِ، وَأَرْسَلَتِ السَّمَاءُ غَيْثًا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِدْرَارًا.

وَأَزَالَ اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ الْغُمَّةَ، وَكَشَفَ عَنْهُمُ الْكَرْبَ ...

وَسُقِيَ النَّاسُ عَلَىٰ يَدَيْ سَاقِي الْحَجِيجِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ (*).

---

(١) يَجْأَرُ إِلَىٰ اللَّهِ: يرفع صوته إليه بالدعاء.

(*) للاستزادة من أخبار الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ انظر:

١ - صفة الصفوة: ١/٥٠٦.
٢ - حياة الصحابة: ١/٢٤٠ وانظر الفهارس.
٣ - البداية والنهاية: ٢/٢١٨، ٤/٢١٥، ٣٣١، ٧/١٦١.
٤ - سيرة ابن هشام: انظر الفهارس.
٥ - الإصابة: ٢/٢٧١ أو «الترجمة» ٤٥٠٧.
٦ تهذيب التهذيب: ٥/١٢٢.
٧ - الجرح والتعديل: ١٣/٢١٠.
٨ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٣/٩٤.
٩ - التاريخ الكبير: ٤/٢.
١٠- الجمع بين رجال الصحيحين: ١/٣٦٠.
١١- الطبقات الكبرىٰ: ٤/٥ وانظر الفهارس.
١٢- أسد الغابة: ٣/١٦٤.
١٣- تهذيب الكمال: ٩/٤٠٤.
١٤- تجريد أسماء الصحابة: ٣١٧.
١٥- تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/٩٨.
١٦- شذرات الذهب ١/٣٨.
١٧- المعارف: ٧١، ٧٤.
١٨- نكت العميان: ١٧٥.

أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ النَّجَّارِيُّ

« وَرَدَ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ حَدِيثٌ شَرِيفٌ ، وَنَزَلَ فِي حَقِّهِ قُرْآنٌ كَرِيمٌ »

أَرَأَيْتَ ذَلِكَ الْكَوْكَبَ الَّذِي مَا كَادَ يَلْمَعُ فِي سَمَاءِ الْإِسْلَامِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّىٰ غَيَّبَتْهُ يَدُ الرَّدَىٰ(1) ؛ وَهْوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ تَأَلُّقًا(2) وَازْدِهَارًا .

فَلَقَدْ نَمَتْهُ(3) أُسْرَةٌ مِنْ أَعْرَقِ الْأُسَرِ الْعَرَبِيَّةِ حَسَبًا

وَأَكْرَمِهَا أُمًّا وَأَبًا

وَأَوْفَاهَا بِرًّا بِالْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ...

وَأَكْثَرِهَا نُصْحًا لِلَّهِ ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ فِي الْإِسْلَامِ ...

ذَلِكُمْ هُوَ الصَّحَابِيُّ الْأَثِيرُ الشَّهِيدُ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ النَّجَّارِيُّ .

* * *

وَحَسْبُ(4) أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ مَجَادَةً ، وَكَرَامَةً وَعِزًّا ؛ أَنَّهُ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ شَرِيفٌ ؛ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ...

وَنَزَلَ فِيهِ قُرْآنٌ كَرِيمٌ ؛ يَتْلُوهُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَيُصَلِّي بِهِ الْمُتَعَبِّدُونَ آنَاءَ اللَّيْلِ(5) وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ...

أَفَبَعْدَ هَٰذَا الْفَخَارِ مِنْ فَخْرٍ تَتَطَاوَلُ إِلَيْهِ أَعْنَاقُ الطَّامِحِينَ ...

---

(1) الرَّدَىٰ : الموت .

(2) تألُّقًا : نورًا ولمعانًا

(3) نَمَتْه : رَبَّته وكَبَّرته وَرَفَعَتْه .

(4) حَسْبُ أنس مجادة : يكفيه مجد .

(5) آناءَ اللَّيل : ساعات الليل .

أَوْ تَهْفُو إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الْمُتَطَلِّعِينَ .

وَهَلْ فَوْقَ هَٰذَا السُّؤْدَدِ[١] سُؤْدَدٌ يَسْعَىٰ إِلَيْهِ ذَوُو الْأَحْسَابِ ؟

وَلِلْحَدِيثِ الَّذِي وَرَدَ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ قِصَّةٌ مِنْ رَوَائِعِ الْقَصَصِ .

وَلِلْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ بِحَقِّهِ قِصَّةٌ تَفُوقُ الْقِصَّةَ السَّابِقَةَ .

* * *

أَمَّا قِصَّةُ الْحَدِيثِ :

فَهِيَ أَنَّهُ كَانَتْ لِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ أُخْتٌ جَلِيلَةُ الْقَدْرِ بَيْنَ نِسَاءِ الْعَرَبِ ... مَرْمُوقَةُ[٢] الْمَنْزِلَةِ فِي قَوْمِهَا

وَهِيَ الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ ؛ الْمُكَنَّاةُ بِأُمِّ حَارِثَةَ .

وَكَانَ لِأُمِّ حَارِثَةَ هَٰذِهِ ابْنٌ فِي مَيْعَةِ[٣] الصِّبَا وَرَوْنَقِ[٤] الشَّبَابِ ؛ قَدْ كَمُلَ عَقْلًا ...

وَحَلَا مَعْشَرًا ...

وَسَمَا خُلُقًا وَدِينًا

رَآهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قُبَيْلَ بَدْرٍ ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فِي حَنَانٍ وَرِفْقٍ وَقَالَ لَهُ : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟) .

فَقَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا

فَقَالَ ﷺ لَهُ : (انْظُرْ مَا تَقُولُ يَا حَارِثَةُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً) ...

(١) السؤدد : الشرف والمجد .
(٢) مَرْموقة الْمنزلة : ذات منزلة عالية بين قومها .
(٣) مَيْعَةِ الصِّبَا : أوله وأنشطه .
(٤) الرونق : البهاء .

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقَدْ عَزَفَتْ[1] نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ...

فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي بِالْقِيَامِ ...

وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي بِالصِّيَامِ ...

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ أَهْلِ النَّارِ يَتَلَظَّوْنَ بِنَارِهَا ، وَيَتَعَاوَوْنَ[2] فِي جَحِيمِهَا ...

ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي بِالشَّهَادَةِ ؛ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ بِهَا

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ اللِّقَاءِ بَيْنَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَبَيْنَ فَتَىٰ الْفِتْيَانِ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ وَقَعَتْ بَدْرٌ ...

وَنُودِيَ بِالْخَيْلِ[3]

فَكَانَ حَارِثَةُ أَوَّلَ فَارِسٍ رَكِبَ ...

وَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ اسْتُشْهِدَ ...

فَجَزِعَتْ[4] عَلَيْهِ أُمُّهُ الشَّيْخَةُ الثَّكْلَىٰ[5] أَشَدَّ الْجَزَعِ ...

وَجَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَالَتْ :

إِنْ يَكُنْ حَارِثَةُ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ لِفَقْدِهِ ، وَلَمْ أَحْزَنْ لِثُكْلِهِ ...

وَإِنْ يَكُنْ فِي النَّارِ ؛ بَكَيْتُ عَلَيْهِ مَا بَقِيَتْ لِي عُيُونٌ تَذْرِفُ[6]، وَفُؤَادٌ يَتَحَرَّقُ .

---

(١) عَزَفَتْ نَفْسِي عن الدنيا : زهدت فيها وملَّت منها .

(٢) يتعاوون : يتعالىٰ صوتهم بالصراخ والاستغاثة .

(٣) نودي بالخيل : أي دعا داعي الجهاد .

(٤) جزعت : خافت واغتمت .

(٥) الثَّكْلَىٰ : المرأة التي فقدت عزيزًا عليها كالزوج أو الولد .

(٦) تذرف : أي تدمع .

فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ :

(إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَاحِدَةٍ يَا أُمَّ حَارِثَةَ ...

وَلَكِنَّهَا جِنَانٌ ...

وَإِنَّ حَارِثَةَ فِي الْفِرْدَوْسِ[1] الْأَعْلَىٰ) ...

فَرَجَعَتِ الْعَجُوزُ الْوَقُورُ الثَّاكِلُ إِلَىٰ بَيْتِهَا، وَجَعَلَتْ تُكَفْكِفُ[2] عَبَرَاتِهَا ...

وَتُكَتِّمُ لَوْعَاتِهَا ...

وَتُصَبِّرُ نَفْسَهَا ...

وَتَتَعَزَّىٰ بِمُوَاسَاةِ النَّاسِ لَهَا ...

* * *

وَبَيْنَمَا كَانَتِ السَّيِّدَةُ النَّجَّارِيَّةُ تَذُوقُ مِنْ مَرَارَةِ الْمُعَانَاةِ مَا تَذُوقُ، وَتُعَانِي مِنْ تَوَفُّزِ[3] الْمَشَاعِرِ مَا تُعَانِي؛ اسْتَثَارَتْهَا[4] جَارِيَةٌ لِجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ.

فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ لَطَمَتْهَا لَطْمَةً كَسَرَتْ ثَنِيَّتَهَا[5].

ثُمَّ نَدِمَتْ عَلَىٰ مَا فَعَلَتْ أَشَدَّ النَّدَمِ ...

وَلَقَدْ تَقَدَّمَ أَخُوهَا أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ مِنْ أَهْلِ الْجَارِيَةِ يَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْفِدْيَةَ[6]؛ فَأَبَوْهَا ...

فَنَهَضَ إِلَيْهِمْ وُجُوهُ الْقَوْمِ يَرْجُونَهُمُ الصَّفْحَ فَرَدُّوهُمْ، وَأَصَرُّوا عَلَىٰ أَنْ

---

(١) الفردوس الأعلىٰ: أعلىٰ درجات الجنة.
(٢) تكفكف عبراتها: تمسح دموعها مرة بعد مرة.
(٣) توفُّز الْمشَاعِرِ: اضطرابها وثورتها.
(٤) استثَارَتْهَا: استفزتها وأهاجتها.
(٥) الثنية: جمعها ثنايا وهي أسنان مقدم الفم.
(٦) الفدية: استنقاذ النفس بالمال.

يَشْكُوهَا إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَلَمَّا شَكَوْهَا إِلَيْهِ ؛ قَضَىٰ بِالْقِصَاصِ مِنْهَا تَنْفِيذًا لِحُكْمِ اللَّهِ ...

وَمُسَاوَاةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَذُهِلَ[1] أَخُوهَا أَنَسٌ لِمَا سَمِعَ ، وَقَالَ :

أَوَ تُكْسَرُ ثَنِيَّةُ أُمِّ حَارِثَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟!! ...

وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ! .

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

(يَا أَنَسُ إِنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ يَقْضِي بِذَلِكَ) .

وَقَبْلَ أَنْ يَتَفَوَّهَ أَنَسٌ بِكَلِمَةٍ ؛ نَظَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ إِلَىٰ أَهْلِ الْجَارِيَةِ الْمُتَصَلِّبِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ ؛ فَإِذَا هُمْ أَلْيَنُ مِنَ الْعِهْنِ[2] الْمَنْفُوشِ ، وَأَنْعَمُ مِنَ الْحَرِيرِ الطَّرِيِّ ...

وَإِذَا بِهِمْ ؛ وَكَأَنَّ قُوَّةً خَفِيَّةً تَدْفَعُهُمْ دَفْعًا إِلَىٰ غَيْرِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ .

فَأَقْبَلُوا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَقُولُونَ :

نَعَمْ ... لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

نَعَمْ ؛ لَا تُكْسَرُ ...

لَقَدْ عَفَوْنَا عَنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

لَقَدْ صَفَحْنَا عَنْهَا يَا أَكْرَمَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ...

فَنَظَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ فِي رِفْق

(١) ذُهِل : من الذُّهول ، وهو شُغْلٌ يورثُ حزنًا ونسيانًا.　　(٢) العهن : الصوف .

وَ إِعْجَاب ، وَقَالَ :

(إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللَّهِ لَأَبَرَّهُ[1]) .

* * *

تِلْكُمْ قِصَّةُ الْحَدِيثِ الَّذِي وَرَدَ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ .

أَمَّا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ ؛ فَلَهُ شَأْنٌ آخَرُ ...

ذَلِكَ أَنَّهُ غَابَ عَنْ بَدْرٍ لِسَبَبٍ لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِ دَفْعُهُ .

فَشَقَّ عَلَيْهِ أَلَّا يَشْهَدَ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ .

وَأَهَمَّهُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَأَغَمَّهُ[2] ؛ فَجَعَلَ يَلُومُ نَفْسَهُ ، وَيَقُولُ :

وَيْحَكَ يَا أَنَسُ ! ...

أَتَغِيبُ عَنْ أَوَّلِ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟! .

هَلْ أَنْتَ ضَامِنٌ بِأَنْ يَمْتَدَّ بِكَ الْعُمُرُ حَتَّىٰ تَشْهَدَ مَعَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا يُعَادِلُ بَدْرًا فِي الذُّخْرِ[3] وَالْأَجْرِ ؟!!

وَاللَّهِ ! لَئِنْ أَكْرَمَنِي رَبِّي بِيَوْمٍ أَلْقَىٰ فِيهِ الْمُشْرِكِينَ ؛ لَيَرَيَنَّ مَا أَصْنَعُ .

وَلَقَدْ هَمَّ أَنَسٌ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا آخَرَ ؛ لَوْلَا أَنَّهُ هَابَ ذَلِكَ فَسَكَتَ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ الْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَلَىٰ نَفْسِهِ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ قَامَتْ أُحُدٌ ...

---

(١) لأبرّه : لأمضىٰ قسمه وأنفذه .

(٢) أغمّه : أحزنه .

(٣) الذُّخر : ما ادّخرته من مال وغيره .

وَأُحُدٌ يَوْمٌ قَاسٍ مِنْ أَيَّامِ الْمُسْلِمِينَ ؛ مَحَّصَ[1] اللَّهُ فِيهِ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ .

وَأَبْرَزَ فِي سَاحَاتِهِ الأَبْطَالَ الْغُرَّ[2] الْمَيَامِينَ مِنْ طُلَّابِ الشَّهَادَةِ ، وَأَبْنَاءِ الْفَرَادِيسِ[3].

وَقَدْ لَقِيَ فِيهِ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنَ الضَّنْكِ[4] وَالْأَذَىٰ مَا لَقِيَ .

فَرُمِيَ بِالْحِجَارَةِ ...

وَأُلْقِيَ فِي الْحُفْرَةِ ...

وَشُجَّ[5] وَجْهُهُ ...

وَكُلِمَتْ[6] شَفَتُهُ ...

وَسَالَ دَمُهُ ...

وَأَرْجَفَ[7] الْمُرْجِفُونَ أَنَّهُ قُتِلَ ...

وَصَدَّقَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ مَعَهُ مَا ذَاعَ عَنْهُ وَشَاعَ ...

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَجَدَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ أَنَّ الْفُرْصَةَ غَدَتْ سَانِحَةً لِلْوَفَاءِ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ .

فَاطَّلَعَ عَلَىٰ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ ، وَنَظَرَ إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَقَدِ انْكَشَفُوا عَنْ

(١) محَّص : ميَّز .
(٢) الغُرّ الميامين : ذوو النجدة والمروءة .
(٣) الفَرَاديس : جمع فردوس ، وهو أعلىٰ الجنان .
(٤) الضَّنك : الضّيق والشِّدَّة .
(٥) شج وَجهه : جرحه في وجهه .
(٦) كلمت شفته : جرحت .
(٧) أرجف المرجفون : زعم الخرّاصون الكذابون .

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَحَدَّقَ بِالْمُشْرِكِينَ ، وَهُمْ يَقْصِدُونَ(١) قَصْدَهُ لِيَقْتُلُوهُ ، وَيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِحَدِّ السُّيُوفِ .

فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ [يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ الْفَارِّينَ مِنْ سَاحَةِ الْقِتَالِ] .

وَأَبْرَأُ(٢) إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ [يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ الْمُهَاجِمِينَ] .

ثُمَّ أَلْفَىٰ(٣) عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرِيبًا وَهُوَ مُضْطَرِبٌ قَلِقٌ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يَا عُمَرُ ؟

فَقَالَ : مَا أَرَاهُ إِلَّا قُتِلَ ...

فَقَالَ أَنَسٌ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ...

ثُمَّ سَلَّ سَيْفَهُ ...

وَكَسَرَ غِمْدَهُ(٤) ...

وَأَلْقَىٰ بِنَفْسِهِ فِي خِضَمِّ(٥) الْمَعْرَكَةِ غَيْرَ مُرْتَابٍ ، وَلَا هَيَّابٍ(٦) .

وَبَيْنَمَا هُوَ مُنْدَفِعٌ إِلَىٰ لِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ رَأَىٰ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ(٧) قَرِيبًا مِنْهُ ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

الْجَنَّةُ يَا سَعْدُ الْجَنَّةُ ...

وَرَبِّ النَّضْرِ ! إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ ...

(١) يقصدون قصده : يتجهون نحوه .
(٢) أبرأ إليك : أعلن براءتي مما يغضبك .
(٣) أَلفَىٰ : وَجَدَ .
(٤) الغِمد : جَفْن السيف يُحفظ فيه .
(٥) خضم المعركة : وسط المعركة .
(٦) هيَّاب : جبان .
(٧) سَعْدَ بْنَ مُعَاذ : انظره ص ٩٩.

ثُمَّ مَضَىٰ لَا يَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ .

قَالَ سَعْدٌ :

فَهَمَمْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِهِ ، وَأَنْ أَسْلك سَبِيله ، وَأَفْعَلَ فِعْلَهُ ...

غَيْرَ أَنِّي مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَعْزم عَلَىٰ مَا عَزَمَ ، وَأَنْ أَصْنَعَ مَا صَنَعَ ...

* * *

ثُمَّ انْجَلَتِ[1] الْمَعْرَكَةُ ، وَإِذَا بِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ قَدْ ثَوَىٰ[2] شَهِيدًا عَلَىٰ أَرْضِ أُحُدٍ ...

وَفِيهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ ...

أَوْ طَعْنَةً بِالرُّمْحِ ...

أَوْ رَمْيَةً بِالسَّهْمِ ...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ كَيْدِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ أَنَّهُمْ مَثَّلُوا[3] بِهِ مَيِّتًا ؛ مُثْلَةً قَضَتْ عَلَىٰ مَعَالِمِهِ ...

فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ أُمُّ حَارِثَةَ ...

وَإِنَّمَا عَرَفَتْهُ مِنْ بَنَانِهِ ...

* * *

وَلَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَنَسَ بْنَ النَّضْرِ النَّجَّارِيَّ ؛ فَأَنْزَلَ فِيهِ قُرْآنًا ؛ تَلَاهُ الْمُسْلِمُونَ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ...

وَسَيَظَلُّ يُتْلَىٰ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ...

(١) انجلت المعركة : انتهت .

(٢) ثوَىٰ : مات ودفن .

(٣) مثّلوا به : شوّهوا جثته

لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ،

فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَـحْبَهُ ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ،

وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] ... (*) .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(*) للاستزادة من أخبار أنس بن النضر انظر :

١ - صفة الصفوة : ١/ ٦٢٣.

٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/ ٧٠.

٣ - الإصابة : ١/ ٧٤ « الترجمة » ٢٨٣.

رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِيُّ

« دَاهِيَةُ الصَّحْرَاءِ »

« رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ أَهْدَىٰ بَدَوِيٍّ بِرِمَالِ الصَّحْرَاءِ، وَأَدَلُّ النَّاسِ عَلَىٰ طُرُقِهَا »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ[١] رَافِعِ بْنِ عُمَيْرٍ الطَّائِيِّ دَاهِيَةِ الصَّحْرَاءِ، وَفَاتِكِهَا الْكَبِيرِ ؟!

لَقَدْ طَلَعَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ رَافِعٍ فَلَمْ يُلْقِ إِلَيْهِ بَالًا، وَلَمْ يُعِرْهُ أَيَّ الْتِفَاتَةٍ ...

ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا عَنْهُ بِالْإِغَارَةِ عَلَىٰ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، وَاسْتِلَابِ كَرَائِمِ[٢] إِبِلِهِمْ ...

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ رَافِعًا كَانَ زَعِيمَ قَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، أَوْ كَانَتْ لَهُ سَرِيَّةٌ[٣] يَغْزُو بِهَا، أَوْ عُصْبَةٌ[٤] تَشُدُّ أَزْرَهُ.

لَمْ يَكُنْ رَافِعٌ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا كَانَ بَدَوِيًّا مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحْرَاءِ كَوَّنَ لِنَفْسِهِ جَيْشًا مِنْ نَفْسِهِ ...

وَجَعَلَ يَشُنُّ غَارَاتِهِ عَلَىٰ بُيُوتِ الْعَرَبِ؛ وَحِيدًا فَرِيدًا ...

وَيَرْزَأُ[٥] النَّاسَ بِأَعَزِّ مَا يَمْلِكُونَهُ، ثُمَّ يَعُودُ سَالِمًا غَانِمًا مَوْفُورًا[٦]

* * *

وَقَدْ تَقُولُ: أَلَمْ يَكُنْ فِي هَٰذِهِ الْأَحْيَاءِ الَّتِي يُغِيرُ عَلَيْهَا رَافِعٌ؛ أَبْطَالٌ أَنْجَادٌ[٧] قَادِرُونَ عَلَىٰ مُطَارَدَةِ هَٰذَا الْفَاتِكِ، وَاسْتِنْقَاذِ كَرَائِمِ إِبِلِهِمْ مِنْهُ،

---

(١) نَبَأ: خبر.
(٢) كرائم إبلهم: خيار إبلهم.
(٣) السَّرِيَّة: القطعة من الجيش.
(٤) عُصبة تَشُدُّ أزرَه: جماعة تنصره.
(٥) يَرزَأ: يفجع.
(٦) موفورًا: كثير المال والمتاع.
(٧) الأنجاد: جمع نَجِد، وهو الشجاع الذي يفعل ما يعجز عنه غيره.

وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ ؟!

بَلَىٰ إِنَّهُ كَانَ فِي أَبْنَاءِ الصَّحْرَاءِ مَنْ لَا يَقِلُّونَ عَنْ رَافِعٍ شَجَاعَةً وَجُرْأَةً وَ إِقْدَامًا ...

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ مَنْ يُمَاثِلُهُ فِي مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ هَٰذِهِ الصَّحْرَاءِ ، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ النُّفُوذِ إِلَىٰ أَغْوَارِهَا ...

حَتَّىٰ عُرِفَ بَيْنَ الْعَرَبِ بِأَنَّهُ أَهْدَىٰ(١) بَدَوِيٍّ بِرِمَالِ الصَّحْرَاءِ ...

وَأَدَلُّ النَّاسِ عَلَىٰ طُرُقِهَا .

* * *

وَقَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِ رَافِعٍ أَنَّهُ إِذَا عَزَمَ عَلَىٰ غَزْوِ قَوْمٍ ؛ أَنْ يَسْتَحْضِرَ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ ... وَأَنْ يَمْلَأَهُ بِالْمَاءِ ...

وَأَنْ يَدْفِنَهُ فِي الْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي لَا تَطَؤُهَا قَدَمٌ فِي بَطْنِ الصَّحْرَاءِ .

ثُمَّ يَشُنُّ غَارَتَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، وَيَسُوقُ الْإِبِلَ الَّتِي يَسْتَلِبُهَا(٢) أَمَامَهُ ، وَيَمْضِي بِهَا إِلَىٰ تِلْكَ الْمَفَاوِزِ(٣) الَّتِي لَمْ تُعْطِ سِرَّهَا لِأَحَدٍ غَيْرِهِ ...

فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا ، وَأَوْغَلَ فِي مَتَاهَاتِهَا(٤)... كَفَّ أَصْحَابُهَا عَنْ مُطَارَدَتِهِ ، وَعَادُوا أَدْرَاجَهُمْ ؛ خَشْيَةً عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ عَطَشًا أَوْ ضَيَاعًا .

* * *

وَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ ؛ بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ

(١) أَهْدَىٰ : أعرف .
(٢) يستلبها : استلب يستلب : انتزع الشيء من غيره قهرًا .
(٣) المفاوز : مفردها مفازة : الفلاة المهلكة التي لا ماء فيها .
(٤) متاهاتها : أَمْكِنَة يضل الإنسان ويتيه فيه لشدة الظلام أو الغموض ، مفردها : متاهة .

عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ[(١)] عَلَىٰ رَأْسِ سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ بِلَادِ طَيِّئٍ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَسْتَنْفِرَ[(٢)] مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْعَرَبِ لِلْخُرُوجِ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ لِقِتَالِ الرُّومِ...

وَأَنْ يَسْتَأْلِفَ[(٣)] مَنْ لَمْ يُسْلِمُوا مِنْهُمْ حَتَّىٰ لَا يَنْضَمُّوا إِلَىٰ أَعْدَائِهِ...

وَكَانَ فِي السَّرِيَّةِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَطَائِفَةٌ مِنْ جِلَّةِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَانْطَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا جَبَلَ طَيِّئٍ؛ عَمِيَتْ[(٤)] عَلَيْهِمُ الطُّرُقُ، وَخَافُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضَّيَاعِ وَالْهَلَاكِ... فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

هَاتُوا لَنَا رَجُلًا خَبِيرًا يَكُونُ دَلِيلًا لَنَا فِي هَٰذِهِ الْمَفَاوِزِ.

فَقِيلَ لَهُ: لَيْسَ لَكُمْ إِلَّا رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِيُّ؛ فَإِنَّهُ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهَٰذِهِ الْفَيَافِي[(٥)]، وَأَبْصَرُهُمْ بِمَسَالِكِهَا... فَدَعَوْا رَافِعًا وَاتَّخَذُوهُ دَلِيلًا لَهُمْ...

* * *

قَضَىٰ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ مَعَ هَٰذِهِ الصَّفْوَةِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ أَيَّامًا بِلَيَالِيهَا حَتَّىٰ أَنْجَزُوا مَا أُمِرُوا بِهِ.

فَرَأَىٰ رَافِعٌ مِنْ كَرِيمِ شَمَائِلِهِمْ[(٦)]، وَنَبِيلِ خَصَائِلِهِمْ[(٧)]، وَسُمُوِّ هَدْيِهِمْ[(٨)] مَا زَرَعَ حُبَّهُمْ فِي قَلْبِهِ زَرْعًا...

لَقَدْ وَجَدَهُمْ عُبَّادًا فِي اللَّيْلِ؛ فُرْسَانًا فِي النَّهَارِ...

زُهَّادًا فِي الدُّنْيَا؛ رُغَّابًا بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ.

---

(١) عَمْرو بْن العَاص: انظره في الكتاب الثامن من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.
(٢) يستنفر: يستنهض القوم ويستنصرهم ويستنجد بهم.
(٣) يَسْتَأْلِف: يستأنس القوم ويداريهم.
(٤) عَمِيَت: خفيت وتاهت.
(٥) الفيافي: مفرد الفيفاء أو الفيف: المفازة لا ماء فيها.
(٦) كريم شمائلهم: سمو أخلاقهم.
(٧) الخصائل: الخلال والصفات.
(٨) هديهم: سيرتهم وطريقتهم.

فَكَانَ لَهُ مَعَهُمْ شَأْنٌ يَرْوِيهِ لَكَ رَافِعٌ بِنَفْسِهِ ؛ فَيَقُولُ :

لَقَدْ كُنْتُ خِلَالَ صُحْبَتِي لِلْقَوْمِ أَتَأَمَّلُهُمْ جَمِيعًا ، وَأَتَفَرَّسُ مِنْهُمْ أَبَا بَكْرٍ خَاصَّةً ، وَأَتَوَسَّمُهُ وَأُوثِرُهُ[1] بِاهْتِمَامِي عَلَىٰ سَائِرِ أَصْحَابِهِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ...

فَلَمَّا عُدْنَا إِلَىٰ الْمَنَازِلِ الَّتِي خَرَجْنَا مِنْهَا ، وَأَوْشَكُوا أَنْ يُفَارِقُونَا ؛ أَحْسَسْتُ أَنَّهُمْ سَيَغْدُونَ[2] مَعَهُمْ بِقَلْبِي ... فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَقُلْتُ :

يَا رَفِيقَ الْخَيْرِ إِنِّي تَوَسَّمْتُكَ[3]، وَاخْتَرْتُكَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ ؛ فَاذْكُرْ لِي شَيْئًا إِذَا حَفِظْتُهُ كُنْتُ مِنْكُمْ وَمِثْلَكُمْ .

فَقَالَ : أَتَحْفَظُ أَصَابِعَكَ الْخَمْسَ ؟

قُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ : عُدَّ عَلَيْهَا :

تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ،

وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ...

وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ إِنْ كَانَ لَكَ مَالٌ ...

وَتَصُومُ رَمَضَانَ ...

وَتَحُجُّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

ثُمَّ قَالَ : هَلْ حَفِظْتَ ؟

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، وَاسْمَعْ مِنِّي :

---

(١) أُوثِره : أخصّه .

(٢) سيغدون : سيذهبون .

(٣) تَوَسَّمَهُ : تعرّفه وتبين فيه الخير .

إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

وَأَمَّا الصَّلَاةُ ؛ فَلَنْ أَتْرُكَهَا أَبَدًا ...

وَأَمَّا الزَّكَاةُ ؛ فَإِنْ يَكُ لِي مَالٌ أُؤَدِّهَا

وَأَمَّا رَمَضَانُ ؛ فَسَأَصُومُهُ مَا حَيِيتُ ...

وَأَمَّا الْحَجُّ ؛ فَإِنْ أَسْتَطِعْ أَحُجَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ طَوَىٰ لِصُّ الصَّحْرَاءِ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ تِلْكَ الصَّفْحَةَ السَّوْدَاءَ مِنْ حَيَاتِهِ ، وَفَتَحَ الصَّفْحَةَ الْأُخْرَىٰ ...

الصَّفْحَةَ الْمُشْرِقَةَ بِنُورِ الْإِيمَانِ ...

الْمُتَلَأْلِئَةَ بِضِيَاءِ الْقُرْآنِ .

* * *

لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ نَبَأَ رَافِعِ بْنِ عُمَيْرٍ فِي جَاهِلِيَّتِهِ ...

فَإِلَيْكَ طَرَفًا مِنْ نَبَئِهِ بَعْدَ إِسْلَامِهِ ...

سَيَّرَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ جَيْشًا مُكَوَّنًا مِنْ أَرْبَعِ فِرَقٍ ؛ لِغَزْوِ الرُّومِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

فَانْدَفَعَ الْجَيْشُ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُحَرِّرُ الْبِلَادَ ، وَيَهْدِي الْعِبَادَ ...

وَيَرْفَعُ فِي كُلِّ أَرْضٍ تَطَؤُهَا قَدَمَاهُ صَوْتَ الْأَذَانِ ؛ لِيُعْلِنَ لِلنَّاسِ أَنَّ عَهْدَ الْعُبُودِيَّةِ لِلْقَيَاصِرَةِ قَدِ انْقَضَىٰ ، وَأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ... حَتَّىٰ بَلَغَ مَشَارِفَ[1] دِمَشْقَ ، ثُمَّ انْطَلَقَ مِنْهَا إِلَىٰ مَدِينَةِ حِمْصَ فِي أَوَاسِطِ سُورِيَّةَ .

* * *

(١) مشارف دِمَشق : الأماكن المطلة عَلَيها .

لَمْ يَكُنِ الرُّومُ يَحْسِبُونَ حِسَابًا لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ يَأْبَهُونَ[١] لَهُ؛ فَلَمَّا رَأَوْهُ يُلْحِقُ بِهِمُ الْهَزِيمَةَ تِلْوَ الْهَزِيمَةِ، وَيُهَدِّدُ جُنْدَهُمْ بِالْفَنَاءِ... حَشَدُوا جُيُوشَهُمْ فِي «أَنْطَاكِيَةَ»[٢]، وَاسْتَقْدَمُوا النَّجْدَاتِ مِنْ أَطْرَافِ الدَّوْلَةِ «الْبِيزَنْطِيَّةِ»[٣]؛ حَتَّىٰ اجْتَمَعَ لَهُمْ مِئَتَانِ وَخَمْسُونَ أَلْفَ مُحَارِبٍ...

ثُمَّ دَفَعُوا بِهَٰذَا الْجَيْشِ الْعَرَمْرَمِ اللَّجِبِ[٤] فِي وَجْهِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَمَضَىٰ يَسْتَرِدُّ الْبِلَادَ الَّتِي فَقَدَهَا الرُّومُ، وَيُهَدِّدُ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِالْفَنَاءِ...

فَطَيَّرَ[٥] الْمُسْلِمُونَ رُسُلًا مِنْ عِنْدِهِمْ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ؛ يَصِفُونَ لِلْخَلِيفَةِ الْمَوْقِفَ، وَيَقُولُونَ: الْغَوْثَ... الْغَوْثَ...

وَالْعَجَلَ... الْعَجَلَ...

* * *

كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ[٦] - إِذْ ذَاكَ - فِي الْعِرَاقِ عَلَىٰ رَأْسِ جَيْشِهِ الْكَبِيرِ الْفَاتِحِ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الصِّدِّيقُ يَأْمُرُهُ بِالتَّوَجُّهِ تَوًّا إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ لِنَجْدَةِ الْجَيْشِ الْمُهَدَّدِ بِالْفَنَاءِ... وَيُبَصِّرُهُ بِالْكَارِثَةِ الَّتِي تُوشِكُ أَنْ تَحُلَّ بِالْمُسْلِمِينَ...

فَاسْتَجَابَ خَالِدٌ لِأَمْرِ الْخَلِيفَةِ، وَمَضَىٰ بِعَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ صَنَادِيدِ[٧] الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِيُّ... لِيَكُونُوا مَدَدًا لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الشَّامِ.

* * *

(١) يأبهون له: يلتفتون إليه.
(٢) انظرها في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.
(٣) الدولة البيزنطية: هي الإمبراطورية الرومانية الشرقية؛ عُرفت بالبيزنطية نسبة إلىٰ بيزنطة وهي القسطنطينية التي هي إسطَنْبُول الآن.
(٤) العَرَمْرَم اللَّجب: الجيش الشديد والكثير.
(٥) فَطَيَّرَ المسلمون: ارسلوا عَلَىٰ عجل.
(٦) خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد: انظره ص ١٨٧.
(٧) الصناديد: جمع صنديد وهو السيد الشجاع.

لَقَدْ كَانَ عَلَىٰ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنْ يَصِلَ بِجَيْشِهِ إِلَىٰ سُورِيَّةَ فِي أَقْصَرِ وَقْتٍ ...

وَأَنْ يَسْلُكَ طَرِيقًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ مُوَاجَهَةَ الرُّومِ حَتَّىٰ لَا تَحُولَ دُونَهُ وَدُونَ الِالْتِقَاءِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَجَعَلَ يَسْتَشِيرُ أَصْحَابَهُ وَيَقُولُ :

مَنْ لِي بِمِثْلِ هَٰذِهِ الطَّرِيقِ ؟!

فَقَامَ إِلَيْهِ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِيُّ وَقَالَ : أَنَا لَكَ بِهَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : وَكَيْفَ ؟

فَقَالَ : نَقْطَعُ الصَّحْرَاءَ ابْتِدَاءً مِنْ « قَرَاقِرَ » ، وَمُرُورًا « بِسِوَىٰ » وَ« أَرَاكَ » ، وَانْتِهَاءً « بِتَدْمُرَ »(١) ...

فَإِذَا نَحْنُ خَلْفَ حِمْصَ فِي أَوَاسِطِ بِلَادِ الشَّامِ ؛ حَيْثُ تُرَابِطُ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ ...

فَيُفَاجَأُ بِنَا الرُّومُ ؛ فَلَا يَدْرُونَ إِنْ كُنَّا هَبَطْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، أَوْ نَبَعْنَا لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ .

فَقَالَ خَالِدٌ : وَكَيْفَ لَنَا بِالْمَاءِ فِي هَٰذِهِ الصَّحْرَاءِ الْمُقْفِرَةِ ؛ وَمَعَنَا عِشْرُونَ أَلْفَ نَسَمَةٍ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَجَوَادٍ ؟! .

فَقَالَ : مَا دَامَ اللَّهُ مَعَنَا ؛ فَأَنَا لَكَ بِهِ .

* * *

اسْتَشَارَ خَالِدٌ أَصْحَابَ الرَّأْيِ مِنْ مُقَدَّمِي الْجَيْشِ ؛ فَقَالُوا :

---

(١) تَدْمُر : مدينة في الشمال الشرقي من سوريا بواحة في بادية الشام كانت عاصمة الملكة زنوبيا ، ومحطًّا تجاريًّا في طريق القوافل ؛ فتحها الإمبراطور أورليانوس ودمرها ، وظلت تحت حكم الرومان إِلَىٰ أن أخذها المسلمون عَلَىٰ يد خالد بن الوليد .

لَا تَفْعَلْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ فَالْمَسَافَةُ بَيْنَ « قَرَاقِرَ » وَ« سِوَى » لَا تُقْطَعُ بِأَقَلَّ مِنْ خَمْسِ لَيَالٍ ...

وَهِيَ مَفَازَةٌ لَا مَاءَ فِيهَا ، وَلَا مَسَالِكَ ...

وَإِنَّ اجْتِيَازَهَا عَلَى الرَّاكِبِ الْفَرْدِ يَكَادُ يَكُونُ مُحَالًا ؛ فَكَيْفَ بِهَٰذَا الْجَيْشِ الْكَبِيرِ ؟! فَلَا تُعَرِّضْ نَفْسَكَ وَنُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْهَلَاكِ .

فَقَالَ خَالِدٌ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لَا يَخْتَلِفَنَّ هَدْيُكُمْ[1]، وَلَا يَضْعُفَنَّ يَقِينُكُمْ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَعُونَةَ مِنَ اللَّهِ تَأْتِي عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ...

وَأَنَّ الْأَجْرَ يَكُونُ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ ...

وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْبَغِي[2] أَنْ يُبَالِيَ بِشَيْءٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُ مَعُونَةَ رَبِّهِ ...

ثُمَّ إِنَّ رَافِعَ بْنَ عُمَيْرٍ مَعَنَا ، وَلَيْسَ فِيكُمْ مَنْ يَجْهَلُ رَافِعَ ابْنَ الصَّحْرَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ ! لَا بُدَّ مِنْ هَٰذَا ؛ فَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى إِنْفَاذِ أَمْرِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَاسْتِنْقَاذِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَرَاثِنِ الرُّومِ .

فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنِ اسْتَجَابُوا لَهُ طَائِعِينَ ؛ وَقَالُوا :

أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ ؛ فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكَ .

فَقَالَ : جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى رَافِعٍ ، وَقَالَ : افْعَلْ مَا بَدَا لَكَ يَا رَافِعُ .

فَقَالَ رَافِعٌ : اِئْتِنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ بِعِشْرِينَ نَاقَةً عِظَامًا سِمَانًا مَسَانَّ[3] فَأُتِيَ لَهُ بِهِنَّ ...

---

(١) هديكم : رشادكم وطريقتكم وسيرتكم .
(٢) يَنْبَغِي : يجوز .
(٣) مَسَانٌّ : مفردها مُسِنّ ؛ الكبير السن .

فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ رَافِعٌ ؛ فَأَعْطَشَهُنَّ ...

فَلَمَّا أَجْهَدَهُنَّ الْعَطَشُ أَوْرَدَهُنَّ الْمَاءَ ؛ فَشَرِبْنَ حَتَّىٰ امْتَلأْنَ .

ثُمَّ قَطَعَ مَشَافِرَهُنَّ[(١)]، وَرَبَطَ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِنَّ حَتَّىٰ لَا يَجْتَرِرْنَ[(٢)]، ثُمَّ حَمَّلَ هَـٰذِهِ النُّوقَ مَا تُطِيقُ حَمْلَهُ مِنَ الْمَاءِ ؛ فَأَصْبَحَ الْمَاءُ فِي بُطُونِهَا وَعَلَىٰ ظُهُورِهَا

* * *

وَانْطَلَقَ الْجَيْشُ الْعَتِيدُ ، وَجَعَلَ يُغِذُّ[(٣)] السَّيْرَ بِخُيُولِهِ وَأَثْقَالِهِ .

فَكَانَ كُلَّمَا نَزَلَ مَنْزِلًا ؛ قَامَ رَافِعٌ إِلَىٰ النُّوقِ وَذَبَحَ أَرْبَعَةً مِنْهَا .

فَأَخَذَ مَا فِي كُرُوشِهَا[(٤)] مِنَ الْمَاءِ ، وَمَزَجَهُ بِلَبَنِهَا وَسَقَاهُ الْخَيْلَ ...

وَسَقَىٰ الْجَيْشَ مِمَّا عَلَىٰ ظُهُورِهَا مِنَ الْمَاءِ .

* * *

فَلَمَّا أَتَمَّ الْجَيْشُ الْمَرْحَلَةَ الْخَامِسَةَ مِنْ مَرَاحِلِ سَيْرِهِ ، وَاسْتَنْفَدَ[(٥)] سَائِرَ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْمَاءِ ... وَأَصْبَحَ عَلَىٰ رَافِعٍ أَنْ يَدُلَّ الْجُنْدَ عَلَىٰ مَصَادِرِهِ .

شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَابَ رَافِعٌ بِالرَّمَدِ حَتَّىٰ وَرِمَتْ عَيْنَاهُ ؛ فَغَدَا لَا يُبْصِرُ شَيْئًا ...

فَأَتَىٰ إِلَيْهِ خَالِدٌ وَقَالَ : وَيْحَكَ يَا رَافِعُ ... لَقَدْ ذَبَحْنَا النُّوقَ جَمِيعَهَا ، وَنَفِدَ الْمَاءُ كُلُّهُ ، وَشَارَفَ الْجَيْشُ عَلَىٰ الْهَلَاكِ ...

فَقَالَ : انْظُرُوا لَعَلَّكُمْ تَرَوْنَ جَبَلَيْنِ عَلَىٰ هَيْئَةِ ثَدْيَيْنِ ...

فَأَطْلَقَ خَالِدٌ بَصَرَهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ، ثُمَّ قَالَ :

---

(١) مشافرهن : جمع مشفر ؛ الشفة . وأخص استعمالها للبعير .
(٢) الاجْتِرَارُ : إعادة البعير الأكل من بطنه فيمضغه ثانية ويبتلعه .
(٣) يُغِذُّ : يسرع .
(٤) كروشها : مفردها كرش ، وهي لِذي الخف والظلف وكل مجتر بمنزلة المعدة للإنسان .
(٥) استنفد : استوفىٰ ما فيها .

هَا هُمَا نَعَمْ هَا هُمَا يَا رَافِع .

فَقَالَ رَافِعٌ : أَبْشِرُوا

قُومُوا الْتَمِسُوا[١] بَيْنَهُمَا شَجَرَةَ عَوْسَجٍ[٢] صِفَتُهَا كَذَا وَكَذَا .

فَالْتَمَسُوهَا ؛ فَلَمْ يَجِدُوهَا .

فَقَالَ رَافِعٌ : وَيْحَكُمْ ! انْفُضُوا[٣] عَنْهَا الْأَرْضَ نَفْضًا إِنَّهَا هُنَا ...

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَجِدُوهَا هَلَكْتُمْ وَهَلَكْتُ مَعَكُمْ .

فَهَبُّوا يَبْحَثُونَ عَنْ شَجَرَةِ الْعَوْسَجِ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ ؛ فَمَا لَبِثُوا أَنْ وَجَدُوهَا وَقَدِ اجْتُثَّتْ[٤] وَبَقِيَ أَصْلُهَا فِي الْأَرْضِ ... فَكَبَّرُوا وَكَبَّرَ رَافِعٌ مَعَهُمْ ...

ثُمَّ قَالَ : احْفِرُوا فِي أَصْلِهَا ؛ فَحَفَرُوا ...

فَتَفَجَّرَتْ مِنْ تَحْتِهَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ نَمِيرٍ[٥] ...

فَازْدَادُوا تَهْلِيلًا وَتَكْبِيرًا ...

وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ رَافِعٍ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ مُهَنِّئِينَ ؛ فَقَالَ لَهُمْ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ... وَاللَّهِ لَقَدْ مَرَرْتُ بِهَٰذِهِ الْأَرْضِ مَعَ أَبِي مُنْذُ ثَلَاثِينَ عَامًا ...

وَمَا أَبْصَرَتْهَا عَيْنَايَ بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

تَابَعَ الْجَيْشُ مَسِيرَتَهُ حَتَّىٰ بَلَغَ الرَّوَابِيَ الْمُشْرِفَةَ عَلَىٰ غُوطَةِ دِمَشْقَ ؛ فَدَفَعَ

---

(١) التمسوا : اطلبوا وابحثوا .

(٢) العوسج : الواحدة عوسجة : جنس شجيرات من فصيلة الباذنجانيات أغصانه شائكة وأزهاره مختلفة الألوان يصلح سياجًا .

(٣) انْفُضُوا عنها الأرض : انظروا فيها شبرًا شبرًا .

(٤) اجتثت : اقتلعت .

(٥) عذب نمير : صاف سائغ شرابه .

خَالِدٌ بِرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ رَافِعِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُرْكِزَهَا هُنَاكَ فَرَكَزَهَا، وَكَانَتْ تُسَمَّىٰ «الْعُقَابَ».

ثُمَّ الْتَقَىٰ جَيْشُ خَالِدٍ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَرَقَّبُ قُدُومَهُ ...

وَخَاضُوا مَعْرَكَةَ الْيَرْمُوكِ الَّتِي أَذَلَّ اللَّهُ فِيهَا مَعَاطِسَ[1] الشِّرْكِ، وَرَفَعَ بِهَا رَايَةَ الْإِسْلَامِ ...

وَكَانَتْ إِحْدَىٰ الْمَعَارِكِ الْفَاصِلَةِ الْكُبْرَىٰ فِي التَّارِيخِ.

* * *

وَبَعْدُ ... فَهَلْ تَعْلَمُ أَنَّ رَافِعَ بْنَ عُمَيْرٍ الَّذِي كَانَ يُلَقَّبُ إِلَىٰ زَمَنٍ قَرِيبٍ بِلِصِّ الصَّحْرَاءِ؛ قَدْ أَصْبَحَ يُدْعَىٰ «بِرَافِعِ الْخَيْرِ»؟

وَهَلْ تَدْرِي أَنَّ السَّبَبَ فِي خَلْعِ هَٰذَا اللَّقَبِ عَلَيْهِ يَرْجِعُ إِلَىٰ وَفْرَةِ بِرِّهِ[2] بِالْفُقَرَاءِ، وَكَثْرَةِ عَطْفِهِ عَلَىٰ الْمُحْتَاجِينَ.

فَقَدْ دَأَبَ[3] عَلَىٰ أَنْ يُطْعِمَ أَهْلَ ثَلَاثِ مَسَاجِدَ مِنْ كَسْبِ يَمِينِهِ وَعَرَقِ جَبِينِهِ، وَهْوَ قَانِعٌ مِنَ الدُّنْيَا بِثَوْبٍ وَاحِدٍ يَلْبَسُهُ فِي الْبَيْتِ ...

وَيَخْرُجُ بِهِ إِلَىٰ الصَّلَاةِ ...

وَلَا يَأْخُذَنَّكَ الْعَجَبُ مِنْ ذَلِكَ ...

فَقَدْ تَتَلْمَذَ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ سَاعَةً فِي مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

---

(١) معاطس مفردها معطس: الأنف؛ يقال أرغمت المعاطس: أي قهرت الخصوم.
(٢) وَفرَةِ بِرّه: كثرة إحسانه وعطفه.
(٣) دأب: جد واجتهد.

وَأَضَاءَ فِي صَدْرِهِ قَبَسٌ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار رَافِع بْنِ عُمَيْرِ الطَّائِيِّ انظر :
١ - السيرة النبوية لابن هشام : ٤/ ٢٧٢.
٢ - أسْدُ الغابة : ٢/ ١٩٥.
٣ - الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ٦/ ٦٧.
٤ - المحبر للبغدادي : ١٩٠.
٥ - الإصابة : ١/٤٩٧ أو « الترجمة » ٢٥٣٨.
٦ - الجرح والتعديل : ٢٠/٤٨٣.
٧ - تاريخ ابن عساكر : ٥/ ٢٩٢.
٨ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ١/ ٤٩٧.

عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ رضي الله عنه

«آثَرَ ابْنُ مَظْعُونٍ جِوَارَ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ جِوَارٍ»

كَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرَىٰ أَنَّ الْعَيْشَ كُلَّ الْعَيْشِ فِي كَأْسِ خَمْرٍ يَنْتَشِي[١] الشَّارِبُونَ بِحُمَيَّاهَا[٢].

وَغَانِيَةٍ[٣] لَعُوبٍ يَسْتَمْتِعُ الْمُعْجَبُونَ بِجَمَالِهَا

وَغَزْوَةٍ عَلَىٰ ظُهُورِ الْجِيَادِ الصَّافِنَاتِ[٤] يَسْتَحِلُّ بِهَا الْغُزَاةُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْ دِمَاءِ الْعِبَادِ وَأَمْوَالِهِمْ .

لَكِنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ ـ أَحَدُ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ـ كَانَ يَرَىٰ أَنَّ لِلْحَيَاةِ غَايَاتٍ أَسْمَىٰ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَهْدَافًا أَجَلَّ ...

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ؛ حَرَّمَ الْخَمْرَةَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ؛ فَمَا عَرَفَ لَهَا طَعْمًا ...

وَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ :

تَبًّا[٥] لَكُمْ ...

أَأَشْرَبُ شَيْئًا يُذْهِبُ عَقْلِي ...

وَيُضْحِكُ مِنِّي مَنْ هُوَ دُونِي ...

وَيَجْعَلُنِي أُنْكِحُ كَرِيمَتِي لِمَنْ لَا أُرِيدُ ...

---

(١) ينتشي : يَنْعَمُ وَيَهْنَأُ .

(٢) بحميّاها : بِسَوْرَتِهَا وَحِدَّتِهَا

(٣) الغَانية : هي الفتاة التي استغنت بجمالها عن الزينة .

(٤) الصَّافنَات : جمع مفرده صافن ، وهو الذي يقف على ثلاثة أقدام ويرفع الرابعة .

(٥) تبًّا لكم : هلاكًا لكم .

وَاللَّهِ لَا أَذُوقُهَا مَا امْتَدَّتْ بِيَ الْحَيَاةُ.

* * *

وَلَمَّا أَشْرَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِنُورِ الْإِسْلَامِ، وَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ؛ كَانَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ مِنَ الْمُبَادِرِينَ[1] إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إِذْ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَىٰ هَٰذَا الْخَيْرِ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا.

* * *

وَلِإِسْلَامِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ؛ قِصَّةٌ رَوَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ[2]؛ قَالَ:

بَيْنَمَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ جَالِسًا بِفِنَاءِ بَيْتِهِ فِي مَكَّةَ؛ إِذْ مَرَّ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ غَيْرَ آبِهٍ لَهُ، أَوْ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(أَلَا تَجْلِسُ إِلَيَّ يَا أَبَا السَّائِبِ نَتَحَدَّثُ سَاعَةً)؟

قَالَ: بَلَىٰ[3].

ثُمَّ جَلَسَ أَمَامَهُ...

وَبَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ رَآهُ وَقَدْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَثَبَّتَ نَظَرَهُ فِيهَا قَلِيلًا مِنَ الْوَقْتِ...

ثُمَّ جَعَلَ يَهْبِطُ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّىٰ اسْتَقَرَّ فِيهَا...

ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَرَّفُ[4] عَنْ جَلِيسِهِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ؛ حَتَّىٰ بَلَغَ الْمَكَانَ

---

(١) الْمبَادرين: المسرعين.
(٢) عَبْدُ اللَّه بْنُ عَبَّاس: انظره في الكتاب الثالث من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.
(٣) بلَىٰ: نعم.
(٤) يتحرف عنه: يتنحىٰ عنه.

الَّذِي وَضَعَ بَصَرَهُ فِيهِ ...

ثُمَّ جَعَلَ يُحَرِّكُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْهِمُ عَنْ شَيْءٍ يُقَالُ لَهُ ...

كُلُّ ذَلِكَ جَعَلَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ يَنْظُرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَهِشًا مِمَّا رَأَىٰ ؛ مُسْتَغْرِبًا مَا وَقَعَ .

فَلَمَّا بَدَا الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ وَعَىٰ جَمِيعَ مَا قِيلَ لَهُ ؛ أَخَذَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا ؛ كَأَنَّمَا يَتَتَبَّعُ أَحَدًا ...

ثُمَّ عَلَّقَ بَصَرَهُ بِذَلِكَ الَّذِي تَوَارَىٰ[1] فِي السَّمَاءِ .

كَأَنَّهُ يَتَمَلَّىٰ[2] مِنْهُ وَيُوَدِّعُهُ .

ثُمَّ عَدَلَ إِلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ بِبَصَرِهِ وَجَسَدِهِ ؛ كَمَا كَانَ أَوَّلَ الْأَمْرِ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ حَدَّقَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ بِبَصَرِهِ فِي وَجْهِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ طَوِيلًا ، وَقَالَ :

يَا مُحَمَّدُ ؛ لَقَدْ جَالَسْتُكَ قَبْلَ ذَلِكَ كَثِيرًا ؛ فَمَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ فِعْلَكَ الْيَوْمَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (وَهَلْ تَنَبَّهْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ يَا عُثْمَانُ) ؟! .

قَالَ : نَعَمْ لَقَدْ تَنَبَّهْتُ إِلَيْهِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ جِبْرِيلُ آنِفًا[3] وَأَنَا جَالِسٌ) .

فَقَالَ عُثْمَانُ : تَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ؟!

---

(١) تَوَارَىٰ : اخْتَفَىٰ .

(٢) يتملَّىٰ منه : يملأ عينيه منه .

(٣) آنفًا : قريبًا .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (نَعَمْ) .

قَالَ وَمَا الَّذِي قَالَهُ لَكَ ؟!

قَالَ : لَقَدْ قَالَ لِي : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ[1] ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ[2] وَالْمُنْكَرِ[3] وَالْبَغْيِ[4]، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[5].

قَالَ عُثْمَانُ : يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ !!

وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ !!

نِعْمَ مَا جَاءَكَ بِهِ ؛ فَلَقَدْ أَمَرَ بِلُبَابِ[6] الْخَيْرِ .

وَنَهَىٰ عَنْ جُذُورِ الشَّرِّ كُلِّهَا .

* * *

قَالَ عُثْمَانُ :

فَمَا إِنْ سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ ؛ حَتَّىٰ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي ...

وَصَارَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَوَلَدِي ...

ثُمَّ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَأَسْلَمَ مَعِي ابْنِي السَّائِبُ وَأَخَوَايَ : قُدَامَةُ ، وَعَبْدُ اللَّهِ .

* * *

لَمْ تُنْكِرْ قُرَيْشٌ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ إِسْلَامَهُمْ ...

---

(١) إيتاء : إعطاء .
(٢) الفحشاء : الزنىٰ .
(٣) المنكر المرفوض شرعًا من الكفر والمعاصي .
(٤) البغي : الظلم .
(٥) سورة النحل آية ٩٠.
(٦) اللبابُ : الخالِصُ من كل شيء ، والمراد : الخير الخالص .

فَمَا كَانَتْ تَزِيدُ - إِذَا رَأَتْ مُحَمَّدًا يَمُرُّ بِهَا - عَلَىٰ أَنْ تَقُولَ فِي هُزْءٍ[1]:

إِنَّ غُلَامَ بَنِي هَاشِمٍ يُكَلَّمُ مِنَ السَّمَاءِ وَيَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنْهَا

فَلَمَّا عَابَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آلِهَتَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَذَكَرَ هَلَاكَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا كُفَّارًا ...

غَضِبُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ الْغَضَبِ ...

وَأَوْقَدُوا عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ نِيرَانَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ.

فَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَىٰ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَطَفِقَتْ تُرْهِقُهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ عُسْرًا[2]؛ فَتَضْرِبُ أَجْسَادَهُمْ بِالسِّيَاطِ ...

وَتَكْوِي أَبْدَانَهُمْ بِالنَّارِ ...

وَتَطْرَحُهُمْ عَلَىٰ الرِّمَالِ الْمُلْتَهِبَةِ فِي رَمْضَاءِ[3] مَكَّةَ؛ لِتَرُدَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ.

وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرَىٰ بِعَيْنَيْهِ مَا يَحِلُّ بِأَصْحَابِهِ؛ فَيَتَفَطَّرُ[4] قَلْبُهُ أَسًى[5] عَلَيْهِمْ وَلَوْعَةً[6] عَلَىٰ مَا يُعَانُونَ وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُمْ:

(صَبْرًا صَبْرًا؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ).

عِنْدَ ذَلِكَ؛ أَذِنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ؛ فَارْتَحَلَتْ إِلَيْهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...

مُخَلِّفِينَ وَرَاءَهُمُ الْأَهْلَ وَالْوَطَنَ ...

---

(١) الهزء: السخرية.
(٢) ترهقهم من أمرهم عسرًا: تُكَلِّفُهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يُطِيقُونَ.
(٣) الرَّمْضَاء: الرِّمال الملتهبة بحرارة الشمس.
(٤) يتفطّر: يتشقق.
(٥) الأَسَىٰ: الحزن.
(٦) لوعة: ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة.

مُوَدِّعِينَ الْعَشِيرَةَ وَالسَّكَنَ ...

فَارِّينَ بِدِينِهِمْ إِلَىٰ اللَّهِ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْمُهَاجِرِينَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَابْنُهُ وَأَخَوَاهُ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ هِجْرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ طَوِيلُ وَقْتٍ ؛ حَتَّىٰ جَاءَتْهُمُ الْأَخْبَارُ كَاذِبَةً أَنَّ جُلَّ[1] قُرَيْشٍ قَدْ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ ، وَآمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَعَادَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَكَّةَ ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا يُخَبِّئُهُ لَهُمُ الْقَدَرُ مِنِ ابْتِلَاءٍ[2]

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْعَائِدِينَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ .

وَمَا إِنْ وَطِئَتْ[3] أَقْدَامُهُمْ أَرْضَ مَكَّةَ ...

حَتَّىٰ اسْتَقْبَلَتْهُمْ قُرَيْشٌ بِمِثْلِ مَا وَدَّعَتْهُمْ بِهِ مِنْ تَعْذِيبٍ وَتَنْكِيلٍ[4]...

وَأَحَلَّتْ بِهِمْ مِنَ الْأَذَىٰ وَالضُّرِّ مَا لَا يُطِيقُونَ .

فَدَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي جِوَارِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ سَيِّدِ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَأَكْبَرِ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ ، وَوَالِدِ سَيْفِ اللَّهِ خَالِدٍ[5]...

فَقَدْ كَانَتْ تَرْبِطُهُ بِهِ بَعْضُ الْأَوَاصِرِ الْعَرِيقَةِ[6] الْقَدِيمَةِ .

* * *

عَاشَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي حِمَىٰ[7] الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَلَقِيَ فِي جِوَارِهِ

(١) جُلّ : أكثر .
(٢) الابتلاء : الاختبار .
(٣) وَطِئت : دَاسَتْ .
(٤) النكال : البطش الشديد .
(٥) خالد بن الوليد : انظره ص ١٨٧.
(٦) العريقة : أي الأصيلة .
(٧) الحِمَىٰ : ما يُحْمَىٰ ويدافع عنه .

أَقْصَىٰ مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ وَالْأَمْنِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطِبْ نَفْسًا بِهَٰذِهِ الْحِمَايَةِ ...

فَقَدْ كَانَ يُنَغِّصُ[1] عَلَيْهِ حَيَاتَهُ الْوَادِعَةَ الْآمِنَةَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ يَلْقَىٰ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ مَا يَلْقَاهُ، وَأَنَّ إِخْوَتَهُ فِي اللَّهِ يُعَانُونَ مِنْ بَطْشِهِمْ[2] مَا يُعَانُونَ ...

مِمَّا جَعَلَهُ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ بِالْأَثَرَةِ[3] وَالْجُبْنِ، وَضَعْفِ الْإِيمَانِ ...

وَيَتَقَلَّبُ عَلَىٰ نَارٍ هَادِئَةٍ مِنْ تَعْذِيبِ الضَّمِيرِ.

* * *

فَلْنَتْرُكْ لِعُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ الْحَدِيثَ عَنْ أَزْمَتِهِ النَّفْسِيَّةِ هَٰذِهِ؛ حَيْثُ قَالَ:

لَمَّا رَأَيْتُ مَا فِيهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَلَاءِ، وَأَنَا أَغْدُو وَأَرُوحُ فِي أَمَانٍ مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي:

تَبًّا لَكَ يَا بْنَ مَظْعُونٍ ...

إِنَّكَ تَعِيشُ آمِنًا مُطْمَئِنًّا فِي جِوَارِ رَجُلٍ مُشْرِكٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَلْقَوْنَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْأَذَىٰ فِي اللَّهِ مَا لَا يُصِيبُكَ ...

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَنَقْصًا كَبِيرًا فِي نَفْسِكَ وَضَعْفًا خَطِيرًا فِي إِيمَانِكَ ...

ثُمَّ مَشَيْتُ إِلَىٰ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَقُلْتُ لَهُ:

يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؛ لَقَدْ وَفَّيْتَ لِي بِذِمَّتِكَ[4]، وَلَقِيتُ فِي حِمَاكَ السَّلَامَةَ وَالْأَمْنَ ...

---

(١) يُنَغِّص: يكدر.
(٢) بطشهم: فتكهم.
(٣) الْأَثَرة: اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره.
(٤) وَفَّيْتَ لي بذمتك: أَدَّيْتَ حَقِّي مِنَ الْوَفَاءِ بِعَهْدِكَ مَعِي.

وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ .

قَالَ : وَلِمَ يَا ابْنَ أَخِي ؟

لَعَلَّهُ آذَاكَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي ؟!

فَقُلْتُ : لَا ؛ وَلَكِنِّي آثَرْتُ[١] جِوَارَ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ جِوَارٍ ؛ فَلَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَجِيرَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ .

قَالَ : إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ فَانْطَلِقْ مَعِي إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ؛ فَارْدُدْ عَلَيَّ جِوَارِي عَلَىٰ مَلَإٍ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ كَمَا أَجَرْتُكَ عَلَىٰ مَلَإٍ مِنْهُمْ .

فَانْطَلَقْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ :

يَا قَوْمُ ؛ هَلْذَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ جَاءَ يَرُدُّ عَلَيَّ جِوَارِي .

فَقُلْتُ : صَدَقَ ؛ وَإِنِّي وَجَدْتُهُ وَفِيًّا كَرِيمَ الْجِوَارِ ...

وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَلَّا أَسْتَجِيرَ بِغَيْرِ اللَّهِ ؛ فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ جِوَارَهُ .

* * *

قَالَ عُثْمَان بْن مَظْعُون :

ثُمَّ انْصَرَفْتُ ؛ فَمَرَرْتُ بِمَجْلِسٍ لِقُرَيْشٍ تَوَسَّطَهُ لَبِيدٌ الشَّاعِرُ ، وَجَعَلَ يُنْشِدُ الْقَوْمَ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ وَالنَّاسُ يَسْمَعُونَ .

فَقَالَ لَبِيدٌ :

« أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا[٢] اللَّهَ بَاطِلُ » .

---

(١) آثرت : فضلت ورغبت .

(٢) ما خلا : مَا عَدَا .

فَقُلْتُ : صَدَقْتَ .

فَأَتْبَعَ يَقُولُ : « وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ » .

فَقُلْتُ : كَذَبْتَ ؛ إِنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ لَا يَزُولُ ...

فَاسْتَشَاطَ[(١)] لَبِيدٌ غَيْظًا مِنْ كَلِمَتِي هَٰذِهِ وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ وَاللَّهِ مَا كَانَ يُؤْذَىٰ جَلِيسُكُمْ ؛ فَمَتَىٰ حَدَثَ فِيكُمْ هَٰذَا ؟! .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : إِنَّ هَٰذَا رَجُلٌ سَفِيهٌ مِنْ جَمَاعَةِ سُفَهَاءَ ؛ قَدْ نَبَذُوا[(٢)] آلِهَتَنَا ...

وَفَارَقُوا دِينَنَا ؛ فَلَا يَغِيظَنَّكَ قَوْلُهُ .

فَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ فِينَا وَفِي دِينِنَا مَا قَالَ ، وَتَلَاحَيْتُ[(٣)] مَعَهُ ، فَلَطَمَنِي لَطْمَةً أَسَالَتْ[(٤)] عَيْنِي ؛ فَمَا عُدْتُ أُبْصِرُ بِهَا .

وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ قَرِيبًا مِنِّي ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ :

إِنَّ عَيْنَكَ يَا ابْنَ أَخِي كَانَتْ ـ وَاللَّهِ ـ غَنِيَّةً عَمَّا أَصَابَهَا .

فَقُلْتُ : بَلْ ـ وَاللَّهِ ـ إِنَّ عَيْنِي الصَّحِيحَةَ لَفَقِيرَةٌ إِلَىٰ مِثْلِ مَا أَصَابَ أُخْتَهَا فِي اللَّهِ .

فَقَالَ : هَلُمَّ يَا ابْنَ أَخِي ؛ فَعُدْ إِلَىٰ جِوَارِي ـ إِنْ شِئْتَ ـ .

---

(١) استشاط : اشتعل والتهب .
(٢) نبذوا : تركوا .
(٣) تلاحيت مَعَهُ : تَنَازَعْتُ مَعَهُ .
(٤) أسالت عيني : أَفْقَدَتْهَا مَاءَهَا فَأَذْهَبَتْ بَصَرِي .

فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَعْدِلُ بِجِوَارِ اللَّهِ تَعَالَىٰ جِوَارًا .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ طَفِقَ[1] أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ يَشْتَدُّ عَلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَيَقْسُو ، وَأَصْبَحَ هُوَ وَذَوُوهُ هَدَفًا لِنِكَايَةِ قُرَيْشٍ ، وَبَطْشِهِمْ ... مِمَّا حَمَلَهُ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي طَلِيعَةِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ...

وَهُنَاكَ شَهِدَ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ هُوَ وَابْنُهُ وَأَخُوهُ بَدْرًا ؛ فَأَبْلَوْا[2] فِي سَاحَتِهَا أَصْدَقَ الْبَلَاءِ وَأَكْرَمَهُ ، وَأَدَّوْا حَقَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ عَلَيْهِمْ ، وَخَرَجُوا مِنْهَا ـ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ـ مُنْتَصِرِينَ فَائِزِينَ .

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ مَرِضَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ مَرَضَ الْمَوْتِ ، وَفَارَقَ الْحَيَاةَ .

فَلَمَّا طَارَ خَبَرُ وَفَاتِهِ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَضَىٰ إِلَيْهِ ، وَمِلْءُ جَوَانِحِهِ[3] الْحُزْنُ ...

وَرَفَعَ الْمُلَاءَةَ عَنْ جَبِينِهِ الطَّاهِرِ الْأَغَرِّ ؛ فَقَبَّلَهُ ...

ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَقَبَّلَهُ الثَّانِيَةَ ...

ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ فَقَبَّلَهُ أَيْضًا ...

وَإِذَا دُمُوعُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ تَتَحَدَّرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ الْمُشْرِقِ النَّبِيلِ ؛ فَبَكَىٰ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِبُكَائِهِ .

* * *

(١) طفق : أخذ .
(٢) فأبلوا في سَاحتهَا : أظهروا فيها بأسهم .
(٣) الجوانح : الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر واحدتها الجانحة .

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَأَرْضَاهُ ...
وَجَعَلَ فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ مَقَرَّهُ وَمَأْوَاهُ .
فَقَدْ آثَرَ جِوَارَ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ جِوَارٍ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار عُثْمَان بْن مَظْعُون انظر :
١ - حلية الأولياء : ١/١٠٢.
٢ - الاستيعاب على هامش الإصابة : ٣/ ٨٥.
٣ - أسد الغابة : ٣/٥٩٨.
٤ - الإصابة : ٢/٤٦٤ أو «الترجمة» ٥٤٥٣.
٥ - الطبقات الكبرىٰ : ١/ ١٧٤، ٣/ ٣٩٣.
٦ - صفة الصفوة : ١/ ٤٤٩.
٧ - مجمع الزوائد : ٧/ ١٣٦.
٨ - سير أعلام النبلاء : ١/ ١٥٣.

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ

« شَاعِرُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَوَاحِدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الصَّادِقِينَ
الَّذِينَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْزَلَ فِيهِمْ قُرْآنًا »

قِصَّةُ الْيَوْمِ ؛ عَنِيفَةٌ حَقًّا

عَمِيقَةٌ صِدْقًا

بَالِغَةٌ أَقْصَىٰ مَا فِي الْقَصَصِ مِنْ عُنْفٍ ، وَعُمْقٍ ، وَإِثَارَةٍ .

وَقَدْ هَمَمْتُ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - أَنْ أَرْوِيَهَا لَكَ بِنَفْسِي ...

فَلَمَّا شَرَعْتُ ؛ وَجَدْتُ أَنَّ بَيَانِي أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَنْقُلَهَا إِلَيْكَ بِلَفَتَاتِهَا الدَّقِيقَةِ الرَّائِعَةِ ...

وَصُوَرِهَا الْبَدِيعَةِ الْبَارِعَةِ ...

وَعَوَاطِفِهَا الْجَيَّاشَةِ(١) الزَّاخِرَةِ .

فَآثَرْتُ أَنْ أَتْرُكَ ذَٰلِكَ لِصَاحِبِ الْقِصَّةِ ...

فَهُوَ أَعْلَىٰ مِنِّي بَيَانًا ، وَأَقْدَرُ تَعْبِيرًا عَنْ خَلَجَاتِ(٢) نَفْسِهِ ، وَأَدَقُّ تَصْوِيرًا لِهَمَسَاتِ ضَمِيرِهِ ...

فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ ؛ شَاعِرِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَهُوَ سَيَرْوِي لَكَ قِصَّتَهُ .

* * *

---

(١) الجيّاشة : الفيّاضة الشديدة .

(٢) خلجات نفسه : همومها ومشاعرها

قَالَ كَعْبٌ

لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا يَوْمَ تَبُوكَ .

وَلَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَىٰ مِنِّي عَلَىٰ الْغَزْوِ وَلَا أَيْسَرَ ؛ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ تِلْكَ الْغَزْوَةِ .

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً كَتَمَ خَبَرَهَا وَوَرَّىٰ(١) بِغَيْرِهَا ؛ إِلَّا هَٰذِهِ الْغَزْوَةَ .

وَلَعَلَّ الَّذِي جَعَلَ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَكْتُمُ خَبَرَهَا هُوَ أَنَّ الْحَرَّ كَانَ شَدِيدًا ، وَأَنَّ السَّفَرَ كَانَ بَعِيدًا ...

وَأَنَّ الثِّمَارَ قَدْ أَيْنَعَتْ ، وَالظِّلَالَ قَدْ طَابَتْ ...

* * *

وَلَقَدْ تَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَجَهَّزَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ .

فَطَفِقْتُ أَغْدُو إِلَىٰ السُّوقِ لِأَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ ... لَكِنَّنِي كُنْتُ أَرْجِعُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَلَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا ؛ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي :

إِنِّي لَقَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ أَتَجَهَّزَ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ ...

وَمَا زِلْتُ أَتَمَادَىٰ فِي ذَلِكَ حَتَّىٰ جَدَّ جِدُّ(٢) الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَا لَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا

وَفِيمَا أَنَا كَذَلِكَ ... بَادَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ الرَّحِيلِ ؛ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فِي أَثَرِهِمْ ، وَأَنْ أُدْرِكَهُمْ - وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ - وَلَكِنَّهُ لَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ .

---

(١) وَوَرَّىٰ بِغَيْرِهَا : أظهر غيرها إخفاءً لها .

(٢) جَدَّ جِدُّ الْمُسْلِمِينَ : أي جدّوا في استعدادهم ، وقطعوا أمرهم بالرحيل .

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ رَكِبَنِي الْهَمُّ وَالْبَثُّ(١) لِمَا صَنَعْتُ ، وَقَدْ زَادَنِي هَمًّا أَنَّنِي كُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي وَطُفْتُ فِي النَّاسِ ؛ لَا أَرَىٰ إِلَّا رَجُلًا مُتَّهَمًا بِنِفَاقٍ ... أَوْ عَاجِزًا عَذَرَهُ اللَّهُ لِعَجْزِهِ .

* * *

وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ بَلَغَ تَبُوكَ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) ؟!

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ :

إِنَّمَا حَبَسَهُ بُرْدَاهُ(٢) الزَّاهِيَانِ ... وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ(٣)

فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ(٤):

بِئْسَ مَا قُلْتَ ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا

فَسَكَتَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَمْ يُضِفْ شَيْئًا

* * *

ثُمَّ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَوَجَّهَ قَافِلًا(٥) إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ فَرَكِبَنِي هَمِّي ... وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ ، وَأَقُولُ :

بِمَاذَا أَعْتَذِرُ لَهُ وَأَخْرُجُ مِنْ سُخْطِهِ(٦) غَدًا ؟

وَاسْتَعَنْتُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ؛ فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَهُمْ شَيْئًا

وَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ قَدْ أَطَلَّ قَادِمًا

---

(١) الْبَثُّ : الحزن العظيم .
(٢) البُرْد : الثوب .
(٣) نَظَرُهُ في عِطْفِه : إعجابهُ بنفسه .
(٤) مُعَاذُ بْنُ جَبَل : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٥) تَوَجَّهَ قَافِلًا : توجه راجعًا .
(٦) السُّخْطُ : الغضب .

انْزَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ...

وَعَرَفْتُ أَنَّنِي لَنْ أَخْرُجَ مِنْ سُخْطِهِ بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ ...

فَأَزْمَعْتُ(١) الصِّدْقَ

ثُمَّ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ؛ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ.

* * *

فَلَمَّا انْتَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ رَكْعَتَيْهِ جَلَسَ لِلنَّاسِ؛ فَجَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ(٢) أَمْثَالِي؛ فَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ ...

وَكَانُوا بِضْعَةً(٣) وَثَمَانِينَ رَجُلًا

فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ(٤) إِلَىٰ اللَّهِ.

فَجِئْتُهُ أَنَا؛ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ؛ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ:

(تَعَالَ) ...

فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّىٰ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَقَالَ لِي (مَا خَلَّفَكَ يَا كَعْبُ ؟!

أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ رَاحِلَتَكَ) ؟!

فَقُلْتُ: إِنِّي - وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا

---

(١) أَزْمَعْت: عزمت وقررت.
(٢) الْمُخَلَّفُون: الذين تخلّفوا عن مرافقة النبيّ ﷺ في هذه الغزوة
(٣) البِضْع: من الثلاثة إلى التسعة.
(٤) سَرَائِرَهُم: جمع سريرة، وهي عمل السّرّ من خير أو شر.

لَخَرَجْتُ مِنْ سُخْطِهِ بِعُذْرٍ أَصْنَعُهُ لَهُ[١]

فَإِنِّي - وَاللَّهِ - قَدْ أُعْطِيتُ حُجَّةً وَبَيَانًا

وَلَكِنِّي - وَاللَّهِ - لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ لِتَرْضَىٰ بِهِ عَنِّي ؛ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِّطَكَ عَلَيَّ ...

وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ يُغْضِبُكَ عَلَيَّ ؛ فَإِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ .

وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ فِيمَا صَنَعْتُ ...

وَمَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَىٰ وَأَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (أَمَّا هَٰذَا فَقَدْ صَدَقَ) .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : (قُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ) ...

فَقُمْتُ ، وَغَادَرْتُ الْمَسْجِدَ .

* * *

قَالَ كَعْبٌ :

فَمَا لَبِثَ أَنْ تَبِعَنِي رِجَالٌ مِنْ قَوْمِي ؛ فَقَالُوا لِي :

وَاللَّهِ ! مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَٰذَا ؛ فَمَا الَّذِي أَعْجَزَكَ عَنْ أَنْ تَعْتَذِرَ إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا اعْتَذَرَ غَيْرُكَ مِنَ الْمُخَلَّفِينَ ...

فَوَاللَّهِ ! مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي[٢]؛ حَتَّىٰ هَمَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ... لَكِنَّنِي مَا لَبِثْتُ أَنْ قُلْتُ لَهُمْ :

هَلْ شَارَكَنِي فِيمَا صَنَعْتُهُ أَحَدٌ ؟

---

(١) أَصْنَعُهُ لَهُ : أختلقه.

(٢) يُؤَنِّبُونَنِي : يلومونني.

فَقَالُوا نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ ؛ فَقِيلَ لَهُمَا كَمَا قِيلَ لَكَ .

فَقُلْتُ مَنْ هُمَا ؟

قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ .

وَكَانَا رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ ، وَقَدْ شَهِدَا بَدْرًا .

فَقُلْتُ إِنَّ لِي فِيهِمَا أُسْوَةً ، ثُمَّ مَضَيْتُ .

* * *

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ :

ثُمَّ مَا لَبِثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ نَهَىٰ عَنْ كَلَامِنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةَ ؛ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ...

فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّىٰ تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ ؛ فَمَا بَقِيَتْ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي أَعْرِفُ

وَلَبِثْنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً

أَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا(١) وَقَعَدَا فِي بَيْتَيْهِمَا يَبْكِيَانِ

وَأَمَّا أَنَا ؛ فَكُنْتُ أَشَبَّ الثَّلَاثَةِ وَأَجْلَدَهُمْ ؛ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ ... لَكِنْ لَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ .

وَكُنْتُ آتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهْوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، ثُمَّ أَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ؟!

وَكُنْتُ أَحْرِصُ عَلَىٰ أَنْ أُصَلِّيَ قَرِيبًا مِنْهُ ؛ لِأُسَارِقَهُ النَّظَرَ(٢)

فَكُنْتُ إِذَا أَقْبَلْتُ عَلَىٰ صَلَاتِي أَقْبَلَ عَلَيَّ ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي .

(١) فَاسْتَكَانَا : خضعا واستسلما

(٢) لِأُسَارِقَهُ النَّظَر : أُبادله النظر في استخفاء .

فَلَمَّا طَالَتْ عَلَيَّ جَفْوَةُ[1] النَّاسِ ؛ اشْتَدَّ بِيَ الضِّيقُ ...

فَتَسَوَّرْتُ[2] جِدَارَ بُسْتَانِ أَبِي قَتَادَةَ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ .

فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ... فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ؛ فَقُلْتُ :

يَا أَبَا قَتَادَةَ ؛ أَنْشُدُكَ اللَّهَ ! هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ ؟

فَسَكَتَ ؛ فَأَعَدْتُهَا عَلَيْهِ فَسَكَتَ ؛ فَأَعَدْتُهَا ، فَقَالَ

اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ...

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ تَوَلَّيْتُ عَائِدًا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ ...

* * *

ثُمَّ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ .

فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ مَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ... إِذَا نَبَطِيٌّ[3] مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ يَقُولُ :

مَنْ يَدُلُّنِي عَلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟

فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَيَّ

فَجَاءَنِي وَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ؛ فَإِذَا فِيهِ

« أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ »

فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا : وَهَٰذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ ...

فَاتَّجَهْتُ بِالرِّسَالَةِ نَحْوَ تَنُّورٍ[4] يَتَّقِدُ ؛ فَأَلْقَيْتُ الرِّسَالَةَ فِيهِ .

* * *

(١) الجَفْوَة : الإعراض ، وجفا فلان فلانًا أعرض عنه وثقل عليه .
(٢) تَسَوَّرت : تسلّقت .
(٣) النَّبَطِي : نسبة إلىٰ النبط ، وهم : قوم ينزلون بعض بلاد العراق .
(٤) التَّنُّور : نوع من المواقد يخبز فيه .

قَالَ كَعْبٌ

وَلَمَّا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ ... جَاءَنِي رَجُلٌ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ .

فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟!

قَالَ : لَا بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبْهَا

وَأَرْسَلَ إِلَىٰ صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي :

الْحَقِي بِأَهْلِكِ وَامْكُثِي عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَٰذَا الْأَمْرِ ...

فَمَضَتْ إِلَىٰ أَهْلِهَا

أَمَّا امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ ؛ فَجَاءَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالًا شَيْخٌ فَانٍ[1] وَلَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ؛ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدِمَهُ ؟

فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ .

فَقَالَتْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَزَالُ يَبْكِي مُنْذُ لَزِمَ بَيْتَهُ إِلَىٰ يَوْمِهِ هَٰذَا .

قَالَ كَعْبٌ

عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ ؛ فَقَدْ يَأْذَنُ لَكَ كَمَا أَذِنَ لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ .

---

(١) شَيْخٌ فَانٍ : شيخ عجوز .

فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ لِيَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟ وَأَنَا امْرُؤٌ شَابٌّ ...

* * *

قَالَ كَعْبٌ

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّىٰ كَمُلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً .

فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، وَأَنَا عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، وَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضِقْتُ بِنَفْسِي أَشَدَّ الضِّيقِ ...

سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ مِنْ أَعْلَىٰ جَبَلِ سَلْعٍ(١) يُنَادِي بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ

يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ ...

يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ ...

فَمَا إِنْ لَامَسَ الصَّوْتُ سَمْعِي ؛ حَتَّىٰ خَرَرْتُ سَاجِدًا لِلَّهِ ...

وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَنِي الْفَرَجُ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَعْلَنَ ذَلِكَ لِأَصْحَابِهِ .

فَهَبَّ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنِي ، وَكَانَ أَسْبَقَهُمْ إِلَيَّ فَارِسٌ جَاءَ عَلَىٰ فَرَسِهِ ، وَذَهَبَ إِلَىٰ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ أَيْضًا

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ ؛ نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ ... وَوَاللَّهِ ! مَا أَمْلِكُ آنَئِذٍ غَيْرَهُمَا

ثُمَّ اسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ وَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

(١) جَبَلُ سَلْعٍ : جبل بسوق المدينة .

فَتَلَقَّانِي الْمُسْلِمُونَ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا بْنَ مَالِكٍ ؛ حَتَّىٰ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ...

فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ النَّاسُ ، وَقَدِ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ الْقَمَرِ ...

فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ؛ قَالَ وَوَجْهُهُ يَبْرُقُ مِنَ السُّرُورِ (١) :

(أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ) .

قُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟

فَقَالَ : (لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) .

قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي (٢) كُلِّهِ ، وَأَنْ أَجْعَلَهُ صَدَقَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ .

فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ يَا كَعْبُ ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) .

قُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَأَتَصَدَّقُ بِمَا عَدَاهُ .

ثُمَّ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

إِنَّمَا نَجَّانِي اللَّهُ بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَلَّا أَقُولَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ شَاعِرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

---

(١) يَبْرُقُ مِنَ السُّرُور : يتألق ويتلألأ سرورًا

(٢) أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي : أتجرد منه وأتركه .

فَقَدْ نَافَحَ عَنِ الْإِسْلَامِ بِسِنَانِهِ وَبَيَانِهِ

وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ قُرْآنًا مَا زَالَ يُتْلَىٰ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .

وَسَيَظَلُّ يُتْلَىٰ ؛ حَتَّىٰ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا (*) .

(*) للاستزادة من أخبار كَعْبِ بْنِ مالِك

١ - تاريخ ابن عساكر : ١٤/ ٢٨٦

٢ - أسد الغابة : ٤/ ٤٨٧.

٣ - تاريخ الإسلام : ٢/ ٢٤٣.

٤ - تهذيب التهذيب : ٨/ ٤٤٠.

٥ - سير أعلام النبلاء : ٢/ ٥٢٣.

٦ - الإصابة : ٣٠٢/٣ أو « الترجمة » [٧٤٣٣] .

٧ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٣/ ٢٨٦

٨ - شذرات الذهب : ١/ ٥٦.

٩ - خزانة الأدب : ١/ ٢٧٦

١٠- أنساب الأشراف : ١/ ٢٤٨.



« كَانَ تَـمِيمٌ الدَّارِيُّ خَامِسَ أَرْبَعَةٍ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ »

نَزَحَتْ قَبِيلَةُ لَخْم الْقَحْطَانِيَّةُ عَنْ بِلَادِ الْيَمَنِ السَّعِيدَةِ ؛ بَعْدَ خَرَابِ سَدِّ مَأْرِبٍ[1]، وَاسْتَوْطَنَتْ بِلَادَ الشَّامِ ...

فَحَلَّ فَرِيقٌ مِنْهَا فِي الرَّمْلَةِ وَهَضْبَةِ الْجَوْلَانِ ، وَنَزَلَ فَرِيقٌ آخَرُ بِالْقُدْسِ ...

فَدُعِيَتْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ بَيْتَ لَخْمٍ .

ثُمَّ حَرَّفَهَا النَّاسُ ؛ فَجَعَلُوهَا بَيْتَ لَحْمٍ .

وَاتَّصَلَ اللَّخْمِيُّونَ بِجِيرَانِهِمُ الرُّومِ ؛ فَدَانَ بَعْضُهُمْ بِالْمَسِيحِيَّةِ ...

بَيْنَمَا ظَلَّ بَعْضُهُمُ الْآخَرُ يَعْبُدُ الْمُشْتَرِي[2] وَيَحُجُّ إِلَىٰ صَنَمٍ يُدْعَىٰ « الْأُقَيْصِرَ » ؛ أُقِيمَ عَلَىٰ مَشَارِفِ الشَّامِ .

وَكَانَ تَمِيمُ بْنُ أَوْسِ بْنِ خَارِجَةَ الدَّارِيُّ اللَّخْمِيُّ ؛ مِمَّنِ اعْتَنَقَ الْمَسِيحِيَّةَ ، وَأَوْغَلَ فِيهَا حَتَّىٰ غَدَا رَاهِبَ بَيْتِ لَحْمٍ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ؛ عَرَضَتْ لِتَمِيمٍ الدَّارِيِّ حَاجَةٌ فِي قَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ ...

فَقَامَ إِلَىٰ مِسْحِهِ[3] الْأَسْوَدِ فَلَبِسَهُ ، وَشَدَّ عَلَىٰ وَسَطِهِ زُنَّارَهُ وَأَرْخَىٰ طَرَفَيْهِ

---

(١) سَدُّ مَأْرِب : سَدٌّ كان بيلاد اليمن خرب بسيل أرسله الله ، وأدَّىٰ خرابه إلى هجرة عرب اليمن وتشتتهم في البلاد .

(٢) الْمُشْتَرِي : أحد كواكب المجموعة الشمسية . (٣) المِسْح : ثوب غليظ من الشَّعر .

عَلَىٰ جَنْبِهِ ، وَتَقَلَّدَ قِلَادَتَهُ الَّتِي يَتَدَلَّىٰ مِنْهَا صَلِيبُهُ الْفِضِّيُّ ، ثُمَّ اعْتَمَرَ[1] قَلَنْسُوَتَهُ الصَّغِيرَةَ ، وَمَضَىٰ مُيَمِّمًا وَجْهَهُ شَطْرَ[2] الْقَرْيَةِ ...

فَلَمَّا جَنَّ[3] عَلَيْهِ اللَّيْلُ ؛ عَرَضَ لَهُ أَمْرٌ لَمْ يَنْسَهُ طُولَ حَيَاتِهِ ؛ فَلْنَتْرُكْ لِتَمِيمٍ الدَّارِيِّ الْكَلَامَ لِيَقُصَّ عَلَيْنَا خَبَرَهُ الْمُثِيرَ .

* * *

قَالَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ :

كُنْتُ أُقِيمُ بِالشَّامِ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ فَخَرَجْتُ إِلَىٰ الْأَمَاكِنِ الْمُجَاوِرَةِ لِقَضَاءِ بَعْضِ حَاجَاتِي ؛ فَأَدْرَكَنِي اللَّيْلُ عِنْدَ وَادٍ سَحِيقٍ مُظْلِمٍ ...

فَأَخَذَتْنِي الرَّهْبَةُ ، وَدَبَّ فِي نَفْسِيَ الْخَوْفُ ...

فَتَذَكَّرْتُ مَا كَانَتْ تَقُولُهُ الْعَرَبُ مِنَ الِاسْتِعَاذَةِ بِالْجِنِّ فِي أَمْثَالِ هَٰذِهِ الْمَوَاقِفِ ؛ فَهَتَفْتُ :

أَنَا فِي جِوَارِ[4] عَظِيمِ هَٰذَا الْوَادِي اللَّيْلَةَ .

ثُمَّ أَخَذْتُ مَضْجَعِي لِأَرْقُدَ ؛ فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي - وَأَنَا لَا أَرَاهُ - وَيَقُولُ :

عُذْ بِاللَّهِ أَيُّهَا الرَّجُلُ وَاسْتَجِرْ بِهِ ؛ فَإِنَّ الْجِنَّ لَا تُجِيرُ أَحَدًا عَلَىٰ اللَّهِ .

فَقُلْتُ لِلْهَاتِفِ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ ؛ أَتَقُولُ الْحَقَّ ؟!

فَقَالَ : قَدْ خَرَجَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ ؛ فَأَسْلَمْنَا ، وَاتَّبَعْنَاهُ ، وَذَهَبَ كَيْدُ الْجِنِّ ،

---

(١) اعْتَمَرَ قَلَنْسُوَتَه : تعمم بما يضعه علىٰ رأسه .

(٢) شطر : جهة .

(٣) جن عليه الليل : غشّاه الليل وأظلم عليه .

(٤) الجِوَار : الحماية والمنعة .

وَرُمِيَتْ بِالشُّهُبِ ... فَانْطَلِقْ إِلَىٰ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَسْلِمْ .

قَالَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ :

فَسَكَنَتْ نَفْسِي بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَقَضَيْتُ لَيْلَتِي أَسْتَعِيدُ مَا قَالَهُ الْهَاتِفُ وَأَتَدَبَّرُهُ ...

وَجَعَلْتُ أَتَذَكَّرُ مَا كُنْتُ أَقْرَؤُهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ عَنْ ظُهُورِ نَبِيٍّ جَدِيدٍ .

قَالَ تَمِيمٌ :

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَهَبْتُ إِلَىٰ دَيْرِ[1] أَيُّوبَ ، وَكَانَ فِيهِ رَاهِبٌ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ أَثِقُ بِعِلْمِهِ وَفَهْمِهِ ؛ فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ ، وَسَأَلْتُهُ عَنْهُ ... فَقَالَ :

صَدَقَكَ الْهَاتِفُ ؛ فَإِنَّ هَٰذَا النَّبِيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ ، وَهُوَ خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَبَادِرْ إِلَيْهِ ، وَلَا يَسْبِقَنَّكَ أَحَدٌ إِلَيْهِ إِنِ اسْتَطَعْتَ .

* * *

خَلَعَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ ثِيَابَ الرَّهْبَانِيَّةِ ، وَصَحِبَ أَخًا لَهُ يُدْعَىٰ هِنْدًا ، وَطَفِقَا يَقْطَعَانِ الطَّرِيقَ بَيْنَ بَيْتِ لَحْمٍ وَالْمَدِينَةِ ؛ لِيَلْقَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَيُعْلِنَا إِسْلَامَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُقِيمَا بِجِوَارِهِ .

وَلَمَّا بَلَغَ الْأَخَوَانِ الْمَدِينَةَ ؛ أَنَاخَا رَاحِلَتَيْهِمَا قَرِيبًا مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَأَقْبَلَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... فَحَيَّاهُ الْأَخَوَانِ تَحِيَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَأَعْلَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ ، وَدَخَلَا فِي دِينِ اللَّهِ .

وَهُنَا قَالَ تَمِيمٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

---

(١) الدَّيْر : مكان عبادة النصارىٰ .

إِنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ دِينَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَنَاشِرٌ لِوَاءَكَ فِي الْآفَاقِ ...

وَأَنَا قَدْ خَلَّفْتُ وَرَائِي أَهْلِي وَمَوْطِنِي ، وَجِئْتُ لِأَنْقَطِعَ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ؛ فَهَبْ لِي قَرْيَتِي جِبْرِينَ إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَلَكُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (هِيَ لَكَ) .

قَالَ تَمِيمٌ : اكْتُبْ لِي بِذَلِكَ كِتَابًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

فَكَتَبَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَابًا بِذَلِكَ .

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ ، وَجَعَلَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ تُشَرِّقُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ وَتُغَرِّبُ ، وَطَفِقَتْ حُصُونُ الشِّرْكِ تَتَهَاوَىٰ تَحْتَ سَنَابِكِ[1] خَيْلِ الْمُؤْمِنِينَ حِصْنًا إِثْرَ حِصْنٍ ...

وَتَوَالَتْ بَشَائِرُ الْفَتْحِ عَلَىٰ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَمَا تَكَادُ تُزَفُّ بِشَارَةٌ حَتَّىٰ تَهُلَّ أُخْرَىٰ ؛ إِلَىٰ أَنْ كَانَتْ سَنَةُ خَمْسَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ ...

حَيْثُ جَاءَ الْبَشِيرُ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ مِنْ قَائِدِهِ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ[2]؛ يُبَشِّرُهُ بِاسْتِسْلَامِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ...

وَيُخْبِرُهُ بِإِصْرَارِ أَهْلِهَا عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ هُوَ الَّذِي يَعْقِدُ لَهُمُ الصُّلْحَ ، وَيَدْعُوهُ إِلَىٰ الشُّخُوصِ[3] إِلَىٰ أُولَىٰ الْقِبْلَتَيْنِ وَثَالِثِ الْحَرَمَيْنِ .

---

(١) سنابك الخيل : حوافرها .

(٢) عَمْرو بْنِ الْعَاص : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) الشُّخُوص : الذهاب

فَمَضَىٰ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ أَرْضِ فِلَسْطِينَ الْمُحَرَّرَةِ ، وَعَقَدَ بِنَفْسِهِ لِأَهْلِهَا الصُّلْحَ ، وَرُفِعَتْ عَلَىٰ رُبَى الْقُدْسِ رَايَاتُ الْإِسْلَامِ ، وَجَلْجَلَتْ فِي رُبُوعِ الْجَوْلَانِ الَّتِي تَسْكُنُهَا لَخْمٌ أَصْوَاتُ الْآذَانِ .

وَهُنَا قَامَ فَتَىٰ لَخْمٍ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَقَالَ

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ هَا هُوَ ذَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ قَدْ فَتَحَهُ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهَبَنِي قَرْيَتِي جِبْرِينَ ...

فَأَنْفِذْ لِي مَا وَهَبَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

فَقَامَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ وَقَالَ : وَمَنْ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ ؟!

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : أَنَا أَشْهَدُ بِذَلِكَ ...

وَأَنْفَذَ الْفَارُوقُ هِبَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِتَمِيمٍ الدَّارِيِّ .

* * *

لَزِمَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ - مُنْذُ أَسْلَمَ - مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَمَا يَكَادُ يَبْرَحُهُ[1] إِلَّا قَلِيلًا

وَعَكَفَ[2] عَلَىٰ كَلَامِ اللَّهِ ؛ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ؛ حَتَّىٰ جَعَلَ يُتِمُّ الْمُصْحَفَ مَرَّةً فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ...

وَوَقَفَ نَفْسَهُ عَلَىٰ خِدْمَةِ كِتَابِ اللَّهِ ...

فَكَانَ خَامِسَ أَرْبَعَةٍ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

أَحَسَّ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ مِتْعَةَ الْعِبَادَةِ

(١) يبرحه : يغادره .
(٢) عَكَف علىٰ الأمر : لزمه وانقطع له .

فَغَدَا لَا يَعْدِلُ(١) بِهَا لَذَّةً مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا

وَتَذَوَّقَ حَلَاوَةَ التَّهَجُّدِ(٢) فِي اللَّيْلِ ...

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ ، وَالْتَزَمَهُ أَشَدَّ الْتِزَامٍ .

كَانَ إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَأَسْلَمَ النَّاسُ جُنُوبَهُمْ إِلَىٰ الْمَضَاجِعِ ؛ هَبَّ مِنْ رَقْدَتِهِ وَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، وَعَمَدَ إِلَىٰ حُلَّةٍ لَهُ - شَرَاهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ - فَارْتَدَاهَا

وَأَخَذَ زِينَتَهُ تَامَّةً كَامِلَةً لِيَمْثُلَ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الْمُلُوكِ ، وَيَحْظَىٰ بِقُرْبِهِ فِي نَجْوَةٍ مِنَ النَّاسِ ...

ثُمَّ يُمْضِي لَيْلَتَهُ كُلَّهَا مُتَهَجِّدًا قَائِمًا بِآيِ الْقُرْآنِ .

وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ ؛ طَارَ شَوْقًا إِلَيْهَا

وَإِذَا مَرَّ بِأُخْرَىٰ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ ؛ زَفَرَ زَفْرَةً كَأَنَّ لَهِيبَ جَهَنَّمَ فِي أَحْشَائِهِ .

قَرَأَ لَيْلَةً قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا(٣) السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٤).

فَأَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ رَهْبَةٌ مِنْ خَوْفِ عِقَابِهِ ...

فَمَا زَالَ يُصَلِّي بِهَٰذِهِ الْآيَةِ مُنْذُ الْعِشَاءِ إِلَىٰ أَنْ أَسْفَرَ(٥) الْفَجْرُ ...

وَكَانَ كُلَّمَا أَعَادَهَا ؛ اشْتَدَّ نَحِيبُهُ جَزَعًا مِنْ هَوْلِ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

(١) لَا يَعْدِلُ بِهَا لَذَّة : لا يرضىٰ بغيرها .
(٢) التَّهَجُّد : التعبد في الليل .
(٣) اجْتَرَحُوا : اكتسبوا .
(٤) سورة الجاثية آية ٢١.
(٥) أَسْفَرَ الْفَجر : طلع الفجر .

وَقَدْ غَلَبَ عَلَىٰ تَمِيمٍ النَّوْمُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ؛ فَلَمْ يَقُمْ لِلتَّهَجُّدِ ؛ فَعَاقَبَ نَفْسَهُ بِأَنْ قَامَ سَنَةً كَامِلَةً لَا يَنَامُ فِيهَا

* * *

ظَلَّ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ نَزِيلَ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ أَنِ اسْتُشْهِدَ ذُو النُّورَيْنِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ(١)...

فَغَادَرَ الْمَدِينَةَ أَسْوَانَ حَزِينًا عَلَىٰ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَادَ إِلَىٰ بِلَادِهِ لِيَقْضِيَ نَحْبَهُ فِي قَرْيَتِهِ مِنْ دِيَارِ الشَّامِ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ؛ الْعَبَّادِ السَّجَّادِ دَفِينِ مِنْطَقَةِ الْجَوْلَانِ ...

وَنَوَّرَ لَهُ فِي قَبْرِهِ ...

وَأَسْكَنَهُ عَالِيَاتِ الْجِنَانِ (*) .

---

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّان : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(*) للاستزادة من أخبار تَمِيم الدَّارِيّ انظر :

١ - أسد الغابة : ٤/ ٢٥٦.
٢ - صفة الصفوة : ١/ ٧٣٧.
٣ - الطبقات : ٢/٣٥٥ وانظر الفهارس .
٤ - البداية والنهاية : ٥/ ٨٧، ٦/ ١٣٠.
٥ - الإصابة : ١/١٣٨ أو « الترجمة » ٨٣٧.
٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ١/ ١٨٤.
٧ - تهذيب التهذيب : ١١/ ٥١١.
٨ تهذيب ابن عساكر : ٣/ ٣٤٤.
٩ - سير أعلام النبلاء : ٢/ ٤٤٢.
١٠- الأعلام : ٢/ ٧١.

العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه

«مُناضِلُ الرِّيَاحِ السَّافِيَاتِ فِي الرُّبْعِ الخَالِي»

غَفَتِ الْمَدِينَةُ الْمَحْزُونَةُ الثَّكْلَىٰ(١) عَلَىٰ جِرَاحِهَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ...

فَقَدْ فَقَدَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهِيَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ تَعَلُّقًا بِهِ، وَحَاجَةً إِلَيْهِ.

غَيْرَ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ لَمْ يَذُقْ لِلنَّوْمِ طَعْمًا.

فَكَأَنَّمَا حُشِيَ مِهَادُهُ(٢) بِالشَّوْكِ ...

أَوْ كُحِّلَتْ عَيْنَاهُ بِالْجَمْرِ

وَكَيْفَ تَطْمَئِنُّ لِلصِّدِّيقِ نَفْسٌ؟!

وَجُلُّ الْعَرَبِ قَدْ خَرَجُوا مِنْ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ.

وَكَيْفَ يَغْمَضُ لَهُ جَفْنٌ؟!

وَدَوْلَةُ الرَّسُولِ ﷺ الْكُبْرَىٰ؛ الَّتِي شُيِّدَتْ(٣) خِلَالَ ثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا بِالْجُهْدِ وَالْجِهَادِ، وَبُنِيَتْ بِالْأَحْزَانِ وَالْأَشْجَانِ(٤)؛ حَتَّىٰ شَمِلَتِ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا، قَدِ انْكَمَشَتِ الْيَوْمَ ...

فَأَصْبَحَتْ مَحْصُورَةً فِي مُثَلَّثٍ صَغِيرٍ؛ رَأْسُهُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ عَاصِمَةِ

---

(١) الثَّكْلَىٰ: المتألمة لفقد عزيز لديها.

(٢) مهاده: فراشه

(٣) شيدت: بُنِيَتْ.

(٤) الأشجان: الأحزان والهموم.

الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ...

وَقَاعِدَتُهُ تَمْتَدُّ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ .

* * *

وَلَقَدْ جَيَّشَ الصِّدِّيقُ مِنْ هَٰذِهِ الْقِلَّةِ الْقَلِيلَةِ الْبَاقِيَةِ مَعَهُ عَلَىٰ الْإِيمَانِ ؛ عَشَرَةَ جُيُوشٍ ...

وَاخْتَارَ لَهَا عَشَرَةً مِنَ الْقَادَةِ الْأَفْذَاذِ(١) الَّذِينَ تُوُفِّيَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ ...

وَدَفَعَ بِهِمْ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ لِقِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ .

وَكَانَ أَشَدَّ مَا يُؤَرِّقُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ؛ اخْتِيَارُ الْقَائِدِ الْحَادِي عَشَرَ لِلْجَيْشِ الَّذِي سَيُوَجِّهُهُ إِلَىٰ قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ فِي الْبَحْرَيْنِ ، وَمَا تَلَاهَا مِنْ بِلَادِ جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

فَقَدْ كَانَتْ مُهِمَّةُ هَٰذَا الْجَيْشِ مَحْفُوفَةً(٢) بِالْمَخَاطِرِ ...

وَكَانَ طَرِيقُهُ مَفْرُوشًا بِالشَّوْكِ وَالْعَذَابِ .

* * *

وَظَلَّ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ مِهَادِهِ حَتَّىٰ شَقَّ سُكُونَ اللَّيْلِ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ(٣) بِصَوْتِهِ الشَّجِيِّ النَّدِيِّ .

فَدَمَعَتْ عَيْنَا الصِّدِّيقِ عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِ مُؤَذِّنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمَعَتْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فِي ذِهْنِهِ فِكْرَةٌ ؛ أَضَاءَتْ لَهُ السَّبِيلَ إِلَىٰ اخْتِيَارِ الْقَائِدِ الْمَنْشُودِ .

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُهُ(٤) السَّمْحَةُ ...

(١) الأفذاذ : المتميزون الذين لا نظير لهم .

(٢) محفوفة : محاطة .

(٣) بِلَال بْن رَبَاح : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) أساريره محاسن وجهه .

وَلَاحَتْ عَلَىٰ وَجْهِهِ الرَّقِيقِ النَّبِيلِ الْمَحْزُونِ غُلَالَةٌ شَفَّافَةٌ مِنَ الرِّضَا وَالطُّمَأْنِينَةِ .

وَلَمَّا قُضِيَتِ الْمَكْتُوبَةُ ؛ دَعَا بِالْقِرْطَاسِ وَالدَّوَاةِ وَكَتَبَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَٰذَا عَهْدٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ ؛ حِينَ بَعَثَهُ لِقِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ فِي الْبَحْرَيْنِ وَمَا جَاوَرَهَا .

وَعَهِدَ إِلَيْهِ بِأَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ فِي سِرِّهِ ، وَفِي جَهْرِهِ .

وَأَمَرَهُ بِالْجِدِّ فِي أَمْرِ اللَّهِ .

وَمُجَاهَدَةِ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ دِينِهِ

وَرَجَعَ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ أَمَانِيِّ(١) الشَّيْطَانِ .

* * *

لَقِيَ اخْتِيَارُ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ قَائِدًا لِلْجَيْشِ الْمُتَّجِهِ إِلَىٰ قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ فِي الْبَحْرَيْنِ ارْتِيَاحًا كَبِيرًا لَدَىٰ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ :

فَالْعَلَاءُ صَحَابِيٌّ قَدِيمُ الصُّحْبَةِ ؛ وَثِيقُ الصِّلَةِ بِالرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَحَدُ كُتَّابِ الْوَحْيِ ، وَالْمُؤْتَمَنِينَ عَلَيْهِ .

زِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ الْإِسْلَامَ إِلَىٰ الْبَحْرَيْنِ ؛ دُونَ أَنْ يُرِيقَ قَطْرَةَ دَمٍ ...

أَوْ يُصِيبَ أَحَدًا بِكَلْمٍ(٢)

---

(١) أماني الشيطان : أكاذيبه التي يوسوس بها للإنسان .

(٢) بكلم : بجرح .

وَذَلِكَ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْمُنْذِرِ[1] بْنِ سَاوَىٰ بِرِسَالَةٍ يَدْعُوهُ فِيهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

فَمَا زَالَ يَتَلَطَّفُ بِهِ...

وَيَتَوَخَّىٰ[2] الْحِكْمَةَ فِي عَرْضِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ...

حَتَّىٰ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ هُوَ وَقَوْمُهُ.

فَأَقَرَّهُ الرَّسُولُ ﷺ عَلَىٰ مُلْكِهِ...

وَوَلَّىٰ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ عَلَىٰ الصَّدَقَاتِ...

وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الزَّكَاةَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، وَأَنْ يَضَعَهَا فِي الْفُقَرَاءِ.

وَظَلَّ الْعَلَاءُ فِي عَمَلِهِ هَذَا إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَلَحِقَ بِهِ الْمَلِكُ الْمُنْذِرُ بْنُ سَاوَىٰ فِي نَفْسِ الشَّهْرِ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ.

* * *

لَمْ يَكُنْ أَمَامَ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ وَجَيْشِهِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ طَرِيقٍ يَسْلُكُونَهُ إِلَىٰ الْبَحْرَيْنِ سِوَىٰ صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ[3]

تِلْكَ الصَّحْرَاءُ الَّتِي كَانَتْ مَخُوفَةً آنَذَاكَ وَمَا تَزَالُ مَخُوفَةً إِلَىٰ الْيَوْمِ، وَالَّتِي تُعْرَفُ الْآنَ بِالرُّبْعِ الْخَالِي[4]

فَمَضَىٰ الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ الْمُبَارَكُ يَطْوِي الْمَفَاوِزَ[5] طَيًّا

(١) المنذر بن ساوىٰ: هو ملك البحرين في زمن ظهور النبي ﷺ، والبحرين في ذلك الوقت هي الإقليم الممتد علىٰ ساحل الخليج بين عُمان والبصرة.
(٢) يتوخىٰ: يَتَحَرَّىٰ وَيَقْصِد.
(٣) صحراء الدهناء موضع من بلاد بني تميم مسيرة ثلاثة أيام لاماء فيه.
(٤) الربع الخالي: صحراء رملية في جنوب شرق الجزيرة العربية، وتُعد من أكبر الصحاري الرملية بالعالم.
(٥) المفاوز الصحاري.

وَهْوَ فِي حَرْبٍ ضَرُوسٍ[1] مَعَ الرِّيَاحِ السَّافِيَاتِ[2]

وَنِضَالٍ مَرِيرٍ مَعَ الرِّمَالِ الْعَاتِيَاتِ[3]

وَصِرَاعٍ رَهِيبٍ مَعَ الطَّبِيعَةِ الْقَاسِيَةِ ...

حَيْثُ لَا مَاءَ، وَلَا شَجَرَ، وَلَا حَيَاةَ.

* * *

وَفِيمَا كَانَ الْقَوْمُ عَلَىٰ حَالِهِمْ هَٰذِهِ؛ نَزَلَ بِهِمْ مَا لَمْ يَقَعْ فِي حِسْبَانِ حَاسِبٍ ...

أَوْ يَرْقَ إِلَيْهِ خَيَالُ مُتَخَيِّلٍ.

فَفِي مَسَاءِ لَيْلَةٍ ضَرِيرَةِ النَّجْمِ؛ حَالِكَةِ الْجِلْبَابِ[4]

نَزَلَ الْجَيْشُ عَنْ جِمَالِهِ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ ...

وَتَرَقُّبًا لِانْبِلَاجِ الْفَجْرِ الْمُبْصِرِ.

إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِمْ أَنْ يَمْشُوا فِي اللَّيْلِ؛ خَوْفًا مِنَ الضَّيَاعِ فِي هَٰذِهِ الصَّحَارِي الَّتِي لَمْ تَخْطُطْ بِهَا قَدَمٌ طَرِيقًا

وَلَوْ خَطَّتْهُ؛ لَأَتَتْ عَلَيْهِ الرِّمَالُ السَّافِيَاتُ فِي بِضْعِ لَحَظَاتٍ.

فَمَا كَادُوا يَسْتَقِرُّونَ عَلَىٰ الْأَرْضِ ... حَتَّىٰ هَبَّ جَمَلٌ مِنْ جِمَالِهِمْ مَذْعُورًا[5] لِسَبَبٍ لَمْ يَعْرِفُوهُ ...

وَانْطَلَقَ يَعْدُو كَالْمَجْنُونِ فِي تِلْكَ الْفَيَافِي[6] الْمُظْلِمَةِ.

(١) الضَّروس: الشديدة المهلكة.
(٢) السافيات: التي تثير التراب.
(٣) العاتية: الجبارة.
(٤) ضريرة النجم؛ حالكة الجلباب: كناية عن شدة الظلام.
(٥) مذعورًا: فزعًا خائفًا.
(٦) الفيافي: الصحاري الواسعة.

فَاسْتُثِيرَتْ لِذُعْرِهِ الْجِمَالُ الْأُخْرَىٰ جَمِيعُهَا .

وَانْدَفَعَتْ تَجْرِي وَرَاءَهُ ؛ كَأَنَّمَا رَكِبَهَا أَلْفُ عِفْرِيتٍ ...

أَوْ لَدَغَ كُلًّا مِنْهَا أَلْفُ ثُعْبَانٍ .

وَقَدْ حَاوَلَ الرِّجَالُ الْأَشِدَّاءُ أَنْضَاءُ[1] الصَّحْرَاءِ أَنْ يُوقِفُوا هَٰذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الْهَائِجَةَ الْمَائِجَةَ ، أَوْ يَلْحَقُوا بِهَا .

لَكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ أَضَلُّوهَا وَأَضَلَّتْهُمْ .

كَأَنَّمَا ابْتَلَعَتْهَا الصَّحْرَاءُ .

وَفِي لَحَظَاتٍ قَلِيلَاتٍ ؛ وَجَدَ الْجَيْشُ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ الْمَفَاوِزِ الْمُهْلِكَةِ بِغَيْرِ مَاءٍ ...

وَلَا زَادٍ ...

وَلَا رَاحِلَةٍ ...

وَلَا أَمَلٍ ...

* * *

لَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ - مَا دَهَمَ[2] نُفُوسَهُمْ مِنْ كَرْبٍ .

وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ مَا صَدَعَ أَفْئِدَتَهُمْ مِنْ خَطْبٍ .

وَلَكَ أَنْ تُطْلِقَ الْعِنَانَ لِخَيَالِكَ الْمُجَنِّحِ ؛ لِتَرَىٰ مَا الَّذِي كَانَ يَعْتَلِجُ فِي أَغْوَارِ تِلْكَ الصُّدُورِ ...

لَقَدْ أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ .

---

(١) أنضاء الصَّحْرَاء : الذين هَزُلت أجسادُهم وإبلهم من كثرة اجتياز الصحراء.

(٢) دهم : غشي واحتل.

وَأَنَّ هَٰذِهِ الصَّحْرَاءَ سَتَطْوِيهِمْ فِي جَوْفِهَا الْكَبِيرِ ؛ كَمَا يَطْوِي الْبَحْرُ الْمُحِيطُ فِي أَحْشَائِهِ حَفْنَةً[1] مِنَ الرِّمَالِ .

وَأَنَّهُمْ سَيَبْقَوْنَ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ هَٰذِهِ الْمَفَاوِزِ الرَّهِيبَةِ لَنْ تَبُوحَ[2] بِهِ لِأَحَدٍ .

وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُوصِي بَعْضًا ...

وَهُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بِأَنَّهُ لَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِ فَكَّيْ[3] هَٰذِهِ الْمَهْلَكَةِ أَحَدٌ سَالِمًا .

وَلَكِنَّهَا سُنَّةُ الْحَيَاةِ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ...

أَقْبَلَ الْقَائِدُ الْمُلْهَمُ تِلْمِيذُ الْمَدْرَسَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْفَذَّةِ الْفَرِيدَةِ عَلَىٰ جُنْدِهِ ، وَقَالَ لَهُمْ فِي لَهْجَةِ الْمُطْمَئِنِّ الْوَاثِقِ[4] :

مَا هَٰذَا الَّذِي غَلَبَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْجَزَعِ[5] وَالْهَلَعِ وَالْهَمِّ ؟!

فَقَالُوا مَا بَالُكَ تَلُومُنَا ؟! ...

وَنَحْنُ إِنْ بَقِينَا إِلَىٰ غَدٍ وَأَسْلَمَنَا اللَّيْلُ إِلَىٰ النَّهَارِ ؛ فَإِنَّ الشَّمْسَ لَا تَلْبَثُ أَنْ تُهْلِكَنَا عَطَشًا قَبْلَ أَنْ يَرْتَفِعَ قُرْصُهَا[6] إِلَىٰ قُبَّةِ[7] الْفَلَكِ .

فَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي لَعَلَىٰ ثِقَةٍ بِأَنَّكُمْ لَنْ تُصَابُوا بِضُرٍّ أَبَدًا .

فَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ لِلَّهِ ...

الْمُؤْمِنُونَ بِهِ ...

---

(١) الحفنة : مِلْء الكفين .
(٢) تبوح به : تظهره وتكشفه .
(٣) فكي هذه المهلكة : يقصد الصحراء .
(٤) الواثق : المتأكد .
(٥) الجزع والهلع : الخوف والرعب
(٦) قرص الشمس عينها .
(٧) قبة الفلك : أعلاه .

فِي سَبِيلِهِ خَرَجْتُمْ ...

وَانْتِصَارًا لِدِينِهِ نَهَضْتُمْ ...

فَأَبْشِرُوا بِفَرَجٍ مِنْ عِنْدِهِ ...

وَوَاللَّهِ ! إِنَّكُمْ لَنْ تُخْذَلُوا ، وَلَنْ تُصَابُوا بِمَا يَسُوءُكُمْ ...

وَإِنَّ فَرَجَ اللَّهِ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِمَّا تَظُنُّونَ .

* * *

نَزَلَتْ كَلِمَاتُ الْقَائِدِ الْمُؤْمِنِ فِي أَفْئِدَةِ رِجَالِهِ مَنْزِلَةَ الْمَاءِ الْعَذْبِ الْبَرُودِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ(١) الصَّادِي .

فَسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ ...

وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ ...

وَأَسْلَمُوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى الْكَرَىٰ(٢)

وَلَمَّا انْبَلَجَ(٣) الْفَجْرُ ؛ تَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

وَوَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ خَاشِعِينَ مُخْبِتِينَ(٤)

فَلَمَّا انْتَهَتِ الصَّلَاةُ ...

اسْتَدَارَ الْعَلَاءُ بِوَجْهِهِ نَحْوَهُمْ ، وَرَفَعَ كَفَّيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ .

وَجَعَلَ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقَلْبٍ ضَارِعٍ ، وَطَرْفٍ دَامِعٍ ...

وَنَفْسٍ مُؤَمِّلَةٍ رَاجِيَةٍ .

---

(١) ذو الغلة الصادي : العطشان .

(٢) الكرىٰ النوم .

(٣) انبلج : أضاء وأشرق .

(٤) مخبتين : خاشعين لله .

وَهُمْ يَدْعُونَ بِدُعَائِهِ، وَيُؤَمِّنُونَ عَلَىٰ رَجَائِهِ.

فَلَمْ يَفْرُغْ مِنْ نَجْوَاهُ لِرَبِّهِ ... حَتَّىٰ لَاحَ لَهُمُ الْمَاءُ مِنْ بَعِيدٍ.

وَجَعَلَتْ صَفْحَتُهُ الْفِضِّيَّةُ تَلْتَمِعُ تَحْتَ تَبَاشِيرِ الصَّبَاحِ(١)...

فَحَسِبَهُ الْجُنْدُ أَوَّلَ الْأَمْرِ سَرَابًا(٢) كَذَلِكَ الَّذِي يَرَاهُ الْمَرْءُ فِي الصَّحْرَاءِ...

فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَجَدُوهُ مَاءً...

فَجَعَلُوا يُهَلِّلُونَ وَيُكَبِّرُونَ.

وَطَفِقُوا يَشْرَبُونَ وَيَغْتَسِلُونَ.

وَلَبِثُوا عِنْدَهُ يَنْتَظِرُونَ بَقِيَّةَ فَرَجِ اللَّهِ.

وَمَا كَادَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ؛ حَتَّىٰ رَأَوْا مِنْ بَعِيدٍ أَشْبَاحًا تَتَّجِهُ نَحْوَهُمْ.

فَحَدَّدُوا نَحْوَهَا النَّظَرَ...

فَإِذَا هِيَ تَدْنُو مِنْهُمْ شَيْئًا فَشَيْئًا

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ...

حَتَّىٰ أَيْقَنُوا أَنَّهَا جِمَالُهُمْ تَسْعَىٰ إِلَيْهِمْ؛ وَكَأَنَّ حَادِيًا(٣) يَسُوقُهَا نَحْوَهُمْ سَوْقًا

وَمِنْ خِلَالِ دُمُوعِ الْفَرَحِ بِفَرَجِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْأَمَلِ بِنَصْرِهِ...

رَأَوْا عِيرَهُمْ تُقْبِلُ جَمِيعًا عَلَىٰ الْمَاءِ؛ كَمَا ذَهَبَتْ جَمِيعًا.

---

(١) تباشير الصباح: أوائله.

(٢) السراب: ما تراه نصف النهار لاصقا بالأرض فتحسبه ماءً جاريًا

(٣) الحادي: الذي يزجر الإبل ويسوقها.

وَعَلَيْهَا أَقْتَابُهَا[1]

وَأَحْلَاسُهَا[2]...

وَالْمَؤُونَةُ وَالزَّادُ.

(١) الأقتاب: الرحال التي توضع على ظهور الجمال.

(٢) الأحلاس: كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت الرحال والسروج.

العلاء بن الحضرمي

« محارب المرتدين في البحرين »

امْتَطَىٰ الْكُمَاةُ[1] الْغُزَاةُ مِنْ طُلَّابِ الشَّهَادَةِ مُتُونَ إِبِلِهِمْ[2].

وَاسْتَأْنَفُوا نِضَالَهُمُ الْمَرِيرَ مَعَ صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ فِي الرُّبْعِ الْخَالِي حَتَّىٰ قَهَرُوا - بِإِذْنِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِهِ - رِمَالَهَا الْمُحْرِقَةَ ...

وَذَلَّلُوا مَفَاوِزَهَا[3] الْمُهْلِكَةَ ...

وَرَوَّعُوا[4] وَحْشَهَا الضَّارِيَ .

وَجَعَلُوهَا تَشْكُو مِنْ وَقْعِ خُطَاهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا شَكَوْا مِنْهَا

وَكَانُوا كُلَّمَا أَوْشَكُوا أَنْ يَمَسَّهُمُ الْوَنَىٰ[5] بَرَزَ لَهُمْ قَائِدُهُمُ الْعَبْقَرِيُّ الْفَذُّ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ ؛ فَسَكَبَ فِي أَفْئِدَتِهِمْ مِنْ رُوحِهِ ؛ مَا يُتْرِعُهَا[6] عَزِيمَةً وَتَصْمِيمًا

وَأَفْرَغَ فِيهَا مِنْ حَزْمِهِ وَعَزْمِهِ ؛ مَا يُشْعِلُهَا حَمِيَّةً[7] وَ إِقْدَامًا ...

وَذَكَّرَهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ فِي صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ ...

فَزَادَهُمْ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ إِيمَانًا .

---

(١) الكماة : الشجعان البواسل .

(٢) متون إبلهم : ظهور جمالهم .

(٣) المفاوز : الصحاري .

(٤) روعوا : أفزعوا .

(٥) الونىٰ : التعب .

(٦) يترعها : يملؤها .

(٧) حمية : شجاعة .

وَمَا زَالَ الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ يُوَاصِلُ كَلَالَ اللَّيْلِ بِكَلَالِ النَّهَارِ[1]؛ حَتَّىٰ بَلَغَ الْبَحْرَيْنَ .

وَعَسْكَرَ فِي ضَوَاحِيهَا

* * *

لَمْ يُضِعِ الْقَائِدُ الْمُلْهَمُ لَحْظَةً مِنْ وَقْتِهِ ؛ فَبَثَّ عُيُونَهُ[2] فِي كُلِّ مَكَانٍ لِيَتَسَقَّطُوا[3] لَهُ الْأَخْبَارَ ...

وَيَسْتَقْصُوا[4] لَهُ الْأَحْوَالَ .

فَعَرَفَ أَنَّهُ مَا كَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَلْحَقُ بِجِوَارِ رَبِّهِ حَتَّىٰ هَبَّ دُعَاةُ السُّوءِ يَقُولُونَ

لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا مَاتَ .

فَارْتَدَّ أَهْلُ الْبَحْرَيْنِ جَمِيعًا عَنْ دِينِهِمْ ...

وَأَسْلَمُوا قِيَادَتَهُمْ لِلْحَطَمِ بْنِ ضُبَيْعَةَ ...

وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَهْلُ قَرْيَةٍ وَاحِدَةٍ .

هِيَ قَرْيَةُ « جُوَاثَا »[5]

* * *

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الْمُؤْمِنَةِ أَنَّهُ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ مِنْ أَخْيَارِ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ : الْجَارُودُ بْنُ الْمُعَلَّىٰ ...

---

(١) كلال الليل بكلال النهار : تعب الليل بتعب النهار .

(٢) فبث عيونه : نشر رقباءه .

(٣) يتسقطوا الأخبار : يتتبعوها ويبحثوا عنها

(٤) يستقصوا الأحوال : يبلغوا الغاية في البحث عن أحوالهم .

(٥) جُوَاثَا : قرية بالبحرين ، وهي أول موضع أقيمت فيه صلاة الجمعة بعد المدينة المنورة .

فَقَدْ وَفَدَ عَلَىٰ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَهَلَ[١] مِنْ هَدْيِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَلَ ...

ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ قَوْمِهِ ، وَأَقَامَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَيُفَقِّهُهُمْ بِدِينِهِ الْقَوِيمِ .

فَلَمَّا رَأَىٰ قَوْمَهُ قَدْ جَنَحُوا[٢] إِلَىٰ الِارْتِدَادِ مَعَ الْمُرْتَدِّينَ جَمَعَهُمْ ، وَقَالَ :

يَا قَوْمِ إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ أَمْرٍ ؛ فَأَخْبِرُونِي إِنْ عَلِمْتُمُوهُ ؟

فَقَالُوا : سَلْ .

قَالَ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ لِلَّهِ أَنْبِيَاءُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ؟

قَالُوا نَعَمْ .

قَالَ : فَأَيْنَ هُمْ ؟!

قَالُوا : مَاتُوا .

قَالَ : فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ مَاتَ كَمَا مَاتُوا

وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...

وَأَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ...

فَقَالُوا : أَنْتَ أَفْضَلُنَا ، وَأَعْقَلُنَا ، وَسَيِّدُنَا

وَمَا قُلْتَ إِلَّا حَقًّا

ثُمَّ ثَبَتُوا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ؛ مُخَالِفِينَ فِي ذَلِكَ بَنِي قَوْمِهِمْ جَمِيعًا .

* * *

---

(١) نهل : ارتوىٰ.

(٢) جَنَحُوا مالوا.

عِنْدَ ذَلِكَ حَاصَرَهُمُ الْحَطَمُ بِجُنُودِهِ، وَأَحْكَمَ عَلَيْهِمُ الطَّوْقَ[1]

وَمَنَعَ عَنْهُمُ الْقُوتَ ...

وَتَرَكَهُمْ لِيَمُوتُوا جُوعًا مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا قِتَالٍ.

فَلَمْ يُثْنِهِمْ[2] ذَلِكَ الْحِصَارُ الشَّدِيدُ عَنْ إِيمَانِهِمْ.

وَقَالَ شَاعِرُهُمْ يَسْتَنْجِدُ بِالصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى الْبُعْدِ:

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ شَكَاةً ... وَفِتْيَانَ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَا

فَهَلْ لَكُمُ إِلَى قَوْمٍ كِرَامٍ ... قُعُودٍ فِي «جُوَاثَ» مُحَصَّرِينَا

تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَٰنِ إِنَّا ... وَجَدْنَا الصَّبْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَا

* * *

مَا كَادَ يَصِلُ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْبَحْرَيْنِ حَتَّى أَرْسَلَ رَسُولًا مُتَخَفِّيًا مِنْ قِبَلِهِ إِلَى «جُوَاثَا»، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْبِرَ الْجَارُودَ بِقُدُومِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَشُدَّ مِنْ عَزِيمَتِهِ وَعَزِيمَةِ قَوْمِهِ ...

وَأَنْ يَطْلُبَ مِنْهُمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلَّحْظَةِ الْحَاسِمَةِ؛ حِينَ يُقَرِّرُ الْمُسْلِمُونَ الْوُثُوبَ عَلَى عَدُوِّهِمْ.

* * *

أَدْرَكَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِقِتَالِ الْحَطَمِ وَرِجَالِهِ، وَذَلِكَ لِكَثْرَتِهِمْ وَقِلَّةِ جَيْشِهِ.

وَقُوَّتِهِمْ وَضَعْفِهِ ...

---

(١) أحكم الطوق: شدد الحصار.

(٢) يثنهم: يُرجعهم ويردهم.

وَوَفْرَةِ عُدَّتِهِمْ وَعَتَادِهِمْ[١] وَشُحِّ مَوَارِدِهِ ...

فَاحْتَفَرَ لِجَيْشِهِ خَنْدَقًا يَتَتَرَّسُ بِهِ

وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْحَطَمُ ؛ لِأَنَّ خَوْفَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُنْ بِأَقَلَّ مِنْ خَوْفِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ .

* * *

تَذَرَّعَ[٢] الْقَائِدُ الْمُسْلِمُ الْمُحَنَّكُ[٣] بِالصَّبْرِ .

وَاتَّخَذَ الْحَيْطَةَ وَالْحَذَرَ ...

وَظَلَّ الْفَرِيقَانِ شَهْرًا كَامِلًا ؛ يَتَدَاوَلَانِ الْقِتَالَ الْخَفِيفَ فِي النَّهَارِ ، وَيَعُودَانِ إِلَىٰ خَنَادِقِهِمَا فِي اللَّيْلِ .

وَقَدْ كَانَ الْعَلَاءُ خِلَالَ ذَلِكَ مُرْهَفَ[٤] السَّمْعِ .

حَدِيدَ الْبَصَرِ

مَشْدُودَ الِانْتِبَاهِ لِكُلِّ مَا يَجْرِي وَرَاءَ خَنَادِقِ الْعَدُوِّ ...

تَرَقُّبًا لِلْفُرْصَةِ الَّتِي تُتِيحُ لَهُ الِانْقِضَاضَ[٥] عَلَىٰ عَدُوِّهِ فِي غَفْلَةٍ مِنْ غَفَلَاتِهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ ؛ سَمِعَتْ طَلَائِعُ الْمُسْلِمِينَ وَعُيُونُهُ هَرَجًا[٦] وَمَرَجًا فِي مُعَسْكَرِ الْعَدُوِّ ...

وَرَأَتْ - عَلَىٰ الْبُعْدِ - حَرَكَةً غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ .

---

(١) العتاد : كل ما هيئ من سلاح ودواب وآلة حرب .

(٢) تذرع : تَمَسَّك وتَحلَّىٰ .

(٣) المحنك : المجرب الحكيم .

(٤) مرهف السمع : دقيق السمع .

(٥) الانقضاض : الهجوم المفاجئ .

(٦) الهرج والمرج : الصياح والاختلاف والاضطراب

فَقَالَ الْعَلَاءُ لِرِجَالِهِ : مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يُدْعَىٰ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَفٍ ، وَقَالَ :

أَنَا آتِيكَ بِخَبَرِهِمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

فَنَدَبَهُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ ، وَحَذَّرَهُ ، وَأَوْصَاهُ ، وَاسْتَوْدَعَهُ اللَّهَ .

* * *

مَضَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَفٍ نَحْوَ خَنَادِقِ الْعَدُوِّ ؛ مُسْتَتِرًا بِجُنْحِ الظَّلَامِ ...

وَاجْتَازَ الْخَنَادِقَ فِي خِفَّةٍ وَحَذَرٍ .

فَلَمَّا غَدَا دَاخِلَ مُعَسْكَرِهِمْ ... نَذِرُوا(١) بِهِ .

وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ...

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ جَعَلَ يَسْتَصْرِخُ مُسْتَغِيثًا وَيُنَادِي : يَا أَبْجَرَاهُ ؛ يَا أَبْجَرَاهُ ...

وَالْأَبْجَرُ الَّذِي اسْتَغَاثَ بِهِ ؛ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عِجْلٍ مَرْمُوقُ(٢) الْمَكَانَةِ فِي جَيْشِ الْحَطَمِ ، وَكَانَتْ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ عِجْلِيَّةً .

فَجَاءَهُ الْأَبْجَرُ وَسَأَلَهُ عَنْ نَسَبِهِ ؛ فَانْتَسَبَ لَهُ .

وَقَالَ لَهُ : إِنَّكُمْ أَخْوَالِي

فَعَرَفَهُ وَأَجَارَهُ ، وَاسْتَفْسَرَ مِنْهُ عَنْ أَمْرِهِ ؛ فَقَالَ :

لَقَدْ ضَلَلْتُ طَرِيقِي ...

ونَزَلْتُ بَيْنَ جُنُودِكُمْ فَأَخَذُونِي أَسِيرًا .

فَقَالَ لَهُ الْأَبْجَرُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَظُنُّكَ بِئْسَ ابْنِ أُخْتِ قَوْمٍ جَاءَ أَخْوَالَهُ .

---

(١) نذروا به : عَلِموا به .

(٢) مرموق المكانة : ذو مكانة عالية ينظر الناس إليها بإعجاب .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ دَعْنَا مِنْ هَٰذَا ، وَأَطْعِمْنِي ؛ فَقَدْ قَتَلَنِي الْجُوعُ .

فَقَدَّمَ لَهُ طَعَامًا

فَجَعَلَ يَأْكُلُهُ فِي أَنَاةٍ وَمَهَلٍ ؛ لِيَتَعَرَّفَ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْقَوْمِ ...

وَيَقِفَ عَلَىٰ خَفَايَا أَخْبَارِهِمْ .

فَلَمَّا تَحَقَّقَ لَهُ مَا أَرَادَ قَالَ :

زَوِّدْنِي[١]، وَاحْمِلْنِي ، وَأَجِزْنِي[٢] حَتَّىٰ أَبْلُغَ مُعَسْكَرَ قَوْمِي

فَزَوَّدَهُ ، وَحَمَلَهُ عَلَىٰ دَابَّةٍ ، وَبَعَثَ مَعَهُ مَنْ أَجَازَهُ حَتَّىٰ بَلَغَ مَأْمَنَهُ .

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ ؛ أَخْبَرَ الْعَلَاءَ بِأَنَّ الْقَوْمَ يَحْتَفِلُونَ بِمُنَاسَبَةٍ مِنْ مُنَاسَبَاتِهِمْ ...

وَأَنَّهُمْ قَدْ نَثَرُوا دِنَانَ[٣] الْخُمُورِ فِي كُلِّ مَكَانٍ

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهَا يَعُبُّونَ مِنْهَا عَبًّا ؛ حَتَّىٰ غَلَبَ عَلَيْهِمُ السُّكْرُ .

فَغَدَوْا بَيْنَ نَائِمٍ وَوَاجِمٍ[٤]

وَمُعَرْبِدٍ لَا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ .

وَأَنَّ صَاحِبَهُ الْعِجْلِيَّ كَانَ مِنَ الْفَرِيقِ الْأَخِيرِ .

* * *

لَمْ يُضَيِّعِ الْعَلَاءُ دَقِيقَةً مِنَ الْوَقْتِ سُدًى ...

فَأَرْسَلَ إِلَىٰ الْجَارُودِ مَنْ يَأْمُرُهُ بِالْهُجُومِ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْخَلْفِ ...

---

(١) زودني : حملني بالزاد .

(٢) أجزني : ساعدني علىٰ الجواز والمرور .

(٣) دنان الخمور : أوعيتها ، والمفرد : دَنٌّ .

(٤) واجم : حزين ساكت عن الكلام .

وَانْطَلَقَ هُوَ بِجَيْشِهِ نَحْوَهُمْ مِنَ الْأَمَامِ ؛ انْطِلَاقَ السِّهَامِ فِي غَبَشِ[1] الظَّلَامِ .

وَاقْتَحَمَ عَلَىٰ الْجَيْشِ الْمَخْمُورِ خَنَادِقَهُ الْمَنِيعَةَ[2] مِنْ كُلِّ صَوْبٍ ...

وَأَعْمَلَ السُّيُوفَ فِي رِقَابِ جُنْدِ الْعَدُوِّ مِنْ غَيْرِ هَوَادَةٍ[3]

فَانْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ شَرٍّ مُسْتَطِيرٍ[4] لِلْجَيْشِ الْمُرْتَدِّ وَقَائِدِهِ الْحَطَمِ ...

أَمَّا قَائِدُ الْجَيْشِ ؛ فَكَانَ نَائِمًا حِينَ نَزَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ مُعَسْكَرِهِ نُزُولَ الصَّاعِقَةِ .

فَلَمْ يُوقِظْهُ مِنْ غَيْبُوبَتِهِ إِلَّا صَلِيلُ السُّيُوفِ ، وَطَعْنُ الرِّمَاحِ ...

وَأَصْوَاتُ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ .

فَهَبَّ مَذْعُورًا ، وَامْتَطَىٰ صَهْوَةَ جَوَادِهِ .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنِ انْقَطَعَ رِكَابُ سَرْجِهِ[5]؛ فَجَعَلَ يُنَادِي :

أَنَا الْحَطَمُ ... مَنْ يُصْلِحُ لِي رِكَابِي ؟

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَحَدُ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَالَ لَهُ :

ارْفَعْ رِجْلَكَ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - لِأُصْلِحَهُ لَكَ .

فَلَمَّا رَفَعَ رِجْلَهُ أَهْوَىٰ[6] عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ فَبَتَرَهَا[7] عَنْ جَسَدِهِ بَتْرًا

فَسَقَطَ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَالدِّمَاءُ تَنْزِفُ مِنْهُ ، وَالْآلَامُ تَكْوِي كَبِدَهُ كَيًّا

---

(١) غبش الظلام : ظُلْمَة آخِرِ اللَّيْلِ .
(٢) الخنادق المنيعة : الخنادق التي يتعذر الوصول إليها .
(٣) من غير هوادة : من غير لين ولا رفق .
(٤) شر مستطير : شر شديد قوي .
(٥) ركاب سرجه موضع القدم من رَحْلِ الدَّابة .
(٦) أهوىٰ بسيفه : نَزَلَ بِهِ .
(٧) فبترها : فَقَطَعَهَا .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ جَعَلَ يَسْأَلُ كُلَّ مَنْ يَمُرُّ بِهِ أَنْ يُجْهِزَ[1] عَلَيْهِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ آلَامِهِ ... وَلِيَنْجُوَ مِنْ وَقْعِ أَقْدَامِ الْمُنْهَزِمِينَ الَّتِي تَمُرُّ فَوْقَهُ .

وَظَلَّ عَلَىٰ حَالِهِ هَٰذِهِ ؛ حَتَّىٰ قَتَلَهُ أَحَدُ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهْوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِيقَتِهِ شَيْئًا

وَأَمَّا الْجَيْشُ ؛ فَقَدْ حَلَّتْ بِهِ هَزِيمَةٌ مَاحِقَةٌ نَكْرَاءُ[2]

فَفَرِيقٌ سَقَطَ قَتِيلًا فِي خَنَادِقِهِ الَّتِي احْتَفَرَهَا بِيَدَيْهِ ؛ فَغَدَتْ قُبُورًا لَهُ ...

وَفَرِيقٌ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .

إِلَّا أَنَّ جَمْهَرَةَ الْجَيْشِ الْكُبْرَىٰ لَاذَتْ بِالسُّفُنِ الرَّاسِيَةِ عَلَىٰ الشَّوَاطِئِ ، وَوَلَّتِ الْأَدْبَارَ هَارِبَةً إِلَىٰ جَزِيرَةِ دَارِينَ .

* * *

لَقَدْ حَرَّرَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ الْبَحْرَيْنَ ، وَأَعَادَهَا إِلَىٰ حَوْزَةِ[3] الْإِسْلَامِ ...

وَلَكِنْ أَتَظُنُّ أَنَّ فِي وُسْعِ بَطَلٍ مُجَاهِدٍ مِثْلِهِ أَنْ يَطْمَئِنَّ لَهُ جَنْبٌ ، أَوْ يَغْمَضَ لَهُ جَفْنٌ ... مَا دَامَ الْمُرْتَدُّونَ يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ قَرِيبًا مِنْهُ ...

مُتَحَصِّنِينَ بِجَزِيرَةِ دَارِينَ ؟!

---

(١) يجهز عليه : يقضي عليه .
(٢) ماحقة نكراء : شديدة مهلكة .
(٣) حوزة الإسلام : حدوده ونواصيه .

العلاء بن الحضرمي ﷺ

«يغزو البحر»

لَاذَ الْمُرْتَدُّونَ الْفَارُّونَ بِحِمَىٰ جَزِيرَةِ دَارِينَ(١)

وَتَحَصَّنُوا بِأَمْوَاجِ الْبَحْرِ الَّتِي تُحِيطُ بِهَا إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ .

ثُمَّ أَرْخَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَعِنَّتَهَا(٢)

وَأَخْلَدُوا(٣) إِلَىٰ مِهَادِ(٤) الرَّاحَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ ...

وَأَغْفَلُوا الْحَيْطَةَ وَالْحَذَرَ .

ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ يَقِينٍ بِأَنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ النَّابِتِينَ فِي بَطْنِ الصَّحْرَاءِ لَمْ يَعْرِفُوا رُكُوبَ الْبِحَارِ ...

وَلَمْ يَأْلَفُوا مُتُونَ(٥) السُّفُنِ .

زِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ ؛ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُون شَيْئًا مِنْهَا

* * *

لَكِنَّ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ كَانَ قَدْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَمْرًا عَظِيمًا خَطِيرًا ؛ لَمْ يُفَكِّرْ فِيهِ قَائِدٌ إِسْلَامِيٌّ مِنْ قَبْلُ ...

وَلَا خَطَرَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ بَالٍ .

---

(١) جزيرة دارين : تقع في شرق المملكة العربية السعودية وهي من أهم وأقدم الموانئ في الخليج العربي .

(٢) أعنتها : جمع عِنَان ؛ وهو لجام الخيل ، والمقصود تركوا أنفسهم لهواها

(٣) أخلدوا : ركنوا وأقاموا مطمئنين .

(٤) المهاد الفراش

(٥) متون ظهور .

لَقَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ غَزْوِ دَارِينَ ، وَالظَّفَرِ بِالْمُرْتَدِّينَ الْمُعْتَصِمِينَ[1] بِأَسْوَارِ الْمَاءِ ...

* * *

لَمْ يَكُنِ الْعَلَاءُ يَجْهَلُ أَنَّ جُنُودَهُ أَبْنَاءَ الصَّحْرَاءِ ؛ يَهَابُونَ الْبَحْرَ أَعْظَمَ الْهَيْبَةِ ، وَيَخْشَوْنَ مَخَاطِرَهُ أَشَدَّ الْخَشْيَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ مَنْ يُذَكِّرُهُ ؛ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ سَفِينَةً وَاحِدَةً يَنْقُلُ عَلَيْهَا جُنْدِيًّا وَاحِدًا مِنْ جُنُودِهِ ...

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ أُسْطُولٍ ضَخْمٍ ؛ لِيَحْمِلَ عَلَيْهِ هَٰذَا الْجَيْشَ الْكَبِيرَ كُلَّهُ ؟!

كَمَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ جُسُورٍ مُتَحَرِّكَةٍ لِيَعْبُرَ فَوْقَهَا هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ الْيَابِسَةِ .

إِنَّ هَٰذَا كُلَّهُ كَانَ يَعْرِفُهُ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ ...

وَيَعْرِفُ مَعَهُ أَيْضًا أَنَّ جَزِيرَةَ دَارِينَ تَبْعُدُ عَنْ شَوَاطِئِ الْبَحْرَيْنِ مَسَافَةً تَقْطَعُهَا السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ .

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ...

فَإِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِيمَا عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا أَشْبَعَ الْعَلَاءُ الْخِطَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ بَحْثًا وَدَرْسًا ، وَأَوْسَعَهَا تَدْبِيرًا وَتَقْدِيرًا ... جَمَعَ عَسْكَرَهُ ، وَوَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا

فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَىٰ حَقَّ الْحَمْدِ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ أَجَلَّ الثَّنَاءِ ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ

(١) المعتصمين : المحتمين .

مُحَمَّدٍ أَكْمَلَ الصَّلَاةِ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَزْكَىٰ السَّلَامِ ...

ثُمَّ أَخْبَرَ الْجَيْشَ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ عُبُورِ الْبَحْرِ ...

وَغَزْوِ الْمُرْتَدِّينَ اللَّائِذِينَ[١] بِدَارِينَ ...

الْمُتَحَصِّنِينَ وَرَاءَ أَسْوَارِ الْمَاءِ ...

ثُمَّ أَدَارَ عَيْنَيْهِ فِي وُجُوهِ الْجُنْدِ ؛ فَوَجَدَ مِائَةَ سُؤَالٍ تَلُوحُ عَلَىٰ شِفَاهِهِمْ ، وَتَكَادُ تَنْطَلِقُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .

فَأَوْصَدَ فِي وُجُوهِهِمْ أَبْوَابَ الْقَوْلِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَبْدُرَ مِنْ أَحَدِهِمْ كَلِمَةٌ تُوهِنُ الْعَزَائِمَ ، وَتُثِيرُ الشُّكُوكَ ؛ فَأَتْبَعَ يَقُولُ :

لَا تَقُولُوا كَيْفَ لَنَا ذَلِكَ ؟!!

وَقَدْ أَرَاكُمُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْبَرِّ مَا لَوْ تَدَبَّرْتُمُوهُ ؛ لَأَيْقَنْتُمْ بِمَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْبَحْرِ .

لَا تَقُولُوا كَيْفَ ؟!

وَاللَّهُ مَعَكُمْ ...

أَلَمْ يَمْلَأْ لَكُمُ الْغَدِيرَ[٢] بِالْمَاءِ الْعَذْبِ النَّمِيرِ[٣] فِي قَلْبِ صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ !!

فَرَوَّاكُمْ مِنْ عَطَشٍ ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنْ هَلَكَةٍ .

أَلَمْ يَرُدَّ إِلَيْكُمُ الْإِبِلَ الشَّارِدَةَ فِي الْقِفَارِ[٤] ؛ الْهَائِمَةَ فِي الْفَيَافِي[٥] !!

---

(١) اللائذين : المحتمين .
(٢) الْغَدير : مجتمع الماء .
(٣) النمير : العذب .
(٤) القفار الأراضي الجرداء .
(٥) الفيافي : الصحاري الواسعة .

فَرَأَيْتُمُوهَا بِأَعْيُنِكُمْ وَكَأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَٰنِ تَحُفُّهَا[1] بِأَجْنِحَتِهَا
وَتَسُوقُهَا إِلَىٰ مَوَاطِئِ أَقْدَامِكُمْ[2] سَوْقًا
دُونَ أَنْ تَفْقِدُوا صَاعًا مِنَ الزَّادِ الَّذِي فَوْقَ ظُهُورِهَا
أَوْ جُرْعَةً مِنَ الْمَاءِ الَّذِي عَلَىٰ مُتُونِهَا
فَأَطْعَمَكُمْ مِنْ جُوعٍ ...
وَأَمَّنَكُمْ مِنْ خَوْفٍ ...
وَأَنْقَذَكُمْ مِنْ هَلَاكٍ ...

إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَجَابَ دَعْوَتَكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُوهُ فِي جَوْفِ الصَّحْرَاءِ مُخْبِتِينَ[3]؛ رَاجِينَ؛ وَاثِقِينَ ... سَيُجِيبُ دَعْوَتَكُمْ - بِفَضْلِهِ - حِينَ تَدْعُونَهُ وَأَنْتُمْ تَعْبُرُونَ الْيَمَّ[4]؛ لِلِقَاءِ عَدُوِّهِ صَادِقِينَ مُخْلِصِينَ.

ثُمَّ أَنْهَىٰ كَلَامَهُ قَائِلًا:
أَعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ ...
وَامْضُوا إِلَىٰ لِقَاءِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّكُمْ.
وَامْتَطُوا إِلَيْهِ ظُهُورَ إِبِلِكُمْ، وَخَيْلِكُمْ ...
وَاعْبُرُوا عَلَىٰ مُتُونِهَا مَاءَ الْخَلِيجِ.
عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.
فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ:

---
(١) تحفها: تحيط بها.
(٢) مواطئ أقدامكم: مواضع أقدامكم.
(٣) مخبتين: متخشعين.
(٤) الْيَمّ: البحر.

نَعَمْ ... نَعَمْ ...

نَفْعَلُ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ أَيُّهَا الْقَائِدُ الْمُلْهَمُ ...

وَاللَّهِ ! لَا نَهَابُ بَعْدَ الدَّهْنَاءِ شَيْئًا إِلَّا اللَّهَ .

* * *

رَكِبَ الْكُمَاةُ(١) الْأَشَاوِسُ(٢) صَهَوَاتِ(٣) الْجِيَادِ الصَّافِنَاتِ(٤)، وَمُتُونَ النُّوقِ الْكَرِيمَاتِ ، وَتَوَجَّهُوا نَحْوَ شَاطِئِ الْبَحْرِ ...

فَلَمَّا غَمَسُوا أَقْدَامَ رَوَاحِلِهِمْ فِي الْمَاءِ ؛ رَفَعَ الْقَائِدُ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْمُؤْمِنُ كَفَّيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ ، وَقَالَ لِجُنْدِهِ : رَدِّدُوا مَعِي ...

ثُمَّ قَالَ : « ... يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ؛ يَا صَمَدُ يَا قَوِيُّ ؛ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ...

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ...

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَبِقُدْرَتِكَ اسْتَعَنَّا

وَبِطَوْلِكَ(٥) اعْتَصَمْنَا ...» .

ثُمَّ عَبَرَ الْبَحْرَ أَمَامَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْعُبُورِ وَرَاءَهُ ... فَتَبِعُوهُ .

وَكَانَ الْخَلِيجُ يَوْمَئِذٍ فِي أَوَانِ هُدُوئِهِ وَجَزْرِهِ .

فَجَعَلَتِ الْخَيْلُ وَالْإِبِلُ تَسْبَحُ فَوْقَ مَائِهِ السَّاجِي(٦) كَأَنَّهَا تَمْشِي عَلَىٰ رَمْلَةٍ دَمِثَةٍ(٧)... يُغَطِّيهَا قَلِيلٌ مِنَ الْمَاءِ .

* * *

(١) الكماة : مفردها كمي وهو البطل الشجاع .
(٢) الأشاوس : جمع الأشوس : وهو البطل المغوار الجريء ؛ على القتال الشديد .
(٣) صهوات : مفردها صهوة ، وهي مقعد الفارس من الفرس .
(٤) الجياد الصافنات : الجياد التي تقف علىٰ ثلاث وترفع الرابعة ، وهي صفة من صفات الجياد الكريمة .
(٥) الطول : القوة والغنىٰ .
(٦) الساجي : الساكن.
(٧) دمثة : سهلة منبسطة .

وَلَمَّا بَلَغَ الْجَيْشُ شَوَاطِئَ دَارِينَ ... وَثَبَ الْجُنْدُ عَلَىٰ الْبَرِّ ؛ وُثُوبَ الْأُسُودِ عَلَىٰ فَرَائِسِهَا

وَجَرَّدُوا سُيُوفَهُمُ الْبَتَّارَةَ[1] مِنْ أَغْمَادِهَا[2] ...

وَمَضَوْا يَحْصِدُونَ رُؤُوسَ أَعْدَاءِ اللَّهِ حَصْدًا

وَذَهِلَ[3] الْمُرْتَدُّونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَمَّا حَوْلَهُمْ ، وَدَهِشُوا لِهَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ الْمُرْعِبَةِ ، وَحَارُوا فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ...

فَمَا يَدْرُونَ أَهَبَطُوا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَبَعُوا لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ؟!

إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِمْ أَنْ يَتَصَوَّرُوا ـ مُجَرَّدَ تَصَوُّرٍ ـ أَنَّهُمْ جَاؤُوهُمْ مِنَ الْبَحْرِ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ؛ طَهَّرَ الْعَلَاءُ وَجُنْدُهُ الْجَزِيرَةَ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ ؛ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا ذِرَاعًا ...

وَمَسَحُوهَا مِنَ الشَّاطِئِ إِلَىٰ الشَّاطِئِ جِيئَةً وَذِهَابًا ...

وَذَلِكَ ؛ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا الرِّجَالَ وَسَبَوُا الذَّرَارِيَ وَالنِّسَاءَ ، وَأَحْرَزُوا الْأَمْوَالَ وَالْأَنْعَامَ .

ثُمَّ قَسَّمَ الْقَائِدُ الْمُظَفَّرُ الْغَنَائِمَ بَيْنَ جُنُودِهِ ؛ فَأَصَابَ كُلُّ فَارِسٍ أَلْفَيْنِ .

وَلَمْ يَفْقِدِ الْمُسْلِمُونَ فِي عُبُورِهِمُ الْبَحْرَ رَجُلًا ، وَلَا حِصَانًا ، وَلَا جَمَلًا سِوَىٰ عَلِيقَةِ فَرَسٍ لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَرَجَعَ الْعَلَاءُ إِلَيْهَا بِنَفْسِهِ وَأَعَادَهَا لِصَاحِبِهَا ...

* * *

(١) البتارة : القاطعة. (٢) أغمادها : جمع غِمْد ؛ وهو جفن السيف. (٣) ذهل : نَسِيَ وسلا.

هَٰذَا ؛ وَلَقَدْ مَرَّ الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ بِرَاهِبٍ مِنْ نَصَارَىٰ هَجَرَ ؛ فَاسْتَأْذَنَ الرَّاهِبُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فِي أَنْ يَصْحَبَهُمْ ، وَيَحْتَمِيَ بِهِمْ فَأَذِنَ لَهُ .

فَلَمَّا انْتَهَتْ رِحْلَةُ الْجَيْشِ الظَّافِرِ إِلَىٰ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ مِنْ جُهْدٍ وَجِهَادٍ ، وَنَصْرٍ مُؤَزَّرٍ ...

وَمَا وَقَعَ لَهُ فِي أَثْنَائِهَا مِنْ أَهْوَالٍ وَأَحْدَاثٍ ، وَمَا أَسْبَغَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عَوْنٍ وَفَضْلٍ .

اهْتَزَّتْ مَشَاعِرُ الرَّاهِبِ الْخَامِدَةُ ، وَاسْتَيْقَظَ إِيمَانُهُ الْغَافِي ...

فَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ أَمَامَ الْجَيْشِ وَقَائِدِهِ .

وَلَمَّا عَادَ إِلَىٰ قَوْمِهِ ؛ قَالُوا لَهُ :

وَيْحَكَ ! مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ تَتْرُكَ دِينَكَ ؟!

وَتَعْتَنِقَ الْإِسْلَامَ .

فَقَالَ : ثَلَاثَةُ أُمُورٍ ...

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَمْسَخَنِي[1] اللَّهُ بَعْدَهَا إِذَا أَنَا لَمْ أُسْلِمْ .

فَقَالُوا : وَمَا هِيَ ؟

فَقَالَ : مَا سَمِعْتُهُ مِنْ دُعَائِهِمْ فِي السَّحَرِ

وَفَيَضَانُ الْمَاءِ لَهُمْ فِي رِمَالِ الصَّحْرَاءِ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا شَجَرَ ...

وَتَذْلِيلُ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ .

(١) يَمْسَخَنِي : يُحَوِّلُنِي إِلَىٰ صورة أخرىٰ ، ويشوهني .

فَأَيْقَنْتُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُعَانُوا بِالْمَلَائِكَةِ ؛ إِلَّا وَهُمْ عَلَىٰ حَقٍّ ...
وَأَنَّهُمْ عَلَىٰ حَقٍّ .

* * *

نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ .

فَقَدْ عَاشَ مُجَاهِدًا بِلِسَانِهِ ...

وَسِنَانِهِ ...

وَسَيَظَلُّ عَلَىٰ الْأَيَّامِ أَوَّلَ قَائِدٍ مُسْلِمٍ رَكِبَ مُتُونَ الْبِحَارِ ...
إِعْلَاءً لِكَلِمَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار الْعَلَاء بْن الْحَضْرَمِيّ انظر :
١ - الطبري : ٢/ ٥٢٧.
٢ - البداية والنهاية : ٦/ ٢٥٩، ٣٢٧، ٧/ ٨٣، ١٢٠، ١٣٠.
٣ - سير أعلام النبلاء : ١/ ٢٦٢.
٤ - أسد الغابة : ٤/ ٧٤.
٥ - الطبقات الكبرىٰ : ٤/ ٣٥٩.
٦ - تهذيب التهذيب : ٨/ ١٧٨
٧ - المعارف : ٢٨٣
٨ - تاريخ خليفة : ١١٦، ١٢٧.
٩ - حلية الأولياء : ١/ ٧.
١٠- صفة الصفوة : ١/ ٦٩٤.
١١- الإصابة : ٢/ ٤٩٧ أو «الترجمة» ٥٦٤٢.
١٢- الاستيعاب بهامش الإصابة : ٣/ ١٤٦.
١٣- الأعلام : ٥/ ٤٥.

الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ

« دُهَاةُ الْعَرَبِ أَرْبَعَةٌ : مُعَاوِيَةُ لِلْأَنَاةِ ... وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِلْمُعْضِلَاتِ ... وَالْمُغِيرَةُ لِلْبَدِيهَةِ ... وَزِيَادُ بْنُ أَبِيهِ لِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ »

[الشَّعْبِيُّ]

مَنْ هَؤُلَاءِ الْبُدَاةُ الَّذِينَ قَطَعُوا الْفَيَافِيَ[1] وَجَازُوا[2] الْقِفَارَ[3] يَتَعَاقَبُونَ كُلَّ ثَلَاثَةٍ عَلَىٰ جَمَلٍ ؛ حَتَّىٰ بَلَغُوا دِيَارَ فَارِسَ هُدَاةً[4]؟

فَإِذَا أَبَىٰ الْفُرْسُ الْهِدَايَةَ ؛ صَارُوا غُزَاةً .

مَنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ تَقْتَحِمُهُمْ عُيُونُ الْفُرْسِ ؟

فَلَا تَرَىٰ عَلَىٰ أَبْدَانِهِمْ إِلَّا ثَوْبًا صَفِيقًا[5]

وَلَا تَجِدُ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَّا سِلَاحًا خَفِيفًا

وَلَا تُبْصِرُ تَحْتَهُمْ ؛ إِلَّا خَيْلًا أَهْزَلَهَا الضَّرْبُ[6] فِي الْآفَاقِ ، وَأَضْنَتْهَا[7] قِلَّةُ الْمَؤُونَةِ .

إِنَّهُمُ الْكُمَاةُ[8] الْأُبَاةُ[9]

فُرْسَانُ النَّهَارِ ؛ عُبَّادُ اللَّيْلِ ...

(١) الفيافي : الصحاري الواسعة .
(٢) جازوا : عبروا
(٣) القفار : الأراضي الجرداء .
(٤) هُدَاة : داعون إلىٰ الهداية .
(٥) صفيقًا : كثيف النسيج خشن .
(٦) الضَّرب في الآفاق : السير في الأرض جهادًا في سبيل الله .
(٧) أضنتها : أجهدتها وأثقلتها .
(٨) الكُماة : الأبطال الشجعان .
(٩) الأُباة : جمع الأبي ، وهو العزيز الذي يأبىٰ الضيم .

صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

لَقَدْ نَهَدوا[١] مِنْ بَطْنِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[٢]، وَجَاءُوا إِلَىٰ كِسْرَىٰ وَقَوْمِهِ يَحْمِلُونَ إِلَيْهِمْ دَعْوَةَ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ...

فَإِذَا أَبَوْهَا حَمَلُوا فِي وُجُوهِهِمُ السُّيُوفَ .

* * *

عَسْكَرَ جَيْشُ الْمُسْلِمِين بِقِيادَةِ الْأَسَدِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاص عِنْدَ الْقَادِسِيَّةِ يَتَأَهَّبُ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَهْوَ لَا يَزِيدُ عَلَىٰ ثَلَاثِينَ أَلْفًا

أَمَّا جَيْشُ فَارِسَ فَقَدْ بَلَغَ عِشْرِينَ وَمِائَةَ أَلْفٍ .

وَكَانَتْ عُدَّةُ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلَةً ضَئِيلَةً ، وَكَانَتْ عُدَّةُ الْفُرْسِ تَفُوقُ الْحَصْرَ وَتَعِزُّ عَلَىٰ التَّقْدِير ...

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ الْفُرْسُ يَرْهَبُونَ الْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ الرَّهْبَةِ ، وَيَخَافُونَهُمْ أَعْظَمَ الْخَوْفِ .

وَلَا غَرْوَ[٣] فَصَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَاءُوا يُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ ، وَيَبْغُونَ الشَّهَادَةَ ؛ لَا يُبَالِي[٤] الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعُهُ .

أَمَّا جُنُودُ فَارِسَ ؛ فَقَدْ كَانُوا عَلَىٰ وَفْرَةِ الْعُدَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ ؛ لَا يَعْرِفُونَ لِأَيِّ شَيْءٍ يُحَارِبُونَ ، وَعَنْ أَيِّ شَيْءٍ يُدَافِعُونَ

---

(١) نهدوا : خرجوا .
(٢) سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاص انظره : في الكتاب الرابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٣) ولا غرو : ولا عجب .
(٤) يبالي : يهتم ويكترث .

لِذَلِكَ كَانَ قَادَتُهُمْ يُقَرِّنُونَهُمْ[١] بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَصْفَادِ[٢] حَتَّىٰ لَا يَفِرُّوا عِنْدَ الزَّحْفِ[٣] وَيُوَلُّوا[٤] الْأَدْبَارَ.

* * *

كَانَ صَاحِبُ فَارِسَ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ بَلَاهُمْ[٥] مِنْ قَبْلُ...

وَيَعْرِفُ مَا عَلَيْهِ جُنْدُهُ؛ فَقَدْ خَذَلُوهُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ.

وَمِنْ هُنَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ إِلَىٰ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ نَفَرًا مِنْ رِجَالِهِ؛ لِيُفَاوِضَهُمْ فِيمَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ الْمُسْلِمُونَ، وَلِيَقِفَ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَا يُرِيدُونَ.

* * *

اخْتَارَ سَعْدٌ عَشَرَةً مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لِلِقَاءِ عَظِيمِ الْفُرْسِ.

وَلَا تَسْأَلْ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَهُ يَخْتَارُ الْمُغِيرَةَ...

فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ أَحَدَ دُهَاةِ الْعَرَبِ الْمَعْدُودِينَ؛ حَتَّىٰ كَانَ يُقَالُ لَهُ: «مُغِيرَةَ الرَّأْيِ» وَكَانَ الشَّعْبِيُّ[٦] يَقُولُ:

دُهَاةُ الْعَرَبِ أَرْبَعَةٌ:

مُعَاوِيَةُ لِلْأَنَاةِ[٧]

(١) يقرنونهم: يربطونهم.
(٢) الأصفاد: القيود.
(٣) الزحف: مواجهة جنود العدو.
(٤) يولّون الأدبار: ينهزمون.
(٥) بلاهم: جرّبهم.
(٦) الشَّعْبِيّ: عامر بن شراحيل انظره في كتاب صور من حياة التابعين للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.
(٧) الأناة: الحِلم.

وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِلْمُعْضِلَاتِ[1]

وَالْمُغِيرَةُ لِلْبَدِيهَةِ[2]

وَزِيَادُ بْنُ أَبِيهِ لِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ .

وَلَمْ يُخْطِئْ سَعْدٌ ؛ فَقَدْ كَانَ الْمَوْقِفُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الْبَدِيهَةِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ لِأَيِّ شَيْءٍ .

* * *

مَضَىٰ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ إِلَىٰ لِقَاءِ عَظِيمِ الْفُرْسِ عَلَىٰ مَوْعِدٍ ؛ فَخَرَجَ النَّاسُ شِيبًا وَشُبَّانًا وَنِسَاءً وَوِلْدَانًا ؛ لِيَرَوا هَؤُلَاءِ الْقَادِمِينَ .

لَقَدْ سَمِعُوا مِنْ أَخْبَارِ بَأْسِهِمْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَمُسَاوَاتِهِمْ بَيْنَ رَئِيسِهِمْ وَمَرْؤُوسِهِمْ ، وَإِيمَانِهِمْ بِرِسَالَتِهِمْ ... مَا أَغْرَاهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ لِيَنْظُرُوا مَا يَكُونُونَ .

فَلَمَّا رَأَوْهُمْ ... أَخَذَ مِنْهُمُ الْعَجَبُ كُلَّ مَأْخَذٍ ؛ لَقَدْ لَفَتَ أَنْظَارَهُمْ أَجْسَامُهُمُ الدَّقِيقَةُ ، وَأَرْدِيَتُهُمُ الصَّفِيقَةُ ، وَنِعَالُهُمُ الْبَسِيطَةُ ...

وَخُيُولُهُمُ الضَّعِيفَةُ الَّتِي تَخْبِطُ الْأَرْضَ بِأَرْجُلِهَا خَبْطًا ، وَسِيَاطُهُمُ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ ، وَسُيُوفُهُمْ ، وَتُرُوسُهُمْ .

وَلَمَّا اسْتَأْذَنُوا عَلَىٰ عَظِيمِ الْفُرْسِ ؛ وَجَدُوهُ قَدْ زُيِّنَ مَجْلِسُهُ بِالنَّمَارِقِ[3] الْمُذَهَّبَةِ ، وَجُمِّلَ بِالطَّنَافِسِ[4] الْمُزَرْكَشَةِ ، وَأُظْهِرَتْ فِيهِ الْيَوَاقِيتُ الثَّمِينَةُ وَاللَّآلِئُ الْفَرِيدَةُ ، وَمُخْتَلِفُ ضُرُوبِ الزِّينَةِ وَالْمَتَاعِ ...

---

(١) الْمعضلات : المشكلات .

(٢) الْبديهة : سرعة الفهم والإجابة من غير جهد وفكر .

(٣) النّمارق : الوسائد والمتكآت وهو جمع مفرده نمرقة .

(٤) الطّنافس : مفردها طنفسة ، وهي البساط الذي له أهداب رقيقة .

أَمَّا هُوَ ؛ فَقَدْ جَلَسَ عَلَىٰ سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ

وَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ ؛ قَالَ لَهُمُ الْحُجَّابُ :

ضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ لَدَىٰ الْبَابِ .

فَقَالُوا إِنَّنَا لَمْ نَأْتِكُمْ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونَا فَإِمَّا أَنْ تَتْرُكُونَا عَلَىٰ مَا جِئْنَا عَلَيْهِ ، وَإِلَّا رَجَعْنَا

فَأُذِنَ لَهُمْ ... فَدَخَلُوا عَلَىٰ مَا يُحِبُّونَ .

* * *

وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَجْلِسُ ؛ حَتَّىٰ أَخَذَ مَلِكُ فَارِسَ يُعَرِّضُ(١) بِفَقْرِهِمْ ...

فَسَأَلَهُمْ عَنْ مَلَابِسِهِمْ مَا اسْمُهَا ؟

وَعَنْ أَرْدِيَتِهِمْ مَا ثَمَنُهَا ؟

وَعَنْ نِعَالِهِمْ مَا صِنْعُهَا ؟

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ هَٰذِهِ الْبِلَادَ ؟

فَنَهَضَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ ، وَقَالَ :

إِنَّ اللَّهَ ابْتَعَثَنَا ؛ لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَىٰ سَعَتِهَا ، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَىٰ عَدَالَةِ الْإِسْلَامِ ؛ فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ ...

فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ ؛ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ ، وَمَنْ أَبَىٰ ... قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّىٰ نُفْضِيَ(٢) إِلَىٰ مَوْعُودِ اللَّهِ .

---

(١) يُعَرِّض بفقرهم : يعيبهم بفقرهم ، والتعريض : كلام دون التصريح .

(٢) نفضي : ننتهي .

قَالَ وَمَا مَوْعُودُ اللَّه ؟

قَالَ الْجَنَّةُ لِمَنْ قُتِلَ ، وَالظَّفَرُ لِمَنْ سَلِمَ .

فَقَالَ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ ؛ فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَٰذَا الْأَمْرَ حَتَّىٰ نَنْظُرَ فِيهِ ، وَتَنْظُرُوا ؟

قَالَ : نَعَمْ ؛ كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ ؟ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ؟

قَالَ لَا بَلْ حَتَّىٰ نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا .

فَقَالَ مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ ؛ فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِ قَوْمِكَ وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ .

قَالَ : وَمَا هَٰذِهِ الثَّلَاثُ ؟

قَالَ : لَقَدْ أَمَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ أَنْ نَبْدَأَ بِدَعْوَةِ مَنْ يُجَاوِرُنَا مِنَ الْأُمَمِ ، وَأَنْ نَسْلُكَ مَعَهُمْ سَبِيلَ الْإِنْصَافِ ...

فَإِمَّا أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِنَا الَّذِي حَسَّنَ الْحَسَنَ كُلَّهُ وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ ...

وَإِمَّا أَنْ يَخْتَارُوا أَهْوَنَ الْأَمْرَيْنِ وَهُوَ الْجِزْيَةُ(١)؛ فَإِنْ أَبَوْا لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْحَرْبُ وَالْمُنَاجَزَةُ(٢).

فَاسْتَشَاطَ(٣) عَظِيمُ الْفُرْسِ غَضَبًا ، وَقَالَ :

إِنِّي لَا أَعْلَمُ أُمَّةً فِي الْأَرْضِ كَانَتْ أَشْقَىٰ مِنْكُمْ ، وَلَا أَقَلَّ عَدَدًا ، وَلَا أَسْوَأَ ذَاتِ بَيْنٍ(٤)

(١) الْجزية : ما يفرضه المسلمون علىٰ أهل الذمة من المال لقاء حمايتهم .
(٢) الْمنَاجزة : المبارزة والمقاتلة .
(٣) استشَاط : اشتعل .
(٤) أَسْوَأَ ذَاتِ بَيْنٍ : أكثر اختلافًا وعداءً فيما بينهم .

وَقَدْ كُنَّا نُوكِلُ أَمْرَكُمْ إِلَىٰ قُرَىٰ الضَّوَاحِي ؛ لِيَكْبِتُوكُمْ(١)

وَمَا كُنَّا نَغْزُوكُمْ اسْتِصْغَارًا لِشَأْنِكُمْ ...

فَإِنْ كَانَ عَدَدُكُمْ كَثُرَ ؛ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْكَثْرَةُ ...

وَإِنْ كَانَ ضِيقُ الْعَيْشِ هُوَ الَّذِي أَهَاجَكُمْ ؛ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوتًا إِلَىٰ أَنْ تَخْصِبُوا ، وَأَكْرَمْنَا سَادَتَكُمْ ، وَمَلَّكْنَا عَلَيْكُمْ مَلِكًا يَرْفُقُ بِكُمْ .

ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ :

إِنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي دُخُولِكُمْ أَرْضَنَا ؛ كَمَثَلِ الذُّبَابِ رَأَىٰ عَسَلًا ؛ فَقَالَ مَنْ يُوصِلُنِي إِلَيْهِ وَلَهُ دِرْهَمَانِ ؛ فَلَمَّا سَقَطَ عَلَيْهِ غَرِقَ فِيهِ ... فَجَعَلَ يَطْلُبُ الْخَلَاصَ ؛ فَلَا يَجِدُهُ ، وَجَعَلَ يَقُولُ مَنْ يُخَلِّصُنِي وَلَهُ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ .

ثُمَّ اسْتَشَاطَ غَضَبًا ، وَقَالَ

أُقْسِمُ بِالشَّمْسِ لَأَقْتُلَنَّكُمْ غَدًا .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقَالَ

أَيُّهَا الْمَلِكُ ... إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَلَّمُوكَ أَشْرَافٌ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الْأَشْرَافِ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْكَ قَالُوهُ لَكَ ، وَقَدْ أَحْسَنُوا ...

وَلَا يَجْدُرُ بِمِثْلِهِمْ إِلَّا مَا فَعَلُوهُ .

فَإِنْ شِئْتَ بَلَّغْتُكَ عَنْهُمْ وَهُمْ يَشْهَدُونَ .

إِنَّكَ قَدْ وَصَفْتَنَا بِمَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ ؛ فَجَاءَ وَصْفُكَ دُونَ الْحَقِيقَةِ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَالِمًا بِنَا

(١) ليكبتوكم : ليصرفوكم ويذلوكم .

وَأَمَّا جُوعُنَا الَّذِي ذَكَرْتَهُ ؛ فَلَمْ يَكُنْ يُشْبِهُهُ جُوعٌ ... فَقَدْ كُنَّا نَأْكُلُ الْخَنَافِسَ وَالْجِعْلَانَ وَالْعَقَارِبَ وَالْحَيَّاتِ ، وَنَرَىٰ ذَلِكَ طَعَامًا مُسْتَسَاغًا[1]

وَأَمَّا مَنَازِلُنَا ؛ فَإِنَّمَا هِيَ ظَهْرُ الأَرْضِ ، وَلَا نَلْبَسُ إِلَّا مَا غَزَلْنَا مِنْ أَوْبَارِ الْإِبِلِ وَأَشْعَارِ الْغَنَمِ .

كَانَ دِينُنَا أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَأَنْ يَبْغِيَ[2] بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ... وَقَدْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنَّا يَدْفِنُ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طَعَامِهِ .

وَكُنَّا نَعْبُدُ الْحِجَارَةَ ؛ فَإِذَا رَأَيْنَا حَجَرًا أَحْسَنَ مِنَ الَّذِي نَعْبُدُهُ ؛ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا غَيْرَهُ .

لَقَدْ كَانَتْ حَالُنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتُ لَكَ ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلًا مِنَّا مَعْرُوفًا لَدَيْنَا

فَأَرْضُهُ خَيْرُ أَرْضِنَا ، وَحَسَبُهُ خَيْرُ حَسَبِنَا ، وَبَيْتُهُ خَيْرُ بُيُوتِنَا ، وَهُوَ نَفْسُهُ أَصْدَقُنَا وَأَحْلَمُنَا

فَدَعَانَا إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَقَالَ وَقُلْنَا ، وَصَدَّقَ وَكَذَّبْنَا ، وَزَادَ وَنَقَصْنَا

فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ؛ إِلَّا وَكَانَ ...

فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا التَّصْدِيقَ لَهُ وَاتِّبَاعَهُ ؛ فَصَارَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...

فَمَا قَالَ لَنَا ؛ فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ... وَمَا أَمَرَنَا بِهِ ؛ فَهُوَ أَمْرُ اللَّهِ .

---

(١) مستساغًا مقبولاً

(٢) يبغي : يعتدي ويظلم .

وَقَالَ لَنَا مَنْ تَابَعَكُمْ عَلَىٰ هَٰذَا الدِّينِ ؛ فَلَهُ مَا لَكُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ ...

وَمَنْ أَبَىٰ ؛ فَاعْرِضُوا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ ، ثُمَّ احْمُوهُ مِمَّا تَحْمُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَمَنْ أَبَىٰ ؛ فَقَاتِلُوهُ ...

فَاخْتَرْ إِنْ شِئْتَ الْجِزْيَةَ ؛ تَدْفَعُهَا وَأَنْتَ صَاغِرٌ[1]، وَإِنْ شِئْتَ ؛ فَالسَّيْفُ ...

أَوْ تُسْلِمُ ؛ فَتُنْجِيَ نَفْسَكَ وَعَشِيرَتَكَ .

فَغَضِبَ الْمَلِكُ وَقَالَ :

لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ ...

ثُمَّ قَالَ لِحُجَّابِهِ :

ائْتُونِي بِحِمْلٍ مِنْ تُرَابٍ ؛ فَاحْمِلُوهُ عَلَىٰ أَشْرَفِ هَؤُلَاءِ ... ثُمَّ سُوقُوهُ كَمَا تُسَاقُ الدَّوَابُّ ؛ حَتَّىٰ يَخْرُجَ بَعِيدًا عَنْ بُيُوتِ الْمَدَائِنِ .

ثُمَّ قَالَ مَنْ أَشْرَفُكُمْ ؟

فَقَامَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو وَقَالَ : أَنَا ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَحْمِلَ التُّرَابَ ؛ فَحَمَلُوهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :

ارْجِعُوا إِلَىٰ صَاحِبِكُمْ ؛ فَأَعْلِمُوهُ أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ غَدًا رُسْتُمَ ؛ لِيَدْفِنَهُ مَعَ جُنْدِهِ فِي خَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ .

* * *

(١) صاغر ذليل.

وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَاتٌ مَعْدُودَاتٌ حَتَّىٰ طَلَعَ الْغَدُ ...

لَكِنَّ شَمْسَ ذَلِكَ الْغَدِ لَمْ تَغْرُبْ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَأَىٰ جُنُودُ الْفُرْسِ الْمُنْهَزِمُونَ رَأْسَ رُسْتُمَ مَحْمُولًا عَلَىٰ رِمَاحِ الْمُسْلِمِينَ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ انظر :
١ - الإصابة : ٣/٤٥٢ أو « الترجمة » ٨١٧٩.
٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٣/٣٨٨.
٣ - أسد الغابة : ٥/٢٤٧.
٤ - سيرة ابن هشام : ١/٣١٣ وانظر الفهارس .
٥ - سير أعلام النبلاء : ٣/٢١.
٦ - البداية والنهاية : ٧/٣٧ - ٤٣، ٨/٤٨.
٧ - الطبري : ٥/٢٣٤
٨ - تهذيب التهذيب : ١٠/٢٦٢.

مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْـجَمُوحِ
وَأَخُوهُ مُعَوِّذٌ

« مَا سَرَّنِـي أَنَّنِـي كُنْتُ وَاقِفًا بَيْنَ رَجُلَيْنِ غَيْرِهِمَا كَائِنًا مَنْ كَانَا ؛ غَيْرَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ »

[عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ]

بَيْنَمَا كَانَ الْفَتَىٰ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَتْرَابِهِ(١) يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالظِّلَالِ وَالْخُضْرَةِ ؛ طَلَعَ عَلَيْهِمُ الدَّاعِيَةُ الْمَكِّيُّ الشَّابُّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ(٢) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَحَيَّاهُمْ فِي رِقَّةٍ وَأُنْسٍ ، وَخَاطَبَهُمْ فِي حُبٍّ وَوِدَادٍ وَقَالَ

أَلَا تَجْلِسُونَ إِلَيَّ سَاعَةً ؛ فَأُحَدِّثَكُمْ بِمَا عِنْدِي ...

فَإِنْ سَرَّكُمْ مَا تَسْمَعُونَ ؛ أَتْمَمْتُ ...

وَإِنْ أَضْجَرَكُمْ ؛ أَمْسَكْتُ .

فَنَظَرَ الْفِتْيَةُ الْأَيْفَاعُ(٣) بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ نَظَرَاتٍ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الرِّضَىٰ وَالِاطْمِئْنَانِ ، وَقَالُوا : بَلَىٰ .

ثُمَّ انْتَظَمُوا حَوْلَهُ كَمَا تَنْتَظِمُ حَبَّاتُ الْعِقْدِ الْأَنِيقِ حَوْلَ الْجِيدِ الْأَبْلَجِ(٤). فَاتَّجَهَ مُصْعَبٌ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ الطَّلْقِ(٥) الْمَأْنُوسِ ...

---

(١) الأتراب : مفردها ترب ، وتربك : صديقك أو من ولد معك أو كان في سنك .
(٢) مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْر : انظره ص ٣٨٩.
(٣) اليفاعة : أوائل الصبا
(٤) الأبلج : المشرق الوضاء .
(٥) الطّلق : المشرق المستبشر .

وَخَاطَبَهُمْ بِبَيَانِهِ الْعَذْبِ الْمُشْرِقِ

وَطَفِقَ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مَزَايَا الْإِسْلَامِ ...

وَيُزَيِّنُ فِي قُلُوبِهِمْ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ...

وَيُكَرِّهُ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَعِبَادَةَ الْأَوْثَانِ .

فَمَا كَادَ يُتِمُّ كَلَامَهُ ؛ حَتَّىٰ تَأَلَّقَ وَجْهُ مُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ بِنُورِ الْإِيمَانِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

كَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا أَرَدْتُ الدُّخُولَ فِي هَٰذَا الدِّينِ ؟

فَقَالَ : تَقُومُ إِلَىٰ هَٰذِهِ الْبِئْرِ ؛ فَتَتَطَهَّرُ بِمَائِهَا

ثُمَّ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَخَاتَمُ أَنْبِيَائِهِ .

ثُمَّ تُوَجِّهُ وَجْهَكَ لِلَّذِي فَطَرَ[١] السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَتُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ...

فَقَالَ مُعَاذٌ : كَأَنَّ أَوَّلَ هَٰذَا الدِّينِ طَهَارَةٌ لِلْبَدَنِ بِالْوُضُوءِ ...

وَنِهَايَتَهُ طَهَارَةٌ لِلرُّوحِ بِالصَّلَاةِ .

فَتَبَسَّمَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ إِعْجَابًا بِهِ وَقَالَ :

مَا أَسْرَعَ مَا فَقِهْتَ[٢] يَا مُعَاذُ .

ثُمَّ قَامَ مُعَاذٌ إِلَىٰ الْمَاءِ فَتَطَهَّرَ ، وَشَهِدَ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ...

فَمَا إِنْ رَآهُ أَخَوَاهُ مُعَوِّذٌ وَخَلَّادٌ حَتَّىٰ أَسْلَمَا بِإِسْلَامِهِ ، وَفَعَلَا فِعْلَهُ ، وَدَخَلَا فِي دِينِ اللَّهِ مَعَهُ .

* * *

(١) فطر : خلق وأنشأ.

(٢) الفقه : الفهم والوعي بما يلقىٰ عليك.

كَانَ وَالِدُ مُعَاذٍ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ[١] - إِذْ ذَاكَ - شَيْخًا كَبِيرًا طَاعِنًا[٢] فِي السِّنِّ.

وَكَانَ لَهُ صَنَمٌ يُدْعَىٰ « مَنَاةَ » اتَّخَذَهُ مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الرُّوَاءِ وَالْبَهَاءِ[٣]

وَنَافَسَ فِيهِ أَمْثَالَهُ مِنَ الْأَشْرَافِ.

وَنَذَرَ نَفْسَهُ لِسِدَانَتِهِ[٤]

فَكَانَ يَغْدُو عَلَيْهِ إِذَا أَصْبَحَ ، وَيَرُوحُ إِلَيْهِ إِذَا أَمْسَىٰ.

وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يُضَمِّخُهُ[٥] بِأَطْيَبِ الطُّيُوبِ.

وَيُقَرِّبُ لَهُ أَعَزَّ الْقَرَابِينِ[٦]

فَوَجَدَ مُعَاذٌ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِسْلَامِ أَبِيهِ مَا لَمْ يَنْتَزِعْ هَٰذَا الصَّنَمَ مِنْ حَيَاتِهِ.

وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاهُ الشَّيْخَ لَا يُطِيقُ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَةً فِي صَنَمِهِ تَسُوءُهُ ، وَأَنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْهُ ؛ بَعْدَ هَٰذِهِ الصُّحْبَةِ الطَّوِيلَةِ ؛ لِلَوْمِ اللَّائِمِينَ ...

أَوْ حِجَاجِ الْمُحَاجِّينَ.

فَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَسْلُكَ لِغَايَتِهِ طَرِيقًا آخَرَ غَيْرَ طَرِيقِ الْإِقْنَاعِ ؛ مُسْتَعِينًا بِإِخْوَتِهِ وَأَتْرَابِهِ.

* * *

(١) عَمْرو بْنِ الْجَمُوح : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف.
(٢) طَاعِنًا فِي السّن : متقدمًا في السن.
(٣) الرّوَاء وَالْبهَاء : الجمال والحسن.
(٤) سدَانة : خدمة.
(٥) يضمّخه : يدهنه.
(٦) الْقرَابين : جمع قربان ؛ وهي كل ما يُتقرب به إلىٰ الله.

فَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ ؛ عَمَدَ هُوَ وَأَخَوَاهُ مُعَوِّذٌ وَخَلَّادٌ وَأَتْرَابٌ لَهُمْ مِنْ غِلْمَانِ بَنِي سَلَمَةَ إِلَىٰ « مَنَاةَ » ؛ فَانْتَزَعُوهُ مِنْ مَكَانِهِ فِي هُدُوءٍ .

وَمَضَوْا بِهِ إِلَىٰ حُفْرَةٍ خَلْفَ الْبُيُوتِ ؛ تُرْمَىٰ فِيهَا الْأَقْذَارُ .

وَطَرَحُوهُ فِي أَعْمَاقِهَا أَرْضًا ، وَعَادُوا أَدْرَاجَهُمْ[(١)]

ثُمَّ نَامُوا مَعَ النَّائِمِينَ ؛ وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَقَعْ ...

فَلَمَّا أَصْبَحَ الشَّيْخُ مَضَىٰ - عَلَىٰ عَادَتِهِ - إِلَىٰ صَنَمِهِ ؛ فَلَمْ يَجِدْهُ .

فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا[(٢)]، وَطَفِقَ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَىٰ أَنْ وَجَدَهُ ؛ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي الْحُفْرَةِ ...

فَاسْتَخْرَجَهُ مِنْهَا وَغَسَلَهُ بِالْمَاءِ الطَّهُورِ ، وَطَيَّبَهُ بِأَغْلَىٰ الطِّيبِ ، وَبَوَّأَهُ[(٣)] مَكَانَهُ الَّذِي كَانَ فِيهِ .

* * *

وَكَرَّرَ مُعَاذٌ وَصَحْبُهُ صَنِيعَهُمْ بِالصَّنَمِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ ، وَدَأَبَ الشَّيْخُ عَلَىٰ إِخْرَاجِهِ مِنَ الْحُفْرَةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَغَسْلِهِ وَتَطْيِيبِهِ .

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ أَدْرَكَهُ الْمَلَلُ ؛ فَرَاحَ إِلَىٰ الصَّنَمِ قَبْلَ مَنَامِهِ ، وَأَخَذَ سَيْفًا مَسْنُونًا وَعَلَّقَهُ بِرَقَبَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

يَا « مَنَاةُ » ؛ إِنْ كُنْتَ إِلَهًا حَقًّا ؛ فَادْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْغُونَ[(٤)]

---

(١) عادوا أدراجهم : رجعوا من حيث أتوا .
(٢) فاستشاط غضبًا اشتعل غضبًا .
(٣) بوّأه : أحلّه .
(٤) يبغون عليك يعتدون عليك .

عَلَيْكَ ، وَيُسِيئُونَ إِلَيْكَ .

وَهَـٰذَا السَّيْفُ مَعَكَ ؛ فَافْعَلْ بِهِ مَا تَشَاءُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ ؛ وَجَدَ صَنَمَهُ فِي الْحُفْرَةِ نَفْسِهَا ، وَقَدْ قُرِنَ إِلَىٰ كَلْبٍ مَيِّتٍ .

فَلَمْ يُخْرِجْهُ هَـٰذِهِ الْمَرَّةَ مِنْ مَكَانِهِ .

وَإِنَّمَا تَرَكَهُ حَيْثُ هُوَ ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...

* * *

طَابَ مُعَاذٌ وَأَخَوَاهُ بِإِسْلَامِ أَبِيهِمْ نَفْسًا ، وَقَرُّوا[١] بِإِيمَانِهِ عَيْنًا ...

فَقَدْ تَحَوَّلَ الْبَيْتُ الْمُؤْمِنُ إِلَىٰ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاقِلِ[٢] الْإِسْلَامِ فِي يَثْرِبَ ؛ بَعْدَ أَنْ دَانَ كُلُّ مَنْ فِيهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ .

وَاسْتَضَاءَ جَمِيعُ سُكَّانِهِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ إِسْلَامِ مُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو ؛ حَتَّىٰ قَدِمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرًا

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مُعَاذٌ وَإِخْوَتُهُ إِقْبَالَ الظَّامِئِ عَلَىٰ الْمَاءِ الْبَرُودِ .

وَتَعَلَّقُوا بِهِ تَعَلُّقَ الْأُمِّ بِوَحِيدِهَا

وَلَازَمُوهُ مُلَازَمَةَ الْمُحِبِّ لِحَبِيبِهِ .

فَكَانُوا يَغْدُونَ مَعَهُ إِذَا غَدَا ...

وَيَرُوحُونَ مَعَهُ إِذَا رَاحَ ...

---

(١) قرّوا بِهِ عينًا : أي فرحوا واستبشروا .
(٢) المعَاقل : الحصون .

وَيُصَلُّونَ خَلْفَهُ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ .

وَيَشْهَدُونَ مَوْعِظَتَهُ وَهَدْيَهُ إِذَا جَلَسَ يَعِظُ أَصْحَابَهُ ، وَيُفَقِّهُهُمْ بِدِينِ اللَّهِ ...

حَتَّىٰ غَدَا مُعَاذٌ وَإِخْوَتُهُ ؛ رَيْحَانَةً مِنْ رَيَاحِينِ فِتْيَانِ يَثْرِبَ .

وَقُرَّةَ عَيْنِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ .

* * *

ثُمَّ مَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَىٰ الْفِتْيَةِ الصِّغَارِ الْأَبْرَارِ سِرَاعًا خِفَافًا ...

وَوَقَعَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ الْعُظْمَىٰ ...

فَكَانَ لِمُعَاذٍ وَأَخِيهِ مُعَوِّذٍ فِيهَا مَوْقِفٌ مَشْهُودٌ مَشْهُورٌ ؛ دَوَّنَهُ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ فِي أَنْصَعِ صَفَحَاتِهِ بِأَحْرُفٍ مِنْ نُورٍ .

فَلْنُلْقِ السَّمْعَ إِلَىٰ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ[(١)] رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَلْنَسْتَمِعْ إِلَىٰ طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِهِ عَنْهُمَا ...

فَلَقَدْ رَأَىٰ مِنْهُمَا مَا أَثَارَ دَهْشَتَهُ وَإِعْجَابَهُ ...

* * *

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ

بَيْنَا كُنْتُ وَاقِفًا يَوْمَ بَدْرٍ بِالصَّفِّ ؛ نَظَرْتُ حَوْلِي ... فَإِذَا عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي ؛ غُلَامَانِ صَغِيرَا السِّنِّ مِنْ غِلْمَانِ الْأَنْصَارِ .

فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا

---

(١) عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْف : انظره في الكتاب الرابع من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف .

فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ أَتَغْمِزُنِي أَنَا يَا بُنَيَّ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ وَمَا تُرِيدُ ؟

فَقَالَ أَتَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ[1] يَا عَمِّ ؟

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ دُلَّنِي عَلَيْهِ .

فَقُلْتُ وَمَا حَاجَتُكَ بِهِ يَا ابْنَ أَخِي ؟!

فَقَالَ : أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيَأْتَمِرُ بِقَتْلِهِ ...

وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَأُهَاجِمَنَّهُ ، ثُمَّ لَا أَكُفُّ عَنْهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ الْأَسْبَقُ مِنَّا أَجَلًا

فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ مُبْتَسِمًا مُتَعَجِّبًا ، وَقُلْتُ مَنْ أَنْتَ ؟!

فَقَالَ : مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ .

ثُمَّ اعْتَدَلْتُ فِي الصَّفِّ ؛ فَدَنَا مِنِّي الْآخَرُ وَغَمَزَنِي .

فَمِلْتُ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ لِي نَحْوًا مِنْ مَقَالَةِ صَاحِبِهِ .

فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟! .

فَقَالَ : مُعَوِّذُ بْنُ عَمْرٍو .

فَقُلْتُ وَمَنْ هَٰذَا الْوَاقِفُ عَنْ يَمِينِي ؟

فَقَالَ : هُوَ أَخِي مُعَاذٌ .

(١) أَبو جَهْل: انظر مصرعه في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.

فَمَا سَرَّنِي أَنَّنِي كُنْتُ وَاقِفًا بَيْنَ رَجُلَيْنِ غَيْرِهِمَا كَائِنًا مَنْ كَانَا ؛ غَيْرَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَبَا جَهْلٍ يَجُولُ فِي قُرَيْشٍ .

فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِمَا وَقُلْتُ : يَا ابْنَيْ أَخِي ...

أَلَا تَرَيَانِ هَٰذَا الَّذِي يَجُولُ فِي النَّاسِ ؟

قَالَا بَلَىٰ .

قُلْتُ : هَٰذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ .

* * *

قَالَ مُعَاذٌ :

فَمَا إِنْ عَرَفْتُ أَبَا جَهْلٍ ، وَتَبَيَّنْتُ مِنْهُ ؛ حَتَّىٰ قَصَدْتُ جِهَتَهُ .

وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَلْتَفُّونَ حَوْلَهُ ؛ كَأَنَّهُ فِي غَابَةٍ مِنَ الرِّجَالِ ...

فَقَالَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ يَرْمُقُنِي(١):

إِيَّاكَ وَأَبَا جَهْلٍ يَا غُلَامُ ...

فَإِنَّ الْوُصُولَ إِلَيْهِ مَطْلَبٌ عَسِيرٌ عَلَيْكَ ...

فَوَاللَّهِ مَا زَادَتْنِي مَقَالَتُهُ إِلَّا إِصْرَارًا وَعَزْمًا

ثُمَّ انْدَفَعْتُ نَحْوَهُ ؛ فَلَمَّا تَمَكَّنْتُ مِنْهُ ... وَثَبْتُ عَلَيْهِ وَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً أَهْوَتْ بِسَاقِهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ . وَكَانَ أَخِي مُعَوِّذٌ يَتْبَعُنِي .

فَلَمَّا غَدَا فَوْقَ أَبِي جَهْلٍ ؛ أَكَبَّ عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ ، وَطَفِقَ يُعْمِلُهُ فِيهِ .

---

(١) يرمقني : ينظر إلي .

وَرِمَاحُ الْمُشْرِكِينَ تَدْفَعُهُ عَنْهُ ، وَتَنُوشُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّىٰ أَثْخَنَتْهُ[1] الْجِرَاحُ ؛ فَسَقَطَ شَهِيدًا إِلَىٰ جَانِبِهِ .

أَمَّا أَنَا ؛ فَقَدْ أَهْوَىٰ ابْنُهُ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ[2] عَلَىٰ كَتِفِي بِسَيْفِهِ ؛ فَطَرَحَ يَدِي الْيُسْرَىٰ عَنْ عَاتِقِي ...

لَكِنَّهَا بَقِيَتْ مُعَلَّقَةً بِجِلْدَةٍ فِي جَنْبِي .

فَمَضَيْتُ أُقَاتِلُ سَحَابَةَ النَّهَارِ كُلِّهِ ، وَأَنَا أَجُرُّهَا خَلْفِي جَرًّا .

فَلَمَّا آذَتْنِي ، وَصَارَتْ تَعُوقُنِي عَنِ الْقِتَالِ ...

جَعَلْتُ كَفَّهَا عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَوَضَعْتُ قَدَمِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ مَا زِلْتُ أَتَمَطَّىٰ حَتَّىٰ فَصَلْتُهَا عَنْ جَسَدِي ... وَطَرَحْتُهَا أَرْضًا

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ[3] الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا ؛ جَاءَ الْمُبَشِّرُ يُبَشِّرُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَصْرَعِ أَبِي جَهْلٍ ... فَقَالَ لِلْمُبَشِّرِ

(آللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ تَمَّ ذَلِكَ) ؟

فَقَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ ...

فَقَالَ : (اللَّهُ أَكْبَرُ ... اللَّهُ أَكْبَرُ ...

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ) .

* * *

وَبَعْدُ ...

---

(١) أثخنته الجراح : أضعفته وأوْهَنَت قواه .

(٢) عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْل : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) وَضعت المعركة أوزارها توقفت وهدأت .

فَلَقَدْ ظَلَّ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ يُنَاضِلُ عَنْ حِيَاضِ الْإِسْلَامِ بِيَدٍ وَاحِدَةٍ زَمَنَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَزَمَنَ صَاحِبَيْهِ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

وَفِي خِلَافَةِ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ[1]؛ لَبَّىٰ مُعَاذٌ نِدَاءَ رَبِّهِ ...

وَقَدْ مَضَتْ يُمْنَاهُ مَعَهُ

أَمَّا يَدُهُ الْأُخْرَىٰ ...

فَكَانَ يَرْجُو أَنْ تَسْبِقَهُ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (*).

---

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّان: انظره في الكتاب الثامن من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

(*) للاستزادة من أخبار مُعَاذ بن عَمْرو بن الْجَمُوح وأخيه انظر
١ - الإصابة: ٣/٤٢٩ أو «الترجمة» ٨٠٥١ معاذ.
٢ - الإستيعاب بهامش الإصابة: ٣/٣٦١ معاذ.
٣ - الإصابة: ٣/٤٥٠ أو «الترجمة» ٨١٦٣ معوذ.
٤ الإستيعاب بهامش الإصابة: ٣/٤٤٥ معوذ.
٥ - الأعلام ٨/١٦٧
٦ - ابن هشام ٢/١٠٦، ٢٨٧ وانظر الفهارس.
٧ - فتح الباري ٧/٢٩٥، ٣٢٧.

مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ

«أَوَّلُ مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ»

لَمَّا صَدَعَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ ؛ أَقْبَلَ عَلَيْهِ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صُدُورَهُمْ لِلْإِيمَانِ ...

وَصَدَّ عَنْهُ مَنْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ الْكُفْرَ وَالْعِصْيَانَ

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الَّذِينَ شَرَحَ اللَّهُ صُدُورَهُمْ لِدِينِهِ الْقَوِيمِ ، وَهَدَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ؛ فَتًى مَوْفُورُ[١] الشَّبَابِ ؛ مَشْدُودُ الْإِهَابِ[٢]

وَسِيمُ الطَّلْعَةِ ؛ رَقِيقُ الْحَاشِيَةِ[٣] وَافِرُ النِّعْمَةِ ؛ مُتْرَفُ الْعَيْشِ

يُدْعَىٰ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ

* * *

فَلَقَدْ مَضَىٰ الْفَتَىٰ النَّضِيرُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَىٰ دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ[٤]، وَقَدْ فَاحَ الطِّيبُ مِنْ أَرْدَانِهِ[٥]، وَبَدَتِ النِّعْمَةُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ...

وَنَمَّتْ[٦] حُلَّتُهُ الثَّمِينَةُ عَلَىٰ الثَّرَاءِ الْعَرِيضِ الَّذِي كَانَ يَتَقَلَّبُ فِي أَكْنَافِهِ .

* * *

---

(١) موفور الشباب : مكتمل الشباب .

(٢) الإهاب : البشرة والجلد .

(٣) رقيق الحاشية : لطيف الصحبة .

(٤) الأرقم بن أبي الأرقم : صحابي جليل من أوائل من أسلم ، وكانت داره مقرًا لدعوة الرسول ﷺ ؛ شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ وقد استعمله علىٰ الصدقات .

(٥) أَرْدَانِه : أكمامه وملابسه .

(٦) نمّت : دَلَّتْ وَأَظْهَرَتْ

طَرَقَ الْفَتَىٰ الوَادِعُ[١] النَّاعِمُ الْبَابَ طَرْقًا خَفِيفًا ؛ فَفُتِحَ لَهُ ...

فَدَخَلَ إِلَىٰ الدَّارِ عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ ، وَحَيَّا الْقَوْمَ بِأُنْسٍ وَوَدَاعَةٍ ، ثُمَّ جَلَسَ حَيْثُ انْتَهَىٰ بِهِ الْمَجْلِسُ ...

فَتَعَلَّقَتْ بِهِ أَبْصَارُ الْقَوْمِ وَهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ عُيُونَهُمْ ...

فَلَكَمْ تَمَنَّوْا أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ هَٰذَا الْفَتَىٰ وَأَمْثَالَهُ إِلَىٰ مَا هَدَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُجَنِّبَ هَٰذَا الشَّابَّ النَّضِيرَ عَذَابَ الْقَبْرِ ، وَأَنْ يَقِيَهُ فَيْحَ[٢] جَهَنَّمَ .

* * *

انْطَلَقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُنْذِرُ وَيُبَشِّرُ ؛ فَإِذَا أَنْذَرَ انْخَلَعَتْ قُلُوبُ أَصْحَابِهِ مِنْ هَوْلِ النَّارِ وَسَعِيرِهَا

وَإِذَا بَشَّرَ طَارَتْ أَفْئِدَتُهُمْ فَرَحًا بِالْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا .

وَكَانَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ يَتْلُو بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ ؛ شَيْئًا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ ... فَتَسْعَدُ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَتَطْمَئِنُّ لَهَا نُفُوسُهُمْ ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ الْفَوْزَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ والنَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ .

وَمَا إِنْ فَرَغَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مِنْ مَوْعِظَتِهِ ؛ حَتَّىٰ نَهَضَ إِلَيْهِ الْفَتَىٰ الْقُرَشِيُّ فِي أَنَاةٍ ، وَدَنَا مِنْهُ فِي رِفْقٍ وَهُوَ يَقُولُ :

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...

ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَايَعَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ .

* * *

---

(١) الْوَادِعُ : الْهَادِئُ السَّاكِنُ .

(٢) فَيْحُ جَهَنَّمَ : شِدَّةُ حَرِّها وفورانها .

كَتَمَ الْفَتَىٰ خَبَرَ إِسْلَامِهِ عَنِ النَّاسِ ؛ فَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَفْجَعَ أُمَّهُ الْمَشْغُوفَةَ[1] بِهِ بِنَبَإِ تَرْكِهِ لِدِينِهَا ؛ لِمَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ عِنَادِهَا ، وَمَدَىٰ إِصْرَارِهَا عَلَىٰ الْكُفْرِ ...

وَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ تَقِفَ قُرَيْشٌ عَلَىٰ أَمْرِ إِسْلَامِهِ ؛ لِمَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ عَزْمِهَا عَلَىٰ الْبَطْشِ بِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِنَبْذِ آلِهَتِهَا ، وَخَاصَّةً حِينَ يَكُونُ فَتًى مِثْلَهُ يَقَعُ فِي الذُّرْوَةِ[2] مِنْهَا ، وَيَنْتَمِي إِلَىٰ أَكَابِرِ مُتْرَفِيهَا .

* * *

وَقَدْ ظَلَّ الْفَتَىٰ يَخْتَلِفُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ سِرًّا ؛ فَيَسْعَدُ بِلِقَائِهِ ، وَيَتَمَلَّىٰ مِنْ مَوَاعِظِهِ ...

حَتَّىٰ رَآهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ يُصَلِّي ذَاتَ يَوْمٍ ؛ فَأَذَاعَ خَبَرَهُ بَيْنَ النَّاسِ .

* * *

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ بَدَأَتْ مِحْنَةُ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ...

فَلَقَدْ تَنَكَّرَ لَهُ أَبَوَاهُ بَعْدَ أَنْ عَجَزَا عَنْ رَدِّهِ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ؛ فَقَطَعَا رِفْدَهُمَا[3] عَنْهُ ؛ حَتَّىٰ غَدَا أَشَدَّ فَقْرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ ، وَأَعْنَفَ بُؤْسًا مِنَ الْبُؤَسَاءِ ...

وَقُرَيْشٌ تَصَدَّتْ لَهُ ؛ فَسَجَنَتْهُ وَأَطَالَتْ سَجْنَهُ وَقَهَرَتْهُ وَلَجَّتْ[4] فِي قَهْرِهِ ، وَكَانَتْ تَظُنُّ أَنَّهَا تَسْتَطِيعُ بِذَلِكَ أَنْ تَصُدَّهُ عَنْ دِينِهِ ...

وَلَكِنْ أَنَّىٰ يَتِمُّ لَهَا ذَلِكَ ، وَالْفَتَىٰ قَدْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ .

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ تَخَلُّصًا مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ ؛ كَانَ الْفَتَىٰ الْقُرَشِيُّ فِي زُمْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ .

---

(١) الْمَشْغُوفَةَ بِهِ : المحبة له المولعة به.
(٢) فِي الذُّرْوَةِ مِنْهَا : في مكانة عالية مِنْهَا.
(٣) الرِّفْدَ : المعونة والعطاء.
(٤) لَجَّتْ فِي قَهْرِهِ : تَمَادَتْ في قهره.

فَلَقَدْ فَرَّ مُصْعَبٌ بِدِينِهِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ ، وَخَلَّفَ وَرَاءَهُ مَرَاتِعَ[1] الطُّفُولَةِ وَمَغَانِيَ الشَّبَابِ ، وَعِزَّةَ النَّسَبِ ...

وَاسْتَبْدَلَ بِذَلِكَ كُلِّهِ ؛ بُعْدَ الدَّارِ وَوَحْشَةَ الْغُرْبَةِ ، وَضَنْكَ الْفَقْرِ

وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ قَلِيلًا هَيِّنًا عِنْدَهُ ؛ فِي جَنْبِ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ﷺ .

وَلَمَّا عَادَ مُصْعَبٌ مِنْ هِجْرَتِهِ الْأُولَىٰ ؛ أَنْكَرَهُ[2] النَّاسُ ؛ حَتَّىٰ كَادُوا لَا يَعْرِفُونَهُ ... فَالْفَتَىٰ الطَّرِيرُ[3] النَّضِيرُ ؛ قَدْ مَسَّهُ الضُّرُّ ...

فَرَثَّتْ ثِيَابُهُ ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ زَاهِيَةً ...

وَخَشُنَ جِلْدُهُ ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ غَضًّا بَضًّا

وَتَخَدَّدَ[4] وَجْهُهُ ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَسِيلًا[5] مُشْرِقًا

لَقَدْ رَآهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مُقْبِلًا وَعَلَيْهِ جِلْدُ كَبْشٍ[6] مُمَزَّقٌ ؛ قَدْ تَمَنْطَقَ بِهِ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الْفَتَىٰ الَّذِي قَدْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ ...

لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يَغْذُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ...

فَدَعَاهُ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ مَا تَرَوْنَ) .

* * *

(١) مَرَاتِعَ الطُّفُولَةِ : الديار التي رتع فيها ولعب وهو صغير .
(٢) أَنْكَرَهُ النَّاس : لم يَتَعَرَّفوا عليه .
(٣) طرير ذو شارب .
(٤) تخدد وجهه : ضَمُرَ وتَجَعَّدَ .
(٥) الأَسِيل : اللين المستوي الأملس .
(٦) الكَبْش : ذَكَر الضَّأْن .

ثُمَّ ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَنَالَهُمْ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ؛ فَهَاجَرُوا إِلَىٰ الْحَبَشَةِ هِجْرَتَهُمُ الثَّانِيَةَ

وَكَانَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي جُمْلَةِ الْمُهَاجِرِينَ أَيْضًا

لَكِنَّ مُصْعَبًا لَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَىٰ فِرَاقِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ ؛ فَآثَرَ الْعَوْدَةَ إِلَىٰ مَكَّةَ وَتَحَمُّلَ أَذَىٰ قُرَيْشٍ عَلَىٰ فِرَاقِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَلَزِمَ مُصْعَبٌ نَبِيَّهُ ﷺ لُزُومَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ ، وَنَهَلَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَلَ مِن هَدْيِهِ ؛ فَإِذَا هُوَ مِنْ أَحْفَظِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ لِكِتَابِ اللَّهِ ...

وَأَفْقَهِهِمْ بِشَرْعِ اللَّهِ

وَأَجْمَعِهِمْ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

ثُمَّ تَمَّتْ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الْأُولَىٰ ، وَعَادَ الْمُبَايِعُونَ الْمَبْرُورُونَ(١) إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ ؛ يَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ دِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ...

لَكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ شَعَرُوا أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مُبَشِّرٍ ؛ أَعْلَمَ مِنْهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَدْرَىٰ مِنْهُمْ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ

فَبَعَثُوا يَسْأَلُونَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ ؛ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا يُعَلِّمُهُمْ دِينَهُمْ .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مُصْعَبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فَكَانَ أَوَّلَ مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ .

* * *

---

(١) الْمَبْرُورُونَ : المقبولون .

حَلَّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي الْمَدِينَةِ، وَشَرَعَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَيُفَقِّهُهُمْ بِأَحْكَامِهِ.

كَانَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ دَائِبًا لَا يَهْدَأُ؛ نَشِطًا لَا يَفْتُرُ...

فَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ...

حَتَّىٰ لَمْ تَبْقَ دَارٌ فِي يَثْرِبَ إِلَّا وَفِيهَا مُسْلِمٌ أَوْ مُسْلِمَةٌ...

وَحَتَّىٰ كُتِبَ لَهُ؛ بِأَنْ يَجْمَعَ أَوَّلَ جُمُعَةٍ فِي الْمَدِينَةِ؛ قَبْلَ أَنْ يَفِدَ عَلَيْهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ.

* * *

وَلَمَّا أَقْبَلَ مَوْسِمُ الْحَجِّ؛ شَخَصَ[1] مُصْعَبٌ إِلَىٰ مَكَّةَ وَمَعَهُ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَوَافَوُا الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْعَقَبَةِ، وَبَايَعُوهُ بَيْعَتَهُمُ الْمَشْهُورَةَ.

وَعَادَ الْمُبَايِعُونَ الْأَبْرَارُ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ، وَبَقِيَ مُصْعَبٌ مَعَ نَبِيِّهِ ﷺ إِلَىٰ أَنْ أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ...

فَكَانَ هُوَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ[2] أَوَّلَ الْمُهَاجِرِينَ.

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَىٰ غَزْوِ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ؛ كَتَّبَ كَتَائِبَهُ وَجَنَّدَ جُنُودَهُ؛ فَجَعَلَ عَلَىٰ كَتِيبَةِ الْمُهَاجِرِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ...

وَعَلَىٰ كَتِيبَةِ الْأَنْصَارِ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ[3]

---

(١) شخص مصعب إِلَىٰ مَكَّة: تَوَجَّهَ إِلَيْهَا.

(٢) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُوم: انظره في الكتاب الثاني من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

(٣) سعد بن معاذ: انظره ص ٩٩.

وَعَلَىٰ مَيْمَنَةِ الْجَيْشِ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ(١)

وَعَلَىٰ مَيْسَرَتِهِ الْمِقْدَادَ الْكِنْدِيَّ ...

أَمَّا رَايَةُ الرَّسُولِ ﷺ الْبَيْضَاءُ ؛ فَعَقَدَهَا لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَسَلَّمَهَا لَهُ بِيَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ ؛ فَتَلَقَّاهَا مُصْعَبٌ حَفِيًّا(٢) بِهَا ، وَسَارَ بِهَا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ ؛ نَاصِعَ الْجَبِينِ ... وَنَافَحَ(٣) عَنْهَا مُنَافَحَةَ الْأَبْطَالِ الْمَيَامِينِ(٤).

وَفِيمَا كَانَ مُصْعَبٌ عَائِدًا مِنْ بَدْرٍ ؛ رَأَىٰ أَخَاهُ أَبَا عُزَيْزٍ أَسِيرًا فِي يَدِ أَحَدِ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَهِمُّ أَنْ يَضَعَ الْقَيْدَ فِي يَدَيْهِ .

فَقَالَ مُصْعَبٌ لِلْأَنْصَارِيِّ :

شُدَّ يَدَيْكَ عَلَيْهِ ...

فَإِنَّ أُمَّهُ ذَاتُ ثَرْوَةٍ ، وَهِيَ حَرِيَّةٌ(٥) بِأَنْ تَفْتَدِيَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ .

فَقَالَ أَبُو عُزَيْزٍ لِأَخِيهِ مُصْعَبٍ : أَهَٰذِهِ وَصَاتُكَ(٦) بِأَخِيكَ ؟!

فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ :

بَلْ إِنَّهُ هُوَ أَخِي مِنْ دُونِكَ ؛ إِنَّهُ مُسْلِمٌ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ .

* * *

وَفِي يَوْمِ أُحُدٍ ؛ دَفَعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِرَايَتِهِ إِلَىٰ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ؛ كَمَا فَعَلَ يَوْمَ بَدْرٍ ... فَحَمَلَهَا مُصْعَبٌ وَمَشَىٰ بِهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَاشْتَدَّتْ وَطْأَةُ قُرَيْشٍ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّىٰ انْكَشَفُوا وَتَفَرَّقُوا عَنْ

---

(١) الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّام : انظره ص ١٦٥.
(٢) حَفِيًّا : مبالغًا في إكرامه وإظهار الفرح به .
(٣) نافح : دافع .
(٤) الميامين : ذَوُو اليمن والبركة .
(٥) حَرِيَّة : جَدِيرَة .
(٦) وَصَاتُك وَصِيَّتُك .

لِوَائِهِمْ، وَلَكِنَّ مُصْعَبًا أَثْبَتَ قَدَمَيْهِ إِلَىٰ جَنْبِ نَبِيِّهِ ﷺ لَا يَمِيلُ عَنْهُ وَلَا يَحِيدُ

وَهُنَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ ابْنُ قَمِيئَةَ أَحَدُ فُرْسَانِ الْمُشْرِكِينَ؛ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً؛ فَسَقَطَتْ يَدُهُ وَسَقَطَ مَعَهَا اللِّوَاءُ...

فَأَخَذَهُ بِالْيَدِ الْأُخْرَىٰ.

وَعَادَ الْفَارِسُ الشَّقِيُّ إِلَىٰ الْمُجَاهِدِ التَّقِيِّ، وَعَاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ أُخْرَىٰ؛ فَسَقَطَتْ يَدُهُ الثَّانِيَةُ وَسَقَطَ مَعَهَا اللِّوَاءُ؛ فَأَخَذَهُ بِعَضُدَيْهِ وَضَمَّهُمَا عَلَيْهِ؛ لِيَبْقَىٰ اللِّوَاءُ مَرْفُوعًا

وَكَرَّ ابْنُ قَمِيئَةَ مَرَّةً ثَالِثَةً عَلَىٰ مُصْعَبٍ؛ فَأَنْفَذَ الرُّمْحَ فِي صَدْرِهِ؛ فَسَقَطَ عَلَىٰ الْأَرْضِ؛ فَتَلَقَّىٰ اللِّوَاءَ أَخُوهُ أَبُو الرُّومِ وَرَفَعَهُ، وَمَا زَالَ يَحْمِلُهُ حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِ الْمَدِينَةَ

وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَيْدَانِ الْقِتَالِ مُنْتَصِرَةً، وَثَابَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ شُهَدَائِهِمْ يُوَارُونَهُمُ التُّرَابَ

فَإِذَا مُصْعَبٌ قَدْ خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ يَدَيْنِ.

* * *

وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ بِدَفْنِ الشَّهِيدِ...

فَمَا وَجَدُوا لَهُ كَفَنًا إِلَّا ثَوْبًا صَغِيرًا؛ إِنْ سَتَرَ وَجْهَهُ كَشَفَ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَإِنْ غَطَّىٰ قَدَمَيْهِ كَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ.

فَأَمَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَنْ يُغَطَّى وَجْهُهُ بِالثَّوْبِ، وَأَنْ تُسْتَرَ رِجْلَاهُ بِرَطَبِ الْكَلَإِ(١)

(١) بِرَطَبِ الْكَلَإِ: الْعُشْبِ الرَّطْبِ

ثُمَّ وَقَفَ فَوْقَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] (*) .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(*) للاستزادة من أخبار مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْر انظر
١ - أسد الغابة ٥/ ١٨١
٢ - صفة الصفوة: ١/ ٣٩٠.
٣ سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٤، ٢/ ٤، ٨١، ٩٨، ١١٠، ١٢٣، ١٥٢، ٢٦٤، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٣٦، وانظر الفهارس.
٤ الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٣/ ١١٦
حلية الأولياء: ١/ ١٠٦
٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/ ٤٦٨.
٧ الإصابة: ٣/ ٤٢١ أو « الترجمة » ٨٠٠٢.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ رضي الله عنه

قَائِدُ أَجْرَإِ مُغَامَرَةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الْفِدَاءِ

« ظَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّىٰ مَضَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْيَمَامَةِ »

[ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ]

لَمْ يُكَابِدِ[1] الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنْ أَحَدٍ كَمَا كَابَدُوا مِنَ الْيَهُودِ ...

وَلَمْ يَكُنْ فِي الْيَهُودِ أَحَدٌ أَنْكَىٰ[2] عَلَىٰ دِينِ اللَّهِ، وَأَشَدُّ أَذًى لِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَسَلَامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ ...

فَقَدِ اجْتَمَعَ فِي هَٰذَيْنِ الطَّاغِيَتَيْنِ[3] مِنَ الشَّرِّ مَا تَفَرَّقَ فِي جَمِيعِ الْأَشْرَارِ ... وَالْتَقَىٰ عِنْدَهُمَا مِنَ الْخُبْثِ مَا وُزِّعَ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَخْبَاثِ ...

وَقَدْ جَعَلَا شُغْلَهُمَا الشَّاغِلَ الْكَيْدَ لِدِينِ اللَّهِ ...

وَنَصْبَ الْعَدَاوَةِ لِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَمَا عَقَدَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَعَ أَحَدٍ عَهْدًا؛ إِلَّا قَامَا يُحَرِّضَانِهِ[4] عَلَىٰ نَقْضِهِ[5]، وَيَحُضَّانِهِ[6] عَلَىٰ نَبْذِهِ[7]...

وَلَا وَجَدَا لِلْإِسْلَامِ عَدُوًّا سَاكِنًا؛ إِلَّا هَبَّا يُثِيرَانِهِ لِحَرْبِهِ.

* * *

(١) يُكَابِد : يعاني .
(٢) أَنْكَىٰ : أَشَدُّ خطرًا .
(٣) الطَّاغِيَة : الجبار المتكبر من الناس .
(٤) يُحَرِّضَانِه : يثيرانه .
(٥) نَقْضِه : عدم الوفاء به .
(٦) يَحُضَّانِه : يرغبان ويحثان .
(٧) نَبْذِه : خلعه .

وَكَانَ أَوَّلُهُمَا شَاعِرًا ؛ فَأَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي أَعْرَاضِ الْمُحْصَنَاتِ ؛ الْقَانِتَاتِ[1] مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَ يُشَهِّرُ بِهِنَّ كَاذِبًا مُفْتَرِيًا

وَكَانَ ثَانِيهُمَا مُفْسِدًا ؛ فَهَبَّ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ[2] ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُثِيرُ عَلَيْهِمْ مَشَاعِرَ الْمُشْرِكِينَ ، وَيُعِدُّ الْخُطَطَ لِلْغَدْرِ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ ...

حَتَّىٰ كَادَ يَقْتُلُهُ بِإِلْقَاءِ صَخْرَةٍ عَلَيْهِ ؛ لَوْلَا أَنْ نَبَّهَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ مَا يُحِيقُ[3] بِهِ مِنْ خَطَرٍ .

فَأَيْقَنَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ أَنَّ جُرْثُومَةَ[4] الشَّرِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَأْصَلَ[5] إِلَّا بِاسْتِئْصَالِ هَٰذَيْنِ الطَّاغُوتَيْنِ ...

وَأَنَّ دِمَاءَ النَّاسِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُحْصَنَ إِلَّا بِإِرَاقَةِ دِمَائِهِمَا

* * *

وَكَان مِمَّا أَمَدَّ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ أَيَّدَهُ بِقَبِيلَتَي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ[6]

فَكَانَ هَٰذَانِ الْحَيَّانِ مِنَ الْأَنْصَارِ ؛ يَتَنَافَسَانِ فِي الْخَيْرِ ، وَيَفْعَلَانِهِ ...

وَيَتَسَابَقَانِ فِي الْبِرِّ وَيُؤَدِّيَانِه ...

وَيَتَصَاوَلَانِ[7] تَصَاوُلَ الْقِرْنَيْنِ[8] فِي الْمَآثِرِ ، وَالْمَفَاخِرِ .

(١) الْمُحْصَنَاتِ الْقَانِتَات الطاهرات العفيفات القائمات بطاعة الله .
(٢) يحزب الأحزاب : يجمع الناس في فرق وجماعات .
(٣) يُحِيق : يحيط .
(٤) الجُرْثُومَة جرثومة كل شيء ، أَصْلُهُ ومُجْتَمَعُهُ .
(٥) تُسْتَأْصَل : تقطع .
(٦) الأَوْس وَالْخَزْرَج : قبيلتان يمنيتا الأصل ارتحلا إلىٰ المدينة بعد انهيار سد مأرب واستقرتا فيها وهما تكونان جمهرة الأنصار
(٧) يَتَصَاوَلَان : أي يتسابقان .
(٨) الْقِرْنَيْن : المتماثلين .

فَلَا تَصْنَعُ الْأَوْسُ شَيْئًا فِيهِ رِضًى لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ إِلَّا قَالَتِ الْخَزْرَجُ لَا وَاللَّهِ لَا نَدَعُهُمْ يَتَفَوَّقُونَ عَلَيْنَا بِهَٰذَا الْفَضْلِ ، وَيَتَقَدَّمُونَ عَلَيْنَا بِهَٰذَا الْخَيْرِ

فَمَا يَزَالُونَ يَتَحَيَّنُونَ[1] الْفُرَصَ حَتَّىٰ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ، أَوْ رُبَمَا يَرْبُو عَلَيْهِ

وَلَا يَصْنَعُ الْخَزْرَجُ شَيْئًا فِيهِ بِرٌّ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ؛ إِلَّا قَالَتِ الْأَوْسُ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ... وَفَعَلَتْ مِثْلَ فِعْلِهِمْ ...

فَكَانَ فِي تَنَافُسِهِمْ هَٰذَا بَرَكَةٌ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَخَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ الْأَوْسَ ؛ فَجَعَلَ مَصْرَعَ عَدُوِّ اللَّهِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ عَلَىٰ أَيْدِي طَائِفَةٍ مِنْ فِتْيَانِهَا ؛ فَقَالَتِ الْخَزْرَجُ

لَا وَاللَّهِ لَا نَدَعُهُمْ يَرْجُحُونَ عَلَيْنَا بِهَٰذَا الْفَضْلِ ، وَيَزِيدُونَ عَلَيْنَا بِهِ ...

وَإِذَا كَانُوا قَدْ قَضَوْا عَلَىٰ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ أَحَدِ عَدُوَّيِ الْإِسْلَامِ اللَّدُودَيْنِ ؛ فَإِنَّ عَدُوَّ الْإِسْلَامِ الْآخَرَ سَلَامَ بْنَ أَبِي الْحُقَيْقِ مَا يَزَالُ حَيًّا

وَسَيَكُونُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ مِنْ نَصِيبِنَا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَعَانَ .

* * *

اسْتَأْذَنَتِ الْخَزْرَجُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ تَنْدُبَ[2] خَمْسَةً مِنْ فِتْيَانِهَا لِقَتْلِ عَدُوِّ اللَّهِ سَلَامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ فَأَذِنَ لَهَا

ثُمَّ أَمَّرَ عَلَى الْفِتْيَةِ الْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ وَاحِدًا مِنْهُمْ ؛ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ وَأَوْصَاهُمْ أَلَّا يَقْتُلُوا امْرَأَةً وَلَا وَلِيدًا ، وَأَلَّا يُلْحِقُوا أَذًى بِهِمَا

فَوَدَّعُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَمَضَوْا لِيَقُومُوا بِأَجْرَإِ مُغَامَرَةٍ عَرَفَهَا

---

(١) يَتَحَيَّنُونَ الْفُرَص : يترقبون الفرص ويترصدونها .
(٢) تَنْدُب : تَدْعُو .

تَارِيخُ الْفِدَاءِ .

فَلْنَتْرُكْ لِأَمِيرِ الْفِرْقَةِ الْكَلَامَ لِيَرْوِيَ لَنَا قِصَّتَهُمُ الْمُثِيرَةَ ...

* * *

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ :

مَا إِنْ أَذِنَ لَنَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمُضِيِّ إِلَىٰ مَا نَدَبْنَا أَنْفُسَنَا لَهُ ؛ حَتَّىٰ يَمَّمْنَا[1] وُجُوهَنَا شَطْرَ أَوَاسِطِ الْحِجَازِ حَيْثُ كَانَ يُقِيمُ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ وَقَوْمُهُ فِي حِصْنٍ لَهُمْ ...

فَلَمَّا صِرْنَا قَرِيبًا مِنَ الْحِصْنِ ؛ رَكَنَّا فِي مَكَانِنَا حَتَّىٰ دَنَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَطَفِقَ أَهْلُ الْحِصْنِ يَعُودُونَ بِمَوَاشِيهِمْ مِنَ الْمَرَاعِي .

فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي اجْلِسُوا فِي مَكَانِكُمْ ؛ فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ نَحْوَ بَاب الْحِصْنِ لَعَلِي أَسْتَطِيعُ الدُّخُولَ فِيهِ مَعَ الدَّاخِلِينَ ...

ثُمَّ صَافَفْتُ[2] النَّاسَ ، وَمَشَيْتُ مَعَهُمْ كَأَنِّي وَاحِدٌ مِنْهُمْ ؛ فَلَمْ يَفْطِنْ لِي أَحَدٌ ...

فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنَ الْبَابِ تَقَنَّعْتُ بِثَوْبِي ؛ لِئَلَا يَتَنَبَّهَ لِي بَوَّابُ الْحِصْنِ ، وَجلَسْتُ كَأَنِّي أَقْضِي الْحَاجَةَ ...

فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرِي ؛ هَتَفَ بِيَ الْبَوَّابُ وَقَالَ :

يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الدُّخُولَ فَادْخُلْ ؛ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ ...

---

(١) يَمَّمْنَا وُجُوهَنَا : توجهنا

(٢) صَافَفْت : مَشَيْتُ معهم في صَفٍّ واحدٍ .

فَدَخَلْتُ وَكَمِنْتُ[١] غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْهُ ؛ مُسْتَتِرًا بِجُنْحِ الظَّلَامِ .

فَلَمَّا اسْتَيْقَنَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ خَارِجَ الْحِصْنِ أَغْلَقَ الْبَابَ ، وَعَلَّقَ قِلَادَةَ الْمَفَاتِيحِ عَلَىٰ وُدٍّ... وَمَضَىٰ إِلَىٰ سَكَنِهِ .

* * *

أَمَّا أَنَا فَمَكَثْتُ فِي مَكْمَنِي ، وَطَفِقْتُ أَتَفَحَّصُ الْحِصْنَ ، وَأَتَعَرَّفُ عَلَىٰ مَسَالِكِهِ ، وَأُجِيلُ بَصَرِي فِيهِ بَحْثًا عَنْ عُلِّيَّةِ[٢] الرَّجُلِ ...

وَاهْتِدَاءً إِلَىٰ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِيَةِ إِلَيْهَا ...

فَمَا لَبِثْتُ أَنْ أَثْبَتُّ مَكَانَهُ ، وَعَرَفْتُ مِنْ خَلَالِ ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ الْخَافِتِ أَنَّ فِئَةً مِنْ أَصْحَابِهِ تَسْمُرُ عِنْدَهُ ...

فَلَمَّا انْفَضَّ السُّمَّارُ[٣] وَأُطْفِئَ الْمِصْبَاحُ ...

وَأَيْقَنْتُ[٤] أَنَّهُ أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ وَدَخَلَ فِي النَّوْمِ ؛ أَخَذْتُ الْمَفَاتِيحَ مِنَ الْوُدِّ ، وَمَضِيتُ فِي عَتَمَةِ اللَّيْلِ إِلَىٰ بَابِ قَصْرِهِ الْخَارِجِيِّ فَفَتَحْتُهُ فِي رِفْقٍ ...

فَلَمَّا صِرْتُ دَاخِلَ الْقَصْرِ ؛ أَغْلَقْتُهُ عَلَيَّ مِنَ الدَّاخِلِ بِالْقفْلِ حَتَّىٰ لَا يَدْخُلَهُ أَحَدٌ .

ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَىٰ الْبَابِ الثَّانِي ؛ فَفَعَلْتُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلْتُهُ بِالْبَابِ الْأَوَّلِ .

ثُمَّ جَرَيْتُ عَلَىٰ ذَلِكَ ... فَكُنْتُ كُلَّمَا دَخَلْتُ بَابًا أَغْلَقْتُهُ عَلَيَّ .

وَقَدْ حَمَلَنِي عَلَىٰ ذَلِكَ تَقْدِيرِي بِأَنَّ الْقَوْمَ إِذَا تَنَبَّهُوا لِي ، أَوْ صَرَخَ فِيهِمْ صَارِخٌ ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْوُصُولَ إِلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَكُونَ قَدْ قَتَلْتُهُ .

(١) كَمِنْت : استَخْفَيْتُ في مكان لا يُفطنُ له .
(٢) العُلِّيَّة : بيت في الطبقة الثانية من الدار .
(٣) السُّمَّار : المتحدثون ليلا
(٤) أيْقَنْت : اطمأننت .

فَلَمَّا بَلَغْتُ عُلِّيَّةَ الْقَصْرِ أَلْفَيْتُهَا[1] مُظْلِمَةً ، وَوَجَدْتُهُ مُضَّجِعًا بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ ؛ فَلَمْ أَعْلَمْ أَيْنَ مَكَانُهُ بَيْنَهُمْ ...

فَخَشِيتُ إِنْ ضَرَبْتُهُ عَلَىٰ الظِّنَّةِ أَنْ أُصِيبَ غَيْرَهُ ؛ فَأُخَالِفَ وَصِيَّةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَلَّا نَقْتُلَ امْرَأَةً وَلَا وَلِيدًا ، وَأُعَرِّضَ نَفْسِي لِلْهَلَاكِ دُونَ طَائِلٍ ...

فَبَادَرْتُ وَنَادَيْتُهُ بِكُنْيَتِهِ الَّتِي كَانَ يُنَادِيهِ بِهَا خَوَاصُّهُ ؛ فَقُلْتُ : أَبَا رَافِعَ ...

فَقَالَ : مَنْ هَـٰذَا ؟!

فَعَرَفْتُ مَكَانَهُ ... وَأَهْوَيْتُ بِسَيْفِي عَلَىٰ مَوْضِعِ الصَّوْتِ ، وَكُنْتُ مُضْطَرِبًا ؛ فَلَمْ تَفْعَلْ ضَرْبَتِي فِيهِ شَيْئًا

فَصَاحَ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ فَخَرَجْتُ مِنَ الْحُجْرَةِ ، وَعَثَرْتُ بِالْمِصْبَاحِ ؛ فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي وَطَرَحْتُهُ بَعِيدًا عَنْ مَوْضِعِهِ ؛ حَتَّىٰ لَا يَقُومَ إِلَيْهِ أَحَدٌ فَيُضِيئَهُ .

ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي وَقُلْتُ مَا هَـٰذَا الصِّيَاحُ يَا أَبَا رَافِعَ ؟!

فَقَالَ لِأُمِّكَ الْوَيْلُ ... إِنَّ فِي الْبَيْتِ رَجُلًا ضَرَبَنِي بِالسَّيْفِ وَتَوَارَىٰ .

فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، وَأَهْوَيْتُ عَلَيْهِ بِضَرْبَةٍ أَثْبَتَ مِنْ تِلْكَ وَأَحْكَمَ ...

فَأَثَّرَتْ فِيهِ أَثَرًا بَلِيغًا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمُتْ .

فَأَغْمَدْتُ[2] سَيْفِي فِي بَطْنِهِ وَضَغَطْتُ عَلَيْهِ بِثِقَلِي كُلِّهِ ؛ فَصَرَخَ صَرْخَةً أَيْقَظَتْ زَوْجَتَهُ ... فَانْتَزَعْتُ سَيْفِي مِنْ جَسَدِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِهِ حَرَاكٌ .

* * *

(١) أَلْفَيتهَا : وجدتها .
(٢) فَأَغْمَدْت : أَدْخَلْتُه فِي غِمْدِه

اسْتَيْقَظَتِ الْمَرْأَةُ عَلَىٰ صَوْتِ زَوْجِهَا، وَهَبَّتْ مَذْعُورَةً ... وَجَعَلَتْ تَسْتَصْرِخُ[1]

فَهَمَمْتُ أَنْ أَهْوِيَ عَلَيْهَا بِالسَّيْفِ لَوْلَا أَنِّي تَذَكَّرْتُ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ؛ فَكَفَفْتُ عَنْهَا

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّىٰ اسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَىٰ صُرَاخِهَا، وَدَبَّتِ الْحَرَكَةُ فِي الْحِصْنِ ... فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ مَضَيْتُ أَسْتَصْرِخُ النَّاسَ وَأَقُولُ

الْغَوْثَ ... الْغَوْثَ ... النَّجْدَةَ ... النَّجْدَةَ ...

فَجَعَلُوا يَتَدَفَّقُونَ نَحْوَ الْعُلِّيَّةِ وَأَنَا أَمْضِي خَارِجًا

حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ آخِرِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ الْحِصْنِ، وَكُنْتُ ضَعِيفَ الْبَصَرِ

فَظَنَنْتُ أَنِّي بَلَغْتُ الْأَرْضَ فَوَقَعْتُ فَانْكَسَرَتْ سَاقِي؛ فَعَصَبْتُ السَّاقَ الْمَكْسُورَةَ بِعِمَامَتِي، وَمَضَيْتُ أَجُرُّهَا جَرًّا حَتَّىٰ صِرْتُ عِنْدَ رِفَاقِي خَارِجَ الْحِصْنِ.

* * *

أَوْقَدَ أَهْلُ الْحِصْنِ النِّيرَانَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَهَبُّوا جَمِيعًا مِنْ مَرَاقِدِهِمْ[2]، وَانْطَلَقُوا يَعْدُونَ خَارِجَ الْحِصْنِ بَحْثًا عَنِ الَّذِينَ أَغَارُوا عَلَيْهِمْ ... أَمَّا نَحْنُ فَكُنَّا كَامِنِينَ فِي قَنَاةِ مَاءٍ أَسْفَلَ الْحِصْنِ.

فَلَمَّا يَئِسَ الْقَوْمُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْنَا؛ عَادُوا إِلَىٰ صَاحِبِهِمْ يَنْظُرُونَ مَا حَلَّ بِهِ

فَقَالَ أَصْحَابِي النَّجَاءَ ... النَّجَاءَ ...

---

(١) تَسْتَصْرِخُ تنادي وتصرخ.

(٢) مَرَاقِدِهِم: مَوَاضِع نَوْمِهِم.

فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ كَفُّوا عَنْ طَلَبِنَا ، وَانْشَغَلُوا بِصَاحِبِهِمْ عَنَّا

فَقُلْتُ لَا وَاللَّهِ ! لَا أَبْرَحُ هَـٰذَا الْمَكَانَ حَتَّىٰ أَعْلَمَ أَنِّي قَتَلْتُهُ .

فَقَالَ أَحَدُ أَصْحَابِي : أَنَا أَذْهَبُ فَآتِيكُمْ بِخَبَرِهِ .

ثُمَّ مَضَىٰ حَتَّىٰ دَخَلَ فِي النَّاسِ وَدَنَا مِنَ الرَّجُلِ ... فَرَأَىٰ امْرَأَتَهُ تَمْضِي نَحْوَهُ وَبِيَدِهَا الْمِصْبَاحُ وَكِبَارُ الْيَهُودِ وَرَاءَهَا يَسْأَلُونَهَا عَمَّا حَدَثَ ... وَعَنِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ الَّذِي اقْتَحَمَ حِصْنَهُمْ ، وَمَا فَعَلَ ...

فَقَالَتْ

وَاللَّهِ لَا أَدْرِي ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا غَيْرَ غَرِيبٍ عَنِّي ... فَلَمَّا أَصْغَيْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ : هَـٰذَا صَوْتُ ابْنِ عَتِيكٍ ؛ غَيْرَ أَنِّي كَذَّبْتُ نَفْسِي وَقُلْتُ : أَيْنَ ابْنُ عَتِيكٍ مِنْ هَـٰذِهِ الْأَرْضِ ؟!

ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَىٰ زَوْجِهَا وَرَفَعَتِ الْمِصْبَاحَ ، وَحَدَّقَتْ فِي وَجْهِهِ ...

ثُمَّ ارْتَدَّتْ عَنْهُ وَهِيَ تَقُولُ : مَاتَ ... وَإِلَٰهِ يَهُودِ مَاتَ ...

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهَا قَرَّتْ عَيْنُهُ ، وَعَادَ إِلَيْنَا وَبَشَّرَنَا .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ احْتَمَلَنِي(١) أَصْحَابِي ، وَمَضَوْا بِي حَتَّىٰ قَدِمْنَا عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

فَوَجَدْنَاهُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ ؛ فَلَمَّا رَآنَا قَالَ

(أَفْلَحَتِ(٢) الْوُجُوهُ ... أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ) ...

فَقُلْنَا : أَفْلَحَ وَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

---

(١) احْتَمَلَنِي : حَمَلَنِي

(٢) أَفْلَحَت ظفرت برضى اللّه عز وجل ، فازت بالجنة .

وَبَشَّرْنَاهُ بِقَتْلِ عَدُوِّ اللَّهِ .

فَلَمَّا نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ ؛ رَأَىٰ مَا بِي ؛ فَقَالَ :

(لَا بَأْسَ عَلَيْكَ يَا بْنَ عَتِيكٍ) .

ثُمَّ قَالَ :

(أُبْسُطْ رِجْلَكَ) ؛ فَبَسَطْتُهَا

فَمَسَحَهَا ؛ فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا ...

كَأَنَّنِي لَمْ أَشْكُ مِنْهَا قَطُّ ... (*)

(*) للاستزادة من أخبار عبد الله بن عتيك انظر :
١ - أسد الغابة ٣/ ٣٠٦.
٢ - الإصابة : ٢/٣٤١ أو « الترجمة » ٦/ ٤٨.
٣ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/ ٣٦٤.
٤ - البداية والنهاية : ٤/١٣٧.
٥ - جامع الأصول لابن الأثير: ٩/ ١٧١
٦ - السيرة النبوية : ٣/ ٣١٤.

المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِحُبِّ أَرْبَعَةٍ وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ : عَلِيٌّ ، وَالْمِقْدَادُ ، وَأَبُو ذَرٍّ ، وَسَلْمَانُ »

[حَدِيثٌ شَرِيفٌ]

أَصَابَ(١) عَمْرُو بْنُ ثَعْلَبَةَ دَمًا فِي قَوْمِهِ ؛ فَكَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يُغَادِرَ مَوَاطِنَ قَبِيلَتِهِ « بُهْرَاءَ » ، أَوْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلثَّأْرِ ...

فَآثَرَ الْأُولَىٰ عَلَىٰ الثَّانِيَةِ ، وَوَلَّىٰ هَارِبًا إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ ، وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ فِيهَا مُقَامًا

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ تَزَوَّجَ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتَ ، وَوُلِدَ لَهُ صَبِيٌّ دَعَاهُ الْمِقْدَادَ .

* * *

وَرِثَ الْمِقْدَادُ عَنْ أَبِيهِ جُلَّ صِفَاتِهِ الْخَلْقِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ ...

فَكَانَ طَوِيلًا بَائِنَ الطُّولِ ؛ أَسْمَرَ شَدِيدَ السُّمْرَةِ ...

حَتَّىٰ لَيَصِحُّ أَنْ يُنْعَتَ بِأَنَّهُ أَسْوَدُ ...

جَسِيمًا(٢) يَمْلَأُ عَيْنَ رَائِيهِ مَهَابَةً وَرَوْعَةً .

وَكَانَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ شَدِيدَ الشَّكِيمَةِ(٣) قَوِيَّ الْعَزِيمَةِ ...

مُمْتَلِئًا حَمِيَّةً وَمُرُوءَةً وَحِدَّةً .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ اخْتَصَمَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو مَعَ سَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ فِي

---

(١) أصاب دمًا : قتل قتيلًا

(٢) جسيمًا : ضخم الجسم .

(٣) الشَّكِيمَة : الأنفة .

حَضْرَمَوْتَ هُوَ أَبُو شَمْرِ بْنِ حَجَرٍ ...

فَنَدَّتْ[١] مِنَ الشَّيْخِ الْحَضْرَمِيِّ كَلِمَةٌ قَاسِيَةٌ جَرَحَتْ كِبْرِيَاءَ الْفَتَىٰ وَأَثَارَتْ حَفِيظَتَهُ[٢]؛ فَامْتَشَقَ حُسَامَهُ وَأَهْوَىٰ بِهِ عَلَىٰ الشَّيْخِ الْحَضْرَمِيِّ ... فَبَتَرَ سَاقَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَجَدَ الْمِقْدَادُ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَجْلُوَ عَنْ حَضْرَمَوْتَ كَمَا جَلَىٰ أَبُوهُ مِنْ قَبْلِهِ عَنْ دِيَارِ قَبِيلَتِهِ « بُهْرَاء » ؛ فَوَلَّىٰ وَجْهَهُ شَطْرَ مَكَّةَ .

* * *

أَدْرَكَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو مُنْذُ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُ مَكَّةَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِ أَحَدٍ أَنْ يَعِيشَ فِي هَٰذَا الْمُجْتَمَعِ الْقُرَشِيِّ آمِنًا مُطْمَئِنًّا ... إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَهُ قَبِيلَةٌ تَحْمِيهِ ، أَوْ عَصَبِيَّةٌ تَمْنَعُهُ[٣]...

أَمَّا الْغُرَبَاءُ أَمْثَالُهُ ؛ فَمَا عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَخْتَارُوا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ :

فَإِمَّا أَنْ يُحَالِفُوا سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ ؛ فَيَعِيشُوا فِي كَنَفِهِ ، وَيَأْمَنُوا فِي حِمَاهُ ...

وَإِمَّا أَنْ يُعَرِّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلذِّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ ...

فَحَالَفَ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ هُوَ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ الزُّهْرِيُّ .

* * *

لَكِنَّ الْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَغُوثَ مَا لَبِثَ أَنْ رَأَىٰ فِي الْفَتَىٰ الْحَضْرَمِيِّ مِنْ سِمَاتِ الرُّجُولَةِ ، وَشَمَائِلِ الْمُرُوءَةِ ، وَخَصَائِلِ الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ ؛ مَا مَلَأَ قَلْبَهُ حُبًّا لَهُ ... فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ، وَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ مَجَالِسِ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ...

---

(١) نَدَّت : شردت .

(٢) أَثَارَتْ حَفِيظَتَه أثارت غضبه .

(٣) عَصَبِيَّةٌ تَمْنَعُه من قوم أو عشيرة تتجمع حوله وتكف العدو عنه وتحميه .

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ أَعْلَنَ تَبَنِّيهِ لَهُ، وَقَالَ:

اشْهَدُوا - يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَنَّ هَٰذَا ابْنِي أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي...

فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ النَّاسُ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ اسْمَ: الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ.

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَبْطَلَ التَّبَنِّي فِيمَا بَعْدُ؛ فَقَدْ ظَلَّ أَكْثَرُ النَّاسِ يُنَادُونَهُ كَذَلِكَ...

لِكَثْرَةِ مَا تَرَدَّدَ هَٰذَا الِاسْمُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ، وَفَرْطِ مَا تَدَاوَلُوهُ بَيْنَهُمْ.

* * *

لَمْ يَكُنِ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو - أَوِ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ كَمَا كَانُوا يُنَادُونَهُ - مُرْتَاحًا إِلَىٰ ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي تُرَاقُ فِيهِ الدِّمَاءُ ظُلْمًا وَبَغْيًا، وَتُسْتَبَاحُ فِيهِ الْحُرُمَاتُ عُدْوَانًا وَجَوْرًا...

وَيُسْتَذَلُّ فِيهِ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ، وَتَسُودُهُ الْعَصَبِيَّاتُ الْعَمْيَاءُ.

فَهْوَ - عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ قَدْ تَبَنَّاهُ - مَا يَزَالُ فِي نَظَرِ الْقَوْمِ شَرِيدًا طَرِيدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصْهِرَ(١) لِأَيٍّ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ فِي عُرْفِهِمْ لَيْسَ بِكُفْءٍ لِأَيِّ بِنْتٍ مِنْ بَنَاتِهِمْ مَهْمَا دَنَتْ مَنْزِلَتُهَا

وَكَانَ الْمِقْدَادُ يَسْمَعُ مَا يَدُورُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْكُهَّانِ(٢) وَمَا يَرْوِيهِ أَحْبَارُ(٣) يَهُودَ: مِنْ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ أَطَلَّ(٤) زَمَانُهُ سَيَمْلَأُ الدُّنْيَا بِرًّا وَخَيْرًا وَعَدْلًا؛ فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ:

عَسَىٰ وَلَعَلَّ.

* * *

(١) أَصْهر إلىٰ القوم: تقرب إليهم وتزوج ابنتهم.
(٢) الْكُهَّان: رجال الدين عند النصارىٰ.
(٣) أَحْبَارُ يَهُود: رؤساء الكهنة عند اليهود.
(٤) أَطَلَّ زَمَانُه: اقترب زمنه.

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ غَيْرُ قَلِيلٍ؛ حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ بِهِ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو حَتَّىٰ بَادَرَ إِلَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدَيْهِ؛ وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ مَجَالِسِ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَىٰ مَلَإٍ(١) مِنَ الْقَوْمِ ...

فَكَانَ سَابِعَ سَبْعَةٍ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ.

* * *

لَمْ يَكُنِ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو حِينَ تَوَجَّهَ إِلَىٰ مَجَالِسِ قُرَيْشٍ لِيُعْلِنَ دُخُولَهُ فِي دِينِ اللَّهِ جِهَارًا نَهَارًا؛ يَجْهَلُ وَقْعَ ذَلِكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا سَيُنْزِلُونَهُ بِهِ مِنَ الْأَذَىٰ وَالنَّكَالِ ...

لَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ دَعْوَةً كَدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَرَابِينَ(٢)؛ فَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ شُهَدَائِهَا وَضَحَايَاهَا

* * *

صَبَّتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ بَطْشِهَا وَنَكَالِهَا مَا يُزَلْزِلُ الْجِبَالَ ... فَلَمْ يَتَزَعْزَعْ، وَلَمْ يَتَضَعْضَعْ ...

وَمَا كَانَ يَزِيدُهُ الْعَذَابُ إِلَّا صَلَابَةً فِي دِينِهِ، وَرُسُوخًا فِي إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ.

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ أَبَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو أَنْ يُغَادِرَ سِجْنَهَا الْكَبِيرَ ...

---

(١) مَلَإٍ مِنَ الْقَوْمِ: جموع من الناس.
(٢) القَرَابِين: جمع قربان؛ وهو ما تَقَرَّبتَ به إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، والمقصود: الضحايا.

فَقَدْ كَانَ حِقْدُهَا عَلَيْهِ يَتَكَافَأُ مَعَ تَحَدِّيهِ لَهَا

وَلِذَا كَانَ مِنْ أَوَاخِرِ الْمُسْلِمِينَ هِجْرَةً ...

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّخَلُّصَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا بِحِيلَةٍ

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَرِحَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَقْدَمِهِ ؛ إِذْ كَانَ يُحِبُّهُ حُبًّا جَمًّا وَيَقُولُ :

(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِحُبِّ أَرْبَعَةٍ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ : عَلِيٌّ ، وَالْمِقْدَادُ ، وَأَبُو ذَرٍّ[١] ، وَسَلْمَانُ[٢]) .

* * *

قَسَمَ الرَّسُولُ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ عَشَرَاتٍ ، وَجَعَلَ كُلَّ عَشَرَةٍ فِي بَيْتٍ ...

فَكَانَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو مِنَ الْعَشَرَةِ الَّتِي سَعِدَتْ بِمُسَاكَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَنَعِمَتْ بِكَرِيمِ شَمَائِلِهِ ، وَلَقِيَتْ مِنْ بِرِّهِ وَعَطْفِهِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

* * *

حَدَّثَ الْمِقْدَادُ قَالَ :

كُنْتُ فِي جُمْلَةِ الْعَشَرَةِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَكُونُوا مَعَهُ فِي بَيْتِهِ .

وَكَانَتْ لِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ثَلَاثُ أَعْنُزٍ ؛ يَحْتَلِبُونَهَا وَيُوَزِّعُونَ لَبَنَهَا بَيْنَنَا ، وَكُنَّا نَرْفَعُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَصِيبَهُ .

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ جِئْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي ، وَكَانَ الْجُوعُ قَدْ نَهَكَنَا[٣] حَتَّى

---

(١) أَبُو ذَرّ الغفاري : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) سَلْمَان الفارسي : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٣) نَهَكَنَا : أضنانا .

أَوْشَكْنَا أَلَّا نَسْمَعَ وَلَا نُبْصِرَ .

أَمَّا صَاحِبَايَ ؛ فَقَدْ شَرِبَا نَصِيبَهُمَا وَنَامَا ، وَأَمَّا أَنَا فَلَمْ يَكْفِنِي مَا شَرِبْتُهُ ، وَبَقِيتُ خَاوِيَ الْبَطْنِ لَا أَسْتَطِيعُ النَّوْمَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ .

فَقَالَ لِيَ الشَّيْطَانُ : مَاذَا عَلَيْكَ لَوْ شَرِبْتَ هَٰذِهِ الْجُرْعَةَ الَّتِي رُفِعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِي إِلَيْهِ الْأَنْصَارُ ؛ فَيُهْدُونَ لَهُ أَمْثَالَهَا إِذَا شَاءَ .

وَمَا زَالَ بِي يُغْرِينِي بِهَا حَتَّىٰ شَرِبْتُهَا

فَلَمَّا شَرِبْتُهَا ؛ جَاءَنِي الشَّيْطَانُ يُنَدِّمُنِي عَلَىٰ مَا فَعَلْتُ وَيَقُولُ :

مَاذَا صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ ؟!!

الْآنَ يَجِيءُ مُحَمَّدٌ فَلَا يَجِدُ شَرَابَهُ ؛ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلَكُ .

وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ بَارِدَةً ، وَكَانَتْ عَلَيَّ شَمْلَةٌ[1] إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَىٰ رَأْسِي بَدَتْ مِنْهَا قَدَمَايَ ، وَإِذَا غَطَّيْتُ بِهَا قَدَمَيَّ انْكَشَفَ رَأْسِي .

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ إِذَا جَاءَ فِي اللَّيْلِ ؛ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُ الْيَقْظَانَ ، وَلَا يُوقِظُ النَّائِمَ .

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّىٰ جَاءَ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ صَلَّىٰ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ...

وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الشَّمْلَةِ .

ثُمَّ تَفَقَّدَ شَرَابَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ ؛ فَرَفَعَ يَدَهُ ...

فَقُلْتُ : الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلَكُ .

لَكِنَّهُ قَالَ (اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي ، وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي) .

---

(١) الشَّمْلَة : كساء يلف علىٰ الجسم لفًّا .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي أَنَا أُطْعِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَفُوزُ بِدَعْوَتِهِ.

فَتَسَلَّلْتُ مِنْ مَكَانِي وَأَخَذْتُ شَفْرَتِي[1]، وَقُلْتُ:

أَذْبَحُ لَهُ وَاحِدَةً مِنَ الْأَعْنُزِ، وَلْيَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ.

ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَىٰ الْأَعْنُزِ وَأَخَذْتُ أَجُسُّهُنَّ لِأَرَىٰ أَيُّهُنَّ أَسْمَنُ؛ فَإِذَا ضُرُوعُهُنَّ قَدْ حَفِلَتْ بِاللَّبَنِ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُنَّ حُلِبْنَ وَشِيكًا.

فَأَخَذْتُ إِنَاءً وَحَلَبْتُ إِحْدَاهُنَّ حَتَّىٰ امْتَلأَ وَعَلَتْهُ الرَّغْوَةُ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ فَشَرِبَ...

ثُمَّ نَاوَلَنِي فَشَرِبْتُ...

ثُمَّ نَاوَلْتُهُ فَشَرِبَ...

ثُمَّ نَاوَلَنِي فَشَرِبْتُ، ثُمَّ ضَحِكْتُ...

فَقَالَ لِيَ: (إِنَّهَا إِحْدَىٰ فِعْلَاتِكَ يَا مِقْدَادُ؛ مَا الَّذِي يُضْحِكُكَ)؟!

فَحَدَّثْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ؛ فَقَالَ: (مَا كَانَتْ إِلَّا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ لَوْ كُنْتَ أَيْقَظْتَ صَاحِبَيْكَ؛ فَأَصَابَا مِنَ اللَّبَنِ الَّذِي شَرِبْنَا مِنْهُ).

فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُبَالِي[2] إِذَا شَرِبْتَ مِنْهُ أَنْتَ، وَشَرِبْتُ أَنَا مِنْ فَضْلَتِكَ[3]؛ أَلَّا يَشْرَبَ أَحَدٌ.

* * *

اسْتَقَرَّ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فِي الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَزَوَّجَ بَعْدُ... فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ[4] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ:

---

(١) الشُّفْرة: المدية أو السكين.

(٢) مَا أُبَالِي: ما أهتم وما أكترث.

(٣) فَضْلَتِكَ: ما بقي أو زاد عن حاجتك.

(٤) عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْف: انظره في الكتاب الرابع من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

مَا لَكَ لَا تَتَزَوَّجُ يَا مِقْدَادُ ؟

فَقَالَ الْمِقْدَادُ

زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ :

ابْنَتِي !!   لَا أُزَوِّجُكَ ابْنَتِي ، وَأَسْمَعَهُ كَلِمَةً لَمْ تُرْضِهِ .

فَقَامَ الْمِقْدَادُ وَهْوَ يَقُولُ   أَمَا زَالَتْ فِينَا بَقِيَّةٌ مِنْ جَاهِلِيَّةٍ ؟!

أَمَا سَوَّىٰ الْإِسْلَامُ بَيْنَ أَبْنَائِهِ ، وَجَعَلَ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ .

ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَفَلَا يُرْضِيكَ أَنْ تُصَاهِرَ رَسُولَ اللَّهِ يَا مِقْدَادُ) .

فَلَمْ يُصَدِّقِ الْمِقْدَادُ أُذُنَيْهِ ، وَقَالَ

بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

وَلَكِنْ مَنْ لِي بِذَلِكَ الشَّرَفِ ؟!

فَقَالَ (أَنَا لَكَ بِهِ) ...

وَزَوَّجَهُ ابْنَةَ عَمِّهِ ضُبَاعَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَغَدَا صِهْرًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَحَسْبُهُ بِذَلِكَ مَجَادَةً وَفَخْرًا .

* * *

ثُمَّ كَانَتْ بَدْرٌ حَيْثُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَنْوُونَ أَنْ يَخُوضُوا حَرْبًا شَامِلَةً ... فَلَمَّا

وَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ نَفْسَهُ مُضْطَرًّا لِخَوْضِهَا ...

كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَنَالَ مُوَافَقَةَ رِجَالِهِ ؛ فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ ...

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَأَحْسَنَ .

وَقَالَ عُمَرُ وَأَحْسَنَ .

لَكِنَّ الْمَوْقِفَ ظَلَّ يَحْتَاجُ إِلَىٰ كَلِمَةٍ حَاسِمَةٍ حَازِمَةٍ تُنْهِي التَّرَدُّدَ وَتَشُدُّ الْعَزَائِمَ ؛ فَكَانَ شَرَفُ هَٰذِهِ الْكَلِمَةِ لِلْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو ...

حَيْثُ تَوَجَّهَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِقَامَتِهِ الْفَارِعَةِ وَصَوْتِهِ الْجَهُورِيِّ ، وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ اِمْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ ...

وَاللَّهِ ! لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ .

وَلَكِنْ نَقُولُ لَكَ : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ... إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ...

وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ! لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَىٰ بَرْكِ الْغِمَادِ[1] لَجَالَدْنَا[2] مَعَكَ مَنْ دُونَهُ ؛ حَتَّىٰ تَبْلُغَهُ .

فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِالْفَرْحَةِ وَقَالَ لَهُ خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .

وَكَانَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو يَوْمَئِذٍ الْمُجَاهِدَ الْوَحِيدَ الَّذِي خَاضَ بَدْرًا عَلَىٰ فَرَسٍ ؛ إِذْ كَانَ الْبَاقُونَ إِمَّا مُشَاةً وَإِمَّا عَلَىٰ الْجِمَالِ ...

فَسَجَّلَ لَهُ تَارِيخُ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَدَا عَلَىٰ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

(١) برك الغماد : موضع في أقصىٰ اليمن.

(٢) لَجَالَدْنَا معك : ضاربناهم بالسيف معك .

تَذَوَّقَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو لَذَّةَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ ... فَآلَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَظَلَّ مُجَاهِدًا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ مَا بَقِيَ سَيْفُهُ مُسْتَمْسِكًا بِيَدِهِ ، وَقَدْ بَرَّ بِقَسَمِهِ .

فَقَدْ رُئِيَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَجْلِسُ عَلَىٰ صُنْدُوقٍ مِنْ صَنَادِيقِ الصَّيَارِفَةِ[2] فِي أَحَدِ أَسْوَاقِ حِمْصَ وَقَدْ كَبِرَتْ سِنُّهُ حَتَّىٰ قَارَبَتْ عَلَىٰ السَّبْعِينَ ، وَتَرَهَّلَ جَسَدُهُ حَتَّىٰ فَاضَ عَنِ الصُّنْدُوقِ ، وَكَانَ سَيْفُهُ فِي حِجْرِهِ .

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ :

مَا تَفْعَلُ هُنَا يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟!

فَقَالَ : أَنْتَظِرُ خُرُوجَ الْغُزَاةِ إِلَىٰ الثُّغُورِ[3]؛ لِأَكُونَ مَعَهُمْ .

فَقَالَ لَهُ : هَلَّا عُدْتَ إِلَىٰ بَيْتِكَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْذَرَ[4] إِلَيْكَ ؛ بَعْدَ أَنْ بَلَغْتَ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغْتَ .

فَقَالَ :

هَيْهَاتَ يَا بُنَيَّ ؛ لَقَدْ أَبَتْ عَلَيْنَا سُورَةُ الْبُعُوثِ [يُرِيدُ سُورَةَ الْأَنْفَالِ] ...

أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا** ...﴾[5]؟!

أَتَجِدُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ اسْتَثْنَانِي ؟

* * *

(١) عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) الصَّيَارِفَة : جمع الصَّيْرَفِيّ ، وهو الصَّرَّاف .
(٣) الثُّغُور : جمع ثغر ، وهو المكان الذي يُخاف منه هجوم العدو .
(٤) أَعْذَرَ إِلَيْكَ : رفع عنك اللّوم والعتاب .
(٥) سورة التوبة آية ٤١.

عَاشَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو حَتَّىٰ بَلَغَ الثَّالِثَةَ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَازِفًا عَنِ الْإِمَارَةِ .

وَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ ...

وَارَتْهُ الْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَةُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لَحْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ

سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ عَادَ إِلَىٰ غِمْدِهِ ...

بَعْدَ طُولِ عَنَاءٍ ...

وَحُسْنِ بَلَاءٍ ... (*) .

(*) للاستزادة من أخبار الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ انظر :
١ - الإصابة : ٣/٤٥٤ «الترجمة» ٨١٨٣.
٢ - الاستيعاب علىٰ هامش الإصابة : ٣/ ٤٧٢.
٣ - أسد الغابة : ٥/ ٢٥١.
٤ تهذيب التهذيب : ١٠/ ٢٨٥.
٥ - صفة الصفوة : ١/ ٤٢٣.
٦ حياة الصحابة : ١/ ٢٨٦، ٢/١٧١ وانظر الفهارس في الجزء الرابع .
٧ الأعلام ومراجعه ٨/ ٢٠٨.
٨ سيرة ابن هشام : ١/ ١١٣، ٢/ ٥، ٣/ ٢٩٤، وانظر الفهارس .

عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ رضي الله عنه

« انْتَدَبَ الرَّسُولُ ﷺ سِتَّةً مِنَ الصَّحَابَةِ لِيَحْمِلُوا كُتُبَهُ إِلَىٰ عُظَمَاءِ مُلُوكِ الْأَرْضِ... وَكَانَ أَحَدَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ »

كَانَتِ السَّنَةُ الْخَامِسَةُ لِلْهِجْرَةِ مِنْ أَشَدِّ السَّنَوَاتِ بَأْسًا فِي الْحَرْبِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

ذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا جُنَّ جُنُونُهَا ؛ حِينَ رَأَتْ كِفَّةَ الْمُسْلِمِينَ تَرْجُحُ[1] عَلَيْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ...

وَأَنَّ الْحَرْبَ غَدَتْ بِالنِّسْبَةِ لَهَا حَرْبَ بَقَاءٍ أَوْ فَنَاءٍ ...

فَجَرَّدَتْ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كُلَّ سِلَاحٍ ؛ بِمَا فِي ذَلِكَ الِاغْتِيَالُ وَالْغَدْرُ ...

وَلَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ غَافِلِينَ عَنْ كَيْدِ قُرَيْشٍ ، وَلَا أَقَلَّ مِنْهَا ضَرَاوَةً وَبَأْسًا .

وَقَدْ كَانَ لِلْعُيُونِ[2] وَالْفِدَائِيِّينَ فِي كِلَا الْمُعَسْكَرَيْنِ شَأْنٌ أَيُّ شَأْنٍ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ؛ وَقَفَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي خَوَاصِّ أَصْحَابِهِ ، وَقَالَ :

(مَنْ يَذْهَبُ إِلَىٰ مَكَّةَ مُتَخَفِّيًا ، وَيُحْدِثُ فِي الْقَوْمِ أَثَرًا تَذْكُرُهُ الْعَرَبُ ، وَيَأْتِينَا بِمَا جَدَّ عِنْدَهُمْ مِنْ أَخْبَارٍ) .

---

(١) كِفَّة المسلمين تَرْجُحُ عَلَيْهَا : أي تزداد قوتهم في مقابلة قوة قريش .

(٢) العيون : الجَوَاسيس .

فَقَامَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ ، وَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ الرَّسُولِ ﷺ وَقَالَ (أَنْتَ لَهَا يَا أَبَا أُمَيَّةَ) .

* * *

كَانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ مِنْ أَنْجَادِ[1] الْعَرَبِ الْمَعْدُودِينَ ؛ جَرِيءَ الْقَلْبِ ؛ ذَكِيَّ الْفُؤَادِ ...

شَدِيدَ الْمِرَّةِ[2] حَاضِرَ الْبَدِيهَةِ .

فَمَا مِنْ عُقْدَةٍ إِلَّا لَهَا عِنْدَهُ حَلٌّ ...

وَمَا مِنْ حَرَجٍ إِلَّا لَهُ عِنْدَهُ مَخْرَجٌ .

مِنْ ذَلِكَ ـ مَثَلًا ـ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَعَثَهُ بِرِسَالَةٍ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ[3] مَلِكِ « الْحَبَشَةِ » ، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ يُؤْوِي الْمُسْلِمِينَ وَيَحْمِيهِمْ ...

فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ مَعَ الدَّاخِلِينَ ؛ وَجَدَ أَنَّ سَقْفَ الْبَابِ الْمُفْضِي إِلَىٰ إِيوَانِ الْمَلِكِ قَدْ جُعِلَ مُنْخَفِضًا كَثِيرًا ؛ حَتَّىٰ لَا يَدْخُلَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ رَاكِعٌ إِعْظَامًا لِلْمَلِكِ ...

فَلَمَّا غَدَا قُبَالَةَ الْبَابِ ؛ انْفَتَلَ ، وَدَخَلَ عَلَىٰ عَقِبِهِ ...

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ الْقَوْمِ ، وَهَمُّوا بِهِ ...

فَقَالَ النَّجَاشِيُّ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْخُلَ كَمَا يَدْخُلُ النَّاسُ ؟!

فَقَالَ : لِأَنَّنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ نُهِينَا عَنْ أَنْ نَرْكَعَ لِغَيْرِ اللَّهِ .

فَقَبِلَ اعْتِذَارَهُ .

---

(١) أنجاد : جمع نجد ، وهو الشجاع الذي يفعل ما يُعجز غيره .

(٢) شديد المِرَّة : شديدة القوة .

(٣) النجاشي انظره في كتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ؛ الناشر دار الأَدب الإسلامي .

وَبِإِيجَازٍ ؛ فَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ أَلْيَقَ النَّاسِ بِهَٰذِهِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا نَفْسَهُ ؛ لَوْلَا عَيْبٌ وَاحِدٌ فِيهِ ؛ هُوَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ جَمِيعًا كَانُوا يَعْرِفُونَهُ لَا بِسِيمَاهُ[1] فَحَسْبُ ... وَإِنَّمَا بِصَوْتِهِ وَمِشْيَتِهِ أَيْضًا .

* * *

أَمَدَّ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَمْرًا بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ؛ فَمَضَىٰ هُوَ وَصَاحِبُهُ قَاصِدَيْنَ مَعَاقِلَ الشِّرْكِ فِي مَكَّةَ ، وَجَعَلَا يُوَاصِلَانِ السَّيْرَ فِي اللَّيْلِ وَيَكْمُنَانِ فِي النَّهَارِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَرَاهُمَا عَيْنٌ مِنْ عُيُونِ قُرَيْشٍ .

وَكَانَا يُمَنِّيَانِ نَفْسَيْهِمَا بِأَنْ يَأْتِيَا بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ قَتِيلًا أَوْ أَسِيرًا .

* * *

فَلَمَّا غَدَوَا قَرِيبَيْنِ مِنْ مَكَّةَ ؛ ارْتَبَطَا جَمَلَهُمَا فِي شِعْبٍ[2] مِنْ شِعَابِهَا الْبَعِيدَةِ وَدَخَلَاهَا مُتَلَفِّعَيْنِ[3] بِأَرْدِيَةِ الظَّلَامِ ...

قَاصِدَيْنِ مَنْزِلَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ .

فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِعَمْرٍو :

يَا أَبَا أُمَيَّةَ ؛ لَيْتَنَا نَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، وَنُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ نَمْضِي لِشَأْنِنَا فَقَدْ يَكُونُ هَٰذَا آخِرَ الْعَهْدِ بِالْبَيْتِ .

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو : إِنَّ مِنْ عَادَةِ قُرَيْشٍ إِذَا تَعَشَّوْا أَنْ يَجْلِسُوا فِي أَفْنِيَةِ بُيُوتِهِمْ ، وَأَكْثَرُهَا مُطِلٌّ عَلَىٰ الْكَعْبَةِ ...

وَالْقَوْمُ فِي حَالَةِ حَرْبٍ ، وَهُمْ مُتَيَقِّظُونَ لِكُلِّ طَارِقٍ .

---

(١) سِيمَاه : علامته وصفته .

(٢) الشِّعب : الطريق في الجبل .

(٣) مُتَلَفِّعَين بأردية الظلام : متخذين من الظلام سترًا كأنه رداء يلبسونه .

فَقَالَ لَهُ الْأَنْصَارِيُّ ـ مُتَوَسِّلًا ـ :

عَزَمْتُ[1] عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ ، وَلَنْ يُصِيبَنَا شَرٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَلَانَ لَهُ عَمْرٌو ، وَمَضَيَا إِلَىٰ الْبَيْتِ ؛ فَطَافَا بِهِ سَبْعًا ، وَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ فِي الْحِجْرِ ...

ثُمَّ خَرَجَا لِشَأْنِهِمَا الَّذِي قَدِمَا مِنْ أَجْلِهِ .

* * *

قَالَ عَمْرٌو :

فَمَا إِنْ أَتْمَمْنَا رَكْعَتَيْنَا ؛ حَتَّىٰ رَأَيْتُ رَجُلًا يُحْدِقُ بِي فِي الْعَتْمَةِ ...

فَلَمَّا عَرَفَنِي قَالَ :

عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ ؟!

وَاللَّهِ مَا قَدِمَ مَكَّةَ إِلَّا لِشَرٍّ[2]، وَأَطْلَقَ صَوْتَهُ يَسْتَصْرِخُ[3] النَّاسَ ...

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : النَّجَاءَ[4] النَّجَاءَ ؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ نَذِرُوا[5] بِنَا ، وَإِنَّهُمْ ـ وَاللَّهِ ـ إِنْ يَظْفَرُوا بِنَا يَجْعَلُوا خَشَبَتَيْ صَلْبِنَا إِلَىٰ جَانِبِ خَشَبَةِ خُبَيْبٍ[6]

وَمَضَيْنَا مُصْعِدَيْنِ فِي الْجَبَلِ ؛ فَإِذَا الْقَوْمُ قَدْ خَرَجُوا فِي طَلَبِنَا مُسْرِعِينَ ، وَكُنْتُ أَعْرَفَ النَّاسِ بِشِعَابِ مَكَّةَ ؛ فَمَا زِلْنَا نَخْرُجُ مِنْ شِعْبٍ وَنَدْخُلُ فِي آخَرَ

---

(١) عَزَمْتُ عَلَيْك : أقسمت عليك .

(٢) ذلك لأن عمرو بن أمية كان معروفًا بشجاعته وفتكه ؛ فكانوا يخافونه ويأخذون حذرهم منه .

(٣) يَسْتَصْرِخُ النَّاس : يصرخ بالناس .

(٤) النَّجَاء : اطلب النجاة .

(٥) نَذِرُوا بنا : عَلِموا بنا .

(٦) انظر خبره في يوم الرجيع : ص ٤٢٩.

حَتَّىٰ أَضَاعُونَا ، وَيَئِسُوا مِنَّا ، وَعَادُوا أَدْرَاجَهُمْ .

* * *

دَخَلْتُ أَنَا وَصَاحِبِي كَهْفًا فِي ذُرْوَةِ الْجَبَلِ ، وَبِتْنَا فِيهِ لَيْلَتَنَا تِلْكَ ...

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ؛ رَأَيْنَا قَرِيبًا مِنَ الْكَهْفِ رَجُلًا يَرْعَىٰ حِصَانًا لَهُ ...

فَلَزِمْنَا مَكَانَنَا وَسَكَنَّا عَنِ الْحَرَكَةِ ؛ لِكَيْ لَا يَشْعُرَ بِنَا ...

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْكَهْفِ وَهَمَّ بِدُخُولِهِ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنْ هُوَ رَآنَا صَاحَ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ مُؤْذِنًا قُرَيْشًا بِمَكَانِنَا ، وَكَانَ مَعِي خِنْجَرٌ ...

فَوَثَبْتُ عَلَيْهِ وَأَغْمَدْتُهُ فِي ثَدْيِهِ ؛ فَصَاحَ صَيْحَةً رَدَّدَتْ صَدَاهَا الشِّعَابُ ؛ فَغَدَتْ صَيْحَاتٍ .

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّىٰ رَأَيْتُ النَّاسَ يَزْحَفُونَ نَحْوَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ ؛ فَعُدْتُ إِلَىٰ مَكَانِي فِي الْكَهْفِ ، وَسَكَنْتُ إِلَىٰ جَانِبِ صَاحِبِي .

فَلَمَّا أَدْرَكُوا صَاحِبَهُمْ وَجَدُوهُ فِي آخِرِ رَمَقٍ ...

فَقَالُوا لَهُ : مَنْ ضَرَبَكَ ؟

فَقَالَ : عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ .

فَقَالُوا : أَيْنَ هُوَ ؟

فَعَاجَلَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَيْنَا

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنَا كُنَّا قَابَ قَوْسَيْنِ مِنْهُمْ أَوْ أَقَلَّ ؛ نَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ وَنُبْصِرُ مَا يَصْنَعُونَ ...

فَإِنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ لِأَيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَلِجَ[1] عَلَيْنَا الْكَهْفَ ...

وَإِنَّمَا انْطَلَقُوا يَبْحَثُونَ عَنَّا وَرَاءَ ذَٰلِكَ .

فَلَمَّا لَمْ يَقِفُوا لَنَا عَلَىٰ أَثَرٍ ؛ احْتَمَلُوا صَاحِبَهُمْ وَمَضَوْا بِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ .

* * *

لَبِثْتُ أَنَا وَصَاحِبِي فِي الْكَهْفِ سَحَابَةَ ذَٰلِكَ النَّهَارِ ؛ فَلَمَّا جَنَّ[2] عَلَيْنَا اللَّيْلُ قُلْتُ لَهُ :

النَّجَاءَ النَّجَاءَ ؛ فَإِنَّ عُيُونَ الْقَوْمِ تَنْفُضُ[3] الْأَرْضَ نَفْضًا بَحْثًا عَنَّا

فَلَمَّا أَخَذْنَا فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ تَذَكَّرْتُ خُبَيْبًا...

وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ ظَفِرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ ، وَصَلَبُوهُ عَلَىٰ خَشَبَةٍ فِي ظَاهِرِ مَكَّةَ ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ حَرَسًا ؛ لِيَرَاهُ النَّاسُ صَبَاحَ مَسَاءَ .

فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَأَنْتَزِعَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَأُوَارِيَنَّهُ .

فَجَعَلْنَا طَرِيقَنَا عَلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي أُقِيمَ فِيهِ ؛ فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْحَرَسِ ؛ قَالَ أَحَدُهُمْ :

وَاللَّهِ ! مَا رَأَيْتُ مِشْيَةً أَشْبَهَ بِمِشْيَةِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ قَبْلَ هَٰذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ أَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ لَقُلْتُ إِنَّهُ هُوَ .

فَتَصَامَمْتُ[4] عَنْ مَقَالَتِهِ كَأَنَّهَا لَا تَعْنِينِي ، وَمَضَيْتُ فِي اتِّجَاهِ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ؛ فَلَمَّا حَاذَيْتُهَا وَثَبْتُ عَلَيْهَا ، وَاقْتَلَعْتُهَا مِنْ مَكَانِهَا ، وَحَمَلْتُهَا عَلَىٰ

(١) يَلِج الكهف : يدخل إليه .
(٢) جَنَّ اللَّيل : أظلم وستر .
(٣) تَنْفُضُ : تنظر لترىٰ ما إذا كان فيه ما تكره .
(٤) فتصاممت : ادعيت الصمم وكأني لم أسمع شيئًا .

عَاتِقِي وَانْطَلَقْتُ بِهَا أَعْدُو عَدْوًا

فَلَحِقَ بِيَ الْحَرَسُ وَمَا زَالُوا يَطْرُدُونَنِي(١) حَتَّىٰ بَلَغْتُ جُرُفًا(٢) تَحْتَهُ مَسِيلُ مَاءٍ عَظِيمٌ ؛ فَأَلْقَيْتُ خُبَيْبًا فِيهِ ...

فَكَفَّ الْحَرَسُ عَنِّي ، وَانْعَطَفُوا إِلَيْهِ لِيُخْرِجُوهُ مِنْهُ ...

فَغَيَّبَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ فَلَمْ يَجِدُوهُ .

* * *

ثُمَّ مَضَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي حَتَّىٰ أَوَيْنَا إِلَىٰ غَارٍ فِي جَبَلِ « صِحْنَانَ » ؛ فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِيهِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا كَهْلٌ أَعْوَرُ ؛ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ

مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟

فَقُلْتُ : مِنْ بَنِي بَكْرٍ ؛ فَمِمَّنْ أَنْتَ ؟

قَالَ مِنْ بَنِي بَكْرٍ أَيْضًا

فَقُلْتُ مَرْحَبًا

ثُمَّ إِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنِ اضْطَجَعَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالْغِنَاءِ ؛ فَقَالَ :

وَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ مَا دُمْتُ حَيًّا وَلَا دَانٍ(٣) لِدِينِ الْمُسْلِمِينَا

فَقُلْت لَهُ فِي نَفْسِي : سَتَعْلَمُ .

ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ ؛ فَلَمَّا نَامَ أَخَذْتُ قَوْسِي ؛ فَجَعَلْتُ أَحَدَ طَرَفَيْهَا فِي عَيْنِهِ الصَّحِيحَةِ ، وَتَحَامَلْتُ عَلَيْهَا بِثِقَلِي كُلِّهِ حَتَّىٰ بَلَغَتْ مِنْهُ الْعَظْمَ .

ثُمَّ أَيْقَظْتُ صَاحِبِي وَقُلْتُ النَّجَاءَ النَّجَاءَ ؛ فَقَدْ أَحْدَثْتُ أَمْرًا

(١) يَطْرُدُونَنِي : يحملون علي وَيَعْدُون خلفي .
(٢) الجُرُف : عُرْض الجبل الأملس
(٣) وَلَا دَانٍ ولا مقترب .

وَمَضَيْنَا مُنْطَلِقَيْنِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا هَبَطْنَا « النَّقِيعَ »[1] عَلَىٰ بُعْدِ لَيْلَتَيْنِ مِنْ يَثْرِبَ ؛ إِذَا نَحْنُ بِرَجُلَيْنِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعَثَتْهُمَا قُرَيْشٌ ؛ لِيَتَحَسَّسَا أَخْبَارَ الْمُسْلِمِينَ .

فَوَتَرْتُ قَوْسِي وَقُلْتُ اسْتَأْسِرَا[2]؛ فَأَبَيَا .

فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمَا بِسَهْمٍ فَخَرَّ صَرِيعًا وَاسْتَأْسَرَ الثَّانِي ؛ فَأَوْثَقْتُهُ رِبَاطًا ، وَقَدِمْتُ بِهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِكُلِّ مَا مَعَهُ مِنْ أَسْرَارٍ وَأَخْبَارٍ ...

فَلَمَّا رَآنَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ أَسْفَرَ[3] وَجْهُهُ وَافْتَرَّ[4] ثَغْرُهُ ، وَقَالَ :

(أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ) .

ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُنِي عَنْ خَبَرِنَا ...

وَطَفِقْتُ أَقُصُّ عَلَيْهِ .

وَهُوَ يَضْحَكُ (*) .

(١) النقيع : موضع ببلاد مزينة عَلَىٰ ليلتين من المدينة .
(٢) استأسِرا : قدما أنفسكما للأسر .
(٣) أَسْفَرَ وَجْهُه : أشرق وجهه .
(٤) افْتَرَّ ثَغْرُه : تبسم .

(*) للاستزادة من أخبار عَمْرو بْنِ أُمَيَّة الضَّمْرِيِّ انظر :
١ - ابن هشام : ٢٧٢/٤ وانظر الفهارس .
٢ - خليفة بن خياط : ٦٢ ٦٣
٣ - أسْدُ الغابة : ١٩٣/٤ أو « الترجمة » ٣٨٥٦ .
٤ - الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء للكلاعي : ٤٩٢/٢ .
٥ - الروض الأنف للسهيلي : ٤٩٥/٧ .
٦ - أنساب الأشراف : انظر الفهارس .
٧ - الإصابة : ٥٢٤/٢ « الترجمة » ٥٧٦٥ .
٨ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٤٩٧/٢ .
٩ - تجريد أسماء الصحابة : ١/ ٤٣١ .
١٠- تهذيب التهذيب : ٨/ ٦ .
١١- ابن كثير : ٤/ ٧٠ و٨/ ٤٦ .
١٢- الجمع بين رجال الصحيحين : ١/ ٣٦٢ .
١٣- الجرح والتعديل : ج٣ ق ١/ ٢٢٠ .
١٤- الطبقات الكبرىٰ : انظر الفهارس .
١٥- سير أعلام النبلاء : ٣/ ١٢٠ .

يَوْمُ الرَّجِيعِ وَاسْتِشْهَادِ السِّتَّةِ الأَبْرَارِ

«صَلَّىٰ الْإِلَـٰهُ عَلَىٰ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأُكْرِمُوا، وَأُثِيبُوا»

[حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ]

فِي أَوَاخِرِ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لِلْهِجْرَةِ؛ قَدِمَ عَلَىٰ يَثْرِبَ وَفْدٌ مِنْ بَنِي خُزَيْمَةَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُعْلِنُونَ الْإِيمَانَ ...

فَأَحْسَنَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتِقْبَالَهُمْ، وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُمْ.

وَفَرِحَ بِهِمُ الصَّحَابَةُ أَجْزَلَ[1] الْفَرَحِ؛ فَأَحَلُّوهُمْ أَهْلًا، وَأَنْزَلُوهُمْ سَهْلًا

وَقَبْلَ أَنْ يَهُمَّ رِجَالُ الْوَفْدِ بِالِانْصِرَافِ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ؛ قَالُوا:

يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ فِي قَوْمِنَا كَثِيرًا مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَحْظَوْا بِمَعْرِفَةِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَسْتَنِيرُوا بِنُورِ الْإِيمَانِ ...

فَلَيْتَكَ تَبْعَثُ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِكَ يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ، وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، وَيُفَقِّهُونَنَا فِي دِينِ اللَّهِ.

فَاسْتَجَابَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ طَلَبِهِمْ، وَاخْتَارَ لَهُمْ سِتَّةً مِنَ الْأَنْصَارِ هُمْ: مَرْثَدٌ الْغَنَوِيُّ، وَخَالِدٌ اللَّيْثِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ، وَزَيْدُ ابْنُ الدَّثِنَّةِ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ[2].

---

(١) أجزل الفرح: أحسن الفرح وأكثره.

(٢) عاصم بن ثابت: انظره في الكتاب السادس من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَتَجَهَّزُوا لِلرَّحِيلِ مَعَهُمْ ، وَالْإِقَامَةِ بَيْنَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُهُ .

* * *

فَرِحَ السِّتَّةُ الْأَخْيَارُ الْأَبْرَارُ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِمَا أُنِيطَ[١] بِهِمْ مِنْ أَمْرٍ ، وَغَبَطَهُمْ[٢] إِخْوَانُهُمْ عَلَىٰ مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنْ أَجْرٍ .

وَكَيْفَ لَا يَفْرَحُونَ وَلَا يُغْبَطُونَ ؟!

فَقَدْ كَانُوا قَبْلَ هَـٰذَا الْيَوْمِ يَتَمَتَّعُونَ بِفَضْلِ نُصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَأَضَافُوا إِلَىٰ ذَلِكَ ثَوَابَ الْهِجْرَةِ لِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ .

* * *

وَدَّعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ النَّفَرَ السِّتَّةَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَوْصَاهُمْ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ مَرْثَدًا الْغَنَوِيَّ[٣] .

ثُمَّ وَدَّعُواهُمْ أَهْلِيهِمْ وَذَوِيهِمْ ، وَأَوْصَوْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبِمَنْ مَعَهُمْ خَيْرًا .

* * *

انْطَلَقَ الْهُدَاةُ الدُّعَاةُ إِلَىٰ اللَّهِ مَعَ وَفْدِ بَنِي خُزَيْمَةَ ، وَخَلَّفُوا وَرَاءَهُمُ الْأَهْلَ وَالسَّكَنَ ...

وَفَارَقُوا الْعَشِيرَ وَالْوَطَنَ .

لَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يَشُقَّ عَلَيْهِمْ ...

وَإِنَّمَا شَقَّ عَلَيْهِمْ مُفَارَقَةُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَالنَّأْيُ[٤] عَنْهُ .

فَمَا كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُطِيقُونَ صَبْرًا عَلَىٰ الْبُعْدِ عَنْهُ ...

---

(١) ناط الشيء بالشيء : علقه عليه ، والمراد أُسنِدَ إليهم .
(٢) الغِبْطَةُ : أن تتمنىٰ مثل حال المغبوط من غير أن تريدَ زوالها .
(٣) ويقال أيضًا أنّ الرسول ﷺ قد أمَّر عاصم بن ثابت عليهم .
(٤) النأي : البُعْدُ .

وَمَا كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يُفَارِقُوهُ مَا امْتَدَّتْ بِهِمُ الْحَيَاةُ ...

* * *

مَضَىٰ الرَّكْبُ يَحُثُّ الْخُطَىٰ نَحْوَ مَنَازِلِ بَنِي خُزَيْمَةَ الْوَاقِعَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ عَسَفَانَ .

وَطَفِقَ الْهُدَاةُ الدُّعَاةُ يَقْطَعُونَ الْفَلَوَاتِ(١) ؛ لِلِقَاءِ الرُّغَّابِ فِي دِينِ اللَّهِ .

فَلَمَّا بَلَغُوا مِنْطَقَةَ الرَّجِيعِ ...

فُوجِئُوا بِأَبْشَعِ غَدْرَةٍ تَتَفَطَّرُ لِفَظَاعَتِهَا الْقُلُوبُ ، وَتَتَشَقَّقُ مِنْ هَوْلِهَا الْأَكْبَادُ .

* * *

كَانَتْ جَمَاعَةُ بَنِي خُزَيْمَةَ الَّتِي وَفَدَتْ عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَدِ ائْتَمَرَتْ(٢) مِنْ جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي هُذَيْلٍ عَلَىٰ أَنْ تَسْتَدْرِجَ لَهُمْ نَفَرًا مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَنْ تُمَكِّنَهُمْ مِنْهُمْ ؛ لِقَاءَ مَبْلَغٍ جَزْلٍ(٣) اتَّفَقُوا عَلَيْهِ .

فَقَدْ كَانَ لِلْهُذَلِيِّينَ أَسِيرَانِ عِنْدَ قُرَيْشٍ ...

فَعَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يُفَادُوا بِبَعْضِ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ ؛ أَسِيرَيْهِمُ الْمُحْتَجَزَيْنِ فِي مَكَّةَ .

ثُمَّ يَبِيعُوا مَا يَزِيدُ مِنْهُمْ لِمَنْ يَرْغَبُ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ لِيَقْتُلُوهُمُ انْتِقَامًا لِمَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِمْ أَوْ أَبْنَائِهِمْ ، أَوْ ذَوِي الْمَكَانَةِ فِيهِمْ فِي بَدْرٍ .

وَلَمَّا حَاذَىٰ الرَّكْبُ مِنْطَقَةَ الرَّجِيعِ فُوجِئَ الصَّحَابَةُ السِّتَّةُ رِضْوَانُ اللَّهِ

---

(١) الفلوات : جمع فلاة ؛ الصحراء .
(٢) ائتمرت : أي أخذت أمرًا .
(٣) مبلغ جزل : مبلغ كبير .

عَلَيْهِمْ بِمُرَافِقِيهِمْ مِنْ بَنِي خُزَيْمَةَ يَتَخَلَّوْنَ عَنْهُمْ ...

وَبِرَهْطٍ(١) مِنَ الْهُذَلِيِّينَ يُطْبِقُونَ عَلَيْهِمْ وَبِأَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ ، وَيُحِيطُونَ بِهِمْ إِحَاطَةَ الْقَيْدِ بِالْمِعْصَمِ .

فَمَا كَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ السِّتَّةِ إِلَّا أَنْ نَزَلُوا عَنْ ظُهُورِ رَوَاحِلِهِمْ ، وَامْتَشَقُوا سُيُوفَهَمْ مِنْ أَغْمَادِهَا ، وَهَمُّوا بِمُقَارَعَةِ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لَهُمْ .

فَقَالَ لَهُمُ الْهُذَلِيُّونَ :

إِنَّنَا أَصْحَابُ هَٰذِهِ الدِّيَارِ ، وَجَمْعُنَا كَثِيرٌ غَفِيرٌ ، وَجَمْعُكُمْ قَلِيلٌ ضَئِيلٌ ...

ثُمَّ إِنَّنَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَا نُرِيدُ بِكُم شَرًّا ، وَلَا نَنْوِي أَنْ نُعَرِّضَكُمْ لِلْقَتْلِ ... وَلَكِنَّنَا نُرِيدُ أَنْ نَكْسِبَ بِكُمْ شَيْئًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ...

وَلَكُمْ عَلَىٰ هَٰذَا عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ .

* * *

أُسْقِطَ(٢) فِي أَيْدِي الرِّجَالِ السِّتَّةِ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَمَا عَادُوا يَدْرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ .

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْلُكُوا فِي هَٰذِهِ الْمِحْنَةِ طَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ...

فَقَدْ آثَرَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ ، وَمَرْثَدٌ الْغَنَوِيُّ ، وَخَالِدٌ اللَّيْثِيُّ الْمَوْتَ الْمُحَقَّقَ عَلَىٰ الِاسْتِسْلَامِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

وَاللَّهِ لَا نَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَهْدًا ، وَلَا نَرْضَىٰ مِنْهُ مَوْثِقًا

ثُمَّ هَبُّوا يُقَاتِلُونَ الْهُذَلِيِّينَ قِتَالًا مُسْتَمِيتًا ؛ حَتَّىٰ خَرُّوا صَرْعَىٰ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ ، وَقَضَوْا شُهَدَاءَ فِي دَقَائِقَ مَعْدُودَاتٍ .

---

(١) الرهط : الجماعة من ثلاثة إلىٰ عشرة .
(٢) أسقط في يديه : ندم وتحير .

وَأَمَّا النَّفَرُ الثَّلَاثَةُ الْآخَرُونَ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُمْ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَّةِ ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ... فَقَدْ وَثِقُوا بِعَهْدِ الْعُصْبَةِ الْغَادِرَةِ مِنْ هُذَيْلٍ ، وَاسْتَسْلَمُوا لَهَا .

* * *

وَلَمَّا عَلِمَتْ هُذَيْلٌ أَنَّ أَحَدَ الْقَتْلَىٰ الثَّلَاثَةِ هُوَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ ؛ فَرِحَتْ بِمَقْتَلِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ عَاصِمًا رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ قَدْ قَتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَارِسَيْنِ أَخَوَيْنِ مِنْ فِرْسَانِ قُرَيْشٍ[1]

فَنَذَرَتْ أُمُّهُمَا سُلَافَةُ بِنْتُ سَعْدٍ إِنْ هِيَ ظَفِرَتْ بِعَاصِمٍ ؛ أَنْ تَشْرَبَ فِي قَحْفِ رَأْسِهِ الْخَمْرَ ، وَجَعَلَتْ لِمَنْ يَأْتِيهَا بِهِ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا مَا يَشَاءُ مِنْ مُنْفِسِ الْمَالِ .

فَقَامَ الْهُذَلِيُّونَ إِلَىٰ عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ ؛ لِيَحُزُّوا[2] رَأْسَهُ ، وَهُمْ يُمَنُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِجَزِيلِ الْعَطَاءِ ...

لَكِنَّهُمْ وَجَدُوا أَنَّ أَسْرَابَ النَّحْلِ وَجَمَاعَاتَ الزَّنَابِيرِ[3] قَدْ أَحَاطَتْ بِجَسَدِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ...

فَكَانُوا كُلَّمَا رَامُوا[4] الِاقْتِرَابَ مِنْهُ ؛ تَصَدَّتْ لَهُمْ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

دَعُوهُ حَتَّىٰ يُقْبِلَ اللَّيْلُ حَيْثُ تَذْهَبُ عَنْهُ النَّحْلُ وَالزَّنَابِيرُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ نَحُزُّ

---

(١) هم الجلاس ومسافع .
(٢) ليحزوا رأسه : ليفصلوا عنه رأسه .
(٣) الزنابير : حشرة كالنحل غير أنَّها لا تنتج العَسَل .
(٤) راموا : أرادوا .

رَأْسَهُ ، وَنَمْضِي بِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ .

* * *

مَا كَادَ يُقْبِلُ الظَّلَامُ عَلَىٰ مِنْطَقَةِ الرَّجِيعِ وَمَا حَوْلَهَا حَتَّىٰ أَرْعَدَتِ السَّمَاءُ وَأَزْبَدَتْ[1] ، وَقَذَفَتْ بِالْمَطَرِ كَأَفْوَاهِ الْقِرَبِ ، وَعَمَّ الْأَبَاطِحَ[2] سَيْلٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ ...

فَحَمَلَ السَّيْلُ عَاصِمًا وَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ لَمْ تَطَأْهَا أَقْدَامُهُمْ مِنْ قَبْلُ ... فَبَحَثُوا عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ فَلَمْ يَعْثُرُوا عَلَيْهِ ...

وَنَقَّبُوا عَنْهُ فِي كُلِّ جِهَةٍ ؛ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ .

فَعَادُوا وَهُمْ يَتَلَظَّوْنَ[3] حَسْرَةً عَلَىٰ ضَيَاعِهِ مِنْهُمْ .

وَكَانَ عَاصِمٌ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ عَاهَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ أَلَّا يَمَسَّ مُشْرِكًا مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ...

وَسَأَلَهُ سُبْحَانَهُ أَلَّا يُتِيحَ لِمُشْرِكٍ سَبِيلًا لِأَنْ يَمَسَّهُ ...

فَحَقَّقَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مَا عَاهَدَهُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَجَابَ لِمَا دَعَاهُ لَهُ .

فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

يَحْفَظُ اللَّهُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ ؛ كَانَ عَاصِمٌ نَذَرَ أَلَّا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ وَأَلَّا يَمَسَّ مُشْرِكًا فِي حَيَاتِهِ ؛ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ كَمَا امْتَنَعَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ .

* * *

انْطَلَقَ الْهُذَلِيُّونَ بِأَسْرَاهُمُ الثَّلَاثَةِ نَحْوَ مَكَّةَ ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنِ انْتَزَعُوا سُيُوفَهُمْ

---

(١) أزبدت : أي أمطرت .

(٢) الأباطح : جمع أبطح وهو المكان المتسع يمر به السيل فيترك الرمل والحصىٰ الصغار .

(٣) يتلظون حسرة : اللظىٰ هو لهب النار الخالص والمراد شدة الحسرة .

الَّتي كَانُوا يَتَقَلَّدُونَهَا ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَىٰ رِمَاحِهِمُ الَّتي كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ .

ثُمَّ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ ، وَقَيَّدُوهُمْ بِهَا

فَنَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ إِلَىٰ الْقُيُودِ الَّتي قَيَّدَتْهُمْ بِهَا هُذَيْلٌ ، وَقَالَ : هَٰذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ .

وَجَعَلَ يَتَرَبَّصُ[1] فُرْصَةً يَسْتَطِيعُ اسْتِنْقَاذَ نَفْسِهِ فِيهَا ؛ فَلَمَّا رَآهُمْ غَافِلِينَ عَنْهُ ...

انْتَزَعَ يَدَيْهِ مِنْ قَيْدِهِ ، وَهَمَّ بِتَخْلِيصِ صَاحِبَيْهِ : زَيْدِ بْنِ الدَّثِنَّةِ ، وَخُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ مِنْ قَيْدَيْهِمَا

لَكِنَّ الْهُذَلِيِّينَ نَذِرُوا[2] بِهِ ؛ فَلَمْ يَقْتَرِبُوا مِنْهُ خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِ وَبَأْسِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ يَنْجُو بِنَفْسِهِ ...

وَإِنَّمَا أَخَذُوا يَرْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّىٰ أَرْدَوْهُ قَتِيلًا ، وَخَلَّفُوهُ فِي مَكَانِهِ .

ثُمَّ مَضَوْا بِزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَّةِ ، وَخُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ حَتَّىٰ بَلَغُوا بِهِمَا مَكَّةَ ، وَعَرَضُوهُمَا عَلَىٰ النَّاسِ .

* * *

هَبَّ الْمَوْتُورُونَ[3] الْحَاقِدُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يُرِيدُ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَظْفَرَ بِالأَسِيرَيْنِ مَهْمَا غَلَا ثَمَنُهُمَا ؛ لِيَقْهَرُوا بِهِمَا مُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَيَثْأَرُوا مِنْهُمَا لِقَتْلَىٰ بَدْرٍ .

ثُمَّ تَبَارَوْا فِي دَفْعِ غَالِي الأَثْمَان بِهِمَا ؛ فَقَامَ إِلَيْهِمْ أَحَدُ سَادَةِ قُرَيْشٍ وَقَالَ :

---

(١) يتربص فرصه　ينتظر فرصة .
(٢) نذروا به : علموا به .
(٣) الموتور : من قتل له قتيل ولم يأخذ بثأره .

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ لَا تَتَنَافَسُوا عَلَىٰ هَـٰذَيْنِ الْأَسِيرَيْنِ وَتُغَالُوا فِي ثَمَنَيْهِمَا ؛ وَإِنَّمَا اتْرُكُوهُمَا لِمَنْ كَانَ لَهُ ثَأْرٌ عِنْدَهُمَا ؛ فَهْوَ أَوْلَىٰ بِهِمَا مِنْ سِوَاهُ ، وَأَجْدَرُ بِأَخْذِهِمَا مِنْ غَيْرِهِ .

* * *

اشْتَرَىٰ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ زَيْدَ بْنَ الدَّثِنَّةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِثَمَنٍ غَالٍ ؛ لِيَقْتُلَهُ بِأَبِيهِ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ(١)

وَاشْتَرَىٰ أَوْلَادُ الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ خُبَيْبًا رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ لِيَقْتُلُوهُ بِأَبِيهِمُ الَّذِي أَرْدَاهُ قَتِيلًا فِي بَدْرٍ ، وَدَفَعُوا بِهِ لِلْهُذَلِيِّينَ ثَمَنًا فَاحِشًا

* * *

لَمْ يَصْبِرْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ طَوِيلًا عَلَىٰ أَسِيرِهِ ؛ لِمَا كَانَ يَتَّقِدُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ مِنْ كُرْهٍ لِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَعَجَّلَ بِهِ لِيَرْوِيَ ظَمَأَ قُرَيْشٍ إِلَىٰ الثَّأْرِ مِنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ فِي شَخْصِهِ ، وَلِيُقِرَّ عُيُونَ قَوْمِهِ بِمَشْهَدِ قَتْلِهِ .

وَقَدْ عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَقْتُلَهُ فِي مِنْطَقَةِ التَّنْعِيمِ(٢)، وَيَرْمِيَ بِجُثَّتِهِ هُنَاكَ لِتَعْبَثَ بِهَا الْكِلَابُ السَّارِحَةُ ، وَتَشْبَعَ مِنْهَا الطُّيُورُ الْجَارِحَةُ .

وَحَدَّدَ لِذَلِكَ مَوْعِدًا ، وَأَذَاعَهُ فِي مَكَّةَ .

* * *

لَمْ يَكَدْ صَبَاحُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ يَتَنَفَّسُ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ ؛ حَتَّىٰ كَانَ الْمَوْتُورُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، وَالْحَاقِدُونَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدَعْوَتِهِ ، وَالْغَوْغَاءُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ يَزْحَفُونَ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ نَحْوَ مِنْطَقَةِ التَّنْعِيمِ ؛

(١) أمية بن خلف : أحد جبابرة قريش ؛ كان يعذب بلالًا رضي الله عنه ؛ قُتِل في بدر وهو على الشرك .
(٢) التنعيم : مكان كان في أطراف مكة وقتها ، وهو مكان إحرام أهل مكة للحج والعمرة ؛ يسمى الآن مسجد عائشة .

خَارِجَ حُدُودِ الْحَرَمِ ... وَهُمْ يَسُوقُونَ أَمَامَهُمْ أَسِيرَهُمُ الْمُكَبَّلَ[1] بِالْقُيُودِ لِيَقْتُلُوهُ هُنَاكَ عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ ... وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ جَمِيعًا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ .

* * *

أُعِدَّ زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَّةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِلْقَتْلِ ، وَرُفِعَ عَلَىٰ نَشَزٍ[2] مِنَ الْأَرْضِ لِيَشْهَدَ مَصْرَعَهُ الْكِبَارُ وَالصِّغَارُ .

فَاسْتَقْبَلَ الْمَوْتَ بِجَنَانٍ ثَبْتٍ ، وَوَجْهٍ طَلْقٍ ، وَهُنَا تَقَدَّمَ مِنْهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَقَالَ :

أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا زَيْدُ ؛ أَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ فِي مَكَانِكَ هَٰذَا ، وَأَنْ تُضْرَبَ عُنُقُهُ بَدَلًا مِنْكَ ، وَأَنْ نُخَلِّيَ سَبِيلَكَ فَتَمْضِيَ آمِنًا مُطْمَئِنًّا إِلَىٰ أَهْلِكَ ؟

فَابْتَسَمَ زَيْدٌ وَقَالَ :

وَاللَّهِ ! مَا أُحِبُّ أَنْ تُصِيبَ مُحَمَّدًا شَوْكَةٌ فَتُؤْذِيَهُ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَأَنْ تُخَلُّوا سَبِيلِي لِقَاءَ ذَلِكَ وَأَجِدَنِي آمِنًا مُطْمَئِنًّا بَيْنَ أَهْلِي ...

فَاشْتَدَّ غَضَبُ النَّاسِ لِقَوْلِهِ ، وَعَلَا صِيَاحُهُمْ :

أَنِ اقْتُلُوهُ ... اقْتُلُوهُ ...

أَمَّا أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ

وَاللَّهِ ! مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يُحِبُّ أَحَدًا ؛ كَمَا يُحِبُّ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا

ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ فَدَقُّوا عُنُقَهُ ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ نَبِيَّهُ وَصَفِيَّهُ

---

(١) الْمُكَبَّل : الْمُقَيَّد .

(٢) نشز من الأرض : مرتفع من الأرض .

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ زَيْدِ بْنِ الدَّثِنَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ، أَمَّا صَاحِبُهُ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ فَإِلَيْكَ خَبَرَهُ ...

* * *

أَلْقَى بَنُو الْحَارِثِ خُبَيْبَ بْنَ عَدِيٍّ فِي غَيَابَةِ[١] السِّجْنِ فِي بَيْتِهِمْ ، وَأَطَالُوا سَجْنَهُ ... فَقَضَىٰ أَيَّامَهُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ صِيَامٍ ، وَقِيَامٍ ، وَتِلَاوَةٍ .

فَمَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ بَنَاتُ الْحَارِثِ وَإِمَاؤُهُنَّ[٢] فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ؛ إِلَّا وَجَدْنَهُ إِمَّا رَاكِعًا ، أَوْ سَاجِدًا ...

وَإِمَّا قَارِئًا لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمْعِ .

فَرَقَّتْ لَهُ قُلُوبُهُنَّ ، وَكِدْنَ يَنْسَيْنَ أَنَّهُ قَتَلَ أَبَاهُنَّ فِي بَدْرٍ .

* * *

حَدَّثَتْ عَنْهُ إِحْدَاهُنَّ بَعْدَ إِسْلَامِهَا ؛ قَالَتْ

حُبِسَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ فِي بَيْتِنَا ؛ فَلَمَّا عَزَمَ الْقَوْمُ عَلَىٰ قَتْلِهِ ؛ سَأَلَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ سِكِّينًا يَحْلِقُ بِهَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْلِقَهُ الْمُسْلِمُ مِنْ شَعْرِهِ ، وَيَتَنَظَّفُ لِلْقَتْلِ ؛ فَأَجَبْتُهُ إِلَىٰ طَلَبِهِ .

ثُمَّ إِنِّي غَفَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ صَغِيرٍ لِي ؛ فَدَرَجَ نَحْوَهُ ، وَجَلَسَ فِي حِجْرِهِ .

فَمَا رَاعَنِي[٣] إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ السِّكِّينَ فِي يَدِهِ ، وَالْغُلَامَ جَالِسًا عَلَىٰ فَخِذِهِ ... وَقُلْتُ :

مَاذَا صَنَعْتُ ؟!

(١) في غيابة السجن : غيابة كل شيء قعره والمراد أسوأ سجن .

(٢) الأمة : المرأة عمومًا والعبدة خصوصًا .

(٣) راعني : هالني وخوفني .

لَقَدْ أَصَابَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ثَأْرَهُ بِقَتْلِ غُلَامِي قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ ...

وَفَزِعْتُ فَزَعًا رَآهُ عَلَىٰ وَجْهِي .

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ فِي حُنُوٍّ وَرِفْقٍ ، وَقَالَ :

أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَفْجَعَكِ بِغُلَامِكِ هَٰذَا ؟!

وَاللَّهِ ! مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا :

إِنَّنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ لَا نُلْحِقُ الْأَذَىٰ بِغُلَامٍ صَغِيرٍ ، أَوْ شَيْخٍ مُعَمَّرٍ كَبِيرٍ ، أَوْ رَاهِبٍ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْعِبَادَةِ .

وَإِنَّمَا نُقَاتِلُ مَنْ عَدَا عَلَيْنَا ، وَعَمِلَ عَلَىٰ إِخْرَاجِنَا عَنْ دِينِنَا

ثُمَّ قَالَتْ :

وَاللَّهِ ! مَا أَحْسَبُ أَنَّ أَسِيرًا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ خُبَيْبٍ ...

لَقَدْ رَأَيْتُهُ ـ وَاللَّهِ ـ يَأْكُلُ مِنْ عُنْقُودِ عِنَبٍ كَبِيرٍ مَا وَقَعَتْ عَيْنَايَ عَلَىٰ مِثْلِهِ قَطُّ ، وَمَا فِي أَرْضِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ عِنَبٌ يُؤْكَلُ ...

وَكَانَ خُبَيْبٌ آنَذَاكَ مُقَيَّدًا بِالْحَدِيدِ ...

وَمَا كَانَ هَٰذَا الْعِنَبُ إِلَّا رِزْقًا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ .

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ بَنُو الْحَارِثِ عَلَىٰ قَتْلِ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَذَاعُوا ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ ؛ خَرَجَتْ مَكَّةُ بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا[1] إِلَىٰ مِنْطَقَةِ التَّنْعِيمِ لِتَشْهَدَ مَصْرَعَ أَسِيرِهَا الثَّانِي .

(١) قضُّها وقضيضها : جميعها .

فَلَمَّا قَرَّبَتْهُ قُرَيْشٌ لِلْقَتْلِ ... قَالَ لِكُبَرَائِهَا :

إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَدَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ؛ فَافْعَلُوا .

فَرَقَّ لَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَقَالَ :

دُونَكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْكَ ...

فَرَكَعَ خُبَيْبٌ أَتَمَّ رَكْعَتَيْنِ وَأَحْسَنَهُمَا

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْقَومِ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ ! لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَطَلْتُ صَلَاتِي جَزَعًا[1] مِنَ الْقَتْلِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلَاةِ .

* * *

رَفَعَ الْقَومُ خُبَيْبَ بْنَ عَدِيٍّ إِلَىٰ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ، وَأَحْكَمُوا شَدَّهُ عَلَيْهَا ...

وَلَمَّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ ؛ قَالَ :

اللَّهُمَّ ! إِنَّا قَدْ بَلَّغْنَا رِسَالَةَ نَبِيِّكَ ؛ فَبَلِّغْهُ الْغَدَاةَ[2] مَا يُصْنَعُ بِنَا ...

ثُمَّ دَعَا عَلَىٰ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ؛ فَقَالَ :

اللَّهُمَّ ! أَحْصِ[3] كُفَّارَ قُرَيْشٍ عَدَدًا ، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا[4]، وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو سُفْيَانَ دُعَاءَهُ ؛ أَلْقَىٰ ابْنَهُ مُعَاوِيَةَ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَرَقًا[5] مِنْ دَعْوَتِهِ ؛ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

---

(١) جزعًا من القتل: خوفًا وهلعًا منه .
(٢) الغداة : غدًا .
(٣) أحصهم عددًا : انتقم منهم واحدًا بعد واحد ولا تترك منهم أحدًا .
(٤) اقتلهم بددًا : اقتلهم قتل إبادة .
(٥) فرقًا من دعوته خوفًا وخشيةً من أن تصيبه .

ثُمَّ قَتَلُوهُ ...

فَلَحِقَ خُبَيْبٌ بِإِخْوَتِهِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ ...

وَمَضَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار الستة الأبرار انظر
١ - السيرة لابن هشام : «انظر الفهارس».
٢ - ديوان حسان بن ثابت وشروحه فيه مرات قيلت عاصم وأصحابه.
٣ - حياة الصحابة : «انظر الفهارس في الرابع».
٤ - صفة الصفوة : «انظر الفهارس».
٥ - تاريخ الطبري : «انظر الفهارس في العاشر».
٦ - المحبر في التاريخ : ١١٨
٧ - الإصابة : ٢٤٤/٢ أو «الترجمة» ٤٣٤٧ عاصم.
٨ - الاستيعاب بهامش الصحابة : ١٣٢/٣ عاصم.
٩ - أسد الغابة : الترجمة ٢٦٦٣ عاصم.
١٠ - الإصابة : ٣٩٨/٣ أو «الترجمة» ٧٣٧٨ مرثد.
١١ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤٢٩/٣ مرثد.
١٢ - الإصابة : ٤٠٢/١ أو «الترجمة» ٢١٤٨ خالد.
١٣ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤٠٥/١ خالد.
١٤ - الإصابة : ٣٢٩/٢ أو «الترجمة» ٤٧٦٩ عبد الله.
١٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٣١٣/٢ عبد الله.
١٦ - الإصابة : ٥٦٥/١ أو «الترجمة» ٢٨٩٨ زيد.
١٧ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٥٥٤/١ زيد.
١٨ - الإصابة : ٤١٨/١ أو «الترجمة» ٢٢٢٢ خبيب.
١٩ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤٢٩/١ خبيب.

هذا الكتاب

يعرض صوراً من حياة مجموعة من نجوم الهداية التي نشأت في أحضان المدرسة المحمدية، بأسلوب جمع بين البلاغة الأدبية، والحقيقة التاريخية... فيجد طالب الأسلوب الإنشائي في هذا الكتاب بغيته، وناشد الفن القصصي طلبته، والساعي إلى التأسي بالكرام ما يرضيه ويغنيه، والباحث عن الحقيقة التاريخية ما يفي بغرضه.

الناشر

داخل الكتاب بطاقة دعوة إلى فتح حوار مباشر بين القارئ والناشر

